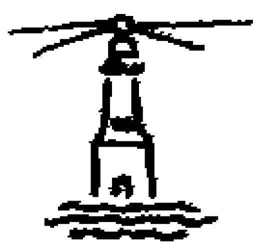
عبد العزيز على

الثائر الصامت



دار المعارف

اهداءات ٢٠٠١

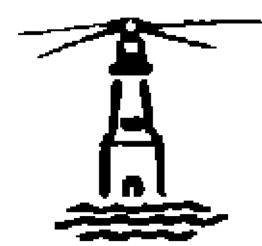
أد. محمـــــد ديـــــاب

جراح بالمستشفى الملكي المصرى

الثائرُ الصَامِتُ

عبد العزيز على

الثائر الصامت



دار المعارف

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف .

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

تقـديم

عرفت مصر خلال تاريخها الحديث أسلوب النضال السرى وخاصة خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . ولقد يعزى ذلك – فيما يعزى – إلى أن بناءها الاقتصادى الاجتماعى ونظامها السياسى ووعيها الفكرى كان قد شهد خلال نفس القرن تغيرات واسعة المدى لم يكن لمصر عهد بها من قبل . الأمر الذى أدى إلى بروز قوى جديدة بمثل وأفكار جديدة حاولت أن تتصدى للقوى القديمة التى ظلت تلعب الدور الأساسى طوال فترة الحكم العثمانى . . بل طوال فترة تاريخها الوسيط على امتداده . .

ومن هنا فقد لجأت تلك القوى الجديدة إلى اصطناع أساليب وطرائق متعددة لتحقيق غاياتها بالقدر الذى سمح به نظام الحكم والقائمون عليه . ولما لم تسعفهم تلك الأساليب لجأوا – فيما لجأوا – إلى اتخاذ العمل السرى وسيلة للمقاومة وأسلوباً لتحقيق الأهداف .

فليس مصادفة أن يخرج الحزب الوطنى المصرى الأول من جمعية سرية اتخذت من حلوان مستقراً لها ومجالا للعمل . . فى مواجهة استبدادية الخديو إسماعيل وحاشيته بعد أن كان معظم أعضائه قد وصلوا إليها مرورا بمرحلة أخرى من مراحل العمل السرى عند ما شاركوا فى نشاط المحافل الماسونية المختلفة فى مصر .

كما أنه ليس من قبيل المصادفات أن تتخذ أول نواة لمقاومة الاحتلال البريطانى فى الفترة التى تلت مباشرة نزوله أرض وادى النيل . . العمل الفدائى السرى وسيلة وأسلوبا . وهى «الجمعية الوطنية المصرية» المعروفة «بجمعية الانتقام» والتى كان هدفها تحرير الوطن وطرد الإنجليز من مصر» والتى قبض على أعضائها فى ٢٠ يونية سنة ١٨٨٣ [(١)] .

كما أنه ليس مصادفة كذلك أن مصطفى كامل – الزعيم الوطنى الذى قاد العمل السياسى فى مطلع القرن العشرين وأسس رسميًّا «الحزب الوطنى» فى أواخر عام ١٩٠٧ – كان قد مر – هو وغيره من المصريين – فى بداية مراحل نشاطه السياسى خلال التسعينيات من القرن الماضى بمرحلة من مراحل العمل السرى . . عندما حاول الخديو الشاب عباس حلمى الثانى أن يتصدى للاحتلال وعميده كرومر لافتئاته على حقوقه وسلطاته الشرعية . . فراح عباس حلمى يجمع حوله نفراً من خيرة الشباب الوطنى . . لاستخدامهم فى الوقوف فى وجه الاحتلال .

(١) راجع وثائق الثورة العرابية . محافظ ١٩ – ٣٣ – ٤٠ المودعة بدار الوثائق التاريخية القومية بالقلعة .

وربما كان نفس الدافع هو الذى كان وراء قيام قيادات الحركة الوطنية . . ممثلة فى الحزب الوطنى . . بإنشاء أول جمعية سرية لمقاومة الاحتلال عام ١٩٠٦ التى عرفت باسم «جمعية التضامن الأخوى» والتى كانت النواة التى تخلق منها النشاط السرى فى مصر خلال الربع الأول من القرن العشرين على أقل تقدير . تلك الجمعية التى ضمت نفراً من خيرة الشباب المصرى وأنشأت لها فروعا متعددة ، كان أشهرها فرع الجمعية بالإسكندرية . وقد قامت الجمعية بتنفيذ أول حادث اغتيال سياسى فى تاريخ مصر المعاصر فى فبراير ١٩١٠ عندما نجح الشاب إبراهيم ناصف الوردانى – عضو الجمعية – فى اغتيال بطرس غالى رئيس النظار لأسباب سياسية خالصة . كما أن الجمعية نفسها هى التى قامت خلال الحرب الأولى بعديد من محاولات الاغتيال . . السياسى شملت رأس الأسرة الحاكمة والنظار المصريين .

وربما نستطيع القول . . دون مبالغة . . أن هذه الجمعية – وإن كان قد انفرط عقدها القديم وشهدت تشكيلا جديدا منذ مطلع عام ١٩١٩ – تعد مسئولة عن القيام بمعظم عمليات الاغتيال السياسى التى شهدتها مصر فى أعقاب ثورة مارس ١٩١٩ التى لم تقتصر هذه المرة على المسئولين المصريين بل تعدتها إلى القيادات البريطانية فى مصر مدنية كانت أو عسكرية . وقد كان اغتيال سيرلى ستاك السردار البريطانى للجيش المصرى فى نوفمبر ١٩٢٤ آخر حلقاتها . ولا تستمد تلك الحادثة أهميتها فقط من كونها أصابت الكبرياء البريطانى فى الصميم عندما نجحت فى النيل من أحد كبار قادته . وإنما ترجع – فيما ترجع – إلى أنها وضعت حداً – إلى حين – لذلك الأسلوب السرى الفدائى الذى لجأ إليه قطاع من قطاعات الحركة الوطنية المصرية خلال هذه المرحلة الهامة من تاريخ مصر . عندما كشفت السلطات المحلية – وخاصة البريطانية النقاب عن قادة ومنظمى العمل الفدائى السرى الذى ظل يهدد الوجود البريطانى ويقض مضجعه طيلة الحقبة الماضية .

وإذا كان البعض يرى أن هذا الأسلوب الذى اصطنعه ذلك القطاع من الحركة الوطنية إنما يعد دليلا على عدم جماهيرية القائمين به وأهدافهم وبرامجهم . . ومن هنا فقد وسموه بالأساليب «الإرهابية» ، إلا أن ذلك الوصف لا يفى بحق التحليل العلمى السليم . . فالذى لا جدال فيه أن اتخاذ هذا الأسلوب لم يكن نزوة طائشة لنفر من المصريين . . بقدرما كان نتاجا طبيعيا لظروف موضوعية فرضت نفسها على المشتغلين بالعمل الوطنى ثلاث مرات :

الأولى : عندما أيقن الوطنيون – خلال الحقبة الأولى من القرن العشرين – إنهم بقوتهم الذاتية المحدودة لن يستطيعوا مجابهة الاحتلال وأدواته مجابهة علنية . خاصة بعد أن فقدوا الأمل فى أن يأتيهم عون داخلى أو خارجى من ناحية . ومن ناحية أخرى عندما تصدت لهم السلطتان – الفعلية والشرعية فى البلاد – واستنكرت عليهم حتى تلك المجابهة «العلنية» المحدودة . فراحت تستصدر القوانين

والقرارات التى جردتهم – أو كادت – من مؤيديهم وظهيرهم .

والثانية : عندما حكمت مصر حكما عسكريًّا عرفيًّا خلال الحرب الأولى وجردتها سلطات الاحتلال من كل صور التعبير العلنية وأدوات النضال المباشر سواء بالقول أو بالفعل .

والثالث : عندما أفلست – أو كادت – قيادات العمل السياسى التى تصدرت قيادة ثورة الشعب القومية فى مارس سنة ١٩١٩ وراحت تتراشق التهم فيما بينها حينا أو يمالئ بعضها الاحتلال بشكل سافر أحياناً . . أو بإبعاد البعض الآخر عن ساحة النضال قسراً حيناً ثالثاً .

لكل ذلك وغيره فإن تلك القيادات السياسية التى توسلت بهذا الأسلوب السرى الفدائى قد وجدت نفسها أمام خيار وحيد لا بديل له . . ومن هنا فإنه لم يعد من العدل الاسترسال وراء تلك المزاعم التى يحلوا لنفر من المشتغلين بالكتابة التاريخية أن يلصقوها بها .

ولهذا فلا جدال – فى تقديرى – فى أن تصريح فبراير ١٩٢٢ والمكاسب الأخرى التى حصل عليها الشعب المصرى من خلال ثورته القومية فى ١٩١٩ تعزى – فيما تعزى – إلى صلابة ذلك القطاع من قيادات الحركة الوطنية الذى اتخذ من العمل الفدائى السرى منهجاً له وأسلوباً . . إذ ليس مصادفة أن ذلك التصريح وما تلاه من نتائج قد صدر بعد أن ترهلت قيادات الثورة وتفرق شملها وكلمتها وأهدافها ، ولم يكن من شىء فى تقديرى ، قد أجبر اللنبى المندوب السامى البريطانى والقائد العسكرى ذائع الصيت – على أن يتحدى وزير خارجيته فى لندن ليجبره على الموافقة معه على إصدار ذلك التصريح – الذى جاء كأول اعتراف رسمى من بريطانيا «العظمى» بمشروعية الاستقلال المصرى – مهما يقل فى حجم ذلك الاستقلال . أقول لم يكن من شىء ليجبر اللنبى على ذلك إلا صلابة العمل الفدائى السرى وتعاطفه إلى الحد الذى بات يهدد – ليس فقط البريطانيين والجاليات الأجنبية فى مصر . . بل كذلك الوجود البريطانى برمته . . ولهذا فقد يكون مناسباً أن نطرح فكرة إعادة تقويم تصريح فبراير ١٩٢٢ والنظر إليه فى ضوء هذه الحقائق الجديدة . . وعدم الوقوف عند حد تلك المزاعم السياسية التى طالما روجها خصوم ذلك التصريح آنذاك . . على اعتبار أن ذلك التصريح كان ولا شك كسباً حقيقيًّا للشعب المصرى انتزعه من بين أنياب الأسد البريطانى بصلابته وفدائيته .

وإذا كانت النهاية التى انتهى إليها العمل الفدائى السرى والتى أصابت الحركة الوطنية فى مقتل . . بارتكاب حادث مقتل السردار فى نوفمبر ١٩٢٤ ، ليس فقط قد أطاحت بوزارة الشعب التى كان يرأسها سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ وقائد الجماهير المصرية ، بل وأهم من ذلك كشف خلايا العمل السرى فى مصر . كما مر بنا . . والتى ظلت بعيدة عن أعين السلطات وعلمهم لفترة طويلة . . مما نجم عنه التنكيل بالقائمين بها ، بل تصفيتها . . فإن ذلك كله ربما لا يرجع إلى خطإ فى ذلك النوع من أساليب العمل أو إلى قصور ذاتى فيه بقدر ما يعزى إلى عنف وضراوة الاحتلال البريطانى . . وضعف

القيادات الرسمية المصرية . كما يعزى أيضا إلى أن أحد المصريين من ضعاف النفوس قد وضع نفسه طائعاً مختاراً تحت خدمة الاحتلال وممثليه . . فكشف بذلك النقاب للمرة الأولى عن تشكيلات العمل السرى ورجاله بعد أن عجزت كل السلطات سواء البريطانية أو المصرية عن التعرف عليها أو الوصول إليها . . الأمر الذى أودى بحياة صفوة نادرة من خيرة شباب الأمة وأبنائها وشل حركتها لفترة قادمة .

واليوم يطيب لى ويشرفنى حقا أن عهد إلىّ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر القيام بمعاونة الأستاذ عبد العزيز على فى كتابة مذكراته ومراجعتها وتقديمها . . وهو الذى يعد بحق رائد العمل الفدائى السرى فى مصر طوال النصف الأول من القرن العشرين . . والذى لعب دوراً بارزاً فى خلق تلك التنظيمات السرية وخاصة منذ عام ١٩١٤ وما تلاها .

والأستاذ عبد العزيز على – أطال الله فى عمره – غنى عن التعريف – فهو أحد قيادات الحزب الوطنى المبرزين . . والذى شغل منصبا وزاريا خلال الفترة ما بين ٧ سبتمبر ١٩٥٢ وديسمبر من نفس العام كوزير للشئون البلدية والقرية – فى أول وزارة مدنية شكلت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ . كتقدير للدور البارز الذى لعبه فى تنظيم وتخطيط وتنفيذ العمل السرى فى مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين . . والذى كان له دور كبير فى تشكيل الخلايا السرية فى مطلع الأربعينيات – باعتراف الرئيس أنور السادات أحد قادة ثورة ٢٣ يوليو والتى أسفرت فى النهاية عن قيام جماعة « الضباط الأحرار » الذين قادوا حركة يولية ١٩٥٢ .

وقد قمت بالتعاون مع سيادته بمراجعة وتحقيق مذكراته الشخصية – التى نضع القسم الأول منها اليوم بين أيدى القراء والتى تتناول تاريخ حياته ودوره فى العمل السرى حتى عام ١٩٥٢ والتى سيعقبها القسم الثانى من المذكرات . . ويتناول الفترة اللاحقة منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٧٥ . . وقد استغرق عملى فى هذه المذكرات فترة نصف عام منذ نوفمبر ١٩٧٥ حتى مايو ١٩٧٦ .

وأود هنا أن أشير إلى الدور الكبير الذى قام به من سبقونى فى معاونة سيادته فى كتابة هذه المذكرات بل فى دفعه – على تردده الشديد – إلى تدوينها – ويقف فى مقدمة هؤلاء أستاذى الدكتور محمد أحمد أنيس عندما كان يتولى مسئولية الإشراف على مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر – وكذلك محمود زهدى الباحث بالمركز الذى دأب على الالتقاء بالأستاذ عبد العزيز على فترة ليست بالقليلة انتهى مع سيادته خلالها بكتابة المذكرات فى شكلها الأول . . وقمت معه بعد ذلك بضبط وتحقيق ومراجعة كل ما كتبنا مراجعة علمية حرصت خلالها على أن أحتفظ للمذكرات بشكلها وأسلوبها ومادتها دون ما تدخل من جانبى ، اللهم إلا فى تصحيح أو ضبط أو تحديد عندما كان يستلزم الأمر ذلك ، كما أنى من ناحية أخرى قمت بإجراء العديد من التحقيقات التاريخية مع سيادته حول قضايا تاريخية بعينها استكمالا للموضوع وتوضيحاً لبعض جوانبه حتى تكتمل الصورة ويستقيم البناء التاريخى .

وأود أن أشيد فى هذا الصدد بوطنية الاستاذ عبد العزيز على الصادقة وإيمانه المطلق وسعة علمه ومداركه ورحابة صدره وشمولية نظراته التى كانت جميعها مسئولة عن نجاته . . دون غيره من القائمين بالعمل السرى الفدائى وخاصة فى العشرينيات – من الشنق أو الإعدام – واحتفظت لنا به ليلقى أضواء كاشفة على العمل السرى الفدائى بشكل دقيق وعلمى وصادق للمرة الأولى .

كما أرجو أن أوضح أن الأستاذ عبد العزيز على عندما كتب مذكراته – أو بمعنى أدق ذكرياته – قد كتبها برؤيته هو من منظور عضو فى الحزب الوطنى – ولا يزال يؤمن عن يقين – بأفكاره وبرامجه وأساليبه . . ومن هنا فقد يجد القارئ بين ثنايا المذكرات ثمة وجهات نظر ذاتية قد يختلف معها أو لا يوافق عليها . . غير أنه تجدر الإشارة من ناحية أخرى إلى أن ذلك لم يحل دون أن تلتزم المذكرات فى مجموعها بالتحليل الموضوعى والنظرة الشمولية والرؤية الصادقة لفترة من أخصب فترات نضالنا الوطنى وصفحة مشرقة من صفحات تاريخ الأمة المصرية – أضفى عليها صاحب المذكرات من روحه وإخلاصه ووطنيته ما جعلها صفحة حية تنبض . . ودرساً فى الوطنية لأجيال قادمة .

ولا يفوتنى أن أنوه بالشكر للقائمين على مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر وخاصة مديره الأستاذ عبد الحميد سليم وكذلك الأستاذ الدكتور محمود الشنيطى وكيل وزارة الثقافة لاحتضانهما فكرة تحقيق ونشر مذكرات القادة والزعماء والساسة ورجال الحكم فى مصر الذين لعبوا أدواراً متفاوتة فى تاريخها الحديث والمعاصر لتسهم مع غيرها من المصادر التاريخية فى كتابة ذلك التاريخ كتابة علمية موضوعية . . ومن محاسن المصادفات أن تكون مذكرات الأستاذ عبد العزيز على باكورة هذا المشروع العظيم الذى تبنته وزارة الثقافة ويتولى تنفيذه مركز وثائق تاريخ مصر المعاصر .

فإذا كنا قد وفقنا فذاك حسبنا ، ، ،

مدينة نصر فى ١ / ٥ / ١٩٧٦

دكتور

(عبد الخالق محمد لاشين)

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة لابد منها :

كم من مرة طلب إليّ – قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وبعدها – أن أكتب سيرة حياتى ومذكراتى وخصوصا عن الجهاز السرى بمصر . وكان ردى على الطالبين فى كل مرة أن الظرف المناسب للكتابة لم يحن بعد وأن الكتابة وحدها قد لا تأتى بالثمرة المرجوة . وإنى أفضل – لو أمكن – العمل من جديد على تكوين نواة جديدة صالحة من الفدائيين ممن لا غنى للوطن عنهم فى كل عصر . . مع علمى التام بثقل المهمة الخطيرة بل صعوبتها لما تتطلبه من جهد مرير ووقت طويل فما أشق البناء من الهدم .

إلى أن نشرت مجلة المصور فى أبريل ١٩٧٢ بعضاً من مذكرات الحاج أحمد رمضان زيان عضو جمعية التضامن الأخوى السرية بالإسكندرية بعنوان مذكرات شيخ الفدائيين المصريين ، وكنت وقتئذ أستشفى بحمامات حلوان الكبريتية ولفت نظرى إلى ما كتب صديقى الأستاذ عبد المنعم خلاف وكان هو أيضاً يستشفى بالحمامات .

واطلعت على ما نشر تباعا فى خمسة أعداد من المجلة ولاحظت – بادئ ذى بدىء – أن الحاج أحمد وإن كان أشار – ويكاد يكون بالتفصيل – إلى ما جرى على يد شعبة الجمعية بالإسكندرية إلا أنه – ولعل له عذرا فى ذلك – لم يذكر ما قامت به غيرها من شعب الجمعية فى القاهرة مما ظلت حقيقته خافية على الناس نظراً لطبيعة السرية التامة التى يلتزم بها نظام ذلك النوع من أجهزة النضال . وكان الأستاذ الدكتور محمد أنيس أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة قد طلب إلى أخى أحمد على الأستاذ بكلية التربية أن يهىء له فرصة يجتمع فيها بنا ليستفسر عن بعض ما غمض عليه وهو يقرأ محاضر التحقيق فى قضايا الاغتيال السياسية ، وما قرأه فى أول كتاب للثورة بقلم الرئيس أنور السادات .

ثم تكرر الطلب بعد أن اطلع على وثائق فى وزارة الخارجية البريطانية تشير إلى تقارير مرسلة من ممثليها فى مصر تتحدث عن خطورتى عليهم وأننى وراء كل حوادث الاغتيالات .

ولم تسمح الظروف باللقاء المرتقب إلى أن أنشئ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر بوزارة الثقافة وتولاه الدكتور محمد أنيس تنظيماً وترتيباً ثم بحثاً وتنقيباً .

وبعث إلى بأحد تلاميذه الممتازين ممن اختارهم للعمل بالمركز وهو الأستاذ محمود زهدى فأخذ منى حديثا مبدئياً . ولما اطلع عليه زملاؤه بالمركز رغبوا مشكورين فى أن أجتمع بهم . وكان لقاء سعدت فيه بجمع كبير من أساتذة التاريخ الحديث بكل جامعات مصر الذين كان ينظمهم اجتماع كل أربعاء مع الباحثين بالمركز لمتابعة خطواتهم .

وأقف عند هذا اللقاء الذى استمر ثلاث ساعات يسألوننى فى دقة وضبط وسعة اطلاع وحسن استماع متوخين الوصول إلى الحق المجرد عن الهوى .

إذ شرح صدرى كل ذلك وجعلنى أوافق على رغبتهم فى أن أكتب بنفسى تاريخ حياتى ليحفظ فى سجلاتهم وآخذ نسخة مما يكتب منها على الآلة الكاتبة . وبدأت الكتابة أولا بأول فى كراسات بلغت اثنتى عشرة كراسة بذل الأستاذ زهدى جهداً ملموساً فى متابعتها مشكوراً والسعى فى لقاء من يرد ذكره فيها من الأحياء تثبيتاً لما كتب .

ثم أعير الأستاذ الدكتور أنيس للعراق ، وتولى الإشراف الدكتور عبد الخالق لاشين مدرس التاريخ الحديث بجامعة عين شمس واستمر يشرفنى بمنزلى مرة أسبوعيا عدة شهور لمست فيها دقته المتناهية وأفقه الواسع وطموحه وروحه المخلصة الصادقة فى خدمة العلم والمعرفة .

وفى تلك الأثناء نشرت بعض الصحف والمجلات للسادة وجيه أباظة والمستشار محمد عبد الرحمن والدكتور عز الدين فهمى بعض ما يعلمونه عن التنظيم السرى مما كان خافياً على الناس ، وهنا رؤا — إبرازاً للحق الذى أعلمه — إخراج مذكراتى فى كتاب من جزء ين ينتهى أولها عند ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ويبدأ الثانى بعدها .

ولا تسعفنى الكلمات بشكر هؤلاء الأساتذة الذين جهدوا وصبروا فى خدمة الحق والتاريخ . . وفقنى الله وإياهم .

* * *

ميلادى ولمحة عن والدىّ :

ولدت يوم ١٨ يناير ١٨٩٥ بحارة الهدارة قرب سراى على باشا شريف قسم عابدين بالقاهرة من أبوين صالحين كريمين . وكان والدى المرحوم الشيخ على أحمد عبد الله من علماء الأزهر الشريف وخطيباً وإمامًا لمسجد الشامية بشارع الدواوين أمام وزارة الداخلية . وكان رحمه الله جريئاً فى الحق فلم يعبأ أيام الحرب الكبرى ١٩١٤ بالرقابة المفروضة على الصحافة والمطبوعات والاجتماعات وتحدى سيف الأحكام العرفية المسلط على الرقاب وكان لا يفتأ ينتقد بشدة فى خطبة الجمعة أوامر القيادة العسكرية

البريطانية فى تكميم الأفواه وإذلال النفوس واستعباد الناس والاستئثار بخيرات البلاد ، ولم يزحزحه عن موقفه استدعاؤه إلى وزارة الداخلية غير مرة بناء على بلاغات المخبرين للتحقيق معه بسبب خطبه الملتهبة ؟ ولم يكن جوابه كل مرة إلا أن قال إنه لم يفعل أكثر من تأدية واجبه ، فهو يدعو الناس فى خطبة الجمعة بما يدعو له الإسلام من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله والتخلق بخلق القرآن والتأدب بآداب الإسلام والاعتصام بالصبر على البلاء والعمل على تغيير ما بأنفسهم ليكشف الله عنهم ما هم فيه من ضر ويرفع عنهم ما نزل بهم من غمة ويبدل حالهم من الذلة والضيق والاستعباد إلى العزة والسعة والاستقلال . ثم يختم جوابه بأنه لا يطلب من ذوى السلطة أكثر من ألا يحملوا عباراته فوق ما تطيق وأن يتقوا الله فيما يدبره الماكرون ، وبذلك الإيمان يخرج من الموقف كل مرة مرفوع الرأس لا يمسه سوء ويحفظ البلاغ ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب . وضرب لى بموقفه هذا البطولى أروع الأمثال وكان لى نعم القدوة .

واختاره البرنس حسين كامل – لما اشتهر به من تقوى وورع وصلاح – ليكون خوجة أفندى (مدرساً) للأميرات كاظمة وسميحة وقدرية بنات البرنس يعلمهن الدين واللغة العربية ويؤدبهن بآداب الإسلام .

وكانت والدتى المرحومة آمنة بنت يوسف حسن الطويل من بلدة دلاص مركز بوش بمديرية بنى سويف تقية صالحة زانها الله بجمال الخلقة ونبل الخلق ، فكان جو البيت الذى نشأت فيه إسلامياً قولا وعملا .

إخوتى :

وأنجب الوالدان ستة ذكور هم : إبراهيم وعبد العزيز ومحمود وأحمد ومحمد وعبد الرحمن ، وفتاتين : فاطمة وأمينة ، ومات كل من إبراهيم (الأول) وعبد الرحمن (الأخير) فى سن الطفولة وتزوجت فاطمة من ابن عمتها وماتت فى سن الخامسة والأربعين . وتزوجت أمينة من ابن خالها ومازالت على قيد الحياة أطال الله بقاءها – وتزوج كل الذكور وأنجبوا أولاداً .

الجو العام فى تلك الحقبة

أولا – الوضع فى مصر فى ذلك العصر :

ولدت وكان على عرش مصر الخديو عباس حلمى الثانى ، وكان قد مضى على الاحتلال البريطانى لها نحو ثلاثة عشر عاماً ، وكانت مصر بسبب ذلك الاحتلال المشئوم تعانى محنة الفقر والجهل والضعف والحرمان . إذ كان أول ما اتخذته إنجلترا لتحقيق مخططها لاحتلال البلاد أن ضرب أسطولها ميناء الإسكندرية غدراً فى ١١ / ٧ / ١٨٨٢ ثم أنزلت جيوشها إلى أرض الوطن العزيز وتمكنت من دحر الجيش المصرى بالتل الكبير بقيادة أحمد عرابى ، ثم دخلت القاهرة (عاصمة البلاد) فى ١٥ / ٩ / ١٨٨٢ وكان غلادستون رئيس وزرائها قد صرح فى مجلس العموم يوم ٢٤ / ٧ / ١٨٨٢ بأن « ليس لبريطانيا مطامع فى مصر ولم ترسل الجنود إليها إلا لإعادة الأمن فيها ولكى ترجع للخديو (وكان وقتئذ محمد توفيق باشا) سلطته التى فقدها . وأعقب ذلك تصريح فى نوفمبر من نفس العام بأن عدد الجنود البريطانيين قد أنقص إلى ١٢ ألفاً ، لأن احتلال مصر احتلال مؤقت ، وستضع الحكومة الإنجليزية شروطه عن قريب بالاتفاق مع الحكومة المصرية .

وكان أول مرسوم صدر بعد دخول الجيش الإنجليزى القاهرة فى ١٥ / ٩ / ٨٢ هو حل الجيش المصرى وتسريح جنوده لتصفية الثورة العرابية ، كما أن السلطات نفت بعد ذلك فى ٢٧ / ١٢ / ٨٢ عرابى وسبعة من زملائه إلى جزيرة سيلان ، أذكر منهم محمود سامى البارودى وعلى فهمى وعبد العال حلمى ، هذا فضلا عما قامت به من إجراء بحرمان البلاد من كل مقومات الحياة . . فأفسدت كل ما غرس الأجداد فينا من خلق كريم وكل ما أقاموا من تكوين وبناء سليم وكل ما شيدوا من مصانع وأسسوا من معاهد ، وعبثت بالتعليم والقوانين والإدارة وقضوا على الجيش والأسطول ، ونهجت سياسة فرق تسد رغماً عما كان قد صدر قبل الاحتلال من تصريحات ووعود عديدة على لسان كبار المسئولين الإنجليز ، كلها كذب وذر للرماد وخداع ، سواء لمصر أو الدول الأوربية وقت أن كانت إنجلترا تدبر لاحتلال مصر وظهرت بوادر ذلك فى الجو السياسى ، ومن تلك التصريحات حسب التسلسل التاريخى :

١ – تصريح السير إدوارد مالت قنصل إنجلترا فى القاهرة للسلطان عبد الحميد سلطان تركيا فى

١٨٨١/٩/٢١ ونصه «أن حكومة جلالة الملك لا ترمى إلا للاحتفاظ بسيادة الباب العالى وتحسين الخديو ، وهى لا ترغب فى احتلال مصر ولا ضمها» .

٢ - تصريح اللورد جرنفيل وزير خارجية إنجلترا إلى موزوروس باشا التركى فى ١٩٨١/١٠/٤ ونصه «بالرغم من جميع الإشاعات والشكوك ليست لنا أية رغبة فى أن تعمل لاحتلال مصر أو ضمها ، وإنما نحن نرغب فى الاحتفاظ بالحالة الراهنة وبحقوق السلطان».

٣ - وتصريحه لسفير روسيا فى لندن فى ٨١/١٠/١٩ ونصه «ليس لحكومة جلالة الملك مطمع شخصى وإنما غرضها الاحتفاظ بالحالة الحاضرة».

٤ - وتلغرافه للسير مالت فى ٨١/١١/٤ ونصه «إن غرضنا مقصور على أن تكون مصر متمتعة بالاستقلال الإدارى الذى صنعه السلطان لها ، ولا جرم أن حكومة جلالة الملك تكون قد ناقضت أثمن تقاليد تاريخها الوطنى إذا هى رغبت فى إنقاض هذه الحرية . وأن العلاقة التى تربط مصر بالباب العالى تعد ضمانة كبرى ضد كل تدخل أجنبى . فإذا قطعت هذه العلاقة أصبحت مصر فى مستقبل قريب معرضة لخطر أطماع المتنافسين» .

٥ - تصريح اللورد دوخرين سفير إنجلترا فى الآستانة فى ٤ / ١١ / ٨١ .

٦ - تصريح جلالة الملكة فيكتوريا فى خطبة العرش فى ٨٢/٢/٧ .

٧ - وتصريح اللورد جرانفيل فى ٢٠ / ٣ / ٨٢ .

٨ - وتلغراف اللورد جرانفيل فى ١١ / ٦ / ٨٢ للورد دوفرين .

٩ - ومنشور اللورد جرانفيل فى ١٠ / ٧ / ٨٢ للدول .

١٠ - تصريح شارل دنلك وكيل خارجية إنجلترا فى ١٨ / ٧ / ٨٢ .

وكلها لا تخرج عن سابقتها إمعاناً فى الكذب والخداع اللذين دأبت عليهما السياسة الإنجليزية واستمرت فيهما حتى بعد الاحتلال ، فصدر من ساستها مالا يقل عن الأربعين تصريحاً وعهداً .

● ولما قامت الثورة المهدية بالسودان بزعامة محمد أحمد المهدى تذرعت بها إنجلترا للتدخل فى شئون السودان لتحقيق مخططها الاستعمارى بحجة إحباط الثورة فى مهدها وأعدت حملة مصرية إنجليزية صدرت إليها الأوامر بالزحف على السودان بقيادة كتشنر فى ١٨٩٦/٣/١٣ .

● إلا أن فرنسا كانت تدبر الأمر لاحتلال فاشودة عاصمة إحدى مديريات خط الاستواء لموقعها الاستراتيجى عند ملتقى السوباط بالنيل ولمجاورتها لممتلكاتها فى أفريقيا واعترضت على الحملة المصرية الإنجليزية وقدمت لإنجلترا مذكرة باعتراضها فى ١٨٩٦/٣/١٧ إلا أن إنجلترا رفضتها وكانت قد أحست بنية فرنسا فى احتلال فاشودة وأوجست خيفة إن هى حققتها ، فقد تابع جيوشها سيرها

للاستيلاء على السودان ومنابع النيل ، وتصل إلى الحبشة ، وقد ترغم بذلك إنجلترا على الجلاء عن مصر والوفاء بوعودها .

● ثم استخدمت إنجلترا دهاءها السياسى وطلبت من مصر – فى صورة نصيحة ، وهى تلق السم فى الدسم – أن تخلى السودان وهى ترمى إلى تحقيق ماتبيت له وتطمع فيه من انفرادها به .

● ورفضت وزارة محمد شريف باشا الأخذ بتلك النصيحة المسمومة وقدم شريف باشا استقالته ، وكان لورد جرانفيل وزير خارجية بريطانيا قد أصدر أمراً للورد كرومر عميد بريطانيا فى مصر بعزل أى وزير أو مدير لا يسير وفقاً للسياسة التى ترسمها إنجلترا وهذا ما رفضه شريف باشا بإباء . واستقال . وتولى نوبار باشا من بعده رئاسة النظار ووافق بضغط من الإنجليز على إخلاء السودان فى ١٨٨٤/١/٨

● وسارت الحملة فى طريقها حتى وصلت إلى دنقلة فى ٩٦/١/١٢ ومنها إلى أبو حمد فى ٩٧/٨/٧ وبربر فى ٩٧/٩/١٢ ثم إلى العطبرة فى أبريل سنة ٩٨ ، وفيها أسر الأمير محمود . ثم دخل الجيش أم درمان فى سبتمبر وتم بذلك الانتصار على الدراويش بعد أن أبلى الجيش المصرى بلاء حسناً وأثبت مقدرته الحربية وصبره على المتاعب واحتمال المكاره وتحمل العبء الأكبر فى القتال ، واستشهد من رجاله ثلاثون ألف مقاتل .

● وتابعت إنجلترا تنفيذ مخططها الاستعمارى لإضعاف مصر وتثبيت أقدام الاحتلال فيها وتقطيع أوصالها . وعقدت الاتفاقات مع الدول الأوربية «فرنسا وإيطاليا وبلجيكا وألمانيا» على توزيع ممتلكات مصر بحوض النيل الأعلى وفى البحر الأحمر (أريتريا والصومال وزيلع وهرر ومصوع وبربره) برغم ما فى ذلك من اعتداء على ممتلكات الغير وتناقض لما تعهدت به فى معاهدات لندن فى ١٨٤٠/١٠/١٥ وباريس فى ١٨٥٦/٣/٢٠ وبرلين فى ١٨٧٨/٧/١٣ ومؤتمر الآستانة سنة ١٨٨٢ .

ثانياً : الوضع فى الخلافة الإسلامية :

وكانت دولة الخلافة «تركيا» توصف وقتئذ «بالرجل المريض» إذ تضافرت عليها دول الغرب لإضعاف هيبتها وكسر شوكتها وتقطيع أوصالها للذهاب بإمبراطوريتها الواسعة ، فجيشت ضدها – قبل منابذتها العداء العسكرى – عوامل الانحلال ففسدت الأخلاق وانتشرت الفوضى ودب فيها الفساد واعتصرها ظلم وغفلة السلاطين وفساد الحكام بالرشوة والمحسوبية فأصبحت جثة هامدة ولقمة سائغة لكل طامع وانسلخت عنها معظم ممتلكاتها فضاقت رقعتها وأمنت دول الغرب جانبها . وكان لذلك كله أسوأ الأثر على مصر وهى التابعة لدولة الخلافة ولو اسميًّا .

ثالثاً : الوضع فى العالم الإسلامى :

وكانت الدول الإسلامية فى غفلة وفى سبات عميق ، أذلها الخوف وأضناها الفقر واستبد بها الجهل . ومزقتها الفرقة فتخلفت عن ركب الحياة وأصبحت وراء الوراء نهباً للاستعمار بسبب الغفلة عن الأخذ بأسلوب القوة والانحراف عن تعاليم الدين فضلاً عن فقدان القدوة الحسنة الصالحة بضعف الدولة الأم (تركيا) دولة الخلافة التى كان لا يربطها بها سوى خيط ضعيف من التبعية الصورية .

وذلك تصوير موجز للجو الذى ولدت فيه . جو مظلم خانق سواء بالنسبة لمصر وطنى أو لدولة الخلافة الإسلامية التى تتبعها بلدى اسمًا . أو للدول الإسلامية المغلوبة على أمرها .

* * *

الكتاب ونشأة البيت الدينية :

ألحقنى والدى فى سن مبكرة مع شقيقتى أمينة التى تكبرنى سناً بكتّاب رضوان بك أبو الشوارب بحارة الهدارة التى ولدت فيها . وكانت العائلة تقطن وقتئذ بحارة الصوافة بقرب قسم عابدين . . لأتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، ولأحفظ ما تيسر من القرآن الكريم . فكنت – لما حبانى الله به من ذكاء وطاعة – موضع رعاية واهتمام ناظر الكتاب الشيخ على عمار .

وتعهدنى والدى رحمه الله فى نفس الوقت بتحفيظى القرآن الكريم فى المنزل وتهذيبى بآداب وخلق القرآن . واهتم بتقويتى وتقويم لسانى فى اللغة العربية وعلمنى صغيراً كيفية الوضوء والصلاة وأمرنى بها وراقبنى فى المواظبة عليها وأعطانى من نفسه ومن والدتى المثل الأعلى العملى والقدوة الحسنة . فنشأت والحمد لله نشأة دينية صحيحة وفى جو إسلامى سليم وذلك ولا شك أس النجاح .

مرحلة الابتدائى :

وفى سنة ١٩٠٥ أراد والدى أن يلحقنى بمدرسة حكومية وكنت بلغت التاسعة تقريباً وتقدم بالطلب إلى مدرسة عابدين الابتدائية ، إلا أنها رفضته لعدم بلوغى السن المقررة وقتئذ للقبول . فألحقنى بمدرسة فيكتوريا الأهلية بشارع حسن الأكبر خلف سراى عابدين . ومضيت بها سنة دراسية لأبلغ سن القبول بمدرسة عابدين الأميرية والتحقت بها وقبلت .

وكنت بفضل التربية والرعاية المنزلية – قبل كل شىء – التلميذ المستقيم المجتهد المطيع المتفوق فى كل سنى الدراسة . المتمتع بإعجاب ومحبة وتقدير أساتذتى وأقرانى بجانب رضا الوالدين .

ومما أذكره بهذه المناسبة وأعتز به فرحتى التى لا تقدر يوم أن اختارنى الشيخ محمد المنيرى أستاذ اللغة العربية أنا وزميلى حسين ثابت ، وكنا وقتئذ بالسنة الأولى ، وكنا أقوياء فى اللغة العربية لنمثل فى الفصل وبحضور محمد بك رشدى ناظر المدرسة قصة السموءل وما داربينه وبين أحد الشعراء ، من حوار ، وأخذ حسين دور الشاعر ومثلت دور الأمير . إذ يقول الشاعر مستفزًا الأمير : «أتذكر إذ لحافك جلد شاة . . وإذ نعلاك من جلد البعير .» فيرد الأمير فى تواضع واطمئنان «نعم أذكره ولا أنساه»

ويعود الشاعر مستفزًا الأمير ويقول :

«أمير يأكل الفالوذ سرًّا . . . ويطعم ضيفه خبز الشعير .

إلى نهاية القصة . . ولم يخرج الأمير عن حلمه بل أجزل للشاعر العطاء . وقمت وقام زميلى ، كل منا بدوره بنجاح وحزنا إعجاب أستاذنا المنيرى وناظر المدرسة محمد بك رشدى والزملاء جميعاً وتسلم كل منا مكافأه تشجيعية «كارت بوستال» قدمها لنا الناظر بيده فى مكتبه .

* * *

مأساة دانشواى (١٩٠٦) :

فى ١٩٠٦/٦/١٣ وقع الحادث المشئوم وكان مصطفى كامل فى أوربا فى خدمة بلاده يشرح قضيتها ويدافع عن حقها بقلمه وخطاباته واتصالاته . وتجلت الجريمة النكراء فى أبشع صورها يوم أن قصد إلى دانشواى خمسة من ضباط الإنجليز لصيد الحمام خارج القرية ، وشب من رصاص بنادقهم حريق فى أجران القمح وتجمع الأهالى لإطفائه وللدفاع عن أنفسهم من أذى الضباط ، وهرب الضباط وأصيب أحدهم بضربة شمس وهو يجرى سببت وفاته . كما أثبت ذلك التقارير الطبية ، إلا أن السلطة قبضت على كثير من الأهالى بتهمة اعتدائهم على الضباط وقتل أحدهم . واستبد بالإنجليز الحقد والانتقام الأعمى فأمروا بأن تنصب المشانق وآلات الجلد والتعذيب بالبلدة وقبل صدور حكم المحكمة المخصوصة التى شكلت برئاسة بطرس غالى باشا لمحاكمة المتهمين محاكمة صورية ، وقضت ظلماً بالإعدام شنقاً على أربعة وبالجلد وبالسجن لمدد مختلفة على سبعة عشر . ونفذ حكم الإعدام – برغم شهادة الطبيب الشرعى البريطانى بأن بول الذى وقع ميتاً وهو يجرى مات بضربة شمس – فى كل من حسن محفوظ (٧٥ سنة) ويوسف حسن سليم والسيد عيسى سالم . ومحمد درويش زهران ، والأشغال الشاقة المؤبدة على محمد عبد النبى مأذون القرية وأحمد عبد العال محفوظ ، والأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة على أحمد محمد السيسى ، ولسبع سنوات على كل من محمد على أبو سمك وعبده البقلى وعلى على شعلان ومحمد مصطفى محفوظ ورسلان السيد على والعيسوى محمد محفوظ ، ولسنة مع ٥٠ جلدة على

كل من حسن إسماعيل السيسى وإبراهيم حسنين السيسى ومحمد الغباشى السيد على ، وجلد ٥٠ جلدة كل من السيد العونى وعزب عمر محفوظ والسيد سليمان خير الله وعبد الهادى حسن شاهين ومحمد أحمد السيسى . هذا عدا الفلاح سيد أحمد سعيد الذى وجدوه يسعف الضابط بول وهو ملقى على الأرض عند بلدة سرسنا بشربة ماء فجازوه جزاء سنمار وأخذوا يثخنونه طعناً ووخزاً ببنادقهم حتى هشموا رأسه ومات بين أيديهم جثة هامدة .

* * *

محامى دانشواى :

وقام مصطفى كامل بحملة شعواء أعطاها كل جهده ضد الظلم والاستبداد والوحشية والانتقام العلنى والتعسف المكشوف وأثار العالم على تصرفات الإنجليز البربرية ، ونجح فى حملته أيما نجاح وكان بحق محامى دانشواى الجرىء الأمين وفازت مصر نتيجة جهاده الصادق بتخفيف الحكم على بعض المتهمين وبخروج كرومر العميد البريطانى العتيد من مصر مطروداً شر طردة وكان فيها الحاكم الآمر الناهى بلا معارض وبإسقاط حكومة مصطفى فهمى صنيعة الإنجليز الذى استمر رئيساً للوزارة ثلاثة عشر عاماً (١٨٩٥/١١/١٢) - ١٩٠٨/١١/١١) وتم الإفراج عن المسجونين فى ١٩٠٨/١/٧ قبل وفاة مصطفى كامل بشهر (١٩٠٨/٢/١٠) ولم يتجاوز من العمر ٣٤ عاماً حيث ولد فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته وألحقنا به على الإيمان .

* * *

نشأة البيت السياسية :

وما إن وصلت إلى السنة الثالثة الدراسية حتى أخذ والدى يدربنى على قراءة جريدة اللواء (لسان حال الحزب الوطنى) كل مساء بعد استذكار دروسى . يريد بذلك تقويم لسانى وتقويتى فى اللغة العربية بجانب بث روح الوطنية فى نفسى عن طريق مواصلة قراءة مقالات اللواء التى كانت تكشف عن مساوئ الاحتلال وتقف للحاكمين بالمرصاد . وتفيض وطنية وحسن توجيه .

وكان والدى يتوج ذلك الإيحاء بما كان يحدثنى به من وقت لآخر فى سير الأبطال والمجاهدين وكان يكثر من الحديث عن مصطفى كامل الشاب ، فغرس فى نفسى الإيمان بحب الوطن بعد أن حبب إلى الإيمان بالله ، فنشأت بفضل الله وبفضل التربية المنزلية مؤمناً وطنيًّا .

اعتناق مبدأ الحزب الوطنى :

ومن هنا بدأ اهتمامى تلقائياً بما يدور فى بلادى على يد المحتل الغاصب وأعوانه وبما يقوم به الوطنيون

من جهود لتخليص الوطن من ذلك البلاء ، واعتنقت مبدأ الحزب الوطنى عن إيمان : مبدأ الجلاء الناجز والاستقلال التام لوادى النيل – مصر والسودان والملحقات – زيلع وهرر ومصوع وأرتيريا . التى روى أرضها الدم المصرى الزكى ورفع على ربوعها العلم المصرى . مبدأ لا مفاوضة إلا بعد الجلاء . ومن فرط حبى للزعيم الشاب مصطفى كامل حفظت عن ظهر قلب عباراته الوطنية الخالدة التى بقيت على الدهر نبراساً لكل وطنى وكنت أفخر بترديدها والتمسك بها والعمل بمقتضاها .

ومنها «لو لم أكن مصريًّا لوددت أن أكون مصريًّا» : «مصر للمصريين» «لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة» : «إن من يفرط فى حقوق بلاده ولومرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان» «إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه حقيقة واقعة» .

«ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون كذلك لا محالة مها تعددت الليالى وتعاقبت الأيام وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب فإنا لا نمل ولا نقف فى الطريق ولا نقول أبداً لقد طال الانتظار» .

بعض شعارات الحزب :

وتجمعت أمام عينى ووقرت فى قلبى شعارات «الحق لا يتجزأ» والحق يؤخذ قسراً ولا يمنح عفواً . والحرية شجرة تروى بدماء الشهداء . وتأصلت فى نفسى بذور وتعاليم الوطنية السليمة وزادتها الحوادث والأحداث رسوخاً فلم أتحول عنها لحظة طول حياتى حتى فى أحرج المواقف وأحلك الأيام التى مرت بى وبالبلاد .

صفحة جهاد مصطفى كامل :

وكان صوت الزعيم الشاب مصطفى كامل يجلجل فى قوة وإيمان وبإخلاص فى المؤتمرات والندوات فى الداخل والخارج لشرح القضية المصرية والمطالبة بحق بلاده فى الحرية والاستقلال . كما كانت مقالاته الوطنية سيفاً بتاراً يشهره بلا هوادة وباستمرار فى وجوه الأعداء فنجح بقوة إيمانه وصدق وطنيته فى إيقاظ الشعور وإحياء الهمم وبث الروح الوطنية وجمع الناس من حوله وألف بين قلوبهم وفتح الطريق أمام العاملين .

واتخذ من صحيفة اللواء التى أصدرها فى أوائل سنة ١٩٠٠ (أى قبل تأسيس الحزب بحوالى ثمانى سنوات) منبراً لدعوته وكانت واسعة الانتشار حتى لقد بزت فى ذلك صحيفة المؤيد لسان حال حزب الأمة الذى تأسس فى ١٩٠٧/٩/٢٠ برئاسة محمود باشا سليمان ووكالة حسن باشا عبد الرازق وعلى

باشا شعراوى وسكرتارية أحمد لطفى السيد وضم بضع مئات ممن أطلق عليهم «وجهاء المصريين» وسلك الحزب سياسة الاعتدال بخلاف الحزب الوطنى الذى سلك سياسة التطرف فى مناهضة الاحتلال .

وأخذ مصطفى يمهد لتأسيس الحزب الوطنى بحملة سياسية قوية واسعة النطاق أحكم تخطيطها وتنفيذها إلى أن أعلن عن تأسيسه فى خطبته الجامعة المشهورة التى ألقاها وسط ألاف الوطنيين فى مسرح زيزنيا بالإسكندرية فى ١٩٠٧/١٠/٢٢ وفى ١٩٠٨/١/٢ صدر قرار اللجنة الإدارية للحزب باتخاذ جريدة اللواء لسان حال الحزب . بالإضافة إلى «اللواء بالفرنسية» لتندار جيبسيان ، واللواء بالإنجليزية» ذى اجيبسيان استاندارد . اللتين أصدرهما مصطفى عام ١٩٠٧ واللتين توقفتا عن الصدور سنة ١٩٠٩ بسبب الخسائر التى تكبدها الحزب فى إصدارهما .

هذا وكان للحزب صحف مؤيدة لمبادئه أذكر منها «الدستور» صحيفة يومية لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ محمد فريد وجدى الكاتب الإسلامى الشهير أصدرها فى ١٩٠٧/١١/١٦ وتوقفت عن الصدور فى ١٩٠٩/١٢/٩ لأسباب مالية .

«القطر المصرى» صحيفة يومية لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ أحمد حلمى الوطنى المعروف وأول صحفى مصرى سجن بتهمة العيب فى العائلة المالكة ، صدرت فى أبريل ١٩٠٨ إلى أن صدر قرار يمنعها عن الصدور فى يناير ١٩١٢ .

«وادى النيل» صحيفة الحزب فى الإسكندرية لصاحبها محمد الكلزه وكانت أكثر صحف الحزب اعتدالا ، صدرت فى ١٩٠٨/٥/٢ واستمرت فى خدمة رسالة الحزب إلى أن صدر قرار بأغلاقها فى ١٩١٢/٤/٧ .

«ضياء الشرق» صحيفة يومية أصدرها فى ١٩٠٨/٥/٢ محمود حسيب إلا أنها توقفت عن الصدور بعد حوالى الشهر لانصراف الجمهور عنها لصغر حجمها وقلة موادها .

«مصر الفتاة» صحيفة يومية أصدرها فى ديسمبر ١٩٠٨ نفر من محررى اللواء برئاسة سيد على كان اللواء قد فصلهم لاعتصام قاموا به وظلت الصحيفة تروج لمبدأ الحزب إلى أن أغلقت بقرار من الحكومة فى ١٩١١/١٠/٥ ضمن حملة السلطات للتخلص من صحف الحزب .

«البلاغ المصرى» صحيفة يومية أصدرها إسماعيل شيمى أحد أقطاب الحزب فى ١٩١٠/٧/٦ وكانت تصدر فى قسمين أحدهما باللغة الفرنسية وكانت مقالاتها غاية فى التطرف سواء ضد الاحتلال أو ضد الخديو إلى أن صدر قرار ناظر الداخلية بإغلاقها فى أوائل سنة ١٩١١ ضمن حملة التخلص من الصحف الوطنية .

« الكفاح » لصاحبها ورئيس تحريرها الوطنى الغيور المكافح الأستاذ حسن شافى الجيزاوى استمر فى نشر دعوة الحزب بإخلاص وأمانة ومهاجمة الاستعمار وأعوانه بضراوة إلى أن توقفت عن الصدور لقلة مواردها المالية .

وبفضل الدعاية القوية الواسعة المنظمة والجهد الصادق الخالص ملك الحزب الزمام وتمتع فى تلك الحقبة بتأييد ساحق من جانب الجماهير مكنته من قيادة النضال الوطنى فى الطريق المستقيم بقوة وصلابة وحزم . ومن ذلك على سبيل المثال ماكان من أمر رجال الحزب يوم أن عطلت وزارة الداخلية صحيفة اللواء سنة ١٩١٠ لتطرفها فى مهاجمة المحتل وحدتها فى نقد السلطات أذ أسرعوا فى اتخاذ الإجراءات لإصدار صحيفة تحل محلها فصدرت صحيفة العلم ونسجت على نهج اللواء واستفتحت بمقال ملتهب « هوى اللواء فصافح بعده العلما » وسارت رافعة علم الجهاد إلى أن صدر قرار الداخلية بتعطيلها هى الأخرى عن الصدور ولم يثن ذلك التعسف عزمهم أو يضعف من عزيمتهم بل زادهم إيماناً وتمسكاً بالحق والتفانى فى الذود عنه شأن المجاهدين الصادقين وأصدروا جريدة الشعب .

ونشير فى هذا المجال إلى بعض من مأثور أقوال الزعيم الشاب :

– « إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها وأغلى مطلب ترمى إليه فى مستقبلها . فلا الدسائس تخيفنا ولا التهديدات تقف فى طريقنا ولا الشتائم تؤثر فينا . . ولا الخيانات تزعجنا ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية . »

– « نعم إننا لو تخطفنا الموت من هذه الدار واحدًا بعد واحد لكانت أخر كلماتنا لمن بعدنا كونوا أسعد حظًا منا . وليبارك الله فيكم ويجعل النصر على أيديكم ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس » .

– « لو انتقل فؤادى من الشمال إلى اليمين – أو تحولت الأهرام من مكانها المكين ما تغير لى مبدأ . ولا تبدل لى اعتقاد . بل تبقى الوطنية رائدى ونبراسى ويبقى الوطن كعبتى ومجده غاية آمالى » .

وأعطى الزعيم الوطنى التعليم الكثير من اهتمامه فأنشأ مدارس الشعب والأقسام الليلية لمحو الأمية وجند لها المدرسين المتطوعين من شباب الحزب الوطنى المثقفين ونادى بإنشاء الجامعة المصرية وأولى العمال والفلاحين بالغ اهتمامه فكون النقابات المختلفة وأسس الجمعيات التعاونية الزراعية لينظم صفوف الطبقة الكادحة . عمالاً وفلاحين – ويحفظ حقوقهم ويخلصهم من فئة المرابين ويحررهم من استبداد السلطة الحاكمة . وكان يقود النقابات وقتئذ ويسيطر عليهم عناصر أجنبية لم يشترك فيها من العمال

المصريين إلا قلة محدودة مهيضة الجناح لا حول لها ولا قوة – كما كون نقابة عمال الصنايع اليدوية بالقاهرة وأنشأ لها فروعاً بالإسكندرية وطنطا والمنصورة لينهض بأرباب الحرف اليدوية .

المصاب الجلل موت الزعيم الشاب ١٠/٢/١٩٠٨

فى ١٠/٢/١٩٠٨ صعدت روح الزعيم الشاب إلى بارئها راضية مرضية بعد مرض عضال أصاب جسمه النحيل الضعيف نتيجة الإجهاد الفكرى والجسمانى المتواصل فى خدمة البلاد ، ولم يشأ أن يرحم نفسه فواصل العمل وهو يغالب المرض حتى غلبه المرض وألزمه الفراش إلى أن مات ، ولم يكن قد تجاوزت سنه الرابعة والثلاثين من عمره ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته وألحقنا به على الإيمان .

سرى نبأ ذلك المصاب الجلل فى طول البلاد وعرضها سريان النار فى الهشيم ، واشتركت الأمة كلها رجالا ونساء ، شيباً وشباناً على اختلاف الطبقات والنحل فى تشييع جثمانه الطاهر من دار اللواء بشارع الدواوين أمام وزارة الداخلية إلى مقبرة الإمام الشافعى ، كما اشترك مئات الأجانب من رجال السفارات الأجنبية ورجال المال والأعمال والمراسلين الأجانب وغيرهم . وكانت مصر كلها بمن فيها من مصريين واجانب تشيع الجثمان الطاهر فى موكب عظيم يجل عن الوصف ، والكل يمشى فى حزن عميق وسكون رهيب وخشوع وإجلال وكأن على رؤوسهم الطير وكان ذلك يوماً مشهوداً . مات مصطفى وخلفه فى زعامة الحزب محمد فريد . ورثاه فى قصائد عصماء فطاحل الشعراء : خليل مطران وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم وأحمد محرم وغيرهم .

لمحة عن محمد فريد «خليفة مصطفى كامل» :

لم يسعدنى الحظ برؤية المرحوم الزعيم الشاب مصطفى كامل رئيس الحزب الوطنى وإن كنت سعدت برؤيه خليفته المرحوم محمد فريد مرة واحدة فى حياتى عن طريق المصادفة بميدان لاظوغلى بالمالية وعربته تخترق الميدان وبجواره المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش المجاهد الوطنى الكبير . وكدت أطير فرحاً وودت لو أتيحت لى الفرصة للقائه مرات لأتزود من وطنيته عن كثب .

ولد محمد فريد فى القاهرة فى يناير ١٨٦٨ وكان والده أحمد فريد باشا من كبار موظفى الدولة وأغنى اغنيائها ، ونشأ فريد فى بيت عز وثراء ينعم منذ نعومة أظفاره بما ينعم به عادة أبناء الأثرياء وأولاد الذوات كما كانوا يسمونهم ، فى عيشة هنية ، يلبسون أفخر الثياب ويأكلون أشهى الطعام وينامون على الفراش الوثير ويقوم على خدمتهم ورهن إشارتهم الكثير من الخدم والحشم .

وجرت العادة أن من يحيا فى صغره حياة الترف والدعة يشب وهو أبعد ما يكون عن حياة الكفاح

والجهاد وشظف العيش ومصابرة تقلباتها وما يكتنفها من متاعب ومشاق ، مما قد لا يتحملها إلا من كابدها منذ الصغر .

لكن فريد الثورى ابن الثراء ماكاد يشب عن الطوق حتى ضرب حياة الطفولة السعيدة عرض الحائط وخرج برضاه على العرف واختار لنفسه حرية العمل وسلك طريق النضال الوعر وتحمل المشاق وصبر على المكاره فى سبيل خدمة بلاده ومواطنيه ، فكان بذلك مثلاً لقوة الإيمان وسلامة التفكير وسمو النفس ونبل الأخلاق ، ورمزا للتضحية والبذل وعلو الهمة والفداء .

درس الحقوق وتوظف بالحكومة وتدرج فى وظائفها حتى وصل إلى وظيفة وكيل النائب العام . وبدت عليه ملامح الذكاء ووضع وهو لا يتجاوز بعد سن الثالثة والعشرين كتاب «تاريخ مصر فى عهد محمد على» وقام بطبعه سنة ١٨٩١ ثم «كتاب تاريخ الدولة العثمانية» وطبعه سنة ١٨٩٤ ثم كتاب «تاريخ الرومان» وطبعه سنة ١٩٠٢ .

وفى ١٨٩٦ جرت حادثة غيرت مجرى حياته . ذلك أنه حضر كمشاهد جلسة محاكمة الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد وتوفيق كيرلس الموظف بمكتب تلغراف الأزبكية التى عقدت بمحكمة عابدين الجزئية فى نوفمبر ١٨٩٦ بتهمة إفشاء أسرار حربية عن وضع الجيش المصرى بالسودان .

وشهد محمد فريد المحاكمة وصدر حكم القاضى ببراءتهما ، ولم يقو فريد على كتمان ارتياحه للحكم وإظهار عطفه على المتهمين ، وبلغ ذلك رؤساءه فاغتاظوا لموقفه الجرىء ، وأصدروا أمرهم بنقله إلى الصعيد ، فما كان من فريد المعتز بكرامته إلا أن رفض الإذعان لأمر النقل واستقال غير آسف على الوظيفة الحكومية وغير عابئ بالتقاليد المرعية فى العائلات الكبيرة التى كانت تأنف من أن يسعى الفرد فيها لكسب رزقه بالاشتغال بالأعمال الحرة وترى أن رزق أفرادها مكفول بإيراد أطيانها وممتلكاتها واشتغل فريد بالمحاماة وكانت هذه أول خطوة يخطوها على طريق النضال .

وأصدر مع زميله الأستاذ محمود أبو النصر المحامى «مجلة رد المسوعات» فضح فيها الاستعمار الإنجليزى والفرنسى وجرائمه فى أفريقيا وآسيا وتناول موضوع الإنجليز وحرب الترانسفال واستغلال الشركة الإنجليزية الأفريقية ، وتعرض للاستعمار الروسى فى آسيا وغير ذلك من موضوعات وقتئذ .

وآلت إلى محمد فريد زعامة الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل فكان خير خلف لخير سلف . طالب بالدستور وأعلن أنه لا يطلبه من بريطانيا ولا يوافق على ما يدعيه الإنجليز من أن الخديو لا يستطيع أن يعلن الدستور إلا بعد إذن من بريطانيا ، وهيأ الرأى العام للتمسك بالمطالبة بالدستور وكانت بوادر الشر قد بدت فى ارتماء الخديو عباس فى أحضان السير «الدون فروست» الذى خلف كرومر واتبع ماسموه بسياسة الوفاق ، وكان من أبرز أهدافها مطاردة فريد واضطهاده ومحاربة سياسته

ومصادرة جرائد الحزب وتضييق الخناق على أتباعه وأنصاره .

وأولى فريد التعليم كثيراً من اهتمامه ودعا إلى جعل التعليم الابتدائى إلزاميًّا بالمجان للجميع لا فرق بين غنى وفقير ، وإلى التوسع فى التعليم الثانوى وإلى الإكثار من المدارس الليلية فى المدن والقرى لمحو الأمية . وكان يدرس بنفسه تطوعًا فى مدارس الشعب الليلية التى أنشأها الحزب ، وكان هو وزملاؤه عبد العزيز جاويش وأحمد لطفى وعمر لطفى وأعضاء الحزب من طلبة المدارس العليا .

وكما اهتم بالتعليم اهتم بالناحية الاجتماعية فدعا إلى تشكيل نقابات زراعية ، وأنشئت لأول مرة للدفاع عن حقوق الفلاح التعس فريسة الملاك والمرابين وضحية ظلم وتعسف الحكام والقوانين . كما دعا إلى تكوين نقابات العمال وكونت لأول مرة سنة ١٩٠٩ نقابة عمالية بحى بولاق للدفاع عن حقوق العمال ورفع مستواهم .

وبذل فريد جهداً مشكوراً وجهوداً مضنية لتوثيق الصلات والروابط بين مصر والأقطار العربية متحملاً مشاق السفر ومعاناة الليالى والأيام فى سبيل شرح قضية بلاده ومن أجل دفع تلك الأقطار – وكلها مستعمرة – إلى الجهاد لطرد المستعمر وللتمتع بالحرية والاستقلال .

وزار كلا من مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب فضلاً عن زيارته للأندلس كسباً للأعوان فى صف قضية بلاده ضد المحتلين .

ومما يضفى على جهود فريد فى هذه الناحية الجلال والتقدير أن كبراءنا لم يكن لهم هم إذا ما نزحوا إلى الخارج إلا ارتياد مجال اللهو والعبث والفجور فكانت تعج بهم من وقت لآخر مونت كارلو وفيشى وباريس ودرفيل وفرنسا جرياً وراء المتعة الجنسية واحتساء الخمور ولعب القمار والسهر فى الليالى الحمراء مضيعين أموالهم وصحتهم وكرامتهم ثم يعودون إلى وطنهم المنكوب بهم يجرون أذيال الخيبة والحسرة .

هذا وقد رأى طرفا التحالف «غورمست والخديو» أن الفرصة واتتهما عندما أصدر الشيخ على الغاياتى عضو الحزب الوطنى ديوانه «وطنيتى» وقدم فريد للديوان بعبارة وطنية رزينة ، فأشاد بما للشعر من تأثير قوى فى بث روح الوطنية فى أبناء الشعب وفى الحض على الإقدام وبذل المال والنفس . ووجه النصح إلى شعرائنا وقال «على الشعراء أن يقللوا من وضع قصائد للمديح فى أيام ومواسم معلومة وأن يستعملوا مواهبهم فى خدمة الأمة بدلاً من أن يصرفوها فى خدمة الأغنياء . وتملق الأمراء والتقرب إلى الوزراء لأنهم كلهم زائلون والأمة باقية . وأبدى إعجابه بما وضعه شعراء الأرياف من أناشيد وأغان ومواويل ، سواء باللغة الفصحى أو بالعامية فى حادث دانشواى ، وفى جهود مصطفى كامل محامى دنشواى وفى موضوع رفض الجمعية العمومية مد أجل امتياز قناة السويس وفى غيرها من المواقف الوطنية ، كما أبدى غبطته لانتشار تلك الأغانى والمواويل والتغنى بها فى سمر الريفيين وأفراحهم ، وعقب

فريد على ذلك بأنه يستبشر بتلك الروح خيراً وبأنها من دلائل اقتراب زمن الخلاص من الاحتلال ومن سلطة الفرد.

ومن أجل تلك المقدمة الوطنية الخالصة حكم على فريد فى ١٩١١/١/٢٣ بالحبس ستة شهور فتقبل الحكم بنفس راضية ودخل السجن ، وساومه الخديو وهو فى السجن ليفرج عنه فأبى المساومة ولم تزده إلا صلابة ، وخرج من سجنه بعد قضاء المدة أشد قوة وأصلب عوداً وأقوى عزيمة . . وهو فى ذلك يقول : «مضى على فى غياهب السجن ستة شهور ولم أشعر أبداً بالضيق إلا عند اقتراب أجل الخروج لعلمى أننى خارج إلى سجن آخر هو سجن الأمة المصرية الذى تحده سلطة الفرد ويحرسه سلاح الاحتلال وظل على صلابته يقود النضال ضد الخديو عباس وضد الاحتلال الإنجليزى بثبات وإصرار» ولم يثنه ما تعرض له من اضطهاد أو ما تعرضت له جرائد الحزب الواحدة بعد الأخرى من تعطيل ، وكان يجهر بالقول : «إننا قوم تذرعنا بالصبر على الحوادث واتخذنا الثبات شعارنا ؛ إننا نعرف كيف نصبر على المكارة . . ولكننا لا نعرف التسليم فى حقوقنا ولا التنازل عن مطالبنا» . وحوكم من أجل خطابه الوطنى فى الجمعية العمومية للحزب فى ١٩١٢/٣/٢٢ وحكم عليه فى ١٩١٢/٥/١ الحبس مع الشغل سنة إلا أنه كان قد هاجر إلى تركيا قبل ذلك ليواصل جهاده فى الخارج بعيداً عن مضايقات الإنجليز والخديو وحضر عدة مؤتمرات فى أوربا كشف فيها عن مساوئ الاحتلال وشرح بإفاضة قضية بلاده شرح الوطنى الدارس الملم ، وبين بالدليل القاطع حق بلاده فى الاستقلال التام الناجز.

ثم حضر مؤتمر بروكسل سنة ١٩١٠ الذى كان مزمعا عقده فى فرنسا وتواطأت إنجلترا مع فرنسا على عدم عقده بها ، فسعى فريد جاهداً لدى بلجيكا ونجح فى عقده ببروكسل وكان من أبرز ما حضره من المؤتمرات وأكثرها نجاحاً ذلك المؤتمر الذى عقد فى ميعاده لعرض القضية المصرية ، وبذل فيه جهداً محموداً والذى ناب فيه عن مستر كليف الإنجليزى فى رئاسته لمرضه الشديد وألقى عنه خطابه الشهير الذى هاجم فيه بشدة الاحتلال البريطانى لمصر. وحضر مؤتمر السلام فى لاهاى ١٩١٣ ومؤتمر الأجناس المضطهدة فى لندن ١٩١٤ .

ولما عزمت تركيا على تجريد حملة عسكرية على مصر من جهة القنال ١٩١٥ أثناء الحرب العالمية الأولى طالب زعماءها بالإعلان رسميًّا عن أن الغاية من الحملة هى استقلال مصر ، فلم يأخذوا برأية وضاقوا به ذرعا فترك تركيا إلى سويسرا ومنها إلى ألمانيا حيث استقر به المقام وواصل نضاله لبلده بكل ما يملك فحضر مؤتمر الأجناس المضطهدة للمرة الثانية ١٩١٦ ثم المؤتمر الدولى الاشتراكى فى ١ يونية ١٩١٧ ولما دعى لحضور المؤتمر الدولى الاشتراكى المنعقد فى بون فى يونية ١٩١٧ كان المرض قد أقعده

وألزمه الفراش فكتب إلى هيئة المؤتمر معتذراً عن عدم الحضور ، وقدم تقريراً كان أعده عن القضية المصرية التى لم يكن يشغله شىء سواها – وكذلك فعل عند ما دعى إلى المؤتمر الدولى الاشتراكى المنعقد فى أغسطس ١٩١٩ فى لوسيرون .

وفشلت كل المحاولات فى إقناع محمد فريد بأن يفكر فى العودة إلى بلاده خصوصاً بعد أن تدهورت صحته وأصبح صفر اليدين فأبى بإصرار وكان من قبل قد عاهد نفسه الا يعود إليها وقدم المحتل تدنس أرضها .

وهكذا عاش محمد فريد فى بلاد الغربة أمة فى فرد بعيداً عن الأهل والوطن متنقلاً بين تركيا وسويسرا وألمانيا ، مكرساً وقته وجهده للقضية المصرية ولخدمة مصر – مصر التى أغرم بحبها ولم يفتأ يصدر النشرات ويدعو للندوات ويحضر المؤتمرات على حسابه الخاص من ١٩١٢ إلى ١٩١٩ إلى أن هزل جسمه وساءت حالته المالية والصحية .

وفى سبيل مصر تقبل فريد بنفس مؤمنة كل ما صادفه فى طريقه من ظروف قاسية عصيبة – رضى أن يلبس الثياب المهلهلة وكان يلبس الحرير ، وأن يبيت على الطوى وكان ينعم بشهى الطعام وأوفره ، وأن يقطن فى حجرة متواضعة فوق سطح أحد المنازل هرباً من الأجر المرتفع الذى لا قبل له به وكان يقطن أفخم القصور وفى خدمته الخدم الكثير .

أتى على فريد وقت كان لا يجد فيه ثمن الدواء لعلاج علته إلا بشق الأنفس وإن وجده تنازل عنه بطيب خاطر وخصصه للصرف على طبع ما يصدره من نشرات خدمة لمصر .

ومن نكد الدنيا أن ينضب معين الإنسانية والوفاء فلا يجد فريد من حوله من يواسيه فى شقائه ومرضه اللهم إلا تلميذه الوفى الدكتور خليل مذكور الذى لازمه طوال سنوات حياته الأخيرة المليئة بالهموم والآلام ، جزاه الله خير الجزاء .

ولما قامت ثورة ١٩١٩ فى مصر أرسل فريد إلى سعد زغلول زعيم الأمة وزعيم الوفد برقية يرجو له فيها كمال التوفيق والنجاح . ومن عجيب أن تأخذ سعد العزة بالإثم فلا يرد على برقية فريد .

وشتان بين الموقفين . . موقف الوطنية البريئة لفريد رمز التضحية وهو يرسل برقية يهنئ فيها سعد بالثورة المصرية ويرجو له التوفيق برغم ما بينه وبين سعد من خصومة سياسية . وموقف السياسة اللاإنسانية لسعد وهو لا يرد على برقية فريد برغم أنه بعثها وهو على فراش الموت يقاسى من شدة المرض . وهكذا يكون الفرق بين زعيم وطنى تسمو به وطنيته وآخر سياسى تهوى به سياسته ، ولله فى خلقه شئون .

وفى ١٤/٩/١٩١٩ وجه فريد للأمة المصرية تحية لثورتها قال فيها : «إن هذا الصوت يناجيكم

من وراء البحار ليهنئ الأمة المصرية على تضافرها وتضامنها لا فرق فى ذلك بين أبنائها وبناتها مسلمين وأقباطاً . إنى أكتب هذه السطور اليوم وذكرى ١٤ سبتمبر تملأ فؤداى حزناً ولكنى أرى فجر الأمل يرسم على الأفق خطًّا من النور اللامع . نأمل أن يكون طليعة حريتنا المنشودة واستقلالنا المرجو» ومات فى سويسرا فى ١٩١٩/١١/١٥ أسكنه الله فسيح جناته ورحمه رحمة واسعة وجزاه عن الأمة خير الجزاء .

والذين كانوا يخشون فريد فى حياته خشوه فى مماته جسداً من عند أنفسهم ، فلم تفكر حكومة فى تكريمه بنقل جثمانه إلى وطنه وبقيت جثة الفدائى البطل بالخارج إلى أن تطوع مشكوراً الحاج خليل عفيفى من أعيان الشرقية ونقلها إلى مصر على حسابه الخاص .

وبمصر شيعت الجثمان الطاهر الآلاف من تلاميذه وأعضاء الحزب وعارفى فضله وجهاده إلى مقره الأخير بمقابر الإمام . وإنا لله وإنا إليه راجعون .

لم ينجب المرحوم فريد بك سوى ابنه الأستاذ عبد الخالق . وكنا نرجو أن يكون خير خلف لخير سلف وأن نراه وقد ترسم خطى والده فى الجهاد وتحمل المشاق والتضحية والفداء ! ونقول ذاك الشبل من ذاك الأسد ، إلا أنه بعد أن تخرج فى الحقوق آثر أن يكون موظفاً فى الحكومة وتدرج فى وظائف النيابة والقضاء حتى وافاه الموت فى السبعينات رحمه الله رحمة واسعة .

ولعلى أنصف المرحوم عبد الخالق بعض الشيء : أن أنا أرجعت عزوفة عن الاهتمام بالاشتغال بقضية بلاده إلى الظروف القاسية التى قضت بحرمانه من رعاية والده المباشرة عن كثب طول مدة غيابه فى الخارج فى خدمة مصر التى هام بحبها وإلى ما قاساه والده فى حياته من صنوف الاضطهاد والعنف ومحاربة المستعمر الغاشم وعملائه من أبناء الوطن وماجر عليه الجهد المضنى من مرض عضال وفقر مدقع حتى فقد صحته وثروته فى سبيل خدمة وطنه . ثم ما لمسه الابن من جحود السلطات المصرية وتنكرها لأبيه حتى فى أحلك أيام حياته وبعد وفاته وهو الوفى الأمين .

وخلف المرحوم فريد بك فى زعامة الحزب المحامى الكبير محمد حافظ رمضان باشا إذ انتخب رئيساً للحزب فى ١٩٢٣/٥/٨ وكان خطيباً مفوهاً حذا حذو مصطفى وفريد ، متمسكاً بمبدأ الجلاء الناجز والاستقلال التام لوادى النيل مصره وسودانه والملحقات ، وأخذ يلقى الخطب الوطنية الرائعة المدعمة بالحجج والبراهين فى مختلف المناسبات وفى المعارك الانتخابية التى خاضها بقوة وثبات وتحت قبه البرلمان الذى دخله ومعه من رجال الحزب عبد الرحمن الرافعى وعبد الحميد سعيد ومحمد محمود جلال ومصطفى الشوربجى وعبد العزيز الصوفانى وفكرى أباظة ومصطفى مرعى ونور الدين طراف ، وله مذكرات سياسية هامة من أهمها ماقدمها فى مجلس النواب سنة ١٩٣٢ عن مشروع جبل الأولياء

والمذكرة التى قدمها فى مؤتمر بروكسل يطلب فيها بإلحاح تقرير اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع ، ونجح أيما نجاح فى استجابة المؤتمر لطلبه المدعم بالبراهين القوية ، فقرر بالإجماع أن تكون الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع ، وقام الرئيس فى ختام الجلسة بتهنئة حافظ باشا وشكره بحرارة على بحثه القيم . وفى أواخر أيامه وضع حافظ باشا كتابه «أبو الهول قال لى» .

ودخل حافظ باشا رمضان الوزارة أكثر من مرة :

فكان وزير دولة فى وزارة محمد محمود باشا فى ديسمبر ١٩٣٧ .

وتولى وزارة الشئون الاجتماعية فى وزارة حسن صبرى باشا فى يونية ١٩٤٠ .

وتولى وزارة العدل ثلاث مرات أولها فى وزارة ماهر باشا فى أكتوبر ١٩٤٤ .

ثم فى وزارة أحمد ماهر باشا الثانية فى يناير ١٩٤٥ .

ثم فى وزارة محمود فهمى النقراشى باشا فى فبراير ١٩٤٥ .

ورأى البعض أن فى دخول الحزب الوزارة تعاوناً مع الأحزاب التى تكالبت على المفاوضة واتخذتها سبيلاً لحل القضية المصرية ، وفيه أيضاً تناقض مع مبدأ الحزب – لا مفاوضة إلا بعد الجلاء – .

ورغم أن الحزب مدة رئاسته كان ضعيفاً مفككا فقد قاعدته الشعبية وأصبح مكسور الجناح تضافر على محاربته بضراوة المحتل وعملاؤه حتى بات خاوى الوفاض فلا وفرة من مال للصرف على بث الدعوة ولا كثرة فى رجال لتحمل أعبائها والتزامات الجهاد ولا ناد يجمع شمل الأعضاء والأنصار ولا صحيفة تنطق بلسان الحزب .

ورغم قلة عدد ممثليه فى البرلمان إلا أن حافظ باشا والقلة المؤمنة وقفوا فى ميدان الجهاد كالطود الشامخ لا تلين لهم قناة لهم وزن وأى وزن صامدين متمسكين بالحق يدعون له ويذودون عنه فى قوة حتى أظهره الله وصدق فيهم قول الله تعالى : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) .

ومما يجدر الإشارة إليه فترة المعاناة التى قاساها الحزب بافتقاده فى الثلاثينيات القاعدة الشعبية العريضة التى كان يتمتع بها فى السنوات الأولى من تأسيسه وأنتفاضة بعض شباب الحزب وفى طليعتهم الأستاذ فتحى رضوان المحامى للعمل على تجديد نشاط الحزب فى نطاق الإطار القديم فى الأربعينيات من ١٩٤٤ إلى ١٩٤٩ بأصدار صحيفة اللواء الجديد (أسبوعية) لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ فتحى واستمرارها فى الصدور حتى توقفت عام ١٩٤٩ ، تنشر المقالات الملتهبة للأساتذة حافظ رمضان وعبد الرحمن الرافعى وأحمد توفيق وفكرى أباظة من الجيل القديم ، ويوسف حلمى ونور الدين طراف وسعد الدين كامل وأحمد شوقى بالإضافة إلى فتحى رضوان من الجيل الجديد . واستمرت حتى

نشرت فى مايو ١٩٤٩ بياناً بتوقيع « اللجنة العليا لشباب الحزب « الوطنى » تهاجم فيه قرار الحكومة من مد أجل الأحكام العرفية لسنة أخرى فكان ذلك الحادث بمثابة إعلان عن خروج جماعة شباب الحزب عن قيادته القديمة إلا أن نشاطها الثورى امتد حتى ١٩٥٢ سنة الثورة وسدت بذلك فراغاً كان ملحوظا .

مطبوعات الحزب الوطنى

١ – كتاب المسألة الشرقية لمصطفى كامل – سنة ١٨٩٨

١ – مكرر – الخطبة الجامعة للمرحوم الشاب مصطفى كامل بزيزينيا بالإسكندرية والتى أعلن فيها تكوين الحزب الوطنى ومبادئه

الثلاثاء ١٥ رمضان سنة ١٣٢٥

٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧

٢ – ترجمة رسائل مصرية فرنسية لعلى فهمى كامل ١٩٠٩

٣ – تقرير الحزب لمؤتمر فى جنيف ١٩١٢

٤ – تقرير الحزب لمؤتمر السلام فى لاهاى ١٩١٣

٥ – تقرير الحزب لمؤتمر الأجناس المضطهدة فى لندن ١٩١٤

٦ – تقرير الحزب لمؤتمر الأجناس المضطهدة فى لندن ١٩١٦

٧ – تقرير الحزب للمؤتمر الدولى الاشتراكى فى برن ١٩١٧/٦/١٠

٨ – تقرير الحزب للمؤتمر الدولى الاشتراكى فى لوشيرون أغسطس ١٩١٩

٩ – خطاب مفتوح لأعضاء الوفد (لا حماية – لا تحالف – لا اتفاق)

لمصطفى الشوربجى عضو اللجنة الإدارية للحزب يناير ١٩٢٠

١٠ – تقرير الحزب فى قواعد الاتفاق ١٢ محرم سنة ١٣٣٩ – ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠

١١ – المسألة المصرية لأمين الرافعى ١٩٢١

١٢ – ذكرى مصطفى كامل الثالثة عشرة ١٩٢١/٢/١١

١٣ – الحزب الوطنى – صفحة موجزة من تاريخه ١٩٢٤/١/٦

١٤ – الوطن فى خطر لمصطفى الشوربجى المحامى ٩ شوال ١٣٤٨ – ٩ مارس ١٩٣٠

١٥ – تقرير الحزب الوطنى فى مقترحات محمد محمود/ هندرسون

١٤ شوال سنة ١٣٤٨ – ١٥ مارس ١٩٣٠

١٦ – معاهدة أم حماية قاسية لعبد المقصود متولى عضو اللجنة الإدارية للحزب سنة ١٩٣٦

١٧ – قواعد المعاهدة استغلال أم حماية لعبد الرحمن الرافعى
سكرتير الحزب ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦

١٨ – مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا – لعلى فهمى كامل

١٩ – خطاب حافظ رمضان بمجلس النواب عن مشروع جبل الأولياء ١٩٣٢/٤/١٠

٢٠ – خطاب حافظ رمضان وخطاب مصطفى الشوربجى فى مجلس النواب
عن مشروع المرسوم بإنشاء خزان جبل الأولياء مايو ١٩٣٢

٢١ – أبو الهول قال لى ، جزء أول لحافظ رمضان رئيس الحزب . . .

٢٢ – علم الدولة . للأستاذ أحمد وفيق المحامى

سلسلة كتب عبد الرحمن الرافعى :

١ – حقوق الشعب سنة ١٩١٢

٢ – نقابات التعاون الزراعية ١٩١٤

٣ – الجمعيات الوطنية ١٩٢٢

٤ – تاريخ الحركة القومية جزآن ١٩٢٩

٥ – تاريخ الحركة القومية (عصر محمد على)

٦ – تاريخ الحركة القومية ثلاثة أجزاء (عصر إسماعيل ١٩٣٢)

٧ – الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى

٨ – مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ١٩٤٢

٩ – مصطفى كامل . . باعث النهضة الوطنية

١٠ – محمد فريد رمز التضحية والإخلاص

١١ – ثورة ١٩١٩ جزآن

١٢ – فى أعقاب الثورة المصرية ثلاثة أجزاء ١٩٥١

١٣ – خواطرى ومشاهداتى فى الحياة – طبع دار الهلال (١٨٨٩ – ١٩٥١)

١٤ – شعراء الوطنية فى مصر ١٩٥١

١٥ – أربعة عشر عاماً فى البرلمان (١٩٢٤ – ١٩٢٥) بمجلس النواب و (١٩٣١ – ١٩٥١)
مجلس الشيوخ .

١٦ – تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة أكتوبر ١٩٢٣ (من فجر التاريخ إلى الفتح العربى)
١٧ – مقدمات ثورة ١٩٥٢/٧/٢٣ سنة ١٩٥٥
١٨ – ثورة ١٩٥٢/٧/٢٣ لسنة ١٩٥٧
١٩ – مصر فى العصور الوسطى (من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى)
وهو على فراش الموت وأتمه سعيد عبد الفتاح عاشور سنة ١٩٧٠

* * *

لابد للحق من قوة تسنده

تكوين جمعية سرية باسم جمعية التضامن الأخرى :

وإيماناً من الحزب الوطنى بأنه لابد للحق من قوة تسنده وللوطن من جنود تفديه بالمهج والأرواح . وبأنه لابد لما حققه النضال الوطنى من نجاح فى أولى مراحله ، وهى مرحلة التوعية والتهيئة والإعداد من سياج قوى يحميه لتواصل القافلة الوطنية سيرها حتى تحقق غايتها المثلى – رأى أقطاب الحزب الوطنى أن يجهزوا ويعدوا من الشباب الوطنى المؤمن فدائيين يسندون الحق ويسارعون فى فداء الوطن بأرواحهم ، وهذا أول الشوط . وهكذا نبتت فكرة تكوين جمعية وطنية سرية باسم جمعية التضامن الأخوى . وكان على رأس من تعهدها بالرعاية والتنظيم السادة عبد اللطيف بك الصوفانى والجراح الكبير الدكتور إسماعيل بك صدقى وعبد الحميد بك سعيد وعبد العزيز جاويش من رجال الحزب .

ولما كان جو مصر السياسى والاجتماعى خانقاً بما يكبل به المحتل العاملين من قيود وما يضعه من عراقيل فى سبيل كل الجهود البناءة المخلصة . ومطاردته للمخلصين والتضييق عليهم . رأى أولئك الأقطاب – للتغلب على ذلك – إيفاد بعض الشبان إلى الخارج للتزود بالثقافة والمعرفة فى جو من الحرية والاطمئنان حتى إذا ما عادوا كانوا عدة الوطن وطليعة الفداء ، وتكونت فعلاً الشعبة الرئيسية للجمعية بالقاهرة برئاسة الأستاذ شفيق منصور والشعبة الرئيسية بالإسكندرية برئاسة محمد عوض جبريل .

أنا وأستاذ اللغة العربية (١٩٠٨) :

كنت يوم أن مات الزعيم الشاب فى السنة الثالثة الدراسية وأذكر أن أستاذ اللغة العربية الشيخ محمد الفقى – وقد بدت على وجهه علامات الحزن – وجه إلينا فى الفصل سؤالاً وقال : أتعرفون يا أولادى من مات ؟ ثم أتعرفون سر حزن الأمة العميق على وفاته ؟ «فنهضت وأجبت على الفور» رزئت مصر اليوم بفقد باعث نهضتها المدافع بإيمان وقوة وإخلاص عن حقها زعيمها الشاب مصطفى كامل باشا رئيس الحزب الوطنى وعمّ الأمة قاطبة الحزن العميق من هول الصدمة لذلك الخطب الجلل ، ولو كان يفتدى لفدته بأرواحها «فقال أستاذى موجها الكلام لى» وهل تود أن تكون يوماً ما عظيماً مثله ؟

فقلت نعم ، فما كان من أستاذى الجليل إلا أن طبع على جبينى قبلة أبوية وباركنى وهو يقول : أبشر يا عبد العزيز فستكون بإذن الله من تلاميذ الفقيد البررة الناهجين منهجه المجاهدين المخلصين .

أنا وممتحن اللغة العربية فى الامتحان بالابتدائية (١٩١٠) :

ونلت الشهادة الابتدائية ١٩١٠ وكنت أصغر الناجحين سنا فى مدرستى وكان ترتيبى الأول بالمدرسة والسادس بين ناجحى القطر ، ويسعدنى أن أذكر بهذه المناسبة عبارة أثلجت صدرى وأدخلت الاطمئنان على قلبى وجهها إلى ممتحن الشفوى فى اللغة العربية بعد أن أجبت على أسئلته حيث قال : «قم يابنى وعد لبيتك بسلامة الله مطمئناً مسرورا فقد أحسنت كل الإحسان وفقت الأقران . . . وما كنت ولاشك أصل إلى تلك النتيجة الطيبة لولا تعهد والدى لى بالمنزل ولولا حفظى لكثير من آيات القرآن الكريم وكثرة اطلاعى ، بجانب عناية أساتذتى بى بالمدرسة وهذا من فضل الله .

حرب طرابلس (١٩١٠) :

وفى عام ١٩١٠ قامت الحرب على قدم وساق بين المجاهدين الطرابلسيين بقيادة البطل عمر المختار والطليان يريدون تحرير بلادهم من الاستعمار وهبَّ الحزب الوطنى وقام بحملة قوية واسعة النطاق للحث على الجهاد وكون اللجان لتنظيم مد المجاهدين الطرابلسيين بالرجال والمؤن والأموال والسلاح وسارع الكل وتنافسوا فى البذل والعطاء وأبلى شباب الحزب الوطنى والأمة فى ذلك أحسن البلاء . . وكان يقود الطرابلسيين فى تلك الحرب الضروس البطل عمر المختار الذى دوخ الطليان وكبدهم أفدح الخسائر فلم يجدوا سبيلاً للتخلص منه – وقد عجزوا عن التغلب عليه – سوى ما اقترفوه من فعلة نكراء لا تحمل فى طياتها سوى منتهى الجبن والوحشية والنذالة إذ اختطفوه وحملوه فى طائرة ، ارتفعوا بها إلى علو شاهق فى الجو ثم رموا به من الطائرة فهوى واستشهد وظن الجبناء الأنذال أنهم بذلك خلصوا منه وفاتهم أنه خلف لتلاميذه من بعده صورة خالدة من صور الجهاد الحق التزموا بها فكان بعد مماته كما كان فى حياته مصدر رعب وخوف لهم .

وكان لجمعية التضامن الأخوى وخصوصاً شعبة الإسكندرية نشاط ملحوظ ومشكور فى تسهيل ترحيل الضباط الأتراك من الإسكندرية إلى طرابلس عبر الصحراء وفى تهريب الأسلحة للمجاهدين بمساعدة الماس عبد الله قومندان السلوم وقتئذ وفى مد المجاهدين بالمؤن وخصوصاً الأرز عن طريق أبو المطامير . وكان من أبرز القائمين على ذلك النشاط الدكتور إسماعيل صدقى الجراح أمين صندوق اللجنة الإدارية للحزب الوطنى وكان يخفى الضباط الأتراك فى عيادته إلى أن تتم إجراءات هربهم إلى

طرابلس وعبد اللطيف بك الصوفانى عضو اللجنة الإدارية للحزب والحاج رمضان زيان وشعبته المكونة من يعقوب صبرى ضابط مدرسة رأس التين الثانوية وعبد الله حسن عوض الموظف بجمارك الإسكندرية وإبراهيم أنيس الموظف بشركة سكك حديد الدلتا ومحمد عوض جبريل (رئيس الشعبة) تاجر الحبوب بميناء البصل وغيرهم .

مجهودى المتواضع : أما أنا فقد تمثلت فى ذلك المقام بقول الشاعر العربى :

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فلينفع النصح إن لم يغنك الحال

وسافرت فى إجازتى الصيفية إلى دلاص بلدة أخوالى بمركز الواسطى بمديرية بنى سويف لألقى بدلوى فى الدلاء وأقوم بقسطى فى الدعوة إلى مساندة المجاهدين الطرابلسيين وفى جمع التبرعات لهم .

خطبتى فى صلاة الجمعة (١٩١٠) :

وفى صلاة الجمعة بالمسجد الكبير بالبلدة فوجئ المصلون باعتلائى المنبر لألقى خطبة الجمعة . . وكنت أخذت بذلك إذنا من خالى العمدة المرحوم محمد بك وهيب الذى كاشفته بغرضى وأذن لى — وأنا إذ ذاك شاب صغير ، وهم الذين تعودوا سماع الخطبة كل مرة من شيخ عجوز ، فأخذتهم الدهشة وكان موضوع الخطبة «الجهاد» فى سبيل الله وأخذت أحضهم فى حماس الشباب على التطوع بالنفس والتبرع بالمال لنصرة إخوانهم المجاهدين فى طرابلس ضد أعدائهم الطليان المعتدين . مستشهداً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

أثر الخطبة فى نفوس المصلين والتبرع بـ ٣٠٠ جنيه :

وسجية أهل الريف الطيبة وهم خميرة صالحة لو وجدوا التوجيه الصالح الصادق ، أخذتهم الحمية الإسلامية — وهم على أميتهم يتحركون لكل ما هو دينى — واستجابوا لدعوتى وتبرعوا بمبلغ ٣٠٠ جنيه أرسل فوراً للجنة المركزية لجمع التبرعات . وكان من أروع وأنبل ما حدث أن وقف أحد الفقراء المعدمين ممن لا يملكون قوت يومهم وأخذ يخلع بشته (رداءه) وسط جموع المصلين وهولا يملك غيره ويقدمه تبرعاً منه فقام أحد الخيرين ورده إليه شاكراً له شعوره الحى ودفع عنه مبلغاً من المال .

ورجعت من البلدة إلى القاهرة شاكراً الله على نجاحى فى مهمتى معتزًّا فخوراً برجولة ومروءة أهل بلدى . ورأيت الاحتفاظ بنص الخطبة للذكرى وهى أول خطبة لى فى حياتى إلى أن استولى عليها البوليس السياسى ضمن ما استولى عليه من أوراق وكتب فى إحدى مرات تفتيش منزلنا بحثاً عن السلاح وما أكثرها .

التحاق بالخديوية الثانوية :

سنة ١٩١٠ التحقت بالمدرسة الخديوية الثانوية بدرب الجماميز وكانت تفضل قبول أصغر المتقدمين لها سنًّا . وشعرت أنى أنتقل من مرحلة اللامسئولية إلى مرحلة جديدة تتسم بقدر من الشعور بالجدية فى الحياة والرجولة والوعى والمسئولية ، وتملكنى إحساس قوى ورغبة ملحة فى التهيؤ قدر الطاقة لدور عملى فى الجهاد الوطنى وبدأت بجانب الزاد الروحى الذى سلحنى به أبواى منذ الطفولة أحصن نفسى بالاستزادة من الاطلاع على كل ما ينمى عندى حب الوطن والحق وكراهية الاستعباد والظلم . ورأيت زادى فى سيرة الرسول الأعظم فبدأت باستيعابها ثم سير الصحابة رضوان الله عليهم وأبطال المسلمين فى صدر الإسلام ثم سير المناضلين أمثال جمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبى الثائر الحلبى صاحب كتاب طبائع الاستبداد وكتاب أم القرى وقرأت لغاريبالدى ومازينى الإيطاليين وكروميل الإنجليزى وإبراهام لنكولن الأمريكى وقرأت الانقلاب العثمانى لجورجى زيدان ووطنيتى للشيخ على الغاياتى وغيرها ، مما زادنى إيماناً بأن الوطنية عقيدة وسلوك وعمل .

وودت لو أصبح يوماً خطيباً وطنيًّا متفانياً فى حب بلادى مثل زعيمى الشاب مصطفى كامل ، فكنت أجمع كراسى المنزل وأضعها فى صفوف على السطح وكنا نقطن رقم ٩ حارة خاتون بالجزيرة الجديدة بعابدين وأقف أمامها متخيلاً أنها مشغولة بالمستمعين وأخطب كأنى تماماً فى حفل وكنت أكرر ذلك كلما سنحت لى الفرصة .

سلوكى بالمدرسة :

وكنت من أول يوم التحقت فيه بالخديوية أواظب على الصلاة بمسجد المدرسة والاستماع إلى الدرس الدينى الذى كان يلقيه إمام المدرسة بعد صلاة الظهر كل يوم . وأشارك فى الاجتماعات الوطنية والحفلات السياسية وحفلات إحياء ذكرى وفاة الزعيم الشاب مصطفى كامل التى كانت تقوم بها لجان الحزب الفرعية فى كل حى من أحياء المدينة . وأشارك فى مواكب الجنازة الصامتة التى كانت تسير فى ذكرى وفاة الزعيم من دار اللواء بشارع الدواوين إلى قبر الفقيد بالإمام الشافعى تضم جميع طوائف الشعب حيث تلقى القصائد الوطنية والخطب الحماسية إيقاظاً للهمم وإلهاباً للشعور وتجديداً للعهد بالتمسك بمبدأ الجلاء الناجز والاستقلال التام لوادى النيل .

اختيارى مندوباً عن فصلى فى لجنة الطلبة بالمدرسة :

ولمس فىّ زملائى – مع صغر سنى – الاستقامة والسلوك السوى والوطنية المتطرفة ورجاحة الفكر مع حب العمل فى صمت وأناة وبعد عن المن وحب الظهور – غرس والدى – وكلها فضائل تهيئ صاحبها لحمل المسئولية . وحزت ثقتهم فاختارونى أولا مندوباً عن فصلى فى لجنة الطلبة بالمدرسة ثم مندوباً عن فصول السنة الأولى كلها لأمثلهم فى اجتماعات اللجنة التى كان يغلب عليها الطابع السياسى . . وأحمد الله أنى كنت عند حسن ظن الجميع وقمت بدورى برغبة صادقة وعلى أكمل وجه مما سلط على الأضواء .

أمر المعتمد البريطانى بمنع حفلات الذكرى :

واستفحل أمر تلك الحفلات الوطنية الملتهبة والمواكب السنوية الصامتة الجامعة حتى ضاق بها المعتمد البريطانى ذرعاً – واستشاط غضباً وخشى خطرها فأمر بخنقها بل منعها بتاتاً ولو بالقوة ورضخت الوزارة للأمر – شأن كل وزارة عميلة تأتمر بأمر المحتل ولا تعصى له أمراً – وتوعدت الوزارة بالشر والعقاب كل من يخالف أمر المندوب .

خاب ظن المعتمد وأعوانه :

وظن المعتمد (وخاب ظنه) أنه بذلك التصرف التعسفى يميت الروح الوطنية ويرهب النفوس المؤمنة الممتلئة حقداً وكراهية للغاصب ومعاونيه – وفاته – كما يفوت كل طاغوت – أن التعسف يزيد النفوس صلابة والنار اشتعالاً . وأن الوطنية الصادقة كالسيل المنهمر لا يتصدى له عائق إلا اكتسحه .

القافلة تسير :

نعم – والحق يقال – إن الاجتماعات السياسية وحفلات الذكرى والمواكب السنوية الصامتة قلت ولم تأخذ طابع الظهور العلنى ، واتخذت سبيلاً آخر ، فكانت تقام بحذر وفى حدود ضيقة ولم تفقد جوهرها أبداً وإن فقدت تحت ضغط الظروف مظهرها ، ولم يطغ اهتمامى بالمسائل الوطنية على استذكار دروسى بجد ونقلت بتفوق إلى السنة الثانية .

أول اغتيال سياسى فى ١٩١٠/٢/٢١ :

وكما تميز عام ١٩١٠ بحرب طرابلس فى الخارج تميز بحادث جلل فى الداخل يوم أن اعتدى فى ١٩١٠/٢/٢١ الفدائى الأول إبراهيم ناصف الوردانى ولم يتجاوز من العمر ٢١ عاماً – بعد أن أتم دراسة الصيدلة فى سويسرا وعاد إلى وطنه وأنشأ صيدلية له بشارع عبد العزيز بجوار قسم عابدين – على بطرس غالى باشا ناظر النظار الذى ولى الرئاسة من ١٩٠٨/١١/١٢ فأصابه إصابة قاتلة نقل بعدها فوراً إلى مستشفى ملتون بشارع عبد الدايم (قريباً من شارع الدواوين) لإسعافه بالعلاج وبادر الخديو عباس حلمى الثانى بزيارته للاطمئنان عليه إلا أنه مات متأثراً بجراحه وخلفه فى رئاسة النظارة محمد سعيد باشا من ١٩١٠/٢/٢٣ إلى ١٩١٤/٤/٥ .

المتهمون مع الوردانى :

وقبض على الوردانى واتهم معه من أعضاء الجمعية المهندسون على مراد ومحمود أنيس وعبد العزيز رفعت والطالب بالهندسة محمود كمال والطالبان بالحقوق شفيق منصور وعبده البرقوقى والمحامى عبد الخالق عطية وحبيب حسن . وكلهم أعضاء فى جمعية التضامن الأخوى .

اعتراف الوردانى وأسباب القتل :

وحقق معهم واعترف الوردانى بأنه القاتل وحده دون شريك معه . ولما سأله رئيس النيابة عن سبب القتل أجاب على الفور « لأنه خائن للوطن وجزاء الخائن البتر » وصرح بأنه قتل ناظر النظار بطرس غالى لموافقته على مد امتياز قناة السويس إلى ١٩٩٩ وكان ينتهى ١٩٦٥ (وكان سعد زغلول قد دعا مجلس شورى القوانين إلى مد امتياز القناة وشرح مزاياه ، وعلمت جمعية التضامن الأخوى بنية الحكومة استصدار ديكريتو من الخديو لمد الامتياز فقررت اللجنة الرئيسية اغتيال بطرس) ولتوقيعه مع الإنجليز اتفاقية السودان ١٨٩٩ التى أعطت إنجلترا حق مشاركة مصر فى السودان . ولرئاسة محكمة دنشواى وإصدار الأحكام الجائرة على المواطنين الأبرياء سنة ١٩٠٦ ولإصداره قانون المطبوعات والقوانين الاستثنائية لخنق الحريات . ولم يعترف الباقون بشىء وإنما هم شركاء فى جمعية تعاونية لا شأن لها بتاتاً بالسياسة أو استخدام القوة .

الحكم وقول الشعر :

أحيل الجميع إلى قاضي الإحالة الأستاذ متولى غنيم فأحال الوردانى إلى محكمة جنايات مصر فى دور السبت ٢ أبريل ١٩١٠ (التى قضت بإعدام الوردانى شنقاً) وبرأت الثمانية الآخرين لعدم ثبوت تهمة اشتراكهم فى الحادث ، وألقى الشيخ على الغاياتى فى ساحة المحكمة ساعة صدور الحكم قصيدة جاء فى مطلعها :

عبد النبوة أم عبد البراءات   قولوا معى يحيا قاضى الإحالات

ونفذ حكم الإعدام شنقاً فى الوردانى فى ١٩١٠/٦/٢٨ ولقى ربه رابط الجأش ، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته مع الشهداء والأبرار .

وحيا الشعر القاضى إذ قال :

حكمت فأرضيت البلاد وأهلها   وحياك موسى بعد عيسى وأحمداً

واهتزت البلاد لفقد الوردانى وسجل الشيخ على الغاياتى (حزب وطنى) الحادث فى كتابه « وطنيتى » (الذى قدم له الزعيم محمد فريد وسجن من جراء ذلك ثم نفى من البلاد) فى قصيدة أذكر منها :

ماذا جرى فى ساحة الديوان   قتل الخئون مسدس الوردانى
طلقات نار أم طعان مهند   فدوى نذير الموت فى الأركان
فرماه عن كثب بست عجلت   خطوات عزرائيل بالأكفان
ماذا دهى شيخ الوزارة فارتمى   فوق الثرى يشكو الردى ويعانى

سفرى إلى ناهية بالجيزة لنسخ كتاب وطنيتى :

وأذكر أن الحكومة صادرت الكتاب وكان قد وصل إلى أيدى البعض وانتشر خبره وكان يسكن بمنزلنا محمد الزمر الطالب بالمدرسة السعيدية وأسر لى أن عائلته بناهية بالجيزة تحتفظ بنسخة منه ، ودفعتنى الرغبة القوية فى الاطلاع عليه إلى الاتفاق مع الزمر على السفر معاً إلى ناهية – وكنا فى رمضان وهناك فكرت فى نسخ الكتاب وبقيت فى ضيافة العائلة إلى أن انتهيت من نسخه وعدت وتهافت إخوانى على تلاوته .

وفاة شقيق الأصغر ١٩١١ :

ومات فى تلك السنة عبد الرحمن أصغر أشقائى وأحبهم إلى نفسى وإلينا جميعاً ، وتحضرنى الصورة الرائعة التى تجلت فى إيمان العائلة صغيرها وكبيرها بقضاء الله وصبرها على المصيبة امتثالاً لقول الله تعالى : (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون .) فمرت المصيبة دون أن نسمع عويلاً أو صراخاً أو نشهد سخطاً أو ضجراً مما كان يقع فيه عادة – والعياذ بالله – السواد الأعظم من الناس فى تلك المواقف ضعفاً من أنفسهم ونزغًا من الشيطان .

انضمامى إلى جمعية التضامن الأخوى السرية :

وكأن الله أراد أن يخفف عنى الحزن فحقق لى أمنية كنت أرجوها ، إذ تم فى نفس العام انضمامى إلى جمعية التضامن الأخوى السرية . . ذلك أن صديقى حسين ثابت الذى لازمنى فى الدراسة من السنة الأولى بمدرسة عابدين وتوثقت بيننا عرى الصداقة الأكيدة والمحبة الخالصة كاشفنى ذات يوم بأنه انضم من عهد قريب إلى جمعية سرية تستهدف خدمة الوطن عن طريق تطهيره من الخونة وعملاء المحتل باغتيالهم .

مراقبة العضو سرا :

وبأنه رشحنى للانضمام إلى الشعبة التى هو عضو فيها ويرأسها عبد الرحمن صالح الطالب بكلية الطب . وبأنى كنت تحت مراقبة سرية دقيقة من جهاز الجمعية وفق النظام المتبع بها عند ترشيح عضو جديد للانضمام وبأنه لم يصارحنى بذلك كله إلا بعد أن علم من رئيس الشعبة أن مراقبتى أسفرت عن تأييد لتزكيته وترشيحه لى . ثم ختم حديثه بأنه لا يشك فى موافقتى على الانضمام فشكرته على ثقته بى وأعلنت له موافقتى ، بل تلهفى على إتمام تلك الخطوة التى أتممناها ، فوعدنى بأنه سيعمل الترتيب اللازم لحلف اليمين وفق نظام الجمعية لأصبح عضواً .

حلف اليمين :

وبعد ذلك اللقاء بأيام قليلة زارنى حسين ثابت بمنزلى بعد الغروب وطلب منى أن أخرج معه

لحضور جلسة سرية لحلف اليمين . وما إن غادرنا منزلنا وسرنا قليلاً فى اتجاه شارع خيرت (وهو قريب من منزلنا) حتى عصب عينى كى لا أعرف المكان الذى نقصده ولم يطل بنا السير وأنا معصب العينين حتى شعرت بأننا عرجنا إلى حارة متفرعة من الشارع ودخلنا منزلاً وصعدنا السلم فى هدوء إلى الدور الأول وطرق حسين باب الشقة بطريقة متفق عليها (ثلاث دقات بخفة) وفتح الباب ودخلنا وشعرت بأنى أمر بين جسمين لعضوين احتك جسمى بهما فى ظلام دامس وسكون رهيب ، وتركنى حسين ودخلت إحدى الحجرات وأجلست على كرسى وأنا معصوب العينين أيضاً لا أرى أحداً وإن كنت أسمع همهمة أنفاس وصلصلة سيوف وقرقعة زناد (وكأنها للإرهاب وامتحان قوة أعصابى) ثم أحسست فى نفس الوقت بيد تجس نبضى وبأذن تسمع دقات قلبى . ثم بدا صوت خافت ولكنه فى قوة موجها إلى بعض الأسئلة العامة لتبين معلوماتى عن القضية المصرية والحركة الوطنية والاحتلال البريطانى وأعوانه وأذنابه من المصريين أجبت عليها فى ثقة وهدوء ثم طلب إلى أن أضع يدى على مصحف ومسدس فوق منضدة أمامى وتشابكت يدى مع بعض الأيدى ممن كانوا حولى وكنت أحس وجودهم وأسمع همهمتهم ورددت القسم « أقسم بالله العظيم أن أهب نفسى ومالى وما أملك فداء لوطنى وأن أنفذ أوامر الجمعية دون تردد وبأمانة وإخلاص وألا أفشى سرها وأن لا أشرب الخمر ولا أغشى الفجور وإلا كان جزائى الإعدام والله على ما أقول شهيد »ثم طلب إلى أن أتلقى تعليمات وأوامر الجمعية من العضو الذى زكانى . ثم خرجت من الحجرة وتلقانى زميلى حسين وغادرنا الشقة للعودة إلى منزلى وفى الطريق رفع العصابة عن عينى .

أول جلسة لشعبتنا :

ولم يمض على حلف اليمين يوم حتى ذهبت مع حسين إلى منزل رئيس شعبتنا الدكتور عبد الرحمن صالح ببركة الفيل بالسيدة زينب (قريباً من منزل حسين) وكان فى انتظارنا ، وبدأ حديثه معنا بالترحيب وبانضمامى إلى شعبته التى أصبحت مكونة منه ومن حسين ومنى . ثم دار الحديث حول موضوعات عامة ثم حول العمل الفدائى وكيف ومتى ولماذا تكونت الجمعية مما سبقت الإشارة إليه . ثم انصب الحديث على ما قام به أحد أفراد الرعيل الأول البطل الفدائى إبراهيم ناصف الوردانى .

مواصلة الاجتماعات :

توالت اجتماعات شعبتنا وكانت كلها تدور حول وجوب تتبع الأحداث الجارية بيقظة واهتمام وحول إعداد الشعبة وتهيئتها لرسالتها والحصول على السلاح وتعلم طريقة فكه وتركيبه وصيانته

والتدريب على الرماية واعتماد كل عضو على إمكانياته الذاتية – لقلة موارد الجمعية فى تدبير المال اللازم لشراء مسدس خاص به على أن تساعده الجمعية فى الحصول عليه .

صندوق ادخــار :

وقد تواصينا فى إحدى الجلسات على أن يكون للشعبة صندوق ادخار تجمع أمواله مما يدفعه كل عضو من اشتراك شهرى رمزى للصرف منه على العضو أو ذويه من بعده عند الحاجة تأميناً له ولهم . كما تواصينا على تكملة الشعبة بضم عضو جديد ، وفعلاً رشحت أنا وحسين صديقنا حسن سالم وكنا زملاء معاً بمدرسة عابدين الابتدائية ووضع تحت الرقابة بالطريقة المتبعة وانضم إلى الشعبة وأصبحت كاملة العدد . وهنا قررنا أن يسعى كل عضو فى تكوين شعبة خاصة له يرأسها ويكون همزة الوصل بينها وبين شعبته الأصلية فى نطاق وتعليمات الجمعية مراعياً بكل دقة الكيف لا الكم وإن طال به المدى فى الاختيار لضمان سلامة الجهاز حتى لا يضم له إلا خلاصة الخلاصة وحتى نأمن الزلل .

حصولى على مسدس والتدريب على الرماية والسباحة وركوب الخيل :

وقد وفقت فى بضعة شهور إلى توفير ثمن المسدس من مصروفى الخاص ويسر لى رئيس الشعبة الحصول عليه . وأخذت أنتهز فرصة سفرى إلى بلدة أخوالى دلاص فى الإجازات الصيفية والمدرسية (وكنت أقضيها هناك كل عام) وأتدرب على الرماية بالبندقية والمسدس على يد ابن خالى الشيخ قرنى قطب (وكان من هواة حمل السلاح) فأجدتها كما أجدت السباحة وركوب الخيل عملاً بوصية الرسول الأعظم : « علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل » .

مؤامرة شبرا سنة ١٩١٢

أثر حادث الوردانى :

لم يكن يخطر ببال أولى الأمر أن يفاجأوا يوماً ما بحادث جلل هو الأول من نوعه ، حادث اغتيال ناظر النظار بطرس غالى باشا سنة ١٩١٠ بيد الشاب الوطنى الفدائى البطل إبراهيم ناصف الوردانى

إضافة المادة ٤٧ مكرر لقانون العقوبات :

كما كشف التحقيق فيه عن نقص فى نصوص قانون العقوبات بخصوص الاتفاقات الجنائية فبادرت الحكومة باستكمال ذلك النص فى القانون بضم المادة ٤٧ مكرر ونشطت فى نفس الوقت

بإنشاء ما أسمته المكتب السياسى برئاسة مأمور الضبط جورج فيليدس وأمدته بعدد كبير من البوليس السرى من العاطلين والمتسكعين وما أكثرهم ، ورصدت له الأموال الباهظة ينفق منها بلا رقابة ولا مراجعة ولا بحث فى الأوجه التى صرفت فيها . واختص المكتب بمراقبة وتتبع ورصد تحركات ونشاطات الشباب الوطنى وتقديم التقارير السرية عنها لتفادى الخطر قبل وقوعه .

الوردانى الأسوة الحسنة للفدائيين :

كان حادث الوردانى هو الشعلة التى أنارت الطريق للمؤمنين العاملين فى حقل الوطنية ممن يعدّهم الحزب الوطنى للفداء والتضحية بأرواحهم تمكينا لدعوته ، ورأوا فى الوردانى البطل نعم القدوة والمثل .

الحزب الوطنى رائد الحركة الوطنية :

واشتد عضد الحزب وزاد عدد المعتنقين لمبدئه والمناصرين له وتضاعف نشاطه وأصبح مكمن الخطر على المحتل وأعوانه ومصدر القلق لهم . وكانت جريدة اللواء لسان حال الحزب تواصل نشر مقالاتها الملتهبة لتشعل روح الوطنية وتغرس فى النفوس روح الكراهية لأعداء البلاد .

وكانت حفلات الحزب السياسى وندواته الوطنية فى مختلف المناسبات تفيض كلها بعبارات الحث على الجهاد وبالتوجيهات الصادقة الأمينة ، وبالأخص على العمل الثورى والفداء لتخليص البلاد والوصول بها إلى مرتبة البلاد الحية المتقدمة .

إعداد شباب الحزب .

وكان ذلك اللون من النشاط من ناحية أخرى ميداناً للشبان ينفثون فيه عما يخالج صدورهم من كراهية للغاصب وأعوانه والإعداد للتخلص منهم وإنشاء مدرسة فيها يتدربون ويتناقشون على حسن الإلقاء والإقناع ليؤهلوا أنفسهم لتبليغ رسالة الحزب والدعوة لها على أكمل وجه .

نشاط المكتب السياسى :

ورأى المكتب السياسى الفرصة سانحة ليلقى شباكه ، إذ هيأت له الظروف عملاً يثبت به وجوده ويؤدى وظيفته ، ونشط فى مراقبة وتتبع نشاطات الحزب الدائمة والتسلل إلى اجتماعاته وترصد حركات واتجاهات أعضائه وأنصاره والتحليل على الاندساس بينهم والاندماج بهم وخصوصاً المترددين منهم على داره ثم وضع التقارير السرية أولاً فأولاً إلى وزارة الداخلية .

ممن سلط عليهم الأضواء :

ولمس المكتب أن من بين شباب الحزب نشاطاً وحيوية وظهوراً إمام واكد الذى كان طالباً بالمدرسة السعيدية الثانوية وفصل منها بأمر سعد باشا زغلول ناظر المعارف بسبب نشاطه السياسى ، وسافر إلى أوربا ودرس نظام الجمعيات السرية والعمل الفدائى وعاد إلى مصر شعلة وطنية ، يكتب المقالات الوطنية بجريدة اللواء لسان حال الحزب ويلقى الخطب الوطنية المتطرفة فى الاجتماعات ويحث على التضحية والفداء فكشف عن ميوله واصطفى من بين زملائه محمود طاهر العربى الطالب بالمدرسة الإلهامية الثانوية ومحمد عبد السلام المدرس والمحرر باللواء وكون برئاسته شعبة لجمعية التضامن الأخوى السرية انضم إليها مصطفى مصطفى المحلاوى الشهير بمصطفى كامل بتزكية من محمد عبد السلام الذى أولاه ثقته لصلته به من أيام الصبا .

أول خطوات البوليس :

وسلط البوليس أضواءه على واكد وزملائه ولاحظ اختلاطهم ببعضهم وكثرة لقاءاتهم ، وبانتظام فى مكان يكاد يكون هو المفضل عندهم وهو قهوة العائلات بشبرا ، فاشتبه فى أمرهم وأوجس خيفة من تلك الاجتماعات فدس عليهم الجاسوس صالح شاكر ليمثل دوره على أنه وطنى ثائر مستعد للتضحية وأن ميوله توافق ميولهم فانخدعوا واطمأنوا له ولازمهم فى كثير من تحركاتهم فأراد أن يعجم عود أحدهم ليكون عضده فى التجسس على زملائه وبدا بإغواء عبد السلام ولم يفلح ثم هدده فلم يفلح أيضاً إذ وجد فيه صلابة لا يغريه المال ولا يرهبه الوعيد . فاتجه نحو مصطفى يستدرجه ويدخل فى روعه أن فيليدس يعز ويذل فأغراه بالمال ولوح له بمركز مرموق فى الحكومة فوجد فيه بعد عدة لقاءات المطية المطيعة الذلول فاستجاب للإغواء وهو الضعيف المعدم رقيق الحال وباع نفسه للشيطان وفقد ضميره (إن كان له ضمير) وخان إخوانه فكان عين البوليس داخل الشعبة يسمع ويرى ويبلغ فيليدس أولاً بأول وزملاؤه فى غفلة من أمره وهنا مكمن الخطر .

علمه بالتآمر على القتل :

وعلم البوليس من مصطفى هذا أن فى نية واكد وزميليه طاهر العربى ومحمد عبد السلام قتل ناظر النظار محمد سعيد باشا والمعتمد البريطانى لورد كتشنر وخديو مصر عباس حلمى الثانى والمستشارين محمد مجدى ومستر ولبروظو وأنهم حددوا يوم ١٩١٢/٦/٢٦ لقتل الثانى بمحطة مصر وهو عائد بالقطار من زيارة سخا وأن يقوم طاهر بالعمليتين .

علمه بالمرشحين الجدد :

وعلم البوليس أيضاً أن فى نية الشعبة ضم أعضاء جدد وأن طاهر العربى رشح محمد توفيق البنياوى الموظف بالخاصة الخديوية وأن محمد عبد السلام رشح محمد حمدى أبو جبل وأن إمام واكد رشح محمود رمزى نظيم الذى حاز رضا الجميع كما جاء على لسانهم ذكر اسم سيد أحمد المليجى لضمه إليهم .

إبلاغ لورد كتشنر بخبر التآمر :

وبادر فيليدس فكلف مصطفى بمقابلة لورد كتشنر فى ١٩١٢/٦/٢٧ (وكان محمود طاهر سافر إلى الإسكندرية فى ١٩١٢/٦/٢٦ لقتل محمد سعيد باشا ولم ينفذ القتل وعاد بخفى حنين) للوشاية بزملائه الثلاثة وتبليغه بتآمرهم على قتله هو ورئيس الوزراء والخديو للعلم وليأخذ اللورد حذره وبأن البوليس من ناحيته اتخذ التدابير المشددة للمحافظة على حياتهم .

محاولة طاهر اغتيال محمد سعيد ثم لورد كتشنر وفشله فى المرتين :

وفى ١٩١٢/٦/٣٠ ذهب محمود طاهر العربى إلى محطة مصر قبيل وصول اللورد كتشنر عائداً من سخا لمحاولة اغتياله فرأى مدخل المحطة ملغماً بالجواسيس ورجال البوليس وعاد كتشنر ومر فى طريقه بطاهر الذى ارتبك ولم ينفذ القتل ونجا كتشنر كما نجا محمد باشا سعيد من قبله .

معرفة البوليس بميعاد ومكان اجتماع المتآمرين :

وفى ١٩١٢/٦/٦ علم البوليس أن إمام واكد ومحمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام اتفقوا على اللقاء بمكانهم المختار بقهوة العائلات بشبرا مساء وكانت هى الفرصة الذهبية لفيليدس لحبك مؤامرته ومباغتتهم والقبض عليهم واستدعى مأمور الضبط ثلاثة من مأمورى الأقسام هم محمود أحمد مأمور قسم عابدين ومحمد نبيه أمين مأمور قسم الموسكى وموسى جاد الله مأمور قسم شبرا وطلب إليهم إعداد كمين للثلاثة (وكان معهم مصطفى) بجوار المكان الذى اعتادوا الجلوس فيه بحديقة القهوة وذلك بوضع ساتر يفصل بينهم وبين واكد وزميليه بحيث يرونهم ويسمعون حديثهم دون أن يشعروا هم بوجودهم .

وطالت جلسة واكد ومن معه حوالى الساعتين استعرضوا فيها الكثير من شئون الشعبة وأسباب

فشل طاهر فيما كلف به ومماينوونه من تطعيم الشعبة وتوسيع نطاق عملها كما استعرضوا أسماء بعض من يأنسون فيهم الاستعداد للانضمام للجمعية ممن سبق ذكرهم ، كل هذا والبوليس يستمع ويدون حتى حان وقت انصرافهم فقاموا قاصدين العودة إلى بيوتهم وذهبوا لركوب الترام فتعقبهم الضباط المختبئون بالكمين وركبوا معهم الترام حتى إذا ما كانوا أمام قسم شبرا قبضوا عليهم وكان فى انتظارهم أمام باب القسم جورج فيليدس مأمور الضبط وبعض الضباط - وفتشوهم فوجدوا مع إمام واكد مسدساً من نوع (البرونج) ذا العشر طلقات فسحبوه منه وأودعوهم السجن للتحقيق معهم .

انسحاب رابعهم قبل القبض عليهم حسب اتفاق مسبق مع فيليدس :

ومن الجدير بالذكر أن مصطفى رابعهم كان حاضراً ذلك الاجتماع الخطير (وهو المبلغ عنه) وباتفاق سابق مع البوليس استأذن وترك الاجتماع قبيل انفضاضه والقبض عليهم بدعوى أنه مضطر لمفارقتهم لزيارة أخته ، وكانت فعلاً تسكن بشبرا قريباً من القهوة فسمحوا له ولم يدروا ما خبأه لهم القدر بسبب خيانة زميلهم الذى وضعوا الثقة فيه دون جدارة .

محاكمة المتهمين أمام محكمة مصر الابتدائية :

وقدم إمام واكد ومحمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام إلى المحاكمة أمام محكمة مصر الابتدائية بتهمة التآمر على قتل الخديو واللورد كتشنر ومحمد سعيد باشا ومحمد مجدى باشا والمستر ولبروطلو المستشارين فى محكمة الاستئناف . وكانت الجلسة برئاسة ذو الفقار باشا وعضوية المستشارين توفيق رفعت بك وموسى بك ، وجلس فى كرسى النيابة النائب العمومى عبد الخالق ثروت باشا وبحضور رئيس المحكمة يحيى إبراهيم باشا . وطلب النائب العمومى معاقبة المتهمين بالمادة ٤٧ مكرر عقوبات وتولى الدفاع عن المتهمين الأساتذة إبراهيم بك الهلباوى عن إمام واكد ومصطفى الشوربجى عن طاهر العربى وعبد الوهاب البرعى عن محمد عبد السلام .

الحكم - أغسطس ١٩١٢ :

وبعد سماع أقوال المتهمين والشهود (شهود النفى والإثبات ودفاع المحامين ومرافعة النائب العمومى أصدرت المحكمة حكمها بناء على المادة (٤٧) عقوبات مكررة على إمام واكد بالأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة وعلى محمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام بالسجن ١٥ سنة مع الشغل .

إشاعة تلفيق المؤامرة :

وعمت القطر إشاعة مؤداها أن مؤامرة شبرا ملفقة ، لفقها البوليس السياسى ليبرهن على صحة دعواه التى روج لها بأن الحزب الوطنى طرح وسائل المسالمة فى جهاده ونادى باتباع وسائل العنف والاغتيالات السياسية ، وليبرر من ناحية أخرى حملة القبض والاعتقالات والنفى التى شنها على المواطنين والتى كانت سبيلاً له ولجواسيسه للحصول على الرشوة وسبباً فى ثرائهم الفاحش . بإيهام ضعاف النفوس بأن بيدهم الأمر وعليهم أن يدفعوا المال (الإتاوة) إن أرادوا الإفلات من البطش والتلفيق .

رأيى فى الموقف :

وفى رأيى (وهو الأكرم للمتآمرين) أن النية كانت فعلاً مبيتة عند المتآمرين وأن القضية لها نصيب من الصحة ولولا ما وقعوا فيه من أخطاء جسيمة لا تتفق وأنهم فدائيون لما مكنوا منهم البوليس بحال من الأحوال ولما فشلوا فى تحقيق غايتهم وكانت أخطاؤهم فى نظرى واعتقادى كالآتى :

أخطاء المتآمرين :

أولاً : أكثروا من الخطابة فى الاجتماعات ومن الكتابة فى الجرائد وجهروا بميولهم المتطرفة فى حماس ووضوح فلفتوا إليهم الأنظار . والفدائى يعمل فى صمت ولا يتكلم وإن كتب أو نطق فما يكشف سرًّا عن طويته وحبذا لو أعدوا أنفسهم لمهمتهم بالتدريب سرًّا على السلاح ومواقف النزال .

ثانياً : تعجلوا – بلا مبرر – فى قبول رابعهم مصطفى كامل لمجرد صلته القديمة بأحدهم محمد عبد السلام ولو أحسنوا لخبروه جيداً قبل أن يضموه وهذا ما يحتمه نظام العمل الفدائى . ولكنهم غفلوا عن ذلك وضموه فكان وبالاً عليهم لا عوناً لهم إذ ضعف أمام المغريات وهو رقيق الحال وضيع النفس فخانهم .

ثالثاً : اطمأنوا لدخيل عليهم اندس بينهم وأخذ بدهائه يتودد إليهم وغرهم بحماسه الكاذب ووطنيته المفتعلة ، هو الجاسوس صالح شاكر فأوقعهم فى حبائله متخذاً من أحدهم عضداً له هو مصطفى كامل والمفروض فى الفدائى أن يكون يقظاً حريصاً لا تغره المظاهر ، فطناً لا تأخذه

الغفلة حتى يأمن الزلل .

رابعاً : التزموا فى لقاءاتهم بمكان واحد معين هو قهوة العائلات بشبرا ، وركن معين من القهوة ، وبتعدد لقاءاتهم على هذا الحال لفتوا إليهم الأنظار ، وفى ظنهم أنهم بعيدون على الأنظار – ولو وفقوا لخرجوا عن ذلك الالتزام ، إذن لنجوا من الظنون والشبهات .

الحرب العظمى الأولى ١٩١٤/٦/٢٨ :

فى سنة ١٩١٤ التحقت بمدرسة المحاسبة والتجارة العليا وفى ٢٨ يونيو من تلك السنة قتل أحد الصربيين ولى عهد النمسا الأرشيدوق فرانسوا فردينالد وكان ذلك الحادث نذير الحرب بين النمسا والصرب فأعلنت الأولى الحرب على الثانية فى ٢٨ يونيو وانضمت روسيا إلى الصرب لنجدتها كما انضمت ألمانيا إلى النمسا حليفتها . ووقفت فرنسا إلى جانب حليفتها روسيا ثم دخلت بريطانيا الحرب إلى جانب روسيا وفرنسا فى ١٩١٤/٨/١٤ وبعدها أعلنت تركيا الحرب على روسيا فى ١٩١٤/١١/١ وعلى إنجلترا وحلفائها فى ١٩١٤/١١/٥ .

ما اقترفته إنجلترا ضد مصر من جرائم :

أما مصر فقد قطعت علاقاتها – تحت ضغط إنجلترا وإيعازها – مع ألمانيا ثم مع النمسا والمجر فى أغسطس ١٩١٤ ، ثم مع تركيا فى ١٩١٤/١١/٧ . وتوالت الأحداث الجسيمة سراعاً وأصبحت طرق مواصلاتنا ومطاراتنا وتموينا فى خدمة الجيوش البريطانية بالإكراه .

تعطيل الجمعية التشريعية وتقييد الحريات واتخاذ مصر قاعدة حربية :

وفى أكتوبر ١٩١٤ عطلت إنجلترا الجمعية التشريعية وقيدت الحريات وأغلقت نادى المدارس العليا مركز النشاط السياسى والاجتماعات الوطنية ووضعت قانون منع التجمهر وأخضعت الصحافة ووسائل الإعلام للرقابة الشديدة . واتخذت من مصر قاعدة حربية عامة للحلفاء فى الشرق الأوسط تدفق عليها الجنود من مختلف أنحاء الإمبراطورية .

إعلان الأحكام العرفية :

وفى ١٩١٤/١١/٢ أعلن قائد جيوش الاحتلال الأحكام العرفية وتولاها باسم إنجلترا لا باسم مصر (عنوًّا وصلفاً) .

إعلان الحماية :

وفى ١٩١٤/١٢/١ أعلنت إنجلترا الحماية البريطانية على مصر متعللة بدخول تركيا الحرب ضدها فى ١٩١٤/١١/٥ فقطعت بتصرفها الإجرامى آخر خيط يربط مصر بتركيا صاحبة السيادة الاسمية عليها .

خلع الخديو عباس حلمى الثانى :

وفى ١٩١٤/١٢/١٩ وإنجلترا ماضية فى تنفيذ مخططها الإجرامى وقد خلا لها الجو ، خلعت الخديو عباس حلمى الثانى عن عرش مصر وكان غائباً عن بلده فى زيارة للآستانة . وتعيد تلك الخطوة التعسفية إلى الذاكرة - والشيء بالشيء يذكر - موقف إنجلترا من الخديو عباس نفسه إبان حكمه فيما عرف بأزمة الحدود وأن الخديو سنة ١٨٩٤ قد استعرض حاميات وادى حلفا المصرية ولاحظ نقصاً فى الجنود والأسلحة والتدريب فأبدى ملاحظاته للقومندان الإنجليزى ولوكيل الحربية محمد طاهر باشا فغضب لذلك كتشنر سردار الجيش وأبلغ الأمر لكرومر الذى أبلغه بدوره لحكومته التى ناصرت كتشنر وأرغمت الخديو على إصدار أمر بالثناء على سردار الجيش المصرى والضباط الإنجليز وإبداء رضاه عن حامية الحدود وثنائه على جميع ضباطها وأذعن الخديو للأمر مضطرًا .

تعيين الأمير حسين كامل سلطاناً على مصر :

وعينت إنجلترا الأمير حسين كامل فى ١٩١٤/١٢/٢٩ مكان الخديو عباس ومنحته لقب سلطان وبقى على عرش مصر إلى أن مات فى أكتوبر ١٩١٧ وخلفه أخوه السلطان أحمد فؤاد .

ما اقترفته إنجلترا ضد رجال الحزب الوطنى :

وزجت السلطة العسكرية بأقطاب الحزب الوطنى وكثير من شبابه فى سجن الاستئناف بالقاهرة وسجن الحضرة بالإسكندرية وفى معتقلات قصر النيل ودرب الجماميز وطره والجيزة دون تحقيق أو محاكمة . ونفت بعضهم إلى مالطة ولبث أغلبهم مدداً طويلة امتدت إلى ما بعد الهدنة ١٩١٨ . وكانت تقيد حرية من يفرج عنهم وتضعهم تحت المراقبة .

ممن اعتقلوا من رجال الحزب الوطنى :

وأذكر ممن اعتقلوا : على بك فهمى كامل (شقيق مصطفى كامل) وأحمد بك لطفى المحامى وعبد اللطيف بك الصوفانى وعبد اللطيف بك طلعت والأساتذة محمد زكى على وعبد المقصود متولى وأحمد وفيق وأمين الرافعى وشقيقه عبد الرحمن الرافعى ومصطفى الشوربجى وإسماعيل حافظ ومحمد فؤاد حمدى وإبراهيم رياض والدكاترة إسماعيل صدقى الجراح وعبد الحليم متولى (شقيق عبد المقصود متولى) وعبد الفتاح يوسف والأستاذ محمد الشافعى ومصطفى حمدى والحاج أحمد رضوان زيان التاجر بالإسكندرية وأحمد نبيه قبودان الضابط بخفر السواحل ويعقوب صبرى التاجر بميناء البصل والشيخ إبراهيم مروان .

وممن نفوا من رجال الحزب :

وأذكر ممن نفوا من رجال الحزب الوطنى الدكتور نصر فريد طبيب العيون والدكتور عبد الغفار متولى (شقيق الأستاذ عبد المقصود متولى المحامى) والدكتور حسن نور الدين والأساتذة محمد عوض محمد ومحمود إبراهيم الدسوقى ومحمد عوض جبريل وحامد العلايلى وعلى فهمى خليل المدرس بالجمعية الخيرية الإسلامية وسلامة الخولى والأمير العطار .

من أعمال الإنجليز الوحشية فى البلاد :

جمع الأهالى كرهاً وحشدهم قسراً لخدمة السلطة العسكرية وتسخير الرديف فى أشق الأعمال والاستيلاء على المحاصيل الزراعية بأبخس الأثمان وجمع الدواب بأقل الأسعار . وساقت السلطة العسكرية البريطانية بالسياط وفى مهانة ما يربو على المليون من العمال من أهل الريف ولم ترحم فى ذلك شاباً ضعيفاً أو شيخاً كبيراً وأرسلتهم للعمل بالإكراه فى خدمة جيوشها بسيناء والعراق وفلسطين والدردنيل باسم المتطوعين وما هم بمتطوعين .

وجمعت من رديف جيشنا حوالى ١٢ ألفاً أطلقت عليهم اسم « أنفار السلطة » وسخرتهم فى تعبيد الطرق بسيناء ورصفها بالمكدام وإعدادها لسير المركبات والمدرعات ومد خطوط السكك الحديدية وحفر الخنادق والآبار وبناء الحصون والاستحكامات إلى غير ذلك من أشق الأعمال . فمات منهم الآلاف من قسوة المعاملة وسوء التغذية وفتك المرض . وكان جزاؤهم جزاء سنمار .

واستولت السلطة العسكرية على محاصيل البلاد من قمح وشعير وذرة وأرز وعدس وفول . . . إلخ . كما جمعت الخيل والبغال والجمال والحمير واشترتها قهراً بأبخس الأثمان . فعم الكساد البلاد

وذاق الأهالى مرارة الجوع والحرمان .

وتعمدت السلطة إشاعة الرعب بين العباد فتركت لجنودها الحبل على الغارب يعبثون فى البلاد فساداً أينما حلوا ، ينهبون ويعتدون على الحرمات ويقتلون الأبرياء بغير حق ويرتكبون أبشع الجرائم وأفظعها دون حساب .

أثر الوضع القائم على الشعبة :

وإزاء كل الظروف القاسية التى تمر بها البلاد وما فرضته إنجلترا من قيود أخذت اجتماعات الشعبة تقل إلى أن كادت تتوقف تماماً خصوصاً بعد انتقال رئيسها إلى المنيا وكان هو همزة الوصل بيننا وبين الجمعية ، واقتصر النشاط على ما يبذله كل عضو من جهد ذاتى لاستكمال نقص فيه مع احتفاظه بالقوة الكامنة إلى أن تحين الفرصة .

أما الأمة وقد حرمت من قادتها ووسائل قوتها فلم تقو على مواجهة المصائب التى حلت بها وسوء قدرها (وليس لها فى تلك الحرب العالمية الضروس ناقة ولا جمل) فإنها لم تقنط من رحمة الله وعاشت على فكرة الانتقام والإعداد له وتذرعت بالصبر على مضض ترقب يوم الخلاص .

محاولة قتل عباس حلمى الثانى :

وهدأت حركة الاغتيال السياسى بعد حادث الوردانى ١٩١٠ وحادث مؤامرة شبرا ١٩١٢ إلى أن حاول طالب الطب محمود مظهر قتل الخديو عباس حلمى الثانى أثناء زيارته للآستانة ١٩١٤ وأخطأه وأسرع أحد الحراس فانقض عليه وقتله بسيف وأسدل على الحادث الستار .

محاولة اغتيال السلطان حسين لأول مرة :

ثم شهد عام ١٩١٥ ثلاث حوادث اغتيال : الأول اغتيال السلطان حسين كامل ، إذ رأت الجمعية فى قبوله تعيين إنجلترا له سلطاناً على مصر بعد خلع الخديو عباس حلمى الثانى خيانة توجب العقاب وقررت قتله ، وفى أبريل من ذلك العام حاول الشاب محمد خليل وهو من المنصورة قتل حسين كامل وهو يخترق بسيارته ميدان عابدين فأخطأه وقبض عليه وحوكم أمام مجلس عسكرى بريطانى وحكم عليه بالإعدام وأعدم فى ١٩١٥/٤/٢٤ .

المحاولة الثانية لاغتيال السلطان حسين :

وكان الحادث الثانى لمحاولة اغتيال السلطان حسين أيضاً على يد محمد نجيب الهلباوى عضو شعبة الإسكندرية الرئيسية والمدرس بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالإسكندرية ، إذ أوفدت اللجنة الرئيسية بالقاهرة العضو محمد شمس الدين إلى الإسكندرية ليستأجر شقة بأحد المنازل بشارع رأس التين ، فاستأجر شقة بالمنزل ٩٩ وهو يقع أمام ضريح سيدى يوسف الجعرافى فى أضيق اتساع فى الشارع وكانت لجنة الإسكندرية حسب الخطة الموضوعة قد أعدت القنبلة التى سيستخدمها الهلباوى وسلمتها له ليلقيها على السلطان وهو يخترق الشارع بعربته لأداء فريضة الجمعة بمسجد عبد الرحمن بن هرمز ، ومر السلطان فى ١٩١٥/٧/٩ وألقى الهلباوى القنبلة إلا أنها لم تنفجر لخطأ وقع فيه الهلباوى ولم يفطن له إذ كان المفروض أن يشعل النار فى فتيل القنبلة بنار الفحم البلدى ، إلا أنه أشعلها من سيجارة كان يشربها فلم تسر النار فى الفتيل . ووقع الهلباوى فى خطأ آخر إذ ألقى على أرض الحجرة عقب السيجارة وكان يحمل حرفى (ن ، هـ) بالإنجليزية وكان هذا العقب مفتاح القبض عليه بعد هروبه إذ عرف البوليس المصنع الذى يصنع تلك السجائر ومنه استدل على أن (ن . هـ) هى اختصار لاسم نجيب الهلباوى .

المتهمون مع محمد نجيب الهلباوى :

وقبض بعد الحادث على الهلباوى ومعه كل من محمد شمس الدين ومحمد فريد ومحمود عنايت وشفيق منصور وعبد الفتاح يوسف وأحمد سابق وعبد الله حسن وعلى صادق من أعضاء الجمعية وحقق معهم بتهمة الاشتراك فى الحادث ولم يعترفوا بشىء

حكم الإعدام شنقاً :

وأدانت النيابة محمد نجيب الهلباوى ومحمد شمس الدين وحوكما أمام مجلس عسكرى بريطانى وصدر عليهما الحكم بالإعدام شنقاً وصدق عليه القائد العام للقوات البريطانية .

تخفيف الحكم :

ثم طلب السلطان حسين (المجنى عليه) تخفيف الحكم فأبدله القائد العام بالأشغال الشاقة المؤبدة وظلا فى السجن إلى أن أفرج عنهما فى عام ١٩٢٣ .

والتحق محمد شمس الدين بوظيفة بمجلس النواب وظل محمد نجيب الهلباوى عاطلاً وكان من عائلة فقيرة يتردد بين القاهرة والإسكندرية يبحث عن عمل مستعيناً بزملائه القدامى فى الجمعية دون جدوى وإن كانوا قد أمدوه بالمال فى حدود إمكانياتهم ، وهو يطمع فى عمل يتعيش منه وكان كثير الشكوى من شفيق منصور الذى كان يتهرب منه كلما زاره فى مكتبه طالباً معونته ، واتجه شطر محمود فهمى النقراشى وأحمد ماهر أيضاً وكان فى إمكانهما لنفوذهما فى الوفد إلحاقه بأى وظيفة يستعين بها على قسوة العيش ، وبقى دون عمل حتى تلقفه البوليس السياسى وكان ما كان من أمر اتصاله بعد حادث قتل السردار سيرلى ستاك بعبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت مما سيأتى تفصيله فى موضعه ومقابلته بالإسكندرية ليعقوب صبرى وعبد الله حسن عوض وحافظ محمد قيود وأحمد رمضان زيان من أعضاء الجمعية ومكاشفتهم بفكرة الهرب مع عبد الفتاح وعبد الحميد إلى طرابلس الغرب .

محاولة قتل إبراهيم فتحى :

وكان الحادث الثالث محاولة قتل وزير الأوقاف إبراهيم فتحى فى ١٩١٥/٩/٤ إذ طعنه صالح عبد اللطيف الموظف بالمالية ثلاث طعنات بخنجره وهو على رصيف محطة القاهرة يهم بالسفر ولم يقتله . وقبض عليه وتكاد تكون هذه هى الحادثة الوحيدة التى استعمل الجانى فيها الخنجر وحوكم صالح أمام مجلس عسكرى بريطانى وحكم عليه بالإعدام شنقاً وأعدم فى ١٩١٥/١٠/٣ .

جهدى الذاتى :

سفرى إلى بلدة أخوالى « دلاص » بمديرية بنى سويف كل عام فى إجازتى الصيفية وبقائى بها ما لا يقل عن شهرين بين أهلى وأهل بلدتى سمح لى – فضلاً عن ترويح النفس وراحة الجسم واسترداد الصحة بعد الجهد المضنى وسهر الليالى فى المذاكرة طوال العام الدراسى – بالاستزادة من إتقان الصيد بالبندقية والرماية بالمسدس وركوب الخيل وكانت وسائلها ميسرة لى – وأتاح لى الفرصة للاختلاط بالطبقة الكادحة وكانت أمنيتى أن أختلط بهم لأبصرهم فى يسر وبساطة قدر عقولهم بواجباتهم وحقوقهم فى الحياة .

تخلف الريف :

وكان الريف المصرى فى ذلك الوقت متخلفاً وكان الفلاح فيه كمًّا مهملاً . فلم تكن القرية وقتئذ تحظى بشىء إطلاقاً مما تتميز به المدينة من بعض الإصلاحات والمشروعات العمرانية والثقافية

والاجتماعية والصحية على قلتها . ولم يكن ابن الريف يحظى ولو بقسط ضئيل مما يحظى به ابن المدينة على قلته أيضاً – من مدارس ومعاهد وكليات للتعليم ومكتبات لنشر الثقافة والتوعية وملاجئ ومستشفيات ومصحات للعلاج والإيواء والتمريض وجمعيات وأندية للخدمات الاجتماعية والثقافية والسياسية وأندية للرياضة لبناء الأجسام السليمة وحدائق ومتنزهات للفسحة والترفيه وتوفير الحياة الصحية ودور للتمثيل وغيرها من وسائل الحضارة . وبالجملة كان البون شاسعاً ملحوظاً فى الحياة ومستوى المعيشة بين الريف والحضر . مما طبع حياة السواد الأعظم من الفلاحين الكادحين بالبؤس والجهل والفقر والشقاء والتعاسة وجعلهم نهباً للأمراض يشربون من مياه الترع العكرة الملوثة وينامون مع دوابهم ويعيشون فى مساكن من الطين لا يدخلها الهواء الطلق ولا ترى نور الشمس . ولولا ما عرف عن الفلاح المصرى من جلد وصبر وقناعة ولولا فضل الله عليه وكدحه طول النهار فى العراء حيث الهواء الطلق النقى والشمس الساطعة لكانت حياته أشد كرباً وتعاسة .

سر التخلف :

وكان مرد تلك الصورة المحزنة المخزية للريف فضلاً عن التخلف العام فى الريف والمدن – فى اعتقادى – للسياسة الجائرة التى انتهجها المحتل – وساعده فيها عملاؤه منذ أن وطئت أقدامه المدنسة أرض الوطن الطاهرة – حتى عمد شأن كل معتد أثيم – إلى القهر والبطش وسلب الأمة كل مقومات الحياة من إيمان وعلم وقوة ومال لتضعف فتستكين وإلى خلق نظام الطبقات واتباع سياسة فرق تسد ليفجر الحقد والكراهية بين بنى الوطن الواحد ليمزق وحدتهم فيطمئن على بقائه متحكماً فى الرقاب مستأثراً بالخيرات .

ضريبة العلم :

كنت حريصاً على أن أؤدى ضريبة العلم لأولئك الكادحين المظلومين فكنت أكثر من الاجتماع بهم لتنوير أذهانهم ورفع الغشاوة عن عيونهم وتبصيرهم بحقيقة وضعهم وحثهم على التحرك لتحسين أحوالهم بتغيير أوضاعهم المؤلمة وهم العمود الفقرى لمجتمعهم وأشعرهم بأنهم هم الذين يهبون السعادة والخير لغيرهم بجدهم وعرق جبينهم ، فمن حقهم أن يعيشوا كراماً سعداء كغيرهم .

ولكم جهرت لزملائى الطلبة بمعلوماتى عن الريف وأهله . . وعن حاجته الشديدة للإصلاح ، ووددت لو أن الكثرة من الطلاب يفعلون مثل ما فعلت ويمضون إجازتهم الصيفية وهى حوالى ثلاثة شهور بين أهليهم ومواطنيهم بالريف يعلمون الريفيين ويرشدونهم ويبصرونهم بحقهم فى الحياة الكريمة

والمعيشة الرغدة . كما تمنيت لو أن أولى الأمر أيضاً يصحون من غفوتهم ويهتمون بإصلاح الريف التعس المحروم وبإسعاد أهله المكدودين المنكوبين .

استجابة الكادحين :

وكان فضلاً من الله أن استجابوا لى مع الزمن وأحبونى ومنحونى ثقتهم وأنا الذى عرفت بينهم من قبل يوم أن خطبت فيهم خطبة الجمعة بالمسجد الكبير أحثهم على التطوع للجهاد فى حرب طرابلس والتبرع بالمؤن والمال لإخوانهم المجاهدين الطرابلسيين عام ١٩١٠ .

وكان من أنسب أوقات اللقاء بهم والتحدث إليهم وتوعيتهم بعد صلاة الجمعة وصلاة العشاء وأيام وليالى العزاء فى المآتم وحلقات الذكر وما أكثرها فى القرى .

عادات أهل الريف فى المآتم :

وكان من عادة أهل الريف إذا مات منهم أحد أن تولول النساء ويلطخن الأيدى والوجوه بصبغة النيلة الزرقاء أو بالطين ويلبسن الثياب السوداء ويلطمن الوجوه ويشققن الجيوب ويخرجن من بيوتهن على تلك الصورة البشعة جماعات يطفن القرية ويصرخن ويبكين بصخب إعلاناً عن الوفاة فتنضم إلى مسيرتهن نسوة القرية مجاملة حتى يعدن إلى منزل الميت ويبقين على صراخهن وعويلهن حتى تشيع الجنازة وتوارى الجثة التراب .

التقاليد والعادات :

وكان من أسوأ تلك العادات إضراب أهل الميت عن تناول الطعام وتحريمهم على أنفسهم ما يعتبرونه من مباهج الحياة ويقيمون على تلك الحال أربعين يوماً يتقبلون فيها العزاء من أهل القرية والقرى المجاورة ويقدمون فيها وجبات الغداء والعشاء والسجاير والقهوة للمعزين مع ما فى ذلك من إرهاق مالى كبير .

المضى فى دعوتى بالحكمة والموعظة الحسنة :

وكنت أنتهز الفرصة وأوجه النصح كل ليلة لأهل الميت والمعزين بالتذرع بالصبر والرجوع إلى الله تعالى والرضا بقدره والإقلاع عن تلك التقاليد والعادات التى هى من عمل الشيطان والتى تحمل فى طياتها معنى السخط على قضاء الله ، وأذكرهم بآياته الكريمة وأحاديث رسوله الكريم فى الصبر وجزاء

المؤمنين الصابرين ، وكنت أخص بالنصح ذوى قرباى ومنهم خالى العمدة ومشايخ البلدة وأعيانها ليكونوا القدوة الحسنة للغير (والناس على دين ملوكهم) ومن فضل الله علىّ وعليهم أن أخذت تلك العادات والتقاليد السيئة التى لا تمت إلى الدين بصلة تتلاشى بالتدريج وتتحسن الأوضاع عاماً بعد عام .

حلقات الذكر فى الريف وخلوها من الخشوع والوقار :

أما حلقات الذكر فكانت تقام عادة فى المساجد أو فى منازل أعيان القرية بعد صلاة العشاء يقيمها أتباع الطريقة الصوفية الواحدة . كالنقشبندية أو الأحمدية أو الشاذلية أو غيرها – فيقف الذاكرون – وأغلبهم أميون من أتباع الطريقة فى شبه حلقة تتسع أو تضيق تبعاً لعددهم يترنحون بأجسادهم ويميلون برؤوسهم ذات اليمين وذات الشمال مرددين اسم الله فى صوت مرتفع مزعج وبصورة خالية من الخشوع والوقار ، ويستمرون فى تمايلهم حتى يرهقهم التعب فيأمرهم شيخهم الذى يتوسطهم ليدير الحلقة بالتوقف فيجلسون . ويسمى الذاكرون أتباع الشيخ وهم يدينون له بالولاء والطاعة العمياء ويحبونه لدرجة التقديس وينسبون له الكرامات والكشف عن الغيب وإبراء المرضى وقضاء الحاجات ويتنافسون فى تقديم الهدايا له مما ملكت أيديهم أو مما يرهقون أنفسهم بالاستدانة للحصول عليه من طيور وحبوب ودواجن وفراخ . . . إلخ .

تعدد الطرق الصوفية وأخطارها :

وكثيراً ما تتعدد الطرق الصوفية فى القرية الواحدة فتتعدد تبعاً لذلك حلقات الذكر ويتعصب أتباع كل طريقة لطريقتهم ولشيخهم كما هو الحال تماماً فى الأحزاب السياسية وتعصب أتباع كل حزب لحزبهم . وكثيراً ما يدب الخلاف بينهم ويقع الانقسام ويتمزق الشمل وهم أهل قرية واحدة ، بل قد يدب الخلاف بين أفراد العائلة الواحدة ، وكثيراً ما يفضى ذلك إلى الاشتباك واعتداء بعضهم على بعض وشيوخ الطرق الذين يتظاهرون بتقوى الله . ويدعون لأتباعهم أنهم من عباد الله الصالحين لا يحركون مع الأسف ساكنا بل يضرمون نار الفتنة ويزيدونها اشتعالاً فى سبيل الإبقاء على ما يبتزونه من أتباعهم من حطام الدنيا الزائل غافلين عن قول الله تعالى : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) وقوله جل وعلا (إنما المؤمنون إخوة) .

تصحيحى للأوضاع الخاطئة ودورى فى التوجيه والتوعية :

فكنت أحاول ألا تفوتنى حلقة من تلك الحلقات بل كنت أتعمد حضورها وأبين للشيخ وأتباعه – فى رفق وحكمة – أن ترنح الأجسام ورفع الأصوات بالصورة المزعجة التى يؤدون بها الذكر ليست من الذكر الصحيح فى شىء ولا من آدابه ، وأن ذكر الله على تلك الصورة الخاطئة غير صحيح ، وإنما الذكر الصحيح يكون باتجاه الشخص بكل جوارحه – وهو يذكر – إلى الله تعالى فى خشوع ووقار وقلب عامر بحب الله ، مستغرق فى ذكره جل وعلا ، كما أن التعصب الأعمى للطريقة يعرض الأخوة للبغضاء والفرقة والشحناء والدين يأمر بالمحبة والإخاء والسلام . وأن الاعتقاد بأن شيخ الطريقة يبرئ المرضى ويقضى الحاجات ويكشف الغيب اعتقاد فاسد بل هو شرك خفى بالله ، والمسلم لا يعبد إلا الله مخلصاً له الدين .

نتيجة النصح :

وأحمد الله فقد تقبل أولئك السذج البسطاء نصحى لهم وأخذ يقوى أثره فى نفوسهم مع زيادة الوعى عاماً بعد عام وكادت تنمحى المفاهيم الخاطئة عن الصوفية والذكر وتعدد الطرق وأصبح الكل بنعمة الله إخواناً .

التوعية السياسية واستغلال ما اقترفته السلطة العسكرية البريطانية من جرائم :

هذا ولم أغفل الجانب السياسى فى قيامى بواجبى نحو أهل قريتى الذين أحببتهم وأحبونى ، وكانت فرصة ذهبية فى أن أستغل كل مناسبة يجتمعون فيها فأبين لهم ما ارتكبته السلطة العسكرية البريطانية فى البلاد فى سنى الحرب الأولى من جمع حوالى المليون مواطن من فلاحين وعمال وترحيلهم إلى سيناء كمتطوعين للسلطة وبجمع الجمال والخيول والبغال والحمير والاستيلاء على محاصيل البلاد الزراعية بأبخس الأثمان ، وأعمل على إثارة شعورهم ضد الإنجليز . وملء قلوبهم حقداً عليهم وإعداد نفوسهم للانتقام يوماً ما منهم دفاعاً عن حقوقهم ووطنهم .

ولا أخفى أن الطريق كان أمامى ممهداً . . من تلك الناحية ذلك أن الصور المشاهدة والواقع الملموس وما جره عليهم من إرهاق وحرمان يغنى عن كل بيان ، وكفانى مؤونة الشرح والتفصيل على حد قول القائل « وما راء كمن سمعا » .

صفحات موجزة مركزة من تاريخ مصر :

وكنت بجانب تلك الشحنة النفسية أسرد عليهم من آن لآخر – وأنا الذى عودتهم أن أزورهم كل صيف – فى شكل حكايات مبسطة شيئاً من تاريخنا من سنة الاحتلال إلى سنى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ . حدثتهم عن الثورة العرابية وقيامها يوم أن ضاق الجيش المصرى ذرعاً من سوء المعاملة وتميز الضباط الشراكسة على زملائهم المصريين وأطلق الشرارة الأولى بتجمعه وسيره إلى ميدان عابدين بقيادة زعيمهم أحمد عرابى باشا الذى طلب مقابلة الخديو توفيق لعرض مطالبه التى كانت تنحصر فى طلب إنصاف الضباط المصريين بالجيش والتى رفضها الخديو متعالياً فقال عرابى قولته المشهورة « إننا خلقنا أحراراً ولن نستعبد بعد اليوم » .

مخطط الإنجليز لاحتلال مصر وضرب الإسكندرية :

وبينت لهم كيف اتخذ الإنجليز من تلك الحركة تكأة لبدء مخططهم المبيت لاحتلال مصر فضربوا ميناء الإسكندرية غدراً بقنابل أسطولهم يوم ١٨٨٢/٧/١١ تمهيداً لإنزال جيوشهم إلى البر ونزلت فعلاً . ولما عجزت عن الدخول والتوغل من الغرب واندحرت عند كفر الدوار تحولت إلى الدخول من الشرق ، وتصدى لها الجيش المصرى بقيادة أحمد عرابى ، وهزم المصريون بفعل الخيانة فى موقعة التل الكبير ، وبعدها سهل على جيش الاحتلال التقدم إلى القاهرة عاصمة الديار فدخلها يوم ١٨٨٢/٩/١٥ وتم لإنجلترا احتلال مصر.

تصفية الثورة العرابية ونفى بعض زعمائها :

وكان أحمد عرابى بمجرد أن ظهرت له بوادر الانكسار خلع زيه العسكرى وفر هارباً بنفسه من التل الكبير إلى القاهرة بلباسه الداخلى تاركاً جيشه يصطلى نار الهزيمة والاندحار لضعف الإعداد وفقد الثقة ، وهنا تتجلى حكمة الله فى قوله : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) والإعداد يكون بالمال والروح والعتاد وكل ما يمت بصلة إلى القوة : مادية وروحية.

ومن الأسف أن يعمل البعض متعمداً على تجاهل تلك الحقيقة المؤلمة وعدم تسجيلها ، لعل ذلك – فى نظرهم – يقلل من مرارة الهزيمة المنكرة شأنهم فى ذلك شأن من يفر من العار (ترك الميدان) إلى العار (الكذب والتضليل) والأدهى من ذلك أن يضفى أولئك صفة البطولة على عرابى فى هذا الموقف ويعتبرونه بطلاً رغم انهزام جيشه وخيبته هو وفراره من الميدان مما أدى إلى نكبة البلاد

بالاحتلال المشئوم الذى بدأت جرائمه بتسريح الجيش المصرى حتى لا تقوم للبلاد قائمة – ثم ينفى أحمد عرابى وسبعة من زملائه منهم محمود سامى البارودى (الضابط الشاعر) وعلى فهمى وعبد العال حلمى إلى جزيرة سيلان ثم بسلسلة من الجرائم والمظالم وصور القهر والاستعباد المصحوبة بالصلف والكبرياء إذلالاً وإرهاباً حتى لا يفكر أحد فى كسر القيود والأغلال والعمل على تحرير البلاد من جديد مما ظهرت نتائجها واضحة فى تخلف البلاد وفساد كل الأوضاع اجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا .

لمحة من جهاد الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل :

وكان الوجه الآخر من تلك التوعية محاولتى إعطاء أولئك الكادحين صورة مبسطة للجهود الوطنية الخالصة التى بدأها وفنى من أجلها الزعيم الشاب مصطفى كامل هو وحزبه الوطنى بإحياء الشعور وإشعال روح الوطنية ثم نشاطه المضنى المثمر فى محو الأمية وتعميم مدارس الشعب الليلية وتكوين نقابات العمال وإنشاء الجامعة المصرية وإصدار جريدة اللواء بالعربية والفرنسية والإنجليزية مطالباً بالجلاء الناجز والحرية والاستقلال التام لوادى النيل وعقد المؤتمرات لشرح القضية المصرية وفضح الاستعمار ثم تلك الصورة المضيئة المشرقة للوطنية الصادقة الخالصة التى تمثلت فى دفاع الزعيم الشاب عن متهمى دنشواى وحملته الشعواء على المحتلين والظالمين التى أفضت إلى تخفيف الأحكام الجائرة وإلى طرد كرومر العميد البريطانى المتعجرف المتأله من البلاد شر طردة وكان هو الآمر الناهى .

جلسات خاصة مع المتعلمين وأعيان القرية :

وكان أهل القرية – والحق يقال – يقبلون على أحاديثى معهم كل صيف بتلهف واشتياق ، حتى أتت ثمرتها بفضل الله خصوصاً بين المتعلمين ، وأذكر منهم من طلبة الثانوى المرحوم محمود زيدان الموظف بجمارك الإسكندرية والمرحوم الدكتور عبد الرحمن لطيف (الذى أتم دراسة الطب بإنجلترا وشقيقه الأستاذ أنيس لطيف (أطال الله فى عمره) ومحمد حيدر . ومن الأعيان الذين كنت كثيراً ما أخصهم بالتوعية فى مجالس تكاد تكون خاصة أو شبه مغلقة ، وأذكر منهم خالى المرحوم محمد بك وهيب العمدة والمشايخ أخوالى المرحومين عبد الجواد وهيب وإسماعيل وهيب ومحمد وهيب الصغير وحسن وهيب والحاج قطب ومشايخ العرب المرحومين ضيف الله لطيف ومحمود لطيف (عضو مجلس النواب) ومنصور لطيف (عضو مجلس الشيوخ) وحيدر أبو جبر . والمشايخ إبراهيم أبو أحمد ومحمد على ومحمود قطب وقرنى وهيب وشيخ العرب سلطان وشيخ العرب المرحوم محجوب لطيف والمرحومين الحاج يعقوب والشيخ على خليل والشيخ محمد خليل والشيخ أحمد أبو حسين .

دليل النجاح :

وكان أثر مجهودى المتواضع ظاهراً يوم أن هبت القرية عن بكرة أبيها ووقفت وقفة رجل واحد تدافع عن عرينها وأبلت بلاء حسناً فى الذود عنه وكالت لجنود الاحتلال الصاع صاعين يوم وقعت ثورة ١٩١٩ ، ولو أنها لم يصبها ما قد أصاب غيرها من القرى الواقعة قرب السكك الحديدية من تخريب وتقتيل وانتهاك حرمات ونهب وسلب ومن ضربات القطارات المسلحة التى استخدمها جنود المحتل بوحشية لا نظير لها .

ما كنت أحلم به وأخطط له لتكون لبنة قوية لبناء مستقبل زاهر :

كان من أعز أحلامى منذ الطفولة أن يعمل المسلمون جاهدين لتغيير ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم وأن أرى المجتمع الإسلامى وقد تطهر من مظاهر الفسق والفجور والفساد والانحراف وسلم من التخنث والميوعة والتسيب والانحلال ويبرأ من الجهل والتخلف والانحطاط . أراه وقد أصبح قانونه القرآن والسنة وأساسه العدل والشورى وزاخراً بمثل قوة إيمان آل ياسر وبلال مؤذن الرسول . وصديقيه أبى بكر وعدل عمر وبذل عثمان وفداء على (الأربعة الخلفاء الراشدون) وشجاعة حمزة ابن عم الرسول وبطل أُحد وفروسية خالد بن الوليد سيف الله فى أرضه وصبر الخنساء وكرم حاتم الطائى ودهاء عمرو بن العاص فاتح مصر إذ بأمثال هؤلاء القدوة يشرف المجتمع وتستعيد الأمة عزتها وقوتها ومجدها وتصبح جديرة بصدارة العالم كما كان شأنها فى صدر الإسلام .

الفرد أساس البناء (ابدأ بنفسك) :

ولما كان الفرد فى نظر الإسلام – كما علمنى أبى – هو اللبنة الأولى فى بناء الأمة وإن صلح صلحت ، كان من التخطيط السليم – وأنا أطمع فى تكوين لبنة قوية صالحة لبناء أمتى من جديد ، أن أبدأ بنفسى لتحقيق حلمى فأزودها بمزيد من الإيمان والعلم والتقوى وأسلحها بالخلق الكريم والسلوك السوى وأدربها على مزيد من العمل الصالح وفعل الخير . وقطعت فى ذلك شوطاً كبيراً غير متعجل الثمرة حتى أنست فى نفسى القدرة على إعداد غيرى وضمه إلى حظيرتى – والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه – ورسمت الخطة ثم شرعت فى تنفيذها فى هدوء دون جلبة أو إعلان – وهكذا يكون العمل الخالص لله – واصطفيت بعض الإخوان ممن توسمت فيهم الخير من زملاء الدراسة ورأوا فىَّ والحمد لله القدوة الصالحة .

برنامج الاجتماعات :

وضعت لمن اصطفيتهم برنامجاً لمحاضرات ثقافية وندوات سياسية واجتماعية بحيث نلتقى ثلاث مرات فى الأسبوع بمندرة منزلنا ما بين صلاة العصر والمغرب (وكنا نقيمها معاً جماعة) وكان كل منا يختار موضوعاً يدرسه ليحاضرنا فيه ، وكثيراً ما كان يحضر تلك اللقاءات إخوتى محمود وأحمد ومحمد وبعض الأقارب وأصدقاؤهم وكان منهم من يشارك فى إلقاء المحاضرات .

– ورأيت – زيادة فى توثيق الرابطة بيننا وإحكاماً لأواصر الأخوة والمحبة – والتى هى أساس نجاح كل عمل – أن نؤدى صلاة الجمعة معاً فى أحد المساجد وفى نظام وضعته وأن نواظب على أدائه لا يتخلف منا أحد إلا لعذر قهرى مقبول .

برنامج الرحلات الخلوية :

وبجانب هذا وذاك وضعت برنامجاً لقيامنا برحلات دورية خلوية أيام الإجازات المدرسية وأيام الجمع . وكان نظام الرحلة كما وضعته يقضى بأن نبدأ عادة بصلاة الفجر معاً جماعة بالمسجد الذى نحدده ، ثم نتجه مشياً على الأقدام إلى جبل المقطم من ناحية القلعة أو عمرو بن العاص أو المعادى أو حلوان أو الجبل الأحمر بالعباسية وكثيراً ما توغلنا إلى وادى حوف أو عيون موسى أو الربيكى فقد ارتدناها كلها مرات ومرات . وفى تلك الرحلات كان يشترك معنا أيضاً للتمويه أشقائى وبعض أقاربى أو من يختارونهم من أصدقائهم المخلصين .

ملابس وأدوات المشترك فى الرحلة :

وكان كل منا يرتدى – وذلك نظام الرحلة – ما يشبه زى الكشافة ويجهز نفسه بمصحف صغير لتلاوة ما تيسر من القرآن فى فترات الاستراحة وشنطة صغيرة يحمل فيها ما تيسر من الأكل الجاف والفاكهة وترموس المياه ، وكنت أحرص دائماً على أن يكون معى مسدسى ورصاصى لتدريبهم على الرماية والمنظار المكبر لاكتشاف الأماكن والمناظر البعيدة والموصلة للاسترشاد بها حتى لا نضل الطريق ، والصفارة لأجمع أفراد الرحلة إذا ما تفرقوا وكرة القدم للعب والتمويه بها .

ما نمارسه فى الرحلات :

فكانت الرحلة – حسب النظام الموضوع لها – تجمع بين السير الطويل وتسلق الجبال والتدريب

على الرماية ولعب كرة القدم بجانب صلاة الظهر والعصر جماعة ، والاجتماع وقت الظهيرة لبحث ومناقشة موضوع الساعة وتبادل رأينا فيه ثم تحديد موقفنا إزاءه . ونعود من رحلتنا آخر النهار وقد استمتع الجميع روحيًّا وعلميًّا وجسمانيًّا ونحن على قلب رجل واحد .

الإعداد النظرى والإعداد العملى :

وبهذا الوضع جمعت بين القول والعمل ، إذ كانت الاجتماعات التى أعددتها ونظمتها بمنزلى للتوعية والتوجيه والتثقيف الدينى والوطنى بمثابة مدرستى النظرية ، بينما كانت الرحلات الخلوية وما يصحبها من تدريب على رياضة المشى الطويل وتسلق الجبال وعلى الرماية وحياة الخشونة وتنمية روح الرجولة والاعتماد على النفس بمثابة مدرستى العملية . إذ لا جدوى فى قول بلا عمل .

ثمرة ذلك التخطيط :

والحمد لله فقد أثمر ذلك النظام وتلك التربية النظرية والتطبيقية فى تكوين النواة الصالحة التى أنشدها للعمل والجهاد ، والتى من بين أفرادها أمكننى اختيار خلاصة الخلاصة باطمئنان بعد بضع سنوات ، فمنهم من شارك فى النضال السلمى العلنى على مبدأ الحزب الوطنى ومنهم من صلح للانضمام إلى النضال السرى الفدائى .

عقد الهدنة ١٩١٨ :

استمرت الحرب سجالاً بين المتحاربين أربع سنوات حتى رجحت فى النهاية كفة إنجلترا وحلفائها – وكانت مصر ما زالت ترزح تحت الحماية .

شروط الصلح وحق الشعوب فى تقرير مصيرها واعتراف ويلسون بالحماية :

وفى ١٨ /١١ /١٩١٨ عقدت الهدنة ووضع الرئيس الأمريكى ويلسون شروط الصلح ، ومن بينها شرط حق الشعوب فى تقرير مصيرها ووافق عليها الحلفاء – ومن بينها إنجلترا – فتنفست مصر الصعداء وبنت على شروط الصلح الآمال ، إلا أن ويلسون ذاته ما لبث أن نقض شروطه ولم يجف مدادها بعد ، فاعترف بالحماية البريطانية المعلنة على مصر فى ١٨ /١٢ /١٩١٤ وأعلنت دار الحماية اعترافه فى بلاغ لها أصدرته فى ٢٢ /٤ /١٩١٩ .

مصر تتنازل لإنجلترا عن ٣ ملايين جنيه أنفقتها على أغراضها العسكرية :

وأخذت الدول المنكوبة بالاستعمار سعياً وراء استرداد حقوقها المسلوبة ومن بينها مصر تتأهب لإرسال وفودها إلى مؤتمر الصلح لعرض قضاياها وتحقيق مطالبها تطبيقاً لمبادئ ويلسون ، وكانت مصر تتوقع شيئاً من الإنصاف نظير ما قدمته لإنجلترا مدة الحرب من خدمات ومساعدات وما أنفقته على الأغراض العسكرية البريطانية بما يربو على المليونين ونصف جنيه عدا نصف مليون أخرى قدرتها للمنظور عدم صرفه على تلك الأغراض نظير ما قرره مجلس وزرائها برئاسة السلطان فؤاد فى ١٩١٨/٣/٩ من أن تتحمل الخزانة المصرية الثلاثة ملايين جنيه – مع ما لمصر من حق المطالبة بها بدعوى الاعتراف بالجميل لبريطانيا التى حمت البلاد من خطر الغارات الجوية مدة الحرب ، وليس عجيباً أن يخيب ظن مصر ورحم الله من قال :

(من يصنع المعروف فى غير أهله . . . يضرس بأنياب ويوطأ بمقسم) .

لم تكن الفرصة مواتية لقيام الحزب الوطنى بعرض القضية :

وكان رجال الحزب الوطنى قادة الحركة الوطنية ورافعى علم الجهاد ما زالوا حتى ذلك الحين مشتتين فى السجون والمنفى والمعتقلات أو محددة إقامة من أفرج عنهم . وإلا لأعطى القوس باريها ومسكوا زمام عرض القضية المصرية فى إطار مبادئهم الوطنية السليمة .

حزب الأمة وتسلمه زمام عرض القضية :

وهناك طفت على المسرح السياسى فئة من رجال الحزب، الأمة القديم الذين لم يحملوا يوماً طابع العداء لإنجلترا وكانوا يعرفون بالمعتدلين يهيئون الجو بأساليبهم للانفراد بعرض القضية فى إطار مفاهيمهم السياسية التى لا تدفع ضرًّا ولا تنيل حقًّا .

وفى ذلك الوقت دفعت دار الحماية مستشارها السير برونييات صاحب التصريح الخطير «إن الثورة شعلة تطفئها بصقة» لتقديم مشروع فى القانون النظامى لعلها تصل به إلى تهدئة الخواطر الثائرة ، فوضع مشروعاً هزيلاً اقترح فيه إنشاء مجلس نيابى من المصريين استشارى محض وبجانبه مجلس شيوخ من ٤٥ عضواً يملك وحده سلطة التشريع ويكون أعضاؤه خليطاً من المصريين والأجانب . على أن تكون الأقلية فيه للمصريين ولم يفت المصريين أن المشروع يضع السلطة التشريعية فى يد شرذمة من الأجانب ، فرفضته الأمة بإباء وشمم وبهذا لم ير المشروع النور .

زيارة دار الحماية لطلب السفر إلى لندن :

فى ١٣/١١/١٩١٨ قصد سعد زغلول باشا وكان وقتئذ وكيل الجمعية التشريعية وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى باشا عضوا الجمعية دار الحماية وطلبوا من المندوب السامى السير وينجت التصريح لهم بالسفر إلى لندن لتمثيل مصر فى مؤتمر الصلح ولعرض مطالب البلاد فى الاستقلال على الحكومة البريطانية وكان جوابه عليهم أن على مصر أن تلزم الصبر بما هى عليه وأن تشكر إنجلترا على ما جنبته إياها من ويلات وأخطار الحرب . فاستكان سعد وجانبه التوفيق ، إذ اعترف للمندوب السامى عند رده على ما قال بأن لإنجلترا أعمالاً عظيمة بمصر ، وأضاف بأنه يتعهد بإعطاء إنجلترا ضمانات معقولة وتخويلها حق احتلال قناة السويس طريقها إلى الهند عند الاقتضاء ، وختم حديثه بما هو أدهى وأمر حيث قال « إننا لا نلجأ هنا لسواكم ولا فى الخارج لغير رجال الدولة البريطانية » ورحم الله من قال : « جراحات السنان لها التئام » . . . ولا يلتئم ما جرح اللسان . وخرج الثلاثة وقد رفض المندوب السامى طلبهم وخيب أملهم فى السفر .

مبدأ الحزب الوطنى ومبدأ غيره من الأحزاب :

وهنا يبرز الفرق الكبير بين مبدأ الحزب الوطنى الذى يدعو ويطالب بالجلاء الناجز والاستقلال التام لوادى النيل ويرفع شعار « الحق لا يتجزأ ولا مفاوضة إلا بعد الجلاء » والحرية تؤخذ قهراً ولا تمنح » وبين مبدأ غيره من الأحزاب وعلى رأسها الوفد ، مبدأ المفاوضة والتفاهم مع المحتل .

تأليف هيئة الوفد :

وفى نفس اليوم (١٣/١١/١٩١٨) تألفت هيئة الوفد المصرى من سبعة أعضاء برئاسة سعد زغلول بقصد السفر إلى لندن وباتفاق سابق مع رئيس الوزراء حسين رشدى باشا الذى ناصر الحركة وأيد تكوين الوفد من سعد باشا زغلول رئيساً وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى ومحمد محمود وأحمد لطفى السيد وعبد اللطيف المكباتى ومحمد على علوبة أعضاء وكلهم عدا أحمد لطفى السيد من أعضاء الجمعية التشريعية .

توكيل الوفد وصيغة التوكيل :

ورأت الهيئة تدعيماً لمركزها بناء على توجيه من حسين رشدى باشا وضع صيغة توكيل لها يوقعه

أعضاء الهيئات النيابية القائمة : الجمعية التشريعية ومجالس المديريات والمجالس البلدية ، وكذا ذوو الرأى والأعيان وسائر طبقات الشعب ، وساعد حسين رشدى بنفوذه هيئة الوفد فى انتشار دعوتها وانضمام الناس إليها وتوقيع التوكيلات لها ، واستمر فى مساعدته إلى أن قدم استقالته فى ديسمبر ١٩١٨ معترضاً على ما تضعه إنجلترا فى طريق مصر من عراقيل لتمنعها من رفع صوتها بمطالبها .

اعتراض الحزب الوطنى على الصيغة وإصراره على تعديلها :

وقد لاحظ رجال الحزب الوطنى أن صيغة التوكيل التى وضعتها هيئة الوفد لم تنص صراحة على المطالبة بالاستقلال التام والجلاء الناجز ، وهو ما تطلبه الأمة ولم تشر إطلاقاً إلى السودان ، فهبوا واعترضوا بشدة عليها ، وبادر وفد منهم مكون من الأساتذة محمد زكى على سكرتير الحزب وعبد المقصود متولى ومصطفى الشوربجى ومحمد عبد المجيد العبد من أعضاء اللجنة الإدارية بالذهاب إلى دار سعد ، وهناك قابلوا سعد زغلول وناقشوه فى صيغة التوكيل وأصروا على تعديلها بأن ينص فيها صراحة على أن مطلب الأمة هو الجلاء الناجز والاستقلال التام لمصر والسودان وأن تحذف من الصيغة عبارة «تطبيقاً — لمبادئ الحرية والعدل التى تنشد رايتها دولة بريطانيا العظمى وحلفاؤها .

قبول هيئة الوفد للتعديلات :

لم يحتمل سعد تلك الجرأة فى الحق والحدة فى التعبير التى لمسها فى رجال الحزب الوطنى واستشاط غضباً ، إلا أن غضبه لم يهزهم ولم يزحزحهم عن موقفهم بل زادهم تصميماً على تمسكهم برأيهم صوتاً لحق الأمة وتلك طبيعة المجاهدين المخلصين وتركوه يفكر فى الأمر واجتمعت هيئة الوفد وانتهت مضطرة تحت ضغط وصمود الحزب الوطنى إلى تعديل التوكيل على ضوء ملاحظات الحزب الوطنى . وكان لتغيير صيغة التوكيل كل الفضل فيما بعد فى فشل محادثات الوفد مع ملنر الذى سمى الحزب الوطنى «بحزب معارضة البريطانيين» ووصف حملته على مشروعه بأنها حملة منكرة»

رفض إشراك أحد من رجال الحزب فى الهيئة ثم الموافقة على إشراك عضوين فقط :

وعارضت الهيئة فى أن تشرك أحداً من رجال الحزب معها واعترضت على انضمام أشخاص معينين ثم عادت ورأت أن تضم إليها مصطفى النحاس بك وكان وقتئذ قاضياً بالمحاكم الأهلية والدكتور حافظ عفيفى من رجال الحزب الوطنى كما ضمت بعض الأعضاء لاستكمال بعض العناصر فى الهيئة .

رفض سفر هيئة الوفد والقبض على سعد وثلاثة من زملائه ونفيهم إلى مالطة :

حصل الوفد على التوكيلات موقعاً عليها بعد تعديلها وطلب السفر إلى لندن لعرض القضية إلا أن السلطة العسكرية رفضت الطلب وألقت القبض فى ١٩١٩/٣/٨ على سعد باشا ومحمد محمود باشا وإسماعيل صدقى باشا وحمد الباسل باشا من أعضاء الهيئة وأودعتهم ليلة بثكنات قصر النيل ونفتهم إلى جزيرة مالطة فى اليوم التالى ، وبذا كشفت إنجلترا عن سوء نيتها وإصرارها على مناوأة حرية الشعب وأستقلاله وعلى تثبيت الحماية ضاربة عرض الحائط بتصريحات رؤساء وزرائها جلادستون وسالسبورى وغيرهما بأن ليس لها مطامع فى مصر وأن احتلال مصر مؤقت وأن وادى النيل ملك لمصر ، هذا بجانب تعهداتها ووعودها باحترام استقلال مصر وجلائها عن وادى النيل والتى ما كانت إلا خداعا لنا وتهدئة فى نفس الوقت لثائرة الدول الأوروبية الحاقدة على إنجلترا بسبب انفرادها بالسلطة فى مصر إلى أن تم الاتفاق الودى بينها وبين فرنسا ١٩٠٤ والذى نص على أن لا تعرقل فرنسا أهداف بريطانيا فى مصر مقابل تعهد بريطانيا أن تطلق يد فرنسا فى مراكش .

رأيى فى نفى الإنجليز لسعد :

وفى رأيى أن الإنجليز لم ينفوا سعد باشا اتقاء خطورته ، وهم الخبيرون بنفسية الشعوب والأفراد ويحذقون اتباع الإرهاب تارة والإغواء تارة لتحقيق مآربهم الاستعمارية ويعلمون أنه تلميذ ربيبهم وابن مدرستهم — مصطفى باشا فهمى صهره الذى أتوا به رئيساً للوزارة المصرية ثلاث مرات الأولى من ١٨٩١/٥/١٤ حتى ١٨٩٢/١/١٧ والثانية من ١٨٩٢/١/١٧ حتى ١٨٩٣/١/٢٥ والثالثة والأخيرة من ١٨٩٥/١/١٢ حتى ١٩٠٨/١١/١١ وأبقوه متربعا فى مركزه متمتعاً بكامل رضاهم فى وزارته الثالثة ثلاثة عشر عاما (١٨٩٥ — ١٩٠٨) كان فيها خادما لهم طوع إشارتهم خائناً لوطنه وأمته ، حتى لما أقال الخديو عباس حلمى الثانى وزارة مصطفى باشا فهمى وعين حسين فخرى رئيسا للوزارة غضب كرومر العميد البريطانى لانفراد الخديو بذلك التصرف واستنصر عليه حكومته التى آزرته وأعلنت صراحة أنها لا ترى داعيا لذلك التغيير — مما يعطى صورة عن مدى تمسك الإنجليز به (مصطفى فهمى) ورضائهم عنه — ولا توافق على تعين فخرى باشا رئيسا للحكومة ، وانتهت الأزمة بحل وسط ، بدلا من فخرى باشا ، وكان مصطفى قد مهد السبيل لسعد ليشغل المناصب الكبيرة بعد أن زوجه من ابنته صفية فى ٦ فبراير ١٨٩٦ ورشحه ليكون وزيرا فى وزارة بطرس غالى باشا ليعده خلفا له فى خدمة أولياء نعمته الإنجليز .

غاية إنجلترا من نفى سعد :

وإنما نفى الإنجليز سعد ليلقوا فى قلبه الرعب ثم ليسخروه كما سخروا صهره من قبل فى خدمة سياستهم الاستعمارية وليجعلوا منه فى نفس الوقت فى نظر سليمى النية من بنى وطنه بطلا يستهويهم بسحر بيانه – وكان سعد خطيبا بليغا – ويستخفهم فيطيعونه

مما يؤيد رأيى :

ودليلى على صحة وجهة نظرى تصرفات سعد السابقة واللاحقة ، ومنها استقباله للسير مكماهون أول مندوب سام بريطانى عين فى ظل الحماية البريطانية على مصر على رصيف محطة القاهرة يوم ١٩١٥/١/٩ ، وكان سعد وقتئذ وكيل الجمعية التشريعية المنتخب وتصريحه الذى جاء فيه : «إن دلائل الخير بادية على وجهه . وقد نشرت جريدة المقطم ذلك التصريح المخزى فى صفحاتها الأولى وبالبنط العريض وإنه (أى سعد) يأمل فى أن يجرى الله لمصر الخير على يديه . «ومنها تصريحه» أن الإنجليز خصوم شرفاء ! ! وتصريحه «أن بقاء جيوش الاحتلال شرق القنال لا يتعارض مع الاستقلال» ومنها بل ومن أخطرها أنه الداعى وبعناد لمبدأ المفاوضة مع الإنجليز ومساومتهم على استقلال البلاد . وهل أخطر وأضر بمصلحة الأمة من أن يحول جهادها الهادر ضد المحتل أحدُ أبنائها (استأثر لنفسه زعامتها) إلى صراع داخلى للتطاحن على مراكز الحكم والمنافع الذاتية :

سعد زعيم سياسى لا زعيم وطنى :

نعم كان سعد من الخطباء المفوهين ومن زمرة السياسيين البارزين ، إلا أنه جانبه التوفيق يوم أن اعتقد أن المفاوضة سلاح ناجح ، وأصر فى عناد على استخدامها برغم تبصير الحزب الوطنى له ولهيئته بوخيم عاقبتها مما يباعد بينه وبين الزعماء الوطنيين الذين يؤمنون بالحق ويسلكون له الطريق المستقيم لا يبغون عنه حولاً – فسعد – فى رأيى – لا يدخل فى عداد الزعماء الوطنيين وإن دخل الباب على مصراعيه للزعامة السياسية وبشعبية لا تنكر .

السياسة شىء والوطنية شىء آخر :

والسياسة تجيز المين والتضليل والنفاق والتذبذب والالتواء والتفريط ، وهى صفات تلازم السياسى فى حياته ، والوطنية تأبى إلا الصدق والاستقامة والإخلاص والثبات على المبدأ والتمسك بالحق ، وهى

صفات يلتزم بها الوطنى طول حياته . وخير السياسات ساسة تعمل فى إطار الوطنية الصادقة وتنهج نهجها السليم وإلا كانت نفاقاً وتضليلاً وإهداراً للقيم وجرياً وراء النفع الذاتى .

الشرارة الأولى لثورة ٩/٣/١٩١٩ :

لما رفضت إنجلترا التصريح للهيئة الوفدية بالسفر إلى الخارج لعرض مطالب البلاد وألقت السلطة البريطانية القبض على سعد وثلاثة من زملائه ونفتهم إلى جزيرة مالطة كما سبق أن ذكرت ، وقد أثار ذلك التصرف الغاشم المشاعر وحرك السخط المكبوت . وكان ما كان من البدء بالقيام بالمظاهرات السلمية .

وأذن الله للمرجل أن يتفجر فنظم طلبة الحقوق صبيحة يوم ٩/٣/١٩١٩ بدافع من شعورهم مظاهرة سلمية للتعبير عن سخطهم ، وانضم إليهم طلبة الهندسة والزراعة ثم الطب والتجارة وطافوا شوارع القاهرة ينادون بسقوط الاحتلال والحماية ويطالبون بالجلاء والاستقلال التام . ومر اليوم بسلام .

من أسباب قيام الثورة :

قد يتبادر إلى ذهن البعض خصوصاً ممن لا يتحرون الحقائق ولا يتعمقون فى البحث أن ثورة الشعب فى ٩/٣/١٩١٩ كانت من أجل قبض السلطة البريطانية على سعد باشا وصحبه فى حد ذاته ، ونفيهم إلى مالطة بالبحر الأبيض المتوسط . وهذا فهم خاطئ . إذ الحقيقة أن تصرفات السلطة الإنجليزية الغاشم ما هى إلا حلقة فى سلسلة من مظالم إنجلترا المتصلة انتهزها الشعب المكلوم المطحون فرصة ليعبر فيها عن سخط أليم دفين طال عليه الأمد وليظهر استنكاره لما حل به وبالوطن من ويلات ونكبات .

أما السبب الحقيقى والجوهرى فيكمن قبل كل شىء فى احتلال الإنجليز للبلاد سنة ١٨٨٢ ثم فيما تبعه من تسريحهم جيشنا ، فأفقدنا قوة الذود عن الذمار وغلقهم مصانعنا فتسببوا فى إنتشار البطالة واندثار الصناعة وغلقهم دور العلم يقصدون إغراقنا فى الجهل والأمية ونشرهم بيوت الدعارة ومحلات الخمور والملاهى والليالى الحمراء وأندية القمار يرمون إلى إفساد الأخلاق – والأمم بأخلاقها – وضياع القيم الروحية وتحويلنا من حياة الجد والعمل إلى حياة الخمول واللهو والعبث وإفساح المجال لانتشار الرذائل والأمراض وتفشى الفساد والفجور والإجرام وسلبهم مقومات حياتنا حتى هانت علينا عزتنا وكرامتنا وذقنا الأمرين من الظلم والاستبداد والاستعباد وشظف العيش واضطراب الحياة .

ثم زجهم بنا فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وليس لنا فيها ناقة ولا جمل وحشدهم رجالنا ورديفنا وجمعهم مواشينا من جمال وخيول وبغال وحمير واستلائهم على حاصلاتنا الزراعية كرهاً وبأبخس الأثمان ، وتسخير كل ذلك فى خدمة جيوشهم وجيوش حلفائهم .

ثم ارتكابهم الجريمة الشنعاء بفرضهم الحماية علينا فى ١٨/١٢/١٩١٤ ضاربين بكل العهود والمواثيق الخاصة بالجلاء عرض الحائط ثم تنكرهم لأهم مبدأ جاء ضمن مبادئ الرئيس الأمريكى ويلسن الأربعة عشر للصلح وهو – حق كل شعب فى تقرير مصيره – فكان ذلك البند ذرًّا للرماد وحبراً على ورق وكان جزاؤنا على كل مساعداتنا البشرية والعينية جزاء سنمار .

تجمعت تلك المظالم والنكبات وغيرها على مدى سنوات طوال وتراكمت حتى غلى المرجل وبلغ السيل الزبى وفاض الإناء والأمة رابضة تتربص . وسنحت الفرصة فقامت الثورة هادرة فى جميع أنحاء البلاد تنشد طرد المحتل وتحرير البلاد وقلب الأوضاع الفاسدة جذرياً بعد حوالى ٢٨ عاماً من احتلال مشئوم . ولكل آن أوان ، والقوة الكامنة فى الشعوب لا تموت وإن انكمشت أحياناً فلا تلبث أن تعود . سنة الله فى خلقه . ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

تعدد المظاهرات وتصدى الإنجليزية لها :

وكانت تلك المظاهرة السلمية الكبيرة التى سبق ذكرها الشرارة الأولى للثورة . . . تعددت بعدها المظاهرات تضم مختلف الطبقات وذهل الإنجليز وتصدوا لها برصاص البنادق والمدافع الرشاشة وصمد المتظاهرون العزل إلا من سلاح الإيمان . . وسقط منهم فى الشوارع الشهداء الأبرياء وجرح الكثيرون ، وفى ١١/٣/١٩١٩ أضرب المحامون احتجاجاً على وحشية الإنجليز . ومشاركة للشعب فى مطالبه وفى ١٥/٣/١٩١٩ أضرب عمال العنابر ثم باقى الطوائف على توالى الأيام وتخطت المظاهرات العاصمة إلى المدن والقرى حتى عمت القطر وأخذت تتحول من طابع السلمية إلى طابع العنف وقطعت قضبان السكك الحديدية وأسلاك البرق والتليفون وتعطلت كل وسائل النقل والمواصلات وشلت حركة الأعمال ولم يكن ذلك رغبة فى التخريب بقدر ماكان ظاهرة للتعبير عن السخط والغضب والتنفيس عما فى الصدور .

مظاهرة السيدات :

ولم تتخلف السيدات عن إظهار شعورهن فاشتركت ربات البيوت وعضوات الاتحاد النسائى بزعامة المرحومة هدى شعراوى وطالبات ومدرسات السنية ومدارس البنات الأخرى فى تنظيم مظاهرة

سلمية يوم ١٦/٣/١٩١٩ طافت بدور السفارات ودواوين الحكومة تنادى بسقوط الاستعمار وبالمطالبة بالحرية والاستقلال ولم تنج تلك المظاهرة أيضاً من تصدى جنود الاحتلال (الشجعان) لها ومحاصرتها بالسلاح حتى انقضت بسلام . ثم أخذت رئيسة الاتحاد تعقد الاجتماعات السياسية لإيقاظ الشعور ومواصلة النضال وتتبع الأحداث .

جرائم السلطة العسكرية :

وقبضت السلطة العسكرية على الكثيرين وشكلت المحاكم العسكرية لمحاكمتهم وقامت بحملات تفتيش رهيبة واسعة النطاق بحجة البحث عن السلاح ولم يسلم منها حتى المارة فى الشوارع أو الجالسون فى المقاهى أو رواد النوادى .

حملة التفتيش عن السلاح وحادثة نادى التجارة العليا :

ومن طريف ما أذكره بهذه المناسبة أن الجنود الإنجليز دهموا ذات مساء نادى التجارة العليا بالدور العلوى ببار اللواء المواجه لجريدة الأهرام . وكنت ألعب النرد (الطاولة) مع صديقى محمد فريد عامر زميلى ببنك مصر ، وكنت محتفظاً كعادتى بمسدس فى جيب البنطلون الخلفى . ولما أحسست وقع أقدامهم على السلم الخشبى الموصل لصالة النادى أسرعت وأخرجت مسدسى من جيبى ووضعته بكل هدوء داخل صندوق النرد وقفلت الصندوق وإتكأت عليه بذراعى وكأنى غارق فى الحديث مع فريد ، وقام الجنود بتفتيشنا وأنا ثابت لم يبد على أى اضطراب ولم يخطر ببالهم أن صندوق النرد عامر بمسدس فلم يقربوه وتركونا إلى غيرنا وتملك العجب زميلى فريد من سرعة بديهتى وهدوء أعصابى وسعة حيلتى وهذا من فضل ربى .

حادثة تفتيش بالطرق :

وإن كان الشىء بالشىء يذكر فقد كنت على موعد مرة مع الأستاذ شفيق منصور المحامى لأتسلم منه بمكتبه بشارع المغربى مسدسين لاستخدامها فى حوادث الاغتيال ، ورأيت تفادياً لتفتيش الجنود الإنجليز أن أصاحب معى للتعمية خطيبتى عزيزة (زوجتى الحالية) واستلمت المسدسين وأخفتهما خطيبتى فى صدرها تحت الثياب وغادرنا المكتب عائدين إلى منزلنا ، وما إن وصلنا إلى ميدان سوارس (مصطفى كامل حاليًّا) حتى فاجأنا جنديان إنجليزيان مسلحان وأوقفانا للتفتيش وتقدم منى أحدهما وفتشنى وعزيزة بجوارى رابطة الجأش (وهى التى رافقتنى مرات فى الرحلات الخلوية ودربتها على إطلاق

المسدس بدير الطين وجبل المقطم) ولم يجد الجندى معى سلاحاً . فتركنا وعدنا إلى منزلنا بسلام ونجحت فكرتى فى اصطحاب خطيبتى معى لإخفاء السلاح معها ونقله بأمان .

جرائم السلطة فى الريف :

ووجهت السلطة العسكرية حملات واسعة وحشية لقمع الثورة فى الريف وحشدت جنودها بقطارات مسلحة تحرسها طائرات حربية كما سيرت فى النيل سفناً مسلحة للإرهاب والانتقام . وارتكب الجنود فى القرى أبشع الجرائم ، فكانوا إذا ما هاجموا قرية نهبوها وسلبوا خيراتها وقتلوا أهلها وهدموا بيوتها على من فيها وأشعلوا فيها النار ثم تركوها أنقاضاً تنعى من بناها وتحولوا إلى غيرها ليرتكبوا من المآسى والجرائم ما ارتكبوه فيما سبقها .

وتعرض بعض القرى لصورة أقسى وأبشع إذ كانوا يجمعون أعيانها ومشايخها ويسوقونهم إلى خارج القرية والسلاح فى أقفيتهم إمعاناً فى الإذلال ويأمرونهم بحفر قبورهم بأيديهم فى حضور زوجاتهم وأطفالهم ثم يطلقون عليهم الرصاص فيقتلونهم وهم وقوف عرايا فى حفرهم بعد أن يكونوا قد نالوا غرضهم الدنىء من نسائهم واعتدوا على أعراضهم وسلبوا حليهن وكل ما تصل إليه أيديهم . ثم يعبثون فى القرية فساداً من تخريب وتقتيل لا يفرقون بين طفل صغير أوشيخ كبير .

ويحضرنى مثل تلك الصورة البشعة ما فعله المجرمون بشيخ بلدة الشوبك وعائلته عبد الغنى إبراهيم طلبة وأخيه عبد الرحيم وبابنه سعيد وبخفاجى مرزوق من أهالى القرية .

أشد القرى تعرضاً لبربرة الإنجليز :

وكانت أكثر الجهات تعرضاً لوحشية الجنود الإنجليز على تلك الصورة البشعة بلدة ميت القرشى مركز ميت غمر والشبانات ومركز الزقازيق والعزيزية والشويك والبدرشين والمتانية وبندر الجيزة والعياط ودير مواس وهذه الأخيرة حكم على ٥١ شخصاً من أهاليها بالإعدام بعد محاكمة صورية بتهمة قتلهم ثمانية ضباط إنجليز – وأسيوط التى تعرضت لغارات طائرات المحتل التى رمتها بضراوة وقسوة بوابل من قنابلها فأصابت مستشفى المدينة وقتلت الكثير من المدنيين فضلاً عن قصفها بمدافع السفن المسلحة من النيل .

خطبة لورد كيرزون : – تشويه الثورة وتشبث إنجلترا بالحماية :

وفى ١٩١٩/٣/٢٤ خطب اللورد كيرزون زعيم مجلس اللوردات البريطانى خطبة تعرض فيها للثورة

المصرية فتجنى على الوضع وشوه الحقائق وزعم فى خطبته أنها حركة شغب ونهب وسلب دبرها أناس غير مسئولين كسعد زغلول وأعوانه ، وقام بها القوم وغوغاؤهم دون عقلائهم ومثقفيهم وأنها أقرب إلى الفوضى منها إلى السياسة ثم نادى برفض المفاوضة مع سعد وأعوانه ، ورحب بها مع رشدى وعدلى بدعوى أنهما من الرجال المسئولين ، وحدد الغاية من المفاوضة بالاتفاق على الشكل الذى ستكون عليه الحماية البريطانية فى المستقبل .

وبذا وضح لكل ذى عقل سوء نية إنجلترا وتشبثها بالحماية وتأييد الاحتلال واستمرارها فى ممارسة أسلوبها السياسى الذى حذقته ، وهو أسلوب فرق تسد ببث بذور التفرقة بين وزارة رشدى وهيئة الوفد لانقسام الصفوف وطعن الحركة الوطنية فى الصميم .

إلا أن حسين رشدى لم يستجب لدعوة كيرزون له للمفاوضة تضامناً منه مع الوفد الذى وكل عن الأمة وفوت على كيرزون سوء غرضه .

إضراب الموظفين :

واستاء الموظفون لتصريح ومشروع برنيات ولما حوته خطبة كيرزون من تنكر وتشويه للحركة الوطنية وتشبث بالباطل فشكلوا من بينهم لجنة عليا من مندوبى الوزارات والمصالح تعاونها لجان فرعية ، وكتبوا عرائض الاحتجاج ورفعوها إلى السلطات وأرسلوا صوراً منها إلى معتمدى الدول بمصر وأعلنوا فيها عزمهم على الإضراب .

وفى ١٩١٩/٤/٢ أضرب الموظفون جميعاً على العمل مشاركة للأمة فى شعورها وهم الذين لم يعهد فيهم من قبل الاشتراك فى حركة وطنية أو الاشتغال بالمسائل السياسية . واختاروا من بينهم لجنة عليا للإشراف على تنظيم الإضراب .

اللجنة العليا للموظفين :

وكانت اللجنة العليا مكونة من محمد عاطف بركات (ناظر مدرسة القضاء الشرعى) ومحمد زكى الأبراشى (وكيل نيابة الاستئناف) وعلى ماهر (مدير إدارة المجالس الحسبية) وحسن نشأت (مدرس بالحقوق) وسلامة ميخائيل (القاضى) وصادق حنين (مدير الإحصاء بالزراعة) ومحمد حلمى عيسى (مدير الإدارة القضائية بالحقانية) ومحمد عبد الهادى الجندى (القاضى) ومحمود سامى (سكرتير عام وزارة الأشغال) ومحمد قطبى (وكيل مصلحة السجون) وإبراهيم دسوقى أباظه (مأمور مديرية الجيزة) ومصطفى منير (سكرتير تنظيم مصر) وبدرخان على (وكيل مديرية الجيزة) وغيرهم من كبار الموظفين .

الاجتماعات بالمساجد :

وللمحافظة على روح الموظفين وتضامنهم وصمودهم عقدت اللجنة العليا للموظفين عدة اجتماعات طوال مدة الإضراب فى المساجد الكبرى وعلى رأسها الأزهر الشريف معقل الثورات ومساجد طولون والشيخ صالح أبو حديد والحنفى وقيسون وغيرها وفيها تلقى الخطب الحماسية الملتهبة ، وكان من أبرز خطباء الشباب الخطيب الموهوب محمد شكرى كيرشاه (المحامى) عضو الحزب الوطنى والذى لقب بحق خطيب الثورة ومن أبرز العلماء الأجلاء المشايخ مصطفى القاياتى وعلى سرور الزنكلونى ومحمود أبو العيون وعبد ربه مفتاح ومحمد عبد اللطيف دراز ممن وعتهم الذاكرة . وتجلت الوحدة بين المسلمين والأقباط بأجلى معانيها ورفع الصليب جانب الهلال وخطب القسس وعلى رأسهم القمص سيرا جوس بالأزهر الشريف وغيره من المساجد وخطب علماء المسلمين بالكنائس وعلى رأسهم الزنكلونى وأبو العيون ودراز والكل يدعو إلى التضافر وتوحيد الصفوف ويحرض على استمرار الجهاد والبذل والفداء ضد عدو البلاد .

المنشورات الثورية :

كما ظهرت فى الجو منشورات ثورية كانت تطبع سرًّا وبكميات وفيرة ، وعم توزيعها وبنظام المدن والقرى ، وأبلت لجان الطلبة فى ذلك الجهد بلاء حسناً وأصدرت صحيفة «المصرى الحر» وكانت المنشورات للإيهام والتضليل للسلطات توقع بتوقيع («العيون الساهرة») حفنة الفداء «اليد السوداء ووقع فى روع السلطات أنها أسماء لجمعيات سرية .

ابن القباقيبى :

وكان الإنجليز يتعقبون تلك الاجتماعات ويحاصرون أماكنها ويتحرشون بالموظفين ويطلقون عليهم بنادقهم للإرهاب وهم ذاهبون إليها أو خارجون منها بعد انفضاض الاجتماع . ومن أروع الأمثلة على الوطنية البريئة والحماس المتدفق الذكى ماكان من أمر صبية حى طولون والموظفون مجتمعون بجامع ابن طولون لسماع الخطب النارية وتدارس موقفهم ، إذ أقام الصبية فى الحارة الموصلة إلى الجامع المتاريس من الحجارة ووضعوا وسطها ماسورة من صفيح وأشعلوا تحتها النيران على شكل مدفع يتصاعد منه الدخان ووقفوا حول المكان يحرسونه ، وصور لهم خيالهم أنهم بذلك التدبير وتلك الحيلة يصدون الإنجليز عن الوصول إلى المسجد ويحمون الموظفين داخله من رصاص الإنجليز الغادر .

وحشية الجنود الإنجليز :

ولما حضر الجنود الإنجليز المسلحون لفض الاجتماع فوجئوا بذلك المنظر فجن جنونهم واستشاطوا غضباً ، وصوب الأنذال بنادقهم على زعيم الصبية الصغار الواقفين حول قلعتهم الصغيرة فأردوه قتيلاً وفر الباقون . وفى اليوم التالى شيعت مصر بمختلف طبقاتها جثمان الشهيد البطل الصغير الذى لم يعرف إلا باسم (ابن القباقيبى) فى مظاهرة وطنية اشترك فيها آلاف المواطنين تقديراً وإكباراً .

منشور الحاكم العسكرى :

توقف دولاب العمل فى دواوين الحكومة بسبب الإضراب العام الذى نجح واستمر ٢١ يوماً ، ولم يكن الإنجليز يتوقعون استمرار الإضراب بنجاح فضلاً عن وقوعه.. وأصدر الحاكم البريطانى منشوراً علق على الجدران فى الشوارع وفى الوزارات والمصالح يأمر فيه الموظفين بالعودة إلى أعمالهم (وفى اليوم التالى لصدور المنشور) منذراً بالفصل كل من يتخلف .

منشور اللجنة العليا للموظفين :

وبادرت اللجنة العليا للموظفين – وأرى ذلك كياسة وحسن تصرف منها – وأصدرت فى ١٩١٩/٤/٢٥ منشوراً تقرر فيه إنهاء الإضراب بعد أن حقق الغرض منه ، وتطلب من جميع الموظفين العودة إلى عملهم . لتتفادى بذلك ما يقع من انقسام فى صفوف الموظفين لو نفذ البعض منشور الحاكم ورفضه البعض ، ولكى لا يقال إن عودة الموظفين كانت بناء على منشور الحاكم العسكرى وتهديده (حددت اللجنة فى منشورها لعودة الموظفين اليوم التالى مباشرة للتاريخ المحدد بمنشور الحاكم) .

عودة الموظفين :

وعاد الموظفون إلى عملهم – مع الأسف – تنفيذاً لأمر الحاكم العسكرى فى الميعاد الذى حدده بمنشوره – وعدت أنا وزميلاى إبراهيم حسن مسعود وحامد طولان فى اليوم التالى وفق منشور اللجنة العليا – وكانت تجمعنا نحن الثلاثة حجرة واحدة بحسابات القسم الميكانيكى بوزارة الأشغال ، وتحدينا بذلك أمر الحاكم العسكرى بالعودة وتهديده بالفصل لمن يخالف .

التحقيق معى ومع إبراهيم حسن مسعود وحامد طولان :

وطلب رئيسنا المباشر – وكان إنجليزياً يدعى براون – أن يحقق معنا وكان جوابنا الذى اتفقنا عليه أننا أضربنا متضامنين مع زملائنا تنفيذاً لقرار اللجنة العليا للموظفين وعدنا إلى عملنا أيضاً بناء على أمرها ، وأننا لا نعترف بأى أوامر تصدر بشأن الإضراب من سواها . وحاول رئيسنا عن طريق بعض أذنابه ضعاف النفوس أن يحملنا على العدول عن رأينا وأن نعلل مخالفتنا لمنشور الحاكم العسكرى بسبب آخر كالمرض أو ظروف عائلية ، ولم تجد معنا هذه المحاولات وبقينا مصرين على موقفنا غير مكترثين بالتهديد بالفصل . فأرغى براون وأزبد وكان قد نمى إلى علمه من قبل عن طريق جواسيسه المنبثين بين الموظفين أمر مشاركتى فى كتابة المنشورات الثورية ونشاطى المتواصل فى توزيعها بالوزارات القريبة من الأشغال كالمالية والحقانية والداخلية والصحة وقيادتى للمظاهرة الكبرى للموظفين وخطاباتى الملتهبة فى مساجد ابن طولون والشيخ صالح أبو حديد والحنفى وقيسون .

ورفع التحقيق مشفوعاً برأيه إلى المستر باترسون المستشار المالى بوزارة المالية الذى استدعانا لمقابلته بمكتبه كل منا على انفراد .

مقابلتى للمستشار المالى بالمالية :

وعند دخولى عليه بادرنى بالسؤال عما إذا كنت لا أزال مصرًّا على ما جاء على لسانى بالتحقيق وأجبت بالإيجاب . وبدا لى أنه أعجب بثباتى على رأيى وأنى أبديته عن إيمان بدليل إنه أدار دفة الحديث وبلباقة ، وتكلم عن الرياضة وأخبار كرة القدم ولاعبيها الممتازين بالوزارة ، وكان يعلم أنى من هواتها وأنى عضو بالنادى الأهلى – كان المستر باترسون رئيس لجنة الامتحانات بدبلوم التجارة وكنت من العشرة الأوائل الذين اختارهم للعمل بحسابات المالية – ثم أنهى حديثه فى لطف بقوله «إنك رياضى وأنا أعلم أن الرياضى صادق لا يكذب وإذا وعد يفى ويكفينى منك الآن أن تعدنى بأنك لا تتحرك بعد اليوم من مكتبك لإثارة شعور زملائك أو لتوزيع المنشورات الثورية بالوزارة أو الوزارات الأخرى . وأن تكون آخر من يترك مكتبه للاشتراك فى إضراب أو مظاهرة مثلاً فوعدته بذلك .

حفظ التحقيق :

واكتفى بوعدى ، وعدت إلى مكتبى مطمئناً مرفوع الرأس لم يمسنى أى سوء مما كان يتوقعه رئيسى براون . وحفظ التحقيق وهكذا يسلم من يثبت على رأيه ويعرف قدر نفسه .

وكنت أحياناً إمعاناً فى تضليل البوليس أستعير من شقيقى أحمد وكان طالباً بالقضاء الشرعى الجبة والقفطان والعمامة وأخطب فى زى شيخ حتى ظن الكثيرون أنى طالب أزهرى متحمس .

طريقة توزيعى المنشورات ومناطق توزيعها وموضوع المنشورات التى شاركت فى كتابتها والخطب التى ألقيتها :

كنت أقوم فى الصباح الباكر وأدخل إلى مكاتب الوظفين خلسة قبل حضورهم وأترك على كل مكتب منشوراً . وكان نصيبى فى التوزيع وزارات الأشغال العمومية والمالية والحقانية والصحة والداخلية ومديرية بنى سويف مسقط رأس والدى ، وكان منزلنا أحد مراكز التوزيع . وكانت الخطب التى ألقيتها والمنشورات التى أوزعها تحض على التضامن والاتحاد والتمسك بحق الأمة فى الجلاء الناجز والاستقلال التام والتضحية فى سبيله وتعدد مساوئ المحتل وتدعو إلى كراهيته ومحاربته .

نقلى إلى الورش الأميرية :

إلا أن براون لم يشف غليله ولم يطق صبراً على تلك النتيجة فألح فى طلب نقلى إلى جهة أخرى بعيدة ليشبع رغبته فى الانتقام منى وليحد – على زعمه – من نشاطى . وصدر الأمر بنقلى إلى طلمبات الأميرية فرفضت واحتار براون فى أمرى وعدل النقل إلى الورش الأميرية (الترسانة) ببولاق بدعوى حاجة قسم مستخدمى العمال بها إلى من ينظمه بوضع أحدث النظم على أساس استخدام نظام البطاقات الشخصية لكل عامل . وبدعوى إنى خير من يقوم بذلك وأنا خريج التجارة العليا .

شحنتى للعمال – إضراب العمال – حريق الترسانة :

قبلت النقل واعتبرته فرصة هيأها لى القدر لأتصل اتصالاً مباشراً بالعمال ، وكنت تواقاً لذلك – وما كدت بحكم عملى أتصل بكل عامل لإنشاء بطاقته حتى وثقت صلتى برؤساء الأقسام خصوصاً من توسمت فيهم الخير لتقبل أرائى السياسية وأصبح الطريق أمامى ممهداً لإثارة شعور العمال بشحنات وطنية بين الحين والحين فى مكتبى ، وسرعان ما استجابوا لى بفضل تعاون رؤسائهم وتأثرهم بجو الحركة الثورية فأضربوا عن العمل إسهاماً منهم فى ثورة الشعب وتعبيراً عن سخطهم على فظائع الإنجليز التى ارتكبوها وقاموا بمظاهرة صاخبة أحرقوا فيها الترسانة وخرجوا إلى الشارع بعد أن حطموا الباب الخارجى الكبير ، وانضم إليهم عمال شركة كوك وعمال المطبعة الأميرية وطافوا شوارع بولاق ينادون بسقوط الاحتلال وبحياة مصر الحرة المستقلة ، وازداد حماس بعضهم فحطموا بعض فوانيس وعربات الترام وكانت من وسائلهم فى التعبير عن سخطهم والتنفيس عما فى صدورهم .

اتهامى بتدبير الحادث :

نسب إلى مدير الترسانة الإنجليزى تدبير تلك الحركة التى لم تقم بها الترسانة من قبل فى حياتها ، وأصدر أمرًا إداريًا يحرم على العمال وخصوصاً رؤساؤهم الاتصال بى فى مكتبى ، وأوعز لمدير الحسابات الأستاذ حموده أن يراقب حركاتى وأن يتعمد مضايقتى ، وأحسست أنا بذلك .

استقالتى وصيغتها :

فقدمت استقالتى من عملى وكانت على حد تعبير رئيس الحسابات الأستاذ حمودة شديدة اللهجة ورفض قبولها إلا بعد أن أرفع منها عبارات «إنى لا أقر العنت» ولا أقبل الضيم» ولا أغمض عينى على قذى وبذلت محاولات كثيرة من زملائى لأعدل عن الاستقالة أو على الأقل أخفف من لهجتها وتمسكت بالاستقالة وبصيغتها وتركت وظيفة الحكومة غير آسف عليها .

فضل الحزب الوطنى على الحركة العمالية :

ولا يفوتنى أن أسجل هنا بمناسبة انتفاضة عمال الترسانة أن موقف العمال المشرف فى الثورة كان ولا شك ثمرة الغرس الطيب الذى ألقى بذوره الأولى وأرسى قواعده وتعهده بالرعاية الحزب الوطنى قبل الحرب العالمية الأولى ، حيث وجه اهتمامه البالغ إلى تكوين النقابات العمالية والجمعيات التعاونية الزراعية التى أخذت تحتفظ بحيويتها وامتدت جذورها واتسعت وزاد نشاطها على مر السنين فحفظت على العمال كيانهم وحسنت من أحوالهم . ورفعت من مستوى معيشتهم وزادت من وعيهم لما يدور حولهم . وما يراد لهم وجعلت منهم قوة يحسب لها حساب أدت ما يمليه عليها الواجب فى كل مراحل الجهاد .

جذوة الوطنية قد تنكمش ولكنها لا تموت :

هذا وإن كانت إنجلترا قد تمكنت من إخماد الثورة وأشفت غليلها من قوم عزل من السلاح هبوا للمطالبة بحقهم فى الحياة الحرة الكريمة . وأشبعت نهمها فى الثأر ونالت من الأجساد ومارست أبشع أنواع الانتقام من إرهاب وتقتيل وتعذيب وتدمير وتخريب وتشكيل للمحاكم العسكرية الصورية وإصدار أحكام ظالمة على من قبضت عليهم سواء فى المظاهرات أو فى الاجتماعات أو فى مواقف الدفاع

عن النفس ، إلا أنها فشلت فى أن تنال من الإيمان الذى يعمر القلوب وفشلت فى القضاء على الوطنية الصادقة التى تتأجج فى الصدور ، بل إنها - بفظائعها ووحشيتها - زادت الإيمان قوة وأشعلت الوطنية اشتعالاً وصمدت الأمة تترقب الفرصة لتهب من جديد أقوى وأصلب مما كانت تكيل لأعداء البلاد الصاع صاعين مؤمنة أن العاقبة للمؤمنين الصابرين وأن الدائرة ستدور وريوماً على الطغاة الظالمين وأن الأمور مرهونة بأوانها وأن لكل آن أواناً .

انفراط عقد شعبتى :

ولما كانت شعبتى قد أصبحت فى حكم المنحلة بعد أن انفراط عقدها لسفر رئيسها الدكتور عبد الرحمن صالح إلى المنيا - وهو همزة الوصل بينها وبين الشعبة التى تعلوها ولعدم التزام العضو المرحوم حسين ثابت بقسم الجمعية ثم وفاة العضو المرحوم حسن سالم ولم يبق سواى ، فقد فكرت فى تكوين شعبة جديدة وكنت قد التحقت بالتجارة العليا .

أول الخيط لتكوينى شعبة جديدة :

التحقت بالتجارة العليا سنة ١٩١٤ وكانت تقع يومئذ فى شارع المبتديان وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات وعدد فصولها ثلاثة ولم يكن يزيد عدد طلاب الفصل عن عشرين طالباً ، وكان ناظر المدرسة مستر لسميذارد الإنجليزى ووكيلها الأستاذ محمد حمدى وكان فى نفس الوقت يدرس مادة الجغرافيا التجارية . وكانت هيئة التدريس تضم الأساتذة أحمد ماهر لتدريس القانون (مدنى وتجارى) والاقتصاد السياسى والنظام التجارى وأحمد عبد الوهاب لتدريس إمساك الدفاتر وأعمال المكتب التجارى وحسن كامل الشيشينى لتدريس مادة البضاعة وسليم حداد لتدريس الحساب التجارى ومستر سوبر لتدريس اللغة الإنجليزية ومدرس فرنسى لتدريس اللغة الفرنسية وآخر لتدريس الاختزال والآلة الكاتبة وكنا فى السنة الثالثة نخير بين اللغة الإيطالية واللغة الألمانية كمادة إضافية ، وأذكر أن الأستاذ حسن كامل الشيشينى هو الوحيد بين الأساتذة الذى كان يتعرض فى دروسه إلى السياسة العامة وقد يرجع ذلك إلى اعتناقه مبدأ الحزب الوطنى . هذا وكان للمدرسة فريق لكرة القدم دعا إلى تكوينه الزميل فؤاد درويش وكنت رئيساً للفريق وتخرجت سنة ١٩١٧ وكان ترتيبى العاشر وكان رئيس لجنة الامتحان مستر باترسون مستشار وزارة المالية وكانت دفعتنا ثالث دفعة فى تاريخ المدرسة ، وفور ظهور النتيجة اختار مستر باترسون منا العشرة الأوائل ليعملوا بإدارة عموم الحسابات بوزارة المالية وكانت فى أمس الحاجة لخريجى التجارة . ويشاء القدر أن يلتحق معى بالمدرسة المرحوم أحمد عنايت شقيق

المرحوم محمود عنايت أحد أفراد الرعيل الأول من جمعية التضامن الأخوى . وسعيت إلى توثيق علاقتى بأحمد وكنا على تختة واحدة وبدأنا نذاكر معا فى منزله بشارع البستان بعابدين وكنت أرجو أن أجد فيه خير خلف لشقيقه الفدائى المرحوم محمود إلا أننى بعد فترة من الاحتكاك وتبادل الآراء فى الشئون السياسية لاحظت عليه الانطواء والاكتئاب ، وعرفت أن ذلك راجع لظروف عائلية قاسية حمل بها قبل الأوان ومنها فجيعته فى موت أخيه الأكبر محمود وزواج والده من غير أمه سبب له انهياراً عصبيًّا ، ودخل بسببه المستشفى حيناً من الزمن فلم أحاول أن أسترسل معه فى أحاديث السياسة أو فى سيرة المرحوم أخيه محمود أو فيما يتصل بالعمل الفدائى بحال .

الاتصال بإخوة المرحوم محمود عنايت :

هذا وكنا نستعين أنا وأحمد طول مدة الدراسة على مواصلة المذاكرة ليلاً – كعادة الطلبة – بما كنا نتناوله من وجبة خفيفة من الجبن واللبن الزبادى مع الشاى أو القهوة وكان يقدم لنا الطعام أو الشراب غالبياً أحد شقيقيه الصغيرين عبد الفتاح أو عبد الحميد وأحياناً شقيقه عبد الخالق الذى كان يكبرهما سنًّا . والذى كان دائم الذكر لأخيه الأكبر المرحوم محمود والإشادة بروحه الوطنى وفدائيته وكان لا يخفى أمله وأمنيته فى ترسم خطاه . فرأيت فيه الخميرة الصالحة التى تعوضنى ما فقدته فى أخيه أحمد فاستملته إلىّ وبادلته العطف والحب وبقيت أتعهده روحيًّا وشقيقيه عبد الفتاح وعبد الحميد مدى خمس سنوات تقريباً ، ولمست أنى نزلت من قلوبهم منزلة أخيهم المرحوم محمود ووجدت فيهم العجينة اللينة ، حتى إذا ما استوى عودهم وأصبحوا فى نظرى صالحين لتحمل الرسالة فى مواصلة العمل الفدائى . كاشفتهم ذات يوم خلال شهر مارس ١٩١٩ بنيتى فى تكوين شعبة سرية فدائية وكان عبد الخالق قد عاد من أفغانستان التى كان سافر إليها للاعتماد على نفسه فى طلب الرزق .

فكرة تكوين ناد لخريجى التجارة العليا :

وبمجرد تخرجنا سنة ١٩١٧ راودتنا فكرة تكوين ناد لخريجى المدرسة وتبنى الفكرة أستاذنا المستر سوبر مدرس اللغة الإنجليزية وبعض زملائنا من خريجى الدفعة الأولى (دفعة ١٩١٤) وعلى رأسهم الزملاء عبد الله فكرى أباظة الذى رشح فيما بعد تكوين النادى رئيساً للإدارة ومحمد نجيب رشح وكيلاً للنادى وعلى شكرى رشح سكرتيراً للنادى .

وكنا نجتمع فى بادئ الأمر بدار مستر سوبر لوضع قانون النادى إلى أن تهيأت لنا الظروف واتخذنا من الطابق فوق الأرضى من بار اللواء أمام جريدة الأهرام مكاناً للنادى ولم يكن هناك أى ناد لأى

مدرسة بعد أن أغلقت السلطة نادى المدارس العليا سنة الحرب الأولى ١٩١٤ ، وتشكل مجلس الإدارة وكنت من بين أعضائه . ولما قررنا إصدار مجلة تنطق باسم النادى سميناها الاقتصاد التجارى اختارنى المجلس سكرتيراً لها . ومن أهم ما أذكره موقفى أنا وزميلى عبد الغفور محمد عن مشروع لجنة ملنر . وكانت الدعاية على أشدها لإغراء الشعب على التصويت مع المشروع . فكنا الوحيدين اللذين أعلنا فى الاجتماع الذى أعدته رئاسة النادى بأننا بصفتنا ندين بمبدأ الحزب الوطنى نرفض وبتصميم المشروع الذى لا يتفق وأمانى البلاد ، ولم تفلح معنا محاولات الأستاذ/ محمود عزمى الذى جند من قبل حزب الأحرار الدستوريين للترويج للمشروع الذى أضيف إليه فيما بعد بعض التعديلات طمعاً فى قبوله . وكانت نتيجة الاستفتاء العامة على مستوى القطر رفض مشروع ملنر .

المكاشفة بتكوين شعبة سرية :

كاشفت عبد الخالق عنايت وشقيقيه عبد الحميد وعبد الفتاح بأن الأوان قد آن لنستعد لتنظيم رسالتنا بتكوين شعبة سرية تسير فى نفس الخط الذى سار فيه من سبقنا من الوطنين الفدائيين أعضاء جمعية التضامن الأخوى . وبدأنا بحلف يمين الشعبة فى منزلهم وأيدينا متشابكة على المصحف الشريف والمسدس ، وهنا ذكر عبد الخالق اسم الدكتور شفيق منصور وطلب أن يكون منا بمثابة راعى الشعبة لماضيه الوطنى وزمالته للمرحوم محمود فى الجمعية وصلته الوثيقة بالعائلة ووافقنا . ثم ضممت إلى الشعبة بمعرفتى المرحوم محمود راشد الموظف بمصلحة التنظيم وكانت ثقتى به كبيرة بعد أن عرفته وعركته عن قرب من سنين قبل الثورة . ثم زكى لنا شقيق صديقه محمود إسماعيل الموظف بوزارة الأوقاف وبذلك تمت الحلقة ولو أن العدد زاد قليلاً عن المألوف فى تكوين شعب الجمعية . وأصبحت الشعبة ترجع إلى شفيق فيما تحتاجه من سلاح أو توجيهات أو فيما تنوى القيام به .

ضم العمال إلى الشعبة :

وأخذنا فى التدريب على الرماية واستكمال ما تحتاج إليه الشعبة من مسدسات وقنابل حصلنا عليها عن طريق شفيق ومحمود إسماعيل . وكانت تقع فى ذلك الحين حوادث قتل ناجحة ضد الإنجليز بجهة مهمشة والشرابية وشبرا وميدان السكة الحديد على يد العمال . فاتجه تفكيرنا إلى تكوين خلية تلحق بالشعبة يكون قوامها عمال ممن عرفوا بقوة الإيمان والجرأة وحب التضحية ولا يعوزهم سوى التنظيم وحسن التوجيه . فرشح لنا عبد الخالق العامل النجار محمد فهمى من طوخ وكان يقطن فى أحد المنازل ملك العائلة لاطمئنانه إليه وثقته به ومعرفته عنه أنه ممن قام من العمال بحوادث قتل الإنجليز . وبعد قليل

من حلفه اليمين وشح لنا زميله إبراهيم موسى العامل بعنابر السكة الحديد ثم زكى كلاهما العاملين راغب حسن وعلى إبراهيم وحلف الكل اليمين واكتملت خلية العمال .

نظام العمل بالشعبة :

وكنا نطلق على كل عضو اسماً مستعاراً وتواصينا بتنفيذ ما نصحت به من أن يلزم العضو الكتمان وأن يصوم عن الكلام فى الحادث قبل وبعد التنفيذ تأميناً للعمل واتقاء نزوة حب الظهور وقهراً لوساوس الشيطان وتعميقاً للإيمان بالعمل الصامت الخالص لوجه الله وأن لا يحتفظ العضو بأى علامة تدل على أى علاقة له بباقى الأعضاء كبطاقة أو صورة فوتوغرافية أو رسالة مثلاً وأن يتوضأ العضو ويصلى لله ركعتين قبل العملية استعانة بالله واستعداداً للقائه ، ثم ركعتين بعد تمام التنفيذ شكراً له واستمساكاً بعهده وأن يتحاشى العضو بعد التنفيذ سواء اشترك أو لم يشترك به – الاتصال بغيره من الأعضاء على أى صورة لفترة ما إمعاناً فى السرية وإبعاداً لكل شبهة إلى أن يمر كل شىء بسلام .

مراقبة الفريسة :

وكنا نختار شخص الفريسة من ذوى المراكز المرموقة والشخصيات الكبيرة المسئولة ثم نراقب غدواته وروحاته ومسكنه ومحل عمله والطرق التى يسلكها مراقبة شديدة ثم نحدد بالضبط المكان الذى سيقع فيه الحادث مع درس دقيق للطرقات والمواصلات المؤدية إليه ومدى حركة النقل والناس فيها . ثم تحدد بعد استكمال كل ذلك ساعة ويوم التنفيذ واختيار من سيقومون بالعمل وزيادة فى الاحتياط كان يجرى أحياناً من يقع عليهم الاختيار تجربة وهمية قبل يوم التنفيذ .

إبراهيم موسى أول من يطلق على الفريسة :

وكان كل ذلك الإجراء من اختصاص المثقفين (إن جاز هذا التعبير)من أعضاء الشعبة كما أن التنفيذ كان غالبا من نصيب العمال وعلى رأسهم فى كل مرة إبراهيم موسى الذى كانت التعليمات تحتم أن يكون أول من يرمى ، إذ أن التجربة دلت على أن رميته لا تخيب أبداً وقاتلة ١٠٠ فى المائة وأن يتبعه فى الرمى ويحمى ظهره مساعده من زملائه .

الأسلحة المستخدمة وكيفية تسليمها قبل التنفيذ ثم جمعها بعده :

وكان من المتبع أيضاً أن توزع الأسلحة على المنفذين فى مكان وقوع الحادث وقبيل وقوعه بقليل

وأن تجمع بعد الانتهاء منه لتحفظ فى مخبئها المعد لذلك بمنزل محمود راشد وبمعرفته بعد أن يفكها ويزيتها لتحتفظ بصلاحيتها دائماً للعمل . هذا وقد أدى يمين الانضمام إلى الجمعية السرية أيضاً عن طريقى كل من الإخوة الأساتذة محمد حمدان عبده (المعارف) وأمين محمد ربيع (الزراعه)ومحمود عثمان أبو زيد (المحامى) وحسين عوض بريقى (المحامى) وإن كانوا كلهم قد أدوا بنجاح فترة الإعداد باشتراكهم فى رحلاتنا الجبلية وتدريبهم على الرماية إلا أن الحظ لم يسعدهم إذ لم تواتهم الظروف . . للاشتراك بأنفسهم فى حوادث الاغتيال .

كلمة وفاء :

وقبل أن أسجل ما قامت به الشعبة من أعمال أثبتت الأيام أنها كانت رمز البطولة والفداء أرى من الوفاء ذكر كلمة موجزة عن إبراهيم موسى ، ومهما أوتيت من بلاغه فإنى أعترف بأنى أضعف من أن أوفيه حقه .

نبذة موجزة عن إبراهيم موسى البطل : البطل المجهول :

كان إبراهيم موسى المتهم فى حوادث الاغتيال السياسى عاملاً رقيق الحال بعنابر السكك الحديدية لم يأخذ قسطاً وافراً من التعليم شأن معظم العمال فى زمانه ، وأوتى بسطة فى الجسم وكان مديد القامة سليم البنية مفتول الساعدين حاد البصر قوى الإيمان .

وكان متزوجا وله أربعة أنجال : سنية وعزيزة وعائشة وجمال ، وكان يقطن بحجرتين متواضعتين بالطابق الأرضى بمنزل شعبى بالشارع رقم ٦ بحى الشرابية .

رشحه للانضمام إلى شعبتنا السرية زميله العامل محمد فهمى أول من انضم إلينا من العمال وهو من طوخ ، وكان يقطن بأحد منازل عائلة عنايت . وعجمت عود إبراهيم عن قرب وزرته بمنزله أكثر من مرة فوجدته على خلق عظيم يحمل بين جنبيه قلبا عامرا بالإيمان ونفساً راضية مطمئنة وروحاً وثابة وعزيمة صلبة ووجدته يجيد الرماية بالمسدس .

وقبلناه عضوا معنا وأقسم يمين الجمعية وأطلقنا عليه اسم « محمد على » ليكون اسمه الحركى فى الشعبة واشترك فى كل حوادث القتل التى قمنا بها والتى شملها التحقيق فى حادث قتل السردار . ولما كانت إصابته للهدف محققه بنسبة ١٠٠٪ كان طبيعيا أن يكون أول من يطلق الرصاص على الفريسة لضمان نجاح العملية .

وكان رحمه الله جم التواضع يؤدى واجبه الوطنى بإخلاص وثبات وفى صمت وإنكار ذات دون

غرور أو منٍّ أو حب للظهور بل يؤديه خالصاً لوجه الله يرجو ثوابه ولا يبغى من أحد جزاء أو شكوراً شأن المؤمن الصادق ، وكان يرفض فى إصرار وصمم . وهو الفقير ذو العيال – أن تعوضه الشعبه بشىء من المال يوم أن يتغيب عن عمله بالعنابر للقيام بحادث اغتيال . فكان بحق فدائيًّا مثاليًّا يندر أن يجود الزمن بمثله . . كان رجلا والرجال قليل .

ولئن مات إبراهيم موسى فقيراً تاركاً وراءه ذرية ضعافاً فهو غنى ببطولته حى بيننا بسيرته العطرة وأعماله البطولية المجيدة وهو فى الآخرة من المكرمين . « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أمواتٌ بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون »

تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته مع الأبرار والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . والله عنده حسن الثواب .

تحول طاقة الثورة إلى صراع داخلى وتطاحن الأحزاب على الحكم والمفاوضة :

عادت إنجلترا إلى دهائها السياسى واستخدمت سلاحها التقليدى « فرق تسد » ولوحت بكراسى الحكم لأعوانها مرضى النفوس فما لبثوا أن خرجوا من جحورهم التى أووا اليها وانزووا فيها أيام اشتعال الثورة ونشطوا – بمساعدة أولياء نعمتهم . فى تمثيل دورهم وتسميم الأفكار والدعوة بكل قوة إلى مهادنة الإنجليز ومفاوضتهم بدعوى حقن الدماء وبأن المفاوضة هى السبيل لتحقيق مطالب البلاد فوقع فى شركهم الكثيرون من المنتفعين ضعاف النفوس سقيمى الوجدان وتصدع كيان الأمة وتفرقت كلمتها وانشطرت شطرين . فريق المفاوضة يساير العدو مغترا بكثرة أتباعه المضللين ووفرة إمكانياته شأن أهل الباطل فى كل مكان وزمان . وفريق الجلاء يناصب الإنجليز العداء ويقف لأعوانهم بالمرصاد معتزاً بإيمانه وثباته شأن أهل الحق فى كل مكان وزمان وتحولت طاقة الأمة إلى صراع داخلى بين أبناء الوطن الواحد – وهنا مكمن الخطر . . وأخذت أحزاب المفاوضة تتنافس تنافساً قاتلا يريد زعيم كل حزب الحصول على شرف مفاوضة الإنجليز وتعدد تشكيل الوزارات ومنها من كان يرتمى فى أحضان المحتل وينفذ سياسته ومنها من يسرف فى الزلفى للقصر والمحتل معا مسايرة للمنفعة الخاصة كحزب الوفد ، حزب الأغلبية وحزب الأحرار الدستوريين الذى انبثق عن الوفد سنة ١٩٢٢ وكان من أقطابه عدلى يكن باشا وعبد العزيز فهمى باشا ومحمد محمود باشا وحافظ عفيفى باشا والدكتور محمد حسين هيكل باشا وأحمد لطفى السيد باشا ومحمد على علوبة باشا ومنها من كان يتمسح فى أعتاب السراى ويعمل لحسابها كحزب الاتحاد الذى تكون تحت رعاية الملك فؤاد فى يناير ١٩٢٥ برئاسة يحيى إبراهيم باشا ولم يظفر بأى شعبية. وكأنه ولد ميتا .

استئناف المظاهرات وإصدار المنشورات :

وما إن أذاعت دار الحماية اعتراف الرئيس الأمريكي ويلسون بالحماية البريطانية على مصر فى بلاغ لها صدر فى ٢٢ / ٤ / ١٩١٩ حتى استأنفت الأمة مظاهرات الاحتجاج وإصدار المنشورات الثورية التى كانت تطبع سرا ، وعجز الإنجليز وأعوانهم عن معرفة مصدرها أو القضاء عليها وكانت تصل إلى الناس فى كل مكان بطريقة منظمة فى البيوت والمتاجر والمصالح الحكومية والبنوك ودور العلم والنوادى والجمعيات ودور السفارات وكانت من وسائل إعلان السخط والإبقاء على جذوة النضال حية مشتعلة كما استأنف الفدائيون حركة الاغتيالات السياسية .

استئناف الاغتيالات السياسية فى ٣ / ٩ / ١٩١٩ :

فنى ٢ / ٩ / ١٩١٩ ألقى سيد محمد على الطالب بمعهد الإسكندرية الدينى قنبلة على رئيس الوزراء محمد سعيد باشا قرب محطة جاناكليس بالإسكندرية ولم تصبه وقبض عليه وحوكم أمام محكمة جنايات إسكندرية وحكم عليه فى فبراير ١٩٢٠ بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات .

وفى ١٥ / ١١ / ١٩١٩ استقال محد سعيد باشا وهو نفس اليوم الذى توفى فيه رمز الوطنية والوفاء والتضحية المرحوم محمد بك فريد بمنفاه ببرلين بعد جهاد مرير أفنى فيه ماله وصحته منذ اضطلع بأعباء الحركة الوطنية ليكمل رسالة الزعيم الشاب مصطفى كامل رئيس الحزب الوطنى وتولى يوسف وهبه الوزارة .

وفى ١٥ / ١٢ / ١٩١٩ ألقى طالب الطب عريان يوسف سعد قنبلتين على سيارة يوسف باشا وهبه يريد قتلة وهى تخترق شارع سليمان باشا ولم تصبه وقبض عليه وحوكم أمام محكمة عسكرية إنجليزية وحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات وأفرج عنه ضمن من شملهم العفو فى وزارة سعد زغلول باشا فى فبراير ١٩٢٤ وكان لمحاولة اغتيال رئيس وزارة قبطى بيد شاب قبطى رمز واضح لتضامن الأقباط والمسلمين فى الجهاد الوطنى .

استدراج الإنجليز لنا إلى المفاوضة وإرسال لجنة ملنر :

ومع اضطراب الحالة الداخلية وإنقسام الأمة على بعضها خيل للإنجليز أن الفرصة سانحة لاستدراجنا إلى المفاوضة فأرسلت الحكومة البريطانية إلى مصر فى ٧ / ١٢ / ١٩١٩ لجنة ملنر لمفاوضة المصريين فى نظام الحكم فى ظل الحماية .

وبفضل أصالة الروح الوطنية ويقظة فريق الجلاء لكل ما يراد بالوطن وبنيه من شر سواء على يد الإنجليز أو أعوانهم من المصريين أرباب التردد والهزيمة ، قاطعت الأمة عن بكرة أبيها اللجنة مقاطعة تامة وعادت اللجنة إلى إنجلترا تجر أذيال الفشل .

سر مشاركة الوفد للأمة فى مقاطعة اللجنة :

وهنا أريد أن أسجل للتاريخ – والتاريخ لا يرحم – وأوضح بأن مسايرة الوفد للأمة فى مقاطعته للجنة لم يكن بحال من الأحوال عدول الوفد عن مبدأ المفاوضة . ولكن كانت مسايرته اضطراراً تحت ضغط الرأى العام وخشيته – وهو المهم – من أن يجرى ملنر المفاوضة مع غير الوفد وهو آنئذ موجود بباريس .

مواصلة الاغتيال السياسى :

وفى ٨ / ١ / ١٩٢٠ ألقى أحد الشباب – واسمه أحمد توفيق – قنبلة على سيارة وزير الأشغال إسماعيل سرى باشا ولم تصب السيارة بسوء وهرب ولم يقبض عليه وأعلنت الحكومة عن مكافأة مالية قدرها ٥٠٠ جنيه لمن يرشد عنه وقيد الحادث ضد مجهول .

وفى ٢٢ / ٣ / ١٩٢٠ ألقى عبد القادر شحاته الطالب بالمدرسة الإلهامية القانونية قنبلة على سيارة وزير الزراعة محمد شفيق باشا ولم يصبه وقبض عليه وتبين من سير التحقيق أن له شريكاً هو عباس حلمى زميله بالمدرسة وقدما للمحاكمة أمام محكمة عسكرية بريطانية وحكم عليهما بالإعدام ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة . ولا يفوتنى أن أذكر أن كل تلك الحوادث تمت فى رابعة النهار ولم تنجح واحدة منها مع الأسف ، وقد يرجع ذلك فى نظرى إلى قلة تدريب أو عدم كفاءة القائمين بها أو أنها كانت لمجرد الإرهاب وهى على أى حال دليل على السخط وعدم الاستكانة .

وفى مساء ٨ / ٥ / ١٩٢٠ ألقى الشاب أحمد توفيق قنبلة على سيارة وزير الأوقاف حسين درويش وهى تمر بشارع المدارس بالحلمية ولم يصبه ، إلا أن السيارة أصيبت بعطب وجرح السائق وقتل شاب كان قريبا من مكان الحادث . وفر الجانى ولم يقبض عليه وقيد الحادث ضد مجهول .

وفى ١٩ / ٥ / ١٩٢٠ استقال يوسف وهبه ، وكانت قد تكررت فى عهده حوادث الاغتيال السياسى وتولى الوزارة فى ٢٢ / ٥ / ١٩٢٠ محمد توفيق نسيم باشا وكان يجمع بين ممالأته للإنجليز والسراى على حد سواء فهو عميل الناحيتين وكان بذلك مناهضاً للحركة الوطنية وأكثر استبداداً وبطشاً ممن سبقه .

عودة الكرة وأول مفاوضة (٥ / ٦ / ١٩٢٠) :

لم تلق إنجلترا السلاح ولم تفقد الأمل بعد خيبة لجنة ملنر ومقاطعة المصريين لها فعادت وحركت ملنر ليعرض المفاوضة على الوفد المصرى على أن تكون فى لندن وقبل سعد العرض وسافر على رأس الوفد إلى لندن فى ٥ / ٦ /١٩٢٠ إلا أن المفاوضة تعثرت (وتلك أول مفاوضة) فقطعها سعد وعاد إلى مصر فى أبريل ١٩٢١ ينادى فى خطبه بأن مشروع ملنر (حماية بالثلث) وكان الوفد قبل هذه المفاوضة يزكى المشروع بين الطبول ويعلن فى طول البلاد وعرضها أنه « استقلال بالثلث » وهنا أسجل مرة أخرى أن لتغيير صيغة التوكيل كل الفضل فى فشل تلك المحادثات والتى بسببها وصف ملنر الحزب الوطنى بأنه حزب معارضة البريطانيين ووصف حملته على مشروعه بأنها حملة منكرة .

وهنا عدت بالذاكرة إلى مناورات ومحادثات ومفاوضات إنجلترا التى دبرتها بعد احتلالها مصر مباشرة للاستئثار بها دون باقى الدول .

مفاوضات درومندولف :

ولم تكن مفاوضة سعد – ملنر سنة ١٩٢٠ هى أول مفاوضة بعد ثورة ١٩١٩ فإننا لو عدنا إلى الوراء لوجدنا أن أول مفاوضات الإنجليز بشأن المسألة المصرية كانت خلال سنة ١٨٨٤ على أثر الاحتلال مهد لها اللورد جرانفيل وزير خارجية إنجلترا باقتراح عرضه فى ١٩ / ٤ / ١٨٨٤ على الدول الأوربية بعقد مؤتمر فى لندن أو الآستانة لبحث الحالة المالية فى مصر بسبب تدهور المركز المالى فيها نتيجة الالتزامات التى أثقلت كاهلها ، ومن أهمها التعويضات التى ألزمتها بها اللجنة الدولية لدفعها لضحايا حرب الإسكندرية وقدرتها بأربعة ملايين جنيه (ولو أن الإنجليز هم الذين خربوا ودمروا الأملاك وقتلوا الأبرياء) وما تحتاج إليه تدابير المحافظة على الأمن فى السودان وقدرتها اللجنة بمليون ونصف مليون جنيه بجانب العجز الناشئ من زيادة المصروفات على الإيرادات .

واستجابت الدول وعقد المؤتمر فى لندن برئاسة لوردجرانفيل وضم مندوبين عن إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والنمسا والمجر وروسيا وتركيا . وطلبت تركيا أن يتناول البحث المسألة من جميع جوانبها ولا يقتصر على المسألة المالية فقط وأن يستبدل بالجيش الإنجليزى بمصر جيش عثمانى ، ولضعفها لم يؤخذ بطلبها وطالبت فرنسا أيضا بعدم حصر البحث فى الشئون المالية واقترحت بحث مسألة جلاء الإنجليز عن مصر أولا وقبل كل شيء وطلب تحديد موعد للجلاء .

وبادر جرانفيل وأعلن تعهد حكومته بأنها تسحب جنودها من بدء سنة ١٨٨٨ بشرط أن يتم الجلاء

بدون إضرار بالسلام أو بأمن مصر (مسمار جحا) وقدم اقتراحها بحيدة مصر بعد نهاية الاحتلال وبضمان حرية المرور بقناة السويس وحيدتها فى كل وقت .

وانفضت جلسات المؤتمر دون الوصول إلى قرار ، إلى أن استؤنفت فى ٢٤ / ١١ / ٨٤ واستمرت إلى ١٨ / ٣ / ٨٥ دون أن تتناول مسألة الجلاء واقتصرت على المسألة المالية وانتهت باتفاقية لندن التى سمحت للخديو بعقد قرض مالى فى حدود تسعة ملايين أتاح الفرصة لمصر لدفع تعويضات حرب الإسكندرية (٤ مليون جنيه) وسد عجز ميزانيتها من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٨٤ .

وأعقب ذلك ما عرف بمفاوضات درمندولف التى استمرت من ١٨٨٥ إلى ١٨٨٧ ونظراً لأهميتها فقد اتخذت أساساً لما تبعها من مفاوضات ومناورات سياسية وحرصت على تسجيلها بشىء من التفصيل .

ففى يوليو ١٨٨٥ مهد لورد ساليبورى رئيس وزراء إنجلترا لمحادثات سياسية بين إنجلترا وتركيا حول تسوية ما سماه فى تصريحه بمجلس اللوردات المصاعب الحربية والسياسية والمالية التى تثقل كاهل مصر والسودان . يريد من وراء ذلك الانفراد بتركيا والوصول معها إلى اتفاق يسوغ به مركز إنجلترا فى مصر . وكلف درمندولف بالقيام بتلك المهمة .

وسافر د رمندولف إلى تركيا فى ٨٥/٨/٢٢ وحظى بمقابلة السلطان ثم اجتمع بكل من الوزيرين كامل باشا وعاصم باشا وأعلنهما بمهمته وتبادلوا الحديث فى عدة جلسات وكانت تركيا منهمكة فى حادث تمرد أهالى الروملى شرق ومطالبتهم بالإنفصال عنها والإنضمام إلى بلغاريا وتوقفت المحادثات .

وكانت تركيا مصرة على حصرها فى تحديد موعد الجلاء عن مصر – حتى انتهت أزمة الروملى بموافقة السلطان على انضمامها إلى بلغاريا ثم عادت المحادثات مرة أخرى وتمكن درمندولف بالدهاء والخديعة من زحزحة المفاوضين الأتراك عن إصرارهما الأول وأوقعهما فى شراكه بل وجعلهما يسلمان بكثير من الحقوق لإنجلترا وفى مقدمتها الاشتراك فى وضع الإصلاحات الداخلية لمصر . وفى ذلك خرق للمعهادات والاتفاقات التى قضت بأن المسألة المصرية مسألة دولية لا تتدخل فيها إلا الدول الأوربية مجتمعة وليس لانجلترا الانفراد بها دون بقية الدول ، وانتهت تلك المحادثات بتوقيع اتفاقية الآستانة فى ٢٤ / ١٠ / ١٨٨٥ التى اتخذت أساسا لمفاوضات القاهرة التى بدأت فى ٩ / ١ / ١٨٨٦ ومثل تركيا فيها أحمد مختار باشا ومثل إنجلترا السير هنرى د رمندولف نفسه وكان موقف مختار باشا صارما وحازماً إذ أثار مسألة السودان وضرورة استرداده بواسطة الجيش المصرى بالاشتراك مع الجيش التركى ، وأثار موضوع تنظيم الجيش المصرى وضرورة رفع قوته إلى ما لا يقل عن ١٦ ألف جندى وميزانيته إلى حوالى ٤١٥ ألف جنيه ليتمكن من تأييد سلطة الخديو والذود عن البلاد دون حاجة إلى عون خارجى . ولم

تصادف اقتراحات مختار باشا هوى فى نفوس الإنجليز وحاول درمندولف جاهداً أن يخدعه ويحمله على تعديلها ففشل . وسقطت وزارة سالسبورى فى ٣٠ / ٨ / ٨٦ وخلفتها وزارة جلادستون وهو الذى كان ينادى فى ١٧ / ٩ / ٨٥ فى حملاته الانتخابية بأنه لا ضم ولا حماية ولا إطالة غير محدودة للاحتلال ، ويجب على إنجلترا أن تنسحب من مصر (أفلح إن صدق) ومتى احترم الإنجليز وعودهم ؟

وفى مارس سنة ٨٦ أعلنت إنجلترا رفضها لاقتراحات مختار باشا وتقدمت بتعديلات تتلخص فى : أولا – إلا يتجاوز عدد الجيش المصرى ١٢ ألفاً – ثانياً – يكون سردار الجيش المصرى وضباطه إنجليزاً – ثالثا – تتحمل الحكومة المصرية نفقات جيش الاحتلال ٢٠٠ ألف جنيه . ورفضها مختار باشا وهدد بقطع المفاوضات – وانتقل البحث إلى المسألة العسكرية دون اتفاق وأعلن جلادستون فى مجلس العموم يوم ٦ / ٥ / ٨٦ أن حكومة جلالة الملكة بعد فحص اقتراحات مختار باشا فحصاً دقيقاً لم تستطع قبولها فقطعت مفاوضات القاهرة فى سبتمبر١٨٨٦ .

ثم عادت واستؤنفت المفاوضات بالآستانة بين هنرى درمندولف ورجال الباب العالى ولم يكن من بينهم مختار باشا . وبعد الأخذ والرد وتبادل المذكرات بالاقتراحات حول تحديد موعد الجلاء وحيدة مصر والقناة وموضوع الامتيازات الأجنبية انتهت الجلسات باتفاقية ٢٢ / ٥ / ١٨٨٧ التى تتلخص فى :

أولاً : إبقاء الفرمانات السلطانية مرعية الجانب فى مصر .

ثانياً : يشمل القطر المصرى جميع الأراضى المنصوص عليها فى الفرمانات السلطانية .

ثالثاً : بحث حياد قناة السويس واستدعاء الدول الموقعة على معاهدة برلين للتصديق على اتفاق يتضمن حرية الملاحة فى القناة .

رابعاً : تخويل إنجلترا حق تنظيم الجيش المصرى وإبقاء ضباطها فيه وإبقاء جزء من جنودها إبقاء مؤقتاً .

خامساً : تسحب إنجلترا جنودها من مصر بعد ٣ سنوات من تاريخ هذا الاتفاق وعندئذ تتمتع مصر بمزايا مبدأ سلامة أرضها .

سادساً : عند المصادقة على هذا الاتفاق يطلب من الدول العظمى التوقيع على عقد تضمن فيه عدم التعدى على الأراضى المصرية وإقرار هذا الوفاق الذى يصرح للحكومة البريطانية باحتلال مصر عند وقوع اضطراب فيها (ومن أيسر ما يكون لدى إنجلترا خلق الاضطراب للتذرع به للاحتلال ، وإنما الصعب عليها هو صبغ ذلك الاحتلال بصيغة شرعية وهو ما تسعى إلى تحقيقه فى كل اتفاق) .

سابعا : يوقع على هذا الاتفاق كل من السلطان وملكة إنجلترا فى خلال شهر واحد من تاريخ توقيع المفاوضين وهو ٢٢ / ٥ / ٨٧ .

أثار هذا الاتفاق احتجاج فرنسا وروسيا وقامتا بدور سياسى كبير لإحباطه وحاولتا إقناع السلطان برفضه ونجحتا فى ذلك كما أرسل مختار باشا إلى السلطان احتجاجاً على الاتفاقية لما فيها من مساس وإجحاف بحقوقه .

واستمع السلطان لصوت المعارضة ، وبلغ إنجلترا بأنه لا يستطيع التصديق على الاتفاقية لأنه يعرض تركيا لحرب مع روسيا ، واقترح تعديل المادة الخامسة وهى أهم مادة فى الاتفاقية + وجاء رد سالسبورى فى ١٧ / ٦ / ١٨٨٧ بأن حكومة جلالة الملكة لا تنوى الجلاء عن مصر إلا إذا كانت واثقة كل الوثوق من أن الأمن فيها لا يكون معرضا لخطر اعتداءات خارجية أو اضطرابات داخلية . ولذلك فهى ترفضه .

وقطعت مفاوضات درندولف نهائياً بتصريح سالسبورى فى ١٦ / ٧ / ٨٧ ونصه « من المستحيل استئناف هذه المفاوضات فى الحال ولا التعهد باستئنافها فى المستقبل » .

* * *

مفاوضات قناة السويس :

انتهت مفاوضات درمندولف بالفشل وكانت تجرى بين إنجلترا وبين دول أوربا مفاوضات أخرى لتقرير النظام الذى يسرى على قناة السويس استمرت من ١٨٨٥ إلى ١٨٨٨ واستؤنفت ١٩٠٤ عقب الاتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا .

وكان الخديو إسماعيل وقع فى ٣٠ / ٤ / ١٨٥٤ الدكريتو الخاص بمنح امتياز حفر قناة السويس إلى المسيو ديليسيبس واعترضت إنجلترا على المشروع وكتبت بذلك إلى الحكومة الفرنسية التى كلفت من ناحيتها ديليسيبس بالرد على اعتراض إنجلترا فرد بتأييده للمشروع وتعهد بتنفيذه . وطال بعد ذلك الأخذ والرد بين الطرفين إلى أن وقع الخديو إسماعيل فى ٢٢ / ٢ / ١٨٦٦ الاتفاقية التى تضمنت شروط الامتياز وأصدر السلطان فرمان التصديق عليها فى ١٩ / ٣ / ١٨٦٦ ثم بدئ العمل فى حفر القناة واستمر الى أن افتتحت فى ١٧ / ١١ / ١٨٦٩ . وفى ١٧ / ٣ / ٨٥ اجتمعت الدول الأوربية ووقعت على تصريح بوضع نظام نهائى تقوم بوضعه لجنة دولية يضمن حرية استعمال القناة لكل الدول وفى كل وقت وفى ٣٠ / ٣ / ٨٥ اجتمعت لجنة قناة السويس لأول مرة بباريس لوضع النظام إلا أن إنجلترا لغاية فى نفسها – أخذت تماطل وتروغ إلى أن سقطت وزارة جلادستون فى يولية ١٨٨٦ وتوقفت المفاوضات حتى سبتمبر من نفس السنة إلى أن أستؤنفت فى أكتوبر ٨٧ وأخيرا تم الاتفاق بينها وبين فرنسا على النصوص التى تضمن حيدة القناة وحرية الملاحة فيها ووافقت كل من إنجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا والمجر وإسبانيا وإيطاليا وهولاندا وروسيا والدولة العلية .

المفاوضات المالية :

مفاوضات سبولر ١٨٨٩ : أرسل وزير المالية المصرية رياض باشا إلى ممثلى الدول الأوربية منشورا فى مايو ٨٩ برغبة الحكومة المصرية فى تحويل الدين الممتاز نظرا لتحسن الظروف المالية وانتهزت فرنسا الفرصة لفتح مسألة جلاء الإنجليز عن مصر حيث لا يمكن فصل المسألة السياسية عن المسألة المالية وكتبت لإنجلترا بعدم موافقتها على الاحتلال وأنها لا توافق على التحويل الا إذا حددت إنجلترا تاريخ جلائها عن مصر وأنه قد حان الوقت لتنفيذ إنجلترا الوعود التى قطعتها على نفسها مرارا بالجلاء .

وردت إنجلترا على خطاب سبوللر وزير خارجية فرنسا بعدم الموافقة وتهربت من مسألة الجلاء متناسية ما قطعته على نفسها من الوعود والعهود وتذرعت فى رفضها بتحديد موعد للجلاء . بحجة « الخطر المهدوى » كما كانت تتذرع فى بدء الاحتلال بخطر « الثورة العرابية » وطعنت صحافة إنجلترا فى سياسة سبوللر وطالبت بالاقتصار على بحث الشئون المالية ، وذهب بعضها إلى الجهر بأن الإنجليز لا ينوون الجلاء عن مصر وبأن وزراء الملكة يرفضون ربط مسألة الجلاء بمسألة تحويل الدين .

وأصر سبوللر على رأيه ورفض اقتراحات الإنجليز بالفصل بين المسألتين وصمد أمام محاولات إنجلترا إلى أن سقطت الوزارة الفرنسية فى ١٨٩٠/٣/١٤ وحل مسيو ريو محل مسيو سبوللر فى الخارجية ، ولم تتمسك الوزارة الجديدة بسياسة سبوللر وزالت العقبات التى كانت تعترض إنجلترا وانتهت المفاوضات بقبول الدول تحويل الدين وصدر الدكريتو الخديوى الخاص بذلك فى يونية ١٨٩٠ وكسبت إنجلترا الجولة ولم تنجح فرنسا فيما أرادت .

وأخذت السياسة الفرنسية والسياسة الإنجليزية تتصارع وتتضارب كل منهما تجرى وراء أطماعها وأهدافها الاستعمارية وتتحين الفرص للخروج من الصراع بنصيب الأسد .

وفى أوائل ١٨٩٠ حاولت تركيا أن تجس النبض وتحرك فتح باب المسألة المصرية مع الحكومة الإنجليزية فاتصلت بفرنسا تريد أن تستوثق منها على مدى تمسكها بتصريحها الذى صدر سنة ١٨٨٧ والذى جاء فيه أنها فى حالة جلاء الجنود الإنجليزية عن مصر فهى لا تحاول أن تحل محلها وعلى مدى استعدادها لتجديد ذلك التصريح كتابة حتى إذ ما أثارت مع الإنجليز موضوع الجلاء عن مصر لوحت لإنجلترا بذلك التصريح لتطمئنها من ناحية فرنسا أنها لا تطمع فى احتلال مصر . وجرت اتصالات بين الأطراف الثلاثة ومحادثات تبين منها أن إنجلترا ما زالت متمسكة باتفاقية درمندولف ولا تقبل أى تعديل فيها . مما نفر فرنسا من فتح باب المفاوضات من جديد فى المسألة المصرية وفترت مساعيها فى هذا السبيل

ويبقى الموقف على ما هو عليه حوالى العامين من مايو ١٨٩٠ إلى أكتوبر ١٨٩٢ .

وكان الخديو عباس حلمى الثانى اعتلى عرش مصر فى ٩٢/١/٨ خلفاً للخديو توفيق الذى مات يوم ٩٢/١/٧ وأصر عباس حلمى على أن يدير شئون البلاد باستقلال خلافاً لسلفه الذى كان ضعيفاً خاضعاً للإنجليز مستسلماً لمشيئتهم ، فبدأ عباس بإقالة ناظر النظار بطرس غالى باشا صنيعة الإنجليز وتعيين فخرى باشا الوطنى المخلص مكانه واغتاظ كرومر وتذمر لتصرف الخديو وإقدامه وانفراده بالأمر ، ودب الخلاف بينهما واتصل بحكومته التى ناصرته وقامت أزمة وثبت الخديو ولم يتزعزع وكان الخديو يتوقع من الدول أن تناصره فلم تفعل واكتفت تركيا بالاحتجاج وفى النهاية اضطر الخديو إلى التسليم وانتهت الأزمة بحل وسط رضى عنه الطرفان وكان موقف الخديو الشاب من أسباب قطع المفاوضات فى سنة ١٨٩٢ بجانب تمسك إنجلترا باتفاقية درمندولف وظلت منقطعة إلى أن وقعت حادثة فاشودة سنة ١٨٩٦ .

حادث فاشودة :

لأهمية فاشودة وموقعها الاستراتيجى وقربها من ممتلكات فرنسا فى أفريقيا سولت لها نفسها تجريد حملة عسكرية عليها لاحتلالها . وفى ١٨٩٣/٥/٧ كلفت الحكومة الفرنسية مونتيى قومندان الجيش بإعداد الحملة فجهزها وبعد أن سافر استدعى للرجوع وهو فى الطريق وكان أمر الحملة قد ذاع ، واسترعى نظر الحكومة الإنجليزية وأخذت تعمل لإحباطها . وظلت الحكومة الفرنسية فى حيرة من أمرها وتردد ، إلى أن وقع اختيارها على مارشان ليقود الحملة فسافر وقضى نحو عامين يقطع الصحراء فى مجاهل أفريقيا حتى وصل إلى فاشودة فى ٩٨/٧/١٠ واحتلها فعلاً ورفع العلم الفرنسى عليها وكلفت الحكومة الإنجليزية كتشنر بالتصدى لمارشان بقوة من الجيشين المصرى والإنجليزى . . فصدع بالأمر وذهب بقوته إلى فاشودة لملاقاة مرشان . وتقابل القائدان وطلب كتشنر من مارشان أن يقبل تصحيح خطئه مسالمة دون اللجوء إلى قتال فينزل العلم الفرنسى ويترك فاشودة لأنها أرض مصرية ليس له حق الاعتداء عليها ، واشتد بينها النزاع ورجع كل منهما إلى حكومته فهددت إنجلترا بقطع العلاقات السياسية وإعلان الحرب على فرنسا أن لم تبادر بتصحيح ما وقع من خطأ . وبعدئذ سلمت الحكومة الفرنسية وطلبت من مارشان إنزال العلم الفرنسى والانسحاب من فاشوده .

وبذا لم يعد هناك من يهدد إنجلترا فى المنطقة وسيطرت على الموقف دون منازع .

وبعد حادثة فاشودة تغيرت تماماً السياسة الفرنسية حيال المسألة المصرية ونفضت يدها منها وكادت جهودها تنحصر فى السعى لعقد صلح سياسى مع إنجلترا على حساب مصر يضع حداً للصراع الدائم

بينهما ووصلت إلى عقد اتفاق تم التوقيع عليه فى لندن فى ١٩٠٤/٤/٨ وسمى بالاتفاق الودى وأهم ما جاء به تصريح إنجلترا بأن ليس فى نيتها تغيير حالة مصر السياسية مع احترامها لما لفرنسا من الحقوق بمصر وإطلاق يد فرنسا فى مراكش . وتصريح فرنسا بأن لا تعرقل عمل إنجلترا فى مصر .

وقوبل هذا الاتفاق فى كل من إنجلترا وفرنسا بالرضا والارتياح ولم تقم بشأنه فى فرنسا معارضة تذكر . كما قوبل فى مصر بالاستياء التام المقرون بالإحساس بضرورة اعتماد المصريين على أنفسهم فى استخلاص حقوقهم وتحقيق أمانيهم .

وبعد الاتفاق الودى خفت صوت فرنسا الذى ظل مرفوعاً مدوياً قبل الاتفاق مطالباً إنجلترا بتنفيذ وعودها المتكررة بسحب جنودها من مصر . وظلت المسألة المصرية منسية نحو عامين إلى أن عادت وتحركت سنة ١٩٠٦ بسبب حادثة طابه واحتلال الجنود العثمانيين لها لإثارة إنجلترا بقصد تحريك المسألة المصرية من جديد – وكانت تركيا تؤمل خيراً فى قبول الدول مساعدتها فى موقفها لتحقيق نيتها إلا أن ذلك لم يتم ، خصوصاً وأن فرنسا كانت مقيدة بالاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ .

ودارت مفاوضات فى مصر بشأن الحادث بين الغازى أحمد مختار باشا والخديو واللورد كرومر ثم انتقلت إلى الآستانة وكانت بين سفير انجلترا والباب العالى ، واشتد الخلاف بينهما وقدمت انجلترا فى الأسبوع الأول من مايو سنة ١٩٠٦ بلاغاً لتركيا تطلب فيه سحب الجنود العثمانيين من شبه جزيرة سيناء فى خلال عشرة أيام وأرسلت أساطيلها إلى المياه العثمانية وأرسلت إمداداً من جيوشها إلى مصر . وذاع وقتئذ أن تركيا تستعد للحرب . وأنها تحشد جنودها على حدود مصر وأن حوالى ٨٠ ألفاً من الجنود يتجمعون فى دمشق وكادت الحرب تقع بين الجانبين إلا أن السلطان عبد الحميد آثر تسوية الخلاف سلميًّا وأصدر أوامره بسحب جنوده من طابه وشبه جزيرة سيناء ووافق على تأليف لجنة مصرية تركية لتسوية مسألة الحدود .

وبدأت اللجنة عملها فى ١٩٠٦/٥/٢٨ وانتهت فى ١٩٠٦/١٠/١١ باتفاق وقع عليه مندوبو مصر وتركيا .

والخلاصة أن إنجلترا كانت تستدرج المفاوضين بما أوتيت من دهاء ومكر وخبث ومراوغة وخداع ولؤم وبما حذقت من وسائل الإعلام الكاذب واللعب بالألفاظ وفهم طباع الشعوب . وكانت تخرج من كل مفاوضة بمكسب جديد يقربها من هدفها الأصلى وهو انفرادها بمصر وسود أنها وتثبيتها الاحتلال وجعله شرعيًّا مضموناً بالقانون الدولى مما أيد صحة مبدأ الحزب الوطنى فى التمسك بالاستقلال التام لوادى النيل (مصر والسودان – والملحقات والجلاء الناجز غير المشروط بشرط . والبذل والتضحية بالجهد والروح والمال لتحقيقها . كما أيد سلامة رأيه وصدق نظريته فى تمسكه برفض

مبدأ المفاوضات ومحاربته بشدة وبلا هوادة وفى أن المفاوضات سبيل العاجز وسلاح مفلول فى يد الضعيف أمام القوى فضلاً عن أنها مضيعة للوقت وتفتيت للجهد وضياع للحق .

حمى المفاوضة والخلاف بين سعد وعدلى على من يرأس المفاوضة الثانية :

وبعد عودة سعد ألف عدلى يكن أحد أقطاب الأحرار الدستوريين وزارة وطنية أيدها سعد حتى أنها سميت وزارة الثقة ، ولكن سرعان ما دب الخلاف بين سعد وعدلى على من يتولى رئاسة وفد المفاوضة المقبلة التى دعت إليها إنجلترا لبحث القضية المصرية .

عدلى وثانى مفاوضة :

وأجرى عدلى المفاوضة الثانية فى ١ / ٧ / ١٩٢١ ومعه حسين رشدى وإسماعيل صدقى وتعثرت أيضاً وقطعت وعاد عدلى ومن معه فى ١٩ / ١١ / ١٩٢١ دون اتفاق . وعرفت بمفاوضات عدلى – كيرزون .

الاغتيال السياسى أيضاً :

وبين المفاوضة الأولى والثانية وفى صباح ١٢ / ٦ / ١٩٢٠ بالتحديد وكنا فى رمضان اشتركت أنا وزميلى إبراهيم حسن مسعود فى تنفيذ خطة اغتيال محمد توفيق نسيم باشا وسط غليان الأمة من سوء تصرفاته واستبداده وبطشه . وتقضى الخطة بأن يزود إبراهيم – الفاعل الأصلى – بشنطة صغيرة من جلد محكمة الغلق فى حجم شنط تلاميذ المدارس بداخلها قنبلتان وبمسدس لاستخدامه إذا احتاج الأمر واستلم الشنطة والمسدس بمنزله بجهة البغالة بالسيدة زينب مساءً ، قبل الحادث بيوم وزودت أنا فى نفس الوقت بقنبلة اسطوانية نقلتها – بعد فك الجزء العلوى منها ورفع زجاجة الحمض من قاعها – إلى منزل صديقى محمود راشد برحبة عابدين وهناك قام راشد بتثبيت زجاجة الحمض مكانها وسط قاع القنبلة بحذر داخل زجاجة كبيرة (لتر) بعد أن شقها نصفين وأحكم لصقها ولف مكان الحز بإتقان بشريط عريض من قماش ليخفى ما بداخل الزجاجة .

مكان الحادث حيث يجلس مسعود :

وتقضى الخطة أن يحمل مسعود شنطته يوم الحادث ويجلس بزاوية القهوة التى تقع على ناصَيتى الشيخ ريحان وشارع عبد المنعم بعابدين قبل الوقت الذى اعتاد أن يمر فيه توفيق نسيم كل صباح بسيارته والتى كانت تقله من منزله بالحلمية الجديدة إلى الوزارة بميدان لاظوغلى مارة بشارع الشيخ ريحان فى

حراسة قوية من الكونستبلات الإنجليز أمام وخلف وعلى جانبي السيارة فضلاً عن صفين متقابلين من المخبرين وقوفاً على جانبي الطريق من منزله إلى الوزارة .

مكانى المقابل لمكان مسعود :

وأن أذهب أنا إلى منزل محمود راشد وأستلم القنبلة – الزجاجة وأقطع الطريق مشياً على قدمى من رحبة عابدين وأمر بحرص وأنا أحملها على يدى بين صفى المخبرين وأمر أمام مسعود وأجلس فى زاوية قهوة عند تقاطع شارع الشيخ ريحان بشارع عماد الدين وعلى الجانب المقابل للقهوة التى يجلس بها مسعود بحيث يرى كل منا زميله فى مكانه بسهولة لقرب المسافة بين القهوتين .

وتم كل شىء فى هدوء حسب الخطة الموضوعة وكان على مسعود أن يراقب موكب توفيق نسيم حتى إذا ما وصلت السيارة التى تقل رئيس الوزراء إلى المكان الذى هو قابع فيه وأصبحت فى محاذاته ألقى الشنطة عليها فتنفجر القنبلتان ، وبذا يقضى على توفيق نسيم وتنجو من شروره البلاد . وأما إذا قدر ونجا نسيم من قنبلة مسعود فأكمل أنا المهمة بإلقاء قنبلتى من مكانى بمجرد وصول السيارة أمامى .

إلقاء مسعود الشنطة على سيارة نسيم :

وما إن وصلت السيارة وبداخلها نسيم فى حراسة الموتوسيكلات أمام مسعود حتى نهض رابط الجأش وألقى الشنطة على السيارة فانفجرت القنبلتان ، وسمع لانفجارهما دوى هائل ، وسقط راكبو الموتوسيكلات على الأرض من هول المفاجأة وقوة الانفجار .

عدم إصابة نسيم ومغادرته السيارة :

وهنا تدخل القدر «وما تشاءون إلا أن يشاء الله» «وتقدرون فتضحك الأقدار» فلم يصب رئيس الوزراء بسوء وإن كان أصيب بفزع وذهول أفقداه صوابه ونزل من السيارة مسرعاً – وكانت أصيبت بعطب فى محركها كاد يوقفها عن السير وأصيب السائق بجرح بالغ وسار رئيس الوزراء على قدميه فى خطى مضطربة يحيط به رجال البوليس السرى وسط زحام المارة ، وساد المكان هرج ومرج ، واختلط الحابل بالنابل وهرب نسيم مذعوراً إلى منزل ذو الفقار باشا بشارع عماد الدين قريباً من مكان الحادث ليحتمى فيه حتى يهدأ روعه .

هرب مسعود وتعقبه :

وفر مسعود وظن أنه قضى على فريسته وتعقبه رجل البوليس خليفة يوسف فهدده مسعود وأطلق عليه مسدسه ليصده عن متابعته وأصابه بجروح وهو منطلق ليختفى عن الأنظار إلى أن قطع حارة الدمالشة بجهة البلاقسة بعابدين ودخل منزلاً ليختفى به إلا أن الحظ خانه ، إذ حاصر البوليس المكان وبقى الحصار إلى أن ألقى القبض عليه وهو يغادر مخبأه بعد فترة ظن معها أنه أصبح آمناً .

تصرفى إزاء ما لم يكن فى الحسبان :

أما أنا فقد قدرت على الفور وبلا تردد أنه ليس من الصواب فى شيء - بل هى الرعونة بذاتها - إن أنا حاولت إلقاء قنبلتى على نسيم وسط تلك الجموع من الناس والمخبرين فقد أصيب الجميع بسوء وهو الأرجح ولا أصيب الهدف المقصود وهو نسيم باشا .

إخفاء القنبلة والمسدس بمنزل خطيبتى :

ولم يكن بد - والموقف قد تغير إلى وضع لم يكن فى الحسبان بعد أن تدخل القدر وقلب الخطة التى وضعناها رأساً على عقب - من أن أنسحب بقنبلتى فى ثبات وهدوء فدلفت إلى حارة جانبية توصل إلى شارع نصره وبه منزل خطيبتى عزيزة محمد لبيب وأودعت عندها القنبلة ومسدساً كنت مزوداً به ونبهتها إلى خطورة الاقتراب من القنبلة وتحريكها من موضعها فأخفتها تحت كنبة بحجرة الجلوس ولازمتها حتى لا يقترب أحد منها ولم يكن معها بالمنزل سوى والدتها وخالتها وخادمة صغيرة . وأخفت المسدس فى جوال أرز .

راشد وإبطال مفعول القنبلة :

وكنت أزورها بين الحين والحين للاطمئنان ، إلى أن هدأ الجو فسحبت القنبلة والمسدس وكان بانتظارى - حسب اتفاق سابق - فى مندرة منزلنا بحارة خاتون المتفرعة من شارع نصره صديقى محمود راشد ليفك الزجاجة ويفك القنبلة ويرفع زجاجة الحمض من مكانها ليبطل مفعول القنبلة وأتم راشد ذلك بسلام .

وهكذا أراد الله أن ينجو الطاغية محمد توفيق نسيم باشا وأن يقبض على الفدائى البطل إبراهيم حسن مسعود الذى قام بدوره بنجاح وأن يحاكم أمام محكمة عسكرية بريطانية ، فلم يتعثر فى التحقيق

ولم يعترف على أحد برغم ما لاقاه من إيذاء وتهديد لانتزاع اعتراف منه بالباطل ، وصمد مسعود وصبر وحكم عليه بالإعدام شنقاً ولقى ربه مطمئن النفس ، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته (وقل من يعرف حادثة محاولة قتل توفيق نسيم على نحو ما ذكرت) .

* * *

جولة سعد فى الوجه القبلى :

فى أكتوبر ١٩٢١ رأى سعد أن يقوم بجولة فى الوجه القبلى يؤلب فيها الجماهير على الحكومة (وزارة عدلى يكن باشا) واستقل باخرة نيلية ماكادت تصل إلى اسيوط حتى حاولت السلطة منعه من النزول إلى البر ووقع صدام بين الشعب والبوليس وغرق فى النيل ثلاثة من الأهالى وقتل واحد وجرح ثلاثون ، وحصل مثل ذلك الهرج والصدام فى جرجا عند وصول الباخرة إليها .

أمر السلطة بأن يكف سعد عن نشاطه ولا يواصل رحلته وتحدد إقامته ثم نفيه :

فأصدرت الإدارة أمراً بمنع سعد من مواصلة رحلته ، ثم أصدرت السلطة العسكرية أمراً إلى سعد بأن يكف عن نشاطه السياسى وأن يبقى ببلدته تحت تصرف مدير المديرية وصدر مثل ذلك الأمر إلى كل من فتح الله بركات وعاطف بركات ومصطفى النحاس وجعفر فخرى وأمين عز العرب وصادق حنين ومكرم عبيد وسينوت حنا من أعضاء الوفد ولكنهم رفضوا الأمر جميعاً فقررت الحكومة نفى سعد والنحاس ومكرم وسينوت إلى سيشل فى ١٩٢٢/٢/٢٨ بعد أن كانت السلطة نفتهم إلى عدن ومعهم فتح الله بركات وعاطف بركات فى ديسمبر ١٩٢١ .

إلقاء قنبلة على معسكر إنجليزى فى جزيرة بدران :

وفى ١٩٢٢/٢/١٢ عبر الشعب عن سخطه وألقى الفدائيون قنبلة على المعسكر البريطانى فى جزيرة بدران بشبرا ، ففرض الإنجليز على أهل الحى غرامة قدرها ١٨٠٠ جنيه جمعوها من الأهالى بالقوة .

اقتحام بيت الأمه وغلقه :

وفى ١٩٢٢/٢/٢٠ اقتحم الإنجليز بيت الأمة (منزل سعد) وجمعوا منه كل ما أرادوا من أوراق ومستندات ثم أغلقوه .

تصريح بإلغاء الحماية بتحفظات :

وفى ٢٨/٢/١٩٢٢ أصدرت الحكومة البريطانية تحت ضغط الشعور الوطنى واستمرار حوادث الاغتيال وصمود الأمة فى الجهاد تصريحاً بإلغاء الحماية على مصر بتحفظات أربعة :

١ - تأمين المواصلات الإمبراطورية .

٢ - حقهم فى الدفاع عن مصر .

٣ - حمايتهم للأقليات ومصالح الجاليات الأجنبية .

٤ - استقلال إنجلترا بشئون السودان وبقاء جيش الاحتلال بمصر .

وكانت إنجلترا تتوقع أن يهدئ صدور التصريح من ثائرة المصريين ويقلل من حوادث الاغتيالات إن لم يقض عليها ، ولكن خاب ظنها .

استخدام القنابل أيضاً :

وفى ٤/٣/١٩٢٢ أى بعد أقل من أسبوع واحد من التصريح ألقى الفدائيون قنبلتين على بعض الجنود الإنجليز بميدان الخازندار تعبيراً عن سخط الأمة فألقت السلطة القبض على بعض الشخصيات من الوفد والحزب الوطنى .

وفى ١٥/٣/١٩٢٢ أعلن السلطان فؤاد استقلال البلاد واتخذ لقب ملك مصر وعهد إلى عبد الخالق ثروت باشا الذى تولى رئاسة الوزارة فى أعقاب التصريح اتخاذ الإجراءات اللازمة لوضع دستور البلاد .

وفى ٣/٤/١٩٢٢ ألفت الوزارة لجنة لوضع الدستور عرفت بلجنة الثلاثين ورفض كل من الوفد والحزب الوطنى الاشتراك فيها . وصرح سعد بأن وضع الدستور لابد أن يكون بمعرفة لجنة منتخبة لا معينة وحتى لا يكون الدستور منحة ، وأطلق على اللجنة المعينة اسم لجنة الأشقياء . وقد بدا فى تلك الحقبة فكرة تأليف حزب الأحرار الدستوريين وعند تكوينه ضم جميع أعضاء لجنة الدستور وعدداً من ذوى النفوذ وكبار المصريين وأغلبهم من أعضاء حزب الأمة القديم كما ضم بعض المنفصلين عن الوفد من خصوم سعد . ولم يقابل تأليف الحزب من طبقات الشعب بالرضا والارتياح .

نقل المنفيين إلى جبل طارق :

وفى ٣/٩/١٩٢٢ أمرت السلطات الإنجليزية بنقل سعد زغلول من جزيرة سيشل إلى جبل طارق فى عهد وزارة عبد الخالق ثروت باشا .

الميثاق الوطنى :

وفى ١٤/١١/١٩٢٢ اجتمع وفد الحزب الوطنى ووفدا لوفد المصرى فى لوكاندة أكسلسيور بروما بمناسبة انعقاد مؤتمر الشرق بلوزان ، ووضع بالاتفاق – توحيداً للجهود لخدمة القضية المصرية – برنامج واحد للوفدين بمثابة ميثاق وطنى بينهما ، كان الفضل كل الفضل فيه للحزب الوطنى الذى جرّ الوفد المصرى إليه جراً لمبادئه وجاء فى البرنامج :

١ – الاستقلال التام لوادى النيل دون أى تدخل أجنبى أو قيد أو مساس بهذا الاستقلال .

٢ – معاهدة ١٨٩٩ الخاصة بالسودان باطلة ملغاة لا أثر لها .

٣ – جلاء الجنود الإنجليز عن جميع بقاع وادى النيل .

٤ – عدم الاعتراف ومقاومة كل زعم من مزاعم إنجلترا يقصد به إيجاد أى مركز ممتاز خاص لها فى جميع أنحاء وادى النيل .

٥ – مسألة الامتيازات الأجنبية لا تحل إلا بمفاوضات بين مصر والدول مباشرة .

٦ – مقاومة أى محاولة تقضى إلى مفاوضة إنجليزية مصرية لحل قضية مصر عند بحثها فى مؤتمر لوزان .

٧ – إحباط كل محاولة إنجليزية ترمى إلى حمل مصر على إقرار أى تدبير من التدابير التى اتخذت فى ظل الأحكام العرفية .

٨ – تقرير حيدة قناة السويس طبقاً لما تقرر فى مؤتمر الآستانة ١٨٨٨ والحصول على تكليف مصر المستقلة بالدفاع عت تلك الحيدة .

٩ – العمل على منع تمثيل مصر فى المؤتمر بواسطة أى وفد حكومى لأنها لا تعبر عن رأى الشعب .

١٠ – العمل على تمثيل الشعب المصرى لدى المؤتمر بواسطة الهيئة المكونة من الوفدين المتحدين مع المطالبة بفك اعتقال سعد باشا لرئاستها لتحقيق البرنامج المتفق عليه ولقد وافق سعد باشا على البرنامج بتلغراف أرسله من جبل طارق إلى حافظ رمضان باشا فى لوزان فى ١٦/١١/١٩٢٢ ثم تمسك به سعد باشا وهو رئيس للحكومة فى مفاوضته مع ماكدونالد رئيس وزراء إنجلترا فى خريف ١٩٢٤ .

عدلى والمفاوضة الثالثة :

وفى أعقاب ذلك جرت المفاوضة الثالثة على يد عدلى باشا وتعثرت أيضاً وقطعت بلا نتيجة .

الإفراج عن سعد وزملائه :

وفى ٢٠ /٣/١٩٢٣ أفرج الإنجليز عن سعد وزملائه وعادوا إلى مصر فى ١٧ /٩/١٩٢٣ بعد أن مروا فى طريق عودتهم بفرنسا ومضوا بها فترة من الزمن واستقبلوا عند وصولهم إلى مصر استقبالاً شعبياً عظيماً فى عهد وزارة محمد توفيق نسيم باشا .

صدور الدستور المصرى :

وفى ١٩ /٤ /٢٣ صدر الدستور المصرى (وعرف بدستور ٢٣) فى وزارة يحيى إبراهيم باشا بعد أن حذف منه بعض النصوص الخاصة بالسودان .

بداية النهاية :

وبعودة سعد إلى مصر بعد إفراج الإنجليز عنه أمسك الإنجليز بأول خيط واطمأنوا إلى نهاية الصراع المرير الذى دام طويلاً بينهم وبين المصريين ، إذ جعلوا من نفى سعد ثم الإفراج عنه بطلاً فى نظر المصريين الذين سحرهم بخطبه وبيانه وقلدوه الزمام واستخفهم فأطاعوه . وأخذت الأحداث تجرى على مسرح السياسة المصرية على غير هدى وفى نطاق الغايات الحزبية لا الصالح الوطنى ولا حول ولا قوة إلا بالله .

دور الشعبة الجديدة فيما بين ١٩٢٣ و١٩٢٤ :

لم تقف شعبتنا مما يجرى من أحداث موقف المتفرج وبدأت جولتها فى ١٨ /٢ /٢٢ على بركة الله وفق قرار اتخذته بأن يكون الاغتيال السياسى مقصوراً على كبار الإنجليز بعد أن كان موجهاً لعملائهم من المصريين . فى ذلك التحول فى رأيى ما يقلق بالهم وينغص عليهم معيشتهم وهو فى الوقت نفسه ردع لأعوانهم .

قتل مستر براون ١٨ /٢ /١٩٢٢ :

فبدأت فى ١٨ /٢ /١٩٢٢ بقتل مستر براون مراقب عام وزارة المعارف على بعد خطوات من الباب الخارجى للوزارة وهو يغادرها وتمت العملية بنجاح بفضل الله ثم إيمان وإخلاص المنفذين وإحكام الخطة والتزام الأعضاء بالتعليمات الموضوعة للتنفيذ ، فضلاً عن حدب الشعب ورضاه على

تلك الوسيلة من النضال ، ولم يقبض على أحد وقيد الحادث ضد مجهول وكان من حظ عبد الخالق عنايت أن اشترك فى هذه الحادثة قبل سفره إلى النمسا لدراسة الطب .

قتل المستر كييف ١٩٢٢/٥/٢٤ :

وفى ١٩٢٢/٥/٢٤ قتل المستر كييف وكيل حكمدار العاصمة بشارع الفلكى قرب ميدان الأزهار بعد خروجه من دار المحافظة بباب الخلق قاصداً منزله ، وتصادف وجود سيدة إنجليزية فى مكان الحادث ولمحت إبراهيم موسى وهو يجرى بعد تنفيذ القتل وكانت تركب دراجة فتعقبته تريد اللحاق به للقبض عليه فراوغها وعوقها مساعدوه عن متابعته وهددها إبراهيم موسى بمسدسه لتخويفها ، وتمكن من الهرب ولم تلحق به . إلا أن صورته انطبعت فى مخيلتها ولم يقبض على أحد وقيد الحادث ضد مجهول ، وما إن وقعت حادثة السردار فى ١٩٢٤ وقبض على أفراد الشعبة حتى تقدمت تلك السيدة للشهادة وبرغم طول المدة بين الحادثتين أمكنها أن تتعرف على إبراهيم موسى وتخرجه من بين الواقفين فى العرض وتشهد بأنه قاتل المستر كييف وكيل الحكمدار وكان لشهادتها قيمة وأثر فى مجرى التحقيق .

قتل المستر بيجوت فى ١٩٢٢/٦/١٥ :

ثم قتل الكولونيل بيجوت مدير مالية الجيش البريطانى بشارع القاضى الفاضل قرب شارع جامع جركس وهو يغادر منزله صباحاً من يوم ٢٢/٦/١٥ إلى مقر عمله سائراً على قدميه وكنت وفقت فى تلك الحادثة إلى اتباع طريقة للتشويش على صوت الطلقات حتى لا ينتبه إليه أحد ، فكلفت شقيقى أحمد وكان وقتئذ طالباً بمدرسة القضاء الشرعى ويجيد ركوب الموتوسيكل أن يستأجر موتوسيكلاً ويروح به ويغدو بشارع جامع جركس قبيل وقوع الحادث على أن يستعمل الشكمان ليصدر صوت الفرقعة المرتفعة عندما أعطى له الإشارة فى نفس اللحظة التى يهم فيها المنفذون بإطلاق مسدساتهم على مستر بيجوت . وتمت العملية طبق الخطة المرسومة بنجاح وبفضل الله ولم يقبض على أحد وقيد الحادث أيضاً ضد مجهول .

قتل المفتشين بعنابر السكة الحديد والجنود بمهمشة وشبرا ومهاجمة إيدن بالاس ومحال اللهو بالقنابل :

وبعد ذلك الحادث بقليل قتل المستر هاتون مفتش عنابر السكك الحديدية ومفتشان آخران معه لا أذكر اسميهما وبعض الجنود بجهة مهمشة قرب ميدان المحطة وتم إلقاء القنابل اليدوية على محال اللهو بجهة الأزبكية حيث يجتمع الجنود لقضاء أوقات اللهو وعلى إيدن بالاس دون أن يقبض على أحد حيث تمكن المنفذون من الهرب ولم يتعرض لهم أحد وقيدت الحوادث ضد مجهول .

محاولة قتل براون رئيس مصلحة البساتين ١٢/٨/١٩٢٢ :

وفى مساء ١٢/٨/١٩٢٢ حاولنا قتل المستر براون رئيس مصلحة البساتين وهو راكب كارتة ومعه عائلته قاصداً السفر إلى الخارج واتخذ المنفذون ، وكان من بينهم عبد الحميد عنايت – كميناً لهم بحدائق الأورمان . وما إن رأوا الكارتة تقترب حتى أطلقوا الرصاص فى الظلام على من فيها وجفل الحصان وجرى مسرعاً ونجا براون بأعجوبة وإن كان أصيب هو وابنه وخادمته إصابات خطيرة وقتل السائق وهرب الأعضاء فى الظلام ولم يقبض على أحد وقيد الحادث ضد مجهول .

قتل إسماعيل بك زهدى وحسن عبد الرازق باشا :

ولم تشذ الشعبة عن القاعدة التى التزمت بها إلا مرة واحدة بقتلها خطأ المرحومين إسماعيل زهدى بك وحسن عبد الرازق باشا عضوى إدارة حزب الأحرار الدستوريين وهما يخرجان من النادى ويهمان بركوب السيارة أمام دار الحزب بشارع المبتديان مساء ١٧/١١/١٩٢٢ وكان الظلام حالكاً . وكان المقصود بالقتل عدلى يكن باشا وحسين رشدى باشا بسبب التهالك على المفاوضات ، وكانت العملية ترجمة صادقة لرفضنا مبدأ المفاوضة الذى جرّ على البلاد الوبال وفر المنفذون وغابوا فى الظلام عن الأنظار وقيد الحادث ضد مجهول .

قتل وكيل كلية الحقوق ٢٧/١٢/١٩٢٢ .

وفى ٢٧/١٢/١٩٢٢ قتل المستر روبنسون وكيل كلية الحقوق وقيد الحادث ضد مجهول . وبذلك كان لا يمر شهر دون حادث ، وما من شك فى أن تتابع حوادث القتل السياسى على النحو الذى جرت عليه من إحكام فى الخطة وجرأة ونجاح فى التنفيذ وإفلات المنفذين فى وضح النهار ، كان له أحسن الوقع فى نفوس الوطنيين ورفع معنوياتهم كما كان له أبعد الأثر فى إلقاء الرعب فى قلوب الإنجليز وعملائهم المصريين وحملهم على التفكير فى تغيير سياستهم .

سخرية القدر وحملة التفتيش عن السلاح والقبض على الأفراد :

مما تميز به عام ١٩٢٣ قيام البوليس بحملة تفتيشية واسعة النطاق للبحث عن السلاح إثر تعدد حوادث الاغتيال السياسى – وبالأخص فى أقسام عابدين والأزبكية والدرب الأحمر ، ولو أنه لم يعثر على سلاح إلا أنه قبض على نحو الخمسين ممن اشتبه أن لهم نشاطاً خاصاً ويعتبرهم خطراً على الأمن

وأودعهم السجن وكنت من بينهم ، ومعى من أفراد الشعبة محمود راشد وعبد الفتاح عنايت وشقيقه عبد الحميد عنايت وإبراهيم موسى وزميله محمد فهمى ، وأذكر ممن أعرفهم فضيلة الشيخ مصطفى القاياتى المجاهد الوفدى والأستاذ أحمد وفيق المحامى المجاهد الوطنى والشقيقين يوسف العبد وعبد الرؤوف العبد ومحمود عثمان الطويجى من المناضلين المخلصين .

القبض على نظير خليل وتلفيق التهمة ضده هو وزملاؤه واتباع مسائل الإغراء والتهديد معه :

تم ذلك فى أعقاب القبض على الشاب نظير خليل وبعض زملائه من أعضاء ناد رياضى بالحلمية الجديدة وإيداعهم السجن رهن التحقيق بتهمة قتل طباخ أحد الإنجليز وسرقة ساعته ونقوده وهم يقومون برحلة بجبل المقطم . وحقق معهم وضيق الخناق عليهم فاعترفوا بذنبهم إلا أن البوليس حاول فى نفس الوقت أن يربط بين ذلك الحادث وحوادث الاغتيال السياسى وأن يزج بنا نحن أفراد الشعبة مع جماعة نظير فى قضية واحدة ولكنه أخفق لعدم وجود أية صلة بيننا وبينهم . وعز عليه الأمر فلفق لنظير ومن معه تهمة القيام بحوادث الاغتيال السياسى متخذاً من حادثة قتل الطباخ البعيدة كل البعد عن السياسة ذريعة لذلك الاتهام الباطل الذى أراد من ورائه أن يحفظ هيبته التى ضاعت وأن يغطى عجزه السابق بإيهامه الناس بأنه وضع يده على كل من كانوا يقومون بعمليات الاغتيال وأفلتوا منه فى وضح النهار .

واستخدمت السلطات مع نظير وإخوانه طرق الإغراء تارة ووسائل التهديد تارة أخرى وكان أحدهم ويدعى دسوقى قد أقدم على الانتحار بسجن الأجانب واستغل البوليس ضعفه وأغراه بوعود معسولة وأمكنه أن يجعل منه «شاهد ملك» على زملائه ، ولفق البوليس الأدلة ضدهم واستكتبهم بالإغراء والإكراه اعترافات باطلة بأنهم هم مدبرو حوادث الاغتيال ومرتكبوها وعلى رأسهم نظير . فأدينوا وقدموا للمحاكمة على ذلك الأساس .

إعدام نظير والسجن بالأشغال لمن معه :

وصدر الحكم بالإعدام شنقا على نظير والسجن مع الأشغال مدداً مختلفة على زملائه ، والله يشهد أنهم أبرياء مما أكرهوا على قوله إلا من دم الطباخ قتيل المقطم لأمور شخصية .

أما نحن الفعلة الحقيقيون فلم ينالوا منا إلا أن حجزونا بالسجن لبضعة شهور حتى حكم فى قضية نظير ثم أفرج عنا ، فيالسخرية القدر ، إلى أن عادوا وقبضوا علينا فى حادث قتل سردار الجيش المصرى سيرلى ستاك الإنجليزى فى نوفمبر ١٩٢٤ .

قتل سيرلى ستاك سردار الجيش المصرى ١٨/١١/٢٤ والدافع له :

وكانت خاتمة نشاط الشعبة حادثة قتل سردار الجيش المصرى سيرلى ستاك فى ١٨/١١/١٩٢٤ انتقاماً من الإنجليز لضربهم المستشفى والكلية الحربية بالخرطوم . . بالقنابل وهدمها على من فيها لمجرد تظاهر السودانيين وتمردهم على الاحتلال ومناداتهم بالاستقلال التام لمصر والسودان . ولم تفكر – مع بالغ الأسف – وزارة سعد زغلول فى رد اللطمة بما تستحقه ولم تتخذ إجراء حاسماً إزاء ما يجرى فى السودان ، فكان لزاماً على الشعبة أن تثبت وجودها بعد طول سكوتها وأن ترد اللطمة بأسلوبها الرادع وأرى من المناسب أن أشير إلى ظروف وزارة سعد زغلول قبل أن أتعرض لحادثة قتل السردار .

أول مجلس نيابى :

فى ٢٢ يناير ١٩٢٤ أسفر أول انتخاب لمجلس نيابى فى ١٢/١/١٩٢٤ عن فوز الوفد وسعد زغلول بالأغلبية الساحقة . فشكل سعد الوزارة وأفرج عن المسجونين السياسيين وألغى نفقات جيش الاحتلال وأكد فى مجلس النواب أن السودان جزء من مصر يستحيل فصله ، فأعلنت الحكومة البريطانية من ناحيتها إصرارها على عدم تخليها عن السودان . ومن المؤسف أن يعود سعد فيما بعد وينكث ولا يثبت على رأيه الصائب الذى أبداه وأكده ، فى مجلس النواب ، ويرتضى لنفسه أن يكون شأنه شأن المذبذبين والضعفاء والمنافقين .

شراء الذمم :

وكان الوفد – مع الأسف – قد استخدم للحصول على أكبر عدد من مقاعد مجلس النواب أحط الوسائل لكسب أصوات الناخبين من تضليل وأغواه بالرشوة وبالوعود البراقة ولم ينج من ذلك حتى رؤساء لجان الانتخابات ذاتها لتزوير الإنتخابات بما يشبع رغبة الوفد . ونسجت الأحزاب الأخرى على نفس المنوال الفاسد واشتركت كلها مع الأسف فى إفساد الأخلاق وشراء الذمم . ولا مفاضلة هنا فى السوء إذ الكل فيه سواء .

التطاحن على الحكم :

وبتلك الأوضاع سادت الفوضى وفقدت القوانين سيادتها – وتحكمت شريعة الغاب وتطاحنت الأحزاب على كراسى الحكم وتسابقت كل وزارة فى حشو خطاب العرش . ذراً للرماد بوعود معسولة وبيانات مضللة لا يتحقق منها شىء فكانت بذلك شراً ووبيلاً على الوطن وبنيه .

حمى المفاوضة أيضاً :

وفى ١٢/٧/٢٤ سافر سعد إلى لندن للمفاوضة مع رامزى ماكدونالد رئيس حزب العمال البريطانى ورئيس الوزارة – وهو صاحب التصريح المشهور الذى أدلى به لسعد خلال زيارته لمصر عام ١٩٢١ أننا سنحل معاً القضية المصرية بالمفاوضة قبل أن ننتهى من شرب فنجان القهوة هذا – ولكن تعثرت المفاوضة وعاد سعد من لندن دون نتيجة فى أكتوبر ١٩٢٤ .

الملك فؤاد وسعد باشا :

وفى أعقاب عودة سعد بعد فشل المفاوضات عين الملك فؤاد حسن نشأت باشا وكيلاً للديوان الملكى دون إقرار الوزارة لذلك التعيين ، وثار سعد لتصرف الملك وقدم استقالته وأصر عليها وعلى أن لا يعود للوزارة إلا إذا سلم الملك ورضى بأن يكون فقط حاكماً دستورياً للبلاد . وانتهت الأزمة برضوخ الملك فعدل سعد عن استقالته وكسب الجولة .

إلا أن ذلك الكسب لم يلبث أن فقد قيمته بارتكاب الفدائيين حادث قتل سردار الجيش المصرى وحاكم عام السودان «سيرلى ستاك» يوم ١٨/١١/١٩٢٤ الذى أطاح بوزارة سعد وتولى الوزارة من بعده زيور باشا الذى عمل جهده لإرضاء الإنجليز والاستجابة لكل المطالب التى طلبتها إنجلترا من مصر بعد الحادث . كما عمل على حل مجلس النواب وبذا يكون الملك قد تخلص من الوزارة الوفدية والبرلمان الوفدى . وكانت ضربة بضربة ، وخلا للملك الجو وبادر بالدعوة إلى تكوين حزب جديد يأتمر بأمره ويدعم سلطته سمى حزب الاتحاد وعرف بين الشعب بأنه حزب الملك وأطلق عليه سعد «حزب الشيطان» ولم يضم الحزب الجديد أحداً من الشخصيات البارزة فولد ميتا برغم ما خصص له من إعانات مالية سخية .

محاولة اغتيال سعد :

وكان الشاب عبد اللطيف عبد الخالق الدلبشانى – من شباب الحزب الوطنى قد حاول اغتيال سعد بأن أطلق عليه رصاص مسدسه وهو يهم بركوب القطار بمحطة القاهرة للسفر إلى لندن لإجراء تلك المفاوضة فأخطأه ولم يصب سعد إلا فى يده وسافر ليتم مهمته . أما عبد اللطيف فقد ثبت فى مكانه ولم يحاول الهرب وقبض عليه وسحب منه مستر إنجرام المسدس وتحفظ عليه وأودع السجن وقاسى من أبشع أنواع التعذيب وحاول الوفديون ورجال الإدارة أن يحملوه بشتى الطرق على اتهام بعض الوطنيين

بتدبير الحادث فأبدى ثباتاً نادراً وشجاعة فائقة شأن كل مؤمن . وأذكر أن من بين من اعتقلوا بشبهة الاشتراك فى تدبير الحادث الشيخ عبد العزيز جاويش والحاج أحمد رمضان زيان التاجر بالإسكندرية وعضو جمعية التضامن الأخوى السرية . . وضاعت سدًى كل محاولات السلطة مع عبد اللطيف من اغراء وتهديد أمام إصراره ، وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة .

التضليل السياسى :

وليوهم المسئولون الشعب المضلل بأن سعد زغلول لا يخطئ وأنه لم يخلق بعد من يجرؤ ويعتدى عليه لقتله إلا إذا كان مخبولاً . وأودعوا عبد اللطيف مستشفى الأمراض العقلية بدعوى أنه مخبول مختل الشعور ليصاب وهو بالمستشفى بالجنون .

التفكير فى قتل سكرتير عام حكومة السودان ثم التحول إلى قتل سردار الجيش :

والحق يقال إن تفكيرنا اتجه أول ما اتجه إلى تدبير اغتيال سكرتير عام حكومة السودان وكانت سرايه بميدان توفيق وتمت مراقبته فعلاً ووضعت الخطة لقتله ولم يبق إلا التنفيذ لولا تدخل القدر . وأراد الله أن تكون الضحية أعظم مكانة من السكرتير العام وأخطر شأناً ، إذ حضر إلى مصر فى ذلك الحين سيرلى ستاك فتحولت أنظار الشعبة إليه ووضع تحت المراقبة من يوم وصوله ووضعت خطه لقتله وهو يغادر وزارة الحربية التى كان يزورها كل يوم .

تفصيل خطة القتل :

وتقضى الخطة بأن يكون مكان التنفيذ عند تقاطع شارع القصر العينى بشارع ضريح سعد ، والحكمة فى اختيار تلك الناصية هى أن سائق سيارة السردار يضطر عندها إلى تهدئة السرعة حتى يتفادى التصادم بالترام ، بما يمكن المنفذ من اصابة الهدف وأن يكون مكان المراقبة وإعطاء الإشارة للتنفيذ عند تقاطع شارع الفلكى بشارع ضريح سعد فى الزاوية المقابلة لوزارة الحربية حتى يرى معطى الإشارة السردار عندما يهم بركوب سيارته المنتظرة أمام باب الوزارة . وأن يزود معطى الإشارة بدراجة ، وكنت أنا المكلف بإعطاء الإشارة . وأن تعد سيارة تاكسى لانتظار المنفذين بشارع الطرقة الشرقية قرب تقاطعه بشارع القصر العينى للهرب بها بعد التنفيذ ، وكان محمود راشد هو المكلف بالانتظار داخل السيارة وأن يجلس المنفذون على الأرض فى مكانهم يتظاهرون بتناول وجبة الغداء من طعمية وفول وعيش وبصل وكانوا إبراهيم موسى وراغب حسن وعلى إبراهيم من العمال وكان معهم

عبد الحميد عنايت وأن لا يقوموا بدورهم إلا إذا رأونى مقبلاً عليهم مسرعاً بدراجتى فإسراعى إشارة إلى أن السيارة التى تتبعنى من خلفى تقل السردار لا شخصاً آخر ، وإن أقبلت عليهم مبطئاً متثاقلاً فمعناه إلا يتحركوا من مكانهم ولا يفعلوا شيئاً . فالسيارة لا تحمل السردار وعلى أن تتم كل تلك الخطوات قبيل مغادرة السردار الوزارة بقليل إبعاداً للشبهة .

اجتماع يوم ١٩٢٤/١١/١٧ بمنزل آل عنايت :

وبعد انتهائنا من وضع الخطة التى لا يعلم عنها شفيق منصور شيئاً زارنى ببنك مصر (وكنت وقتئذ رئيس قلم المراجعة بالبنك) شفيق منصور ومعه محمود إسماعيل يوم ٢٤/١١/١٧ (أى قبل الحادث بيوم) وذهبنا إلى منزل آل عنايت وتناولنا الغداء ومعنا عبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت وكان الغداء بناء على اقتراحى أكلة من لحم الراس اشتريناها من مسمط قريب من المنزل . وفى ذلك اللقاء أخطرنا شفيق بعدولنا عن فكرة اغتيال سكرتير عام الحكومة واستبدالها باغتيال السردار لأنه أخطر شأناً وأعظم مكانة ، وانتهاز فرصة وجوده بمصر للتنفيذ وكنا نظن أنه سيرحب بذلك .

معارضة شفيق بشدة وأطماعه الذاتية :

إلا أن شفيق عارض بشدة لا لشىء إلا لأنه يعتقد أن ذلك لو تم لسقطت على الفور حكومة الوفد الذى يدين له بالولاء ويحرص على بقائه فى الحكم وإلا ضاع عليه هو شخصياً كل ما وصل إليه من مركز مرموق وما يتمتع به من مزايا (وكان الوفد رشحه نائباً عن دائرة باب الشعرية وعمل على نجاحه ونجح) وما يحلم به من نعم مستقبلاً وأصر شفيق بعناد على رأيه وثار فينا يريد أن يؤثر علينا ويثنينا عن عزمنا .

وكان تصريح شفيق صدمة قوية لنا جميعاً فنحن نعلم أنه نشأ وتربى فى أحضان الحزب الوطنى شاباً وطنياً متفانياً فى حب وطنه وخدمته فكان لتنكره للحزب ومبدئه وارتمائه على تلك الصورة فى أحضان الوفد أسوأ وقع فى نفوسنا ، فتظاهرنا بقبول رأيه وانفض الاجتماع وهو يعتقد أننا عدلنا عن تنفيذ قتل السردار نزولاً على رغبته .

إصرارنا على التنفيذ :

ويعلم الله أننا كنا مصرين على التنفيذ لنضرب عصفورين بحجر – الانتقام من الإنجليز وتخليص الوطن من الطاغوت ذى الرئاستين سعد – وإن نحن رضخنا لشفيق وعدلنا عن الانتقام لكنا خائنين

للمبدأ مفرطين فى حق الوطن وخصوصاً أن رفض شفيق لفكرة قتل السردار كان لأسباب ، كلها شخصية ولا تمت إلى الصالح العام بشيء .

سخرية القدر ومقابلة شفيق لوزير المعارف بمكتبه وقت الحادث .

وبعد ذلك الاجتماع أى يوم ١٨ / ١١ / ٢٤ وقعت الواقعة ونفذت الخطة بنجاح ، ومن سخرية القدر أن يتم الحادث وشفيق بمحض المصادفة فى زيارة لزميله أحمد ماهر بمكتبه بوزارة المعارف القريب من مكان الحادث . مما اتخذته السلطات قرينة على اشتراكه فى الحادث وعلى أنه لم يوجد لدى الوزير فى ذلك الوقت بالذات إلا لمراقبة التنفيذ .

شفيق برىء من دم السردار :

ويعلم الله أن شفيق برىء من دم السردار براءة الذئب من دم ابن يعقوب وإن لم يكن بريئاً من الحوادث التى سبقته والتى كان لا يرى فيها – من زاويته – أنها تبلغ مبلغ الخطورة على مركز الوفد بقدر ما كان فيها من احتمال كبير لاستغلالها لمصلحته والتلويح بها أنه ذو شان إذا ما نسبها لنفسه .

إشارة التنفيذ :

استعرت – وكنت رئيس قسم المراجعة ببنك مصر – دراجة أحد موظفى المراجعة واسمه جاد ، على أن أقضى بها طلباً عاجلاً ثم أردها إليه بعد قليل . وقابلت محمود راشد بمنزله حسب اتفاق سابق وقصدنا ميدان لاظوغلى واستأجرت التاكسى وأجلست فيه راشد لينتظر إخوانه للهرب بعد إتمام العملية . وبدراجتى مررت بالمنفذين وهم جالسون فى المكان الذى خصص لهم يتظاهرون بالأكل فى انتظار إشارتى المتفق عليها واتخذت مكانى فى الزاوية المقابلة لوزارة الحربية بعد أن اطمأننت أن كل شيء على ما يرام .

حضور عبد الفتاح ومقابلتى للتمويه :

وزيادة فى التضليل كان على عبد الفتاح أن يغادر كلية الحقوق (وكان طالباً بها) ليحضر قبيل الحادث ويقف معى قليلاً وأنا واقف بدراجتى أرقب خروج السردار وحضر وبقى معى بضع ثوان ثم مر على الإخوان وهم جالسون على الأرض عند الناصية ثم قفل إلى منزله بشارع البستان يترقب النتيجة على أحر من الجمر .

بدء التنفيذ :

وما إن تركنى عبد الفتاح حتى لمحت السردار يتأهب لركوب سيارته فاستويت على دراجتى واتجهت بأقصى سرعة نحو زملائى الرابضين فى أول الشارع ومن خلفى سيارة السردار التى هدأ السائق من سرعتها كما توقعنا عند رسم الخطة وانهال الرصاص على السيارة وخر السردار صريعاً وكان معه يا وره فأسرع السائق ينهب الأرض نهباً إلى دار المندوب السامى حيث كان ينزل القتيل ، لعله يسعف بشىء ولكن قضاء الله قد سبق ودوى خبر قتل السردار فى كل مكان .

الهرب بالسيارة :

أسرع المنفذون إلى مكان السيارة التى كانت فى انتظارهم وبها محمود راشد وهربوا ولم يقبض على أحد إلا أن طربوش عبد الحميد عنايت سقط من فوق رأسه وهو يهم بركوب السيارة للهرب فالتقطه موظف بوزارة الاشغال ، وفى نفس الوقت تمكن من التقاط رقم السيارة وكان ٦٨٨ وبلغها للبوليس بعد أن حاول اللحاق بالهاربين فألقوا عليه قنبلة لتخويفه ولم تنفجر وأسرعت السيارة بشارع القصر العينى وغابت عن الأنظار . أما أنا – وقد تم كل شىء على ما يرام – فقد عدت مسرعاً بدراجتى إلى البنك لأردها إلى صاحبها .

خدعة عبد الحميد :

وسرعان ما حلق عبد الحميد شعر رأسه نمرة «زيرو» يبغى من وراء ذلك إبعاد الشبهة عنه فى أن يكون الطربوش طربوشه أو أن يكون أحد الشركاء إذا ما اتجه البوليس إلى محاولة معرفة صاحب الطربوش بوضعه فوق رأس كل من يقبض عليه .

أول الخيط :

وبواسطة رقم السيارة تمكن البوليس بعد البحث من معرفة السائق وألقى عليه القبض وبدأ فوراً التحقيق معه وقبض على الكثيرين ممن حامت حولهم الشبهات وعرضهم على السائق النوبى محمود صالح ولم يتعرف على أحد إطلاقاً وأنكر أنه رأى أحداً منهم وثبت على أقواله برغم تهديده مرة وإغرائه مرة أخرى كعادة البوليس ، وبقى فى زنزانته رقم ١ طول مدة التحقيق الذى استمر شهوراً ومات فيها بسجن قراميدان بالقلعة مثال الإخلاص والوفاء والبطولة . رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

مطالب إنجلترا :

وما إن وقعت حادثة مقتل السردار إلا وأرغت إنجلترا وأزبدت وكشرت عن أنيابها وفقدت وعيها وطالبت مصر على الفور بدفع غرامة مالية باهظة قدرها نصف مليون جنيه وبسحب الجيش المصرى من السودان مجرداً من سلاحه وبالقبض على الجناة وبتوقيع أشد العقوبة عليهم ، فضلاً عن اعتذارها عن الجناية ، وتوجه اللورد اللنبى المندوب السامى يوم ٢٢/١١/٢٤ فى مظاهر عسكرية ضخمة إلى رئاسة مجلس الوزراء ووجه إلى رئيس الوزراء سعد باشا تلك المطالب وقفل عائداً إلى مكتبه حانقاً دون أن ينتظر أى رد ، زيادة منه فى الامتهان .

إذعان سعد لمطالب إنجلترا :

واهتزت حكومة الوفد للحادث الجلل والتى لم تكن تتوقعه وفوجئت به وأسقط فى يدها واضطربت وأذعنت لمطالب بريطانيا فيما يختص بالتعويض المالى والقبض على الجناة . . فقط . . مما ترتب عليه احتلال الإنجليز لجمرك الإسكندرية فاستقالت مرغمة وانتهت بذلك سطوة ذى الرئاستين .

تولى زيور باشا الوزارة وتنفيذ كل المطالب :

وتولى الوزارة من بعد سعد زيور باشا فى ٢٤/١١/٢٤ وسرعان ما نفذت حكومته مطالب إنجلترا فدفعت التعويض المالى وسحبت الجيش المصرى من السودان وعبأت جهودها وكل أجهزتها السرية والعلنية للبحث عن الجناة والقبض عليهم ورصدت عشرة آلاف جنيه مكافأة لمن يرشد عنهم . وحلت مجلس النواب .

تفتيش المكتب الفرعى لجمعية اللواء الأبيض السودانية بالقاهرة والقبض على بعض الأعضاء :

واتجه نشاطها فى البحث عن الجناة بادئ الأمر إلى فرع جمعية اللواء الأبيض السودانية بمصر وهى جمعية وطنية تنادى وتعمل لاستقلال وادى النيل (مصر والسودان) فهاجمت مكتب الجمعية وفتشته كما فتشت مساكن بعض أفرادها وقبضت عليهم واعتقلتهم بتهمة أنهم قتلوا السردار انتقاماً لإخوانهم شهداء طلبة الكلية الحربية بالخرطوم ، وتـم التحقيق معهم ولم يسفر عن إدانتهم لعدم توفر الأدلة فأخلى سبيلهم .

القبض على بعض الشبان المصريين وخدعة الإفراج عنهم :

ثم اتجه الظن إلى الشبان ممن سبق وحامت حولهم الشبهات بالاشتراك فى حوادث الاغتيال السابقة وشملتهم القائمة السوداء بوزارة الداخلية فاعتقلت نفراً منهم ، ومن بينهم العامل إبراهيم موسى ومحمد فهمى وعبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت ثم أخلت سبيلهم بعد عرضهم على سائق السيارة محمود صالح وإصراره على عدم معرفته لأحد منهم . وفى ظنى أن ذلك الإفراج كان لغاية فى نفس يعقوب ليدخلوا على نفوسهم شيئاً من الاطمئنان وليركنوا إلى الغفلة وهم فى الواقع تحت المراقبة السرية .

كتاب وزارة الداخلية بأسماء من سموهم المجرمين السياسيين :

ولا يفوتنى بهذه المناسبة أن أذكر أن وزارة الداخلية كانت تحتفظ لديها بكتيب صغير للجيب مطبوع باللغتين الإنجليزية والفرنسية وعممت توزيعه على جهاز المباحث للاستعانة به ، ويحوى أسماء وصور من اعتبرتهم السلطات وطنيين ومتطرفين أوكما كانت تسميهم مجرمين سياسيين مرتبة حسب الحروف الإنجليزية .

واستطعت الحصول على النسخة الإنجليزية فوجدت اسمى وصورتى فى أعلى الصفحة الأولى وأمام الاسم عبارة وطنى متطرف خطر جداً اعتقل سياسياً عدة مرات فى حوادث القتل «يجب مراقبته بشدة» مكتوبة بالإنجليزية .

(Patriot, very dangerous, arrested many times, strict control).

استمرار البحث عن الجناة وظهور محمد نجيب الهلباوى على المسرح :

استمرت أجهزة المباحث والبوليس السياسى جادة فى البحث وإنجلترا من ورائها تتعجل النتيجة وتكاد ترمى السلطات المصرية بالتثاؤن والعجز ، حتى ظهر على المسرح محمد نجيب الهلباوى وكان ممن شملهم العفو السياسى وخرج من السجن ولم يجد عملاً وضاقت فى وجهه السبل وسال لعابه لمكافأة العشرة آلاف جنيه التى رصدتها الحكومة لمن يرشد عن الجناة واتصل بالبوليس السياسى يعرض عليه خدماته . وكانت الشبهات قد أخذت تزداد حول أولاد عنايت ضمن من حامت حولهم الشبهات والبوليس يعلم بالطبع أن المرحوم محمود عنايت الأخ الأكبر لعبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت كان ممن اتهموا مع محمد نجيب الهلباوى فى حادث الاعتداء على السلطان حسين يوم ١٩١٥/٧/٩

وكان من الرعيل الفدائى الأولى مع شفيق منصور وعوض جبريل ومحمد فريد ومحمد شمس الدين وأحمد سابق الذين اتهموا فى نفس الحادث من أعضاء جمعية التضامن الأخوى بالإسكندرية فتلقف البوليس الهلباوى ليكون دليله المرتجى فى معرفة الجناة .

بدء اتصال نجيب بعبد الفتاح وعبد الحميد :

بدأ الهلباوى فى الاتصال بعبد الفتاح وعبد الحميد عنايت متخذاً من ماضيه الوطنى وزمالته لأخيهم الأكبر المرحوم محمود واشتراكه معه فى حادث محاولة قتل السلطان حسين كامل ١٩١٥ وإدانته والحكم عليه بالإعدام شنقاً (أبدل الحكم بالاشغال الشاقة المؤبدة) اتخذ من ذلك ستاراً كثيفاً وسبيلاً لكسب اطمئنانهما له وثقتهما فيه ثقة عمياء . وما كان لمثلهما فى صغر سنهما وبراءتهما وقلة خبرتهما فى الحياة أن يظنا بنجيب الظنون أو يتخذا حذرهما منه .

مواصلة الاتصال بهما مع استدراجهما للوقوع فى الفخ :

كرر نجيب زيارته لهما فى ظل الصورة التى فى مخيلتهما عنه ولم يدر بخلدهما ما يضمره من شر طمعاً فى المكافأة – وأخذ يستدرجهما فى الحديث إلى أن طرق موضوع الاغتيالات السياسية كوسيلة فعالة فى وسائل تحقيق المطالب الوطنية ، وأخذ يحبذ القيام بها ووجوب استمرارها . ثم تظاهر بحنينه إلى تجديد نشاطه الوطنى فى هذا السبيل واستعداده التام للفداء إلا أنه لطول غيبته فى السجون ولتغيير الأوضاع فى البلد يرى نفسه فى حاجة إلى من يعاونه ويطمئن إليه وأنه حين يعرض عليهما ذلك إنما هو يعتمد كلياً عليهما فى مساعدته – وهما أدرى بالجو منه – عساه يتم معهما رسالة شقيقهما الأكبر المرحوم محمود . ولقى ذلك الحديث المحبب إليهما آذاناً صاغية ولمس نجيب منهما الكثير من الاطمئنان إليه والثقة به .

لقاء نجيب معهما فى أحد الفنادق بتدبير البوليس :

استمر نجيب يلقى شباكه واتفق مع البوليس السياسى بأن يجتمع بالشقيقين فى حجرة فى أحد الفنادق بدل الاجتماع بالمنزل بحجة الابتعاد عن الأنظار وعلى أن يكون سليم زكى رئيس القسم السياسى بالقاهرة مرابطاً فى الحجرة المجاورة بحيث يسترق السمع لما يدور من حديث . وفى ذلك الاجتماع استدرج نجيب الشقيقين إلى أن اعترفا له بأنهما شاركا فى حوادث الاغتيال السياسى . وفى حادثة السردار وأنهما يرحبان بمواصلة العمل معه إن وجدا إلى ذلك سبيلاً . وسمع سليم زكى كل ما دار فى ذلك اللقاء الخطير .

بداية الخيط :

وبذلك وضع البوليس ونجيب أيديهم على بداية الخيط وأخذوا يدبرون للخطوة التالية قبل أن يفلت الخيط من أيديهم وحتى يتقدموا بالبحث خطوة أخرى إلى الأمام .

نجيب يلقى شباكه ويزين للشقيقين الهرب :

وكانت الخطوة التالية أن يدخل نجيب فى روعهما أن البوليس أخذ يراقبهم هم الثلاثة وأنه قد يقبض عليهم ، وأخذ يزين لهما فكرة الهرب وهو معهما خارج القطر عن طريق الصحراء الغربية وأنه قام بتيسير الهرب فاستجابا لرأيه وازداد هو اطمئناناً لتكملة روايته وتحقيق مآربه .

زيارة عبد الحميد لى بمنزلى :

وزارنى عبد الحميد بمنزلى زيارة خاطفة وقال فى لهفة أننا جميعاً مراقبون وأنه عزم على الهرب براً إلى ليبيا هو وأخوه عبد الفتاح بمساعدة محمد نجيب الهلباوى الذى سيصحبهما ، ولم يكن هناك مكان للتردد فوافقت ولم أكن أدرى ما يخبئه لهما الدهر .

نجيب يقترح التزود بالسلاح :

واقترح نجيب أن يكون معهم سلاح وقت الهرب لحمايتهم من الطوارئ فى الطريق (يرمى بذلك إلى معرفة ما إذا كان تحت أيديهما سلاح) وبكل بساطة صرحا له بأن السلاح موجود فى متناول أيديهما واصطحبه عبد الحميد معه إلى منزل المرحوم راشد برحبة عابدين خلف سراى على باشا عبد الرازق بباب باريس وطلب منه أن ينتظره قليلاً أمام الباب ريثما يصعد إلى سكن محمود راشد ليحضر السلاح .

عبد الحميد يستلم السلاح من راشد :

وصعد عبد الحميد وكان راشد موجوداً فقص عليه الخبر فى عجلة وبإيجاز كما قصه علىَّ وطلب منه سلاحاً – بعد أن عرف منه أنى على علم بالأمر – فسلمه راشد ما طلب . وبهذا خطا نجيب خطوه أخرى إلى الأمام فى مهمته إذ عرف المنزل والشقة التى بها مخبأ السلاح واسم الساكن أيضاً وهو ممن كانوا تحت المراقبة .

طريق الهرب :

ورسم نجيب خطة الهرب بالاتفاق مع البوليس السياسى على أن يسافر مع الشقيقين إلى الإسكندرية وهناك يمكنه الحصول على زى عربى ليتخفوا فيه وعلى بعض المال من دائرة الأمير عمر طوسون ليستعينوا به على مصاريف السفر وأن يكون هربهم إلى الحدود بالسكك الحديدية . . حتى إذا ما وصل القطار إلى محطة الحمام يباغت البوليس الركاب بالتفتيش بحجة البحث عن السلاح . . وسافر الثلاثة إلى الإسكندرية بعد أن حصلوا على السلاح وهناك حصلوا على الزى العربى والمال واستقلوا القطار إلى الغرب.

مباغتة الهلباوى والقبض عليهم :

وما أن وقف القطار بالمحطة حتى صعد الهجانه وتظاهروا بتفتيش الركاب ولديهم التعليمات بأن المقصود بالتفتيش عبد الفتاح وعبد الحميد والهلباوى معهما وهم بالزى العربى واستولى الجند على ما معهم من سلاح وتم القبض عليهم ووقع الشقيقان فى الفخ الذى نصبه لهما نجيب والبوليس وأسقط فى أيديهما – وقد كان نجيب حتى تلك اللحظة موضع ثقتهما وكانا ينزلاه منزلة أخيهما الأكبر المرحوم محمود – وانكشف الغطاء وأحسا بعد الأوان بما كان يدبره نجيب فانهارت قواهما ولصغر سنهما لم يقويا على تحمل الصدمة وبدا عبد الفتاح يعترف فى ذهول فى التحقيق الأولى وجاءوا بالثلاثة إلى القاهرة .

توالى الاعترافات والقبض على أفراد الشعبة :

كانت تلك الخطوة مفتاح القضية وأخذ البوليس – كعادته – يستخدم وسائل التهديد والإغراء وبدأت التحقيقات وتوالت الاعترافات وتوالى القبض على أفراد الشعبة : شفيق منصور المحامى ومحمود إسماعيل الموظف بوزارة الأوقاف ومحمود راشد المهندس بمصلحة التنظيم وإبراهيم موسى ومحمد فهمى وراغب حسن وعلى إبراهيم عمال السكك الحديدية . . وقبض علىَّ فى فبراير ١٩٢٥ .

خدعة شيطانية :

وبلغ من وسائل البوليس الشيطانية فى بدء التحقيقات أن أوعز إلى جريدة المقطم فأصدرت عدداً خاصاً كتبت فى الصفحة الأولى منه وبالبنط العريض خبراً مزوراً بعنوان . . محمود إسماعيل يقابل وزير الداخلية ويلقى باعترافات خطيرة فى حادث مقتل السردار . . . وبطريقة شيطانية عمد البوليس أيضاً

إلى توصيل ذلك العدد إلى الشقيقين عبد الفتاح وعبد الحميد فاطلعا على الخبر الملفق وجازت عليهما الخدعة وصدقاه واندفعا بعد ذلك – وخصوصاً عبد الفتاح – فى الاعترافات .

شفيق يقدم تقريراً مفصلاً عن حوادث الاغتيال السياسى :

وفضلاً عن الإعترافات التى أفضى بها بعض المتهمين دون العمال الذين لم يعترفوا بشىء فإن شفيق منصور بالذات فقد السيطرة على أعصابه لما كان يلقاه من صنوف التعذيب والتهديد فقدم تقريراً مفصلاً شاملاً لكل حوادث الاغتيال السياسى من بدء قتل بطرس باشا رئيس الوزراء على يد البطل المرحوم إبراهيم ناصف الوردانى ١٩١٠ إلى مقتل السردار سيرلى ستاك فى نوفبر ١٩٢٤ مشفوعاً بأسماء الكثيرين من أعضاء الجمعية من شعبتى الإسكندرية والقاهرة ومنهم سليمان حافظ المحامى وأحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وحافظ محمد ومصطفى حمدى وكل من جاء ذكرهم فى هذه المذكرة . فكان ناكثاً للعهد ضاراً بنفسه وبأخوانه ووطنه .

إدانة ثمانية وتقديمهم إلى المحاكمة :

واتسع نطاق التحقيق واستمر عدة شهور وانتهى بإدانة كل من شفيق منصور ومحمود إسماعيل ومحمود راشد وعبد الفتاح عنايت وشقيقه عبد الحميد وإبراهيم موسى وراغب حسن وعلى إبراهيم من العمال وسائق السيارة محمود صالح وتقديمهم إلى المحاكمة .

مع النائب العام طاهر نور باشا :

وكان النائب العام طاهر باشا نور هو الذى أجرى التحقيق معى فى حادث قتل السردار بحضور المستركوين بويد مستشار وزارة الداخلية . وبعد الأسئلة التقليدية عن اسمى وسنى ومهنتى حلفت اليمين على أن أقول الحق ، وأخذ فى توجيه أسئلته إلى على النحو الآتى :

س : هل تعرف أحمد عنايت ؟ أجبت نعم أعرفه إذ كان زميلاً لى بمدرسة التجارة العليا .

س : وهل تعرف عبد الفتاح وعبد الحميد عنايت ؟ أجبت نعم أعرف أنهما شقيقا أحمد .

س : ومتى وكيف عرفتهما ؟ وما صلتك بهما ؟ أجبت كنت أذاكر مدة الدراسة مع شقيقهما أحمد بمنزله وكان من عادته أن يقدم لى شاياً أو قهوة خصوصاً إذا طال بنا وقت المذاكرة وأحياناً يتفضل بوجيه خفيفة .وكان يحضر ذلك أحدهما وكانا وقتئذ صغيرين وكبيرى الشبه ببعض فلم أكن أميز أحدهما عن الآخر لتقارب سنهما .

: وهل كنت تأكل عندهم ؟ أجبت نعم وهنا فطنت – بفضل الله – إلى ما يرمى إليه الباشا وأيقنت أن لابد وأن أحد المتهمين ورجحت أن يكون الأستاذ شفيق منصور قد اعترف بأنى اشتركت فى حادث السردار مستشهداً بأكلة الغداء التى تناولناها (أنا وعبد الفتاح وعبد الحميد ومحمود إسماعيل) بمنزل عنايت فى الجلسة الأخيرة التى قررنا فيها تنفيذ القتل برغم معارضة شفيق . وكان الغداء لحمة راس بناء على اقتراحى .

س : وسأل الباشا وماذا كان يقدم لك من طعام؟ فأجبت كان يقدم لنا ما يتناوله الطالب عادة وهو يذاكر إذا ما طال به وقت السهر ليستعين به على سد رمقه ومواصلة مذاكرته من أكل خفيف كالجبن والخبز والعسل والزبادى مثلاً .

س : وعاد الباشا وسأل : وهل تذكر أنك أكلت عندهم ذات يوم أكلة غريبة ؟ أجبت نعم أذكر وهنا انفرجت أسارير الباشا وظن أنه نجح فى استدراجى .

س : وسأل : صف لنا تلك الأكلة واذكر لنا متى كانت وعما إذا كان شارككم فيها أحد ؟ وتظاهرت بأنى أستجمع ذاكرتى وقلت أذكر أن أحمد عنايت دعانى مرة لتناول الغداء معه ولبيت دعوته ووجدته أعد صينية بطاطس باللحم المحمر فى الفرن ولم يحضر الغداء سوانا .

س : وسأل الباشا فى تعجب ودهشة : وهل البطاطس باللحم المحمر فى الفرن تعد أكلة غريبة ؟ أجبت نعم أنها تعتبر كذلك بالنسبة لنا لما تعودته عندهم من قبل من أكل الجبن والعسل والزبادى .

أثر الثبات والهدوء فى مجرى التحقيق .

وكان لثباتى وهدوئى بفضل الله وإملائى الإجابة لكاتب الجلسة باللغة العربية الفصحى كعادتى فى كل تحقيق جرى معى – أكبر الأثر فى ميل الباشا إلى تصديقى .

ثم سألنى عما إذا كنت أعرف شفيق منصور أو محمود إسماعيل أو محمود راشد فأجبت بالنفى عن الأول والثانى وأما الثالث فإننى أعرفه وهو موظف بمصلحة التنظيم جمعنى وإياه إضراب الموظفين العام .

ثم سألنى إذا كنت أعرف إبراهيم موسى ومحمد فهمى وراغب حسن وعلى إبراهيم فأجبت بالنفى .

ثم أعاد الكرة وسألنى عما إذا كنت قدمت محمود راشد يوماً إلى شفيق منصور المحامى للتعرف به بمكتبه بعمارة الكريدى ليونيه بالعتبة الخضراء كما جاء على لسان راشد فى التحقيق ؟ فأجبت بالنفى .

وكنت مطمئناً كل الاطمئنان فى كل مرة أجبت فيها بالنفى لوثوقى بعدم وجود أى قرينة ضدى .

مع السيد بك مصطفى– مواجهة محمود راشد :

ورأى المحقق السيد بك مصطفى أن يجرى بمكتبه مواجهة بينى وبين محمود راشد فاستدعانا من السجن ذات مساء وبدأ بسؤالى عن واقعة اصطحابى لراشد إلى مكتب شفيق فتمسكت بأقوالى السابقة وأنى إن كنت أعرف محمود راشد إلا أننى لا أعرف شفيق منصور ولا أعرف مكان مكتبه .

كبوة المحقق :

وهنا أمر بدخول راشد فدخل ووقف فى مواجهتى أمام مكتب السيد بك مصطفى وأنا جالس بجواره وبادره فى غضب بعبارة كانت – من فضل الله – عثرة لسان من محقق لبق بارع مثله إذ قال لراشد فى حدة : «أريحونى وأريحوا أنفسكم من هذا الوضع الذى سبب لنا ولكم أيضاً كثيراً من الإرهاق ، عبد العزيز يصر على الإنكار بأنه لا يعرف شفيق منصور المحامى ولا يعرف مكتبه ولم يصحبك إلى عمارة الكريدى ليونيه . فهل مازلت أنت أيضاً مصراً على أقوالك بأنه هو الذى أخذك معه وعرفك على شفيق بمكتبه ؟ وهنا سكت راشد قليلاً سكوت الحيرة وأسرعت أنا وفى لمح البصر أومأت إليه برأسى بإشارة أطلب منه الإنكار . دون أن يلحظ السيد بك حركتى إذ كان يضع نظارة كثيفة على عينيه وكان الوقت ليلاً وكان فى إيماءتى المخرج لراشد من حيرته .

عدول راشد ووفاؤه :

وألهم الله راشد وتراجع فى الحال وقال بأنه مادام عبد العزيز يذكر أن الواقعة لم تحدث ويصر على ذلك فهو الصادق لأنه معروف بيننا بالذكاء وقوة الذاكرة ومشهود له بالصدق . وأنا آسف إذ خانتنى ذاكرتى وأثبت المحقق ذلك وانتهت المواجهة لصالحى وضرب راشد بموقفه العظيم هذا مثلاً رائعاً فى الوفاء والإيثار .

مواجهة شاهد إثبات (مرشد سياسى) ومن كان مع الله لا يضل ولا يشقى :

وكان أحد شهود الإثبات أيد أقوال راشد الأولى عن تلك الواقعة ورأى السيد بك أيضاً برغم عدول راشد عن أقواله أن يجرى مواجهة أخرى بينى وبين ذلك الشاهد وتمت المواجهة بمكتبه وحضرها هذه المرة مستركوين بويد مستشار الداخلية . ولما دخل الشاهد عرفته إذ كان المرشد السياسى الذى كان سبباً فى اعتقالى ١٩١٩ مع الدكتور خفاجى الجراح (ابن أخت على باشا إبراهيم) ومحمود راشد بتهمة

إحراز قنابل وسلاح وهو الذى دسه البوليس السياسى على الأستاذ شفيق منصور ليعمل كاتباً بمكتبه حتى يتسنى له مراقبة الحركة فيه عن كثب ومعرفة المترددين عليه ممن يشتبه فيهم . وقرر الشاهد أنه يعرفنى تماماً وإنه رآنى ومعى محمود راشد بمكتب شفيق الذى يعمل كاتباً فيه ، فقاطعته فى جرأة لم يكن يتوقعها ولم أعط له فرصة الكلام وقلت للمحقق بكل ثبات إنى مازلت أكرر ما سبق أن ذكرته عن تلك الواقعة وإن ما جاء على لسان ذلك الشاهد ما هو إلا محض افتراء لغاية فى نفسه وإنى لم أره من قبل بل وإنى أترفع عن معرفة أمثاله . وبهت المرشد من تلك المفاجأة التى لم يكن يتوقعها وبهت كوين بويد وبدا على السيد مصطفى التشكك فى صحة شهادة المرشد الذى ارتبك ولم يحر جواباً .

مدد الله :

وكأن الله سبحانه وتعالى الذى أنزل السكينة على قلبى وأيدنى فى موقفى أصاب فى نفس الوقت الشاهد بالذهول والصمت والحيرة فالجم لسانه وانتهت تلك المواجهة أيضاً لصالحى وكذلك ينجى الله المؤمنين . . ومن كان الله معه لا يضل ولا يشقى .

الحقيقة التى لم أعترف بها فى التحقيق :

والواقع الذى كان الموقف يقتضينى أن أنفيه بتاتاً – أنى أنا الذى اصطحبت معى محمود راشد ذات مساء إلى مكتب الأستاذ شفيق منصور المحامى بالدور العلوى بعمارة الكريدى ليونيه بالعتبة الخضراء ليتم التعارف بينهما بناء على رغبة شفيق عندما انضم راشد إلى الشعبة عن طريقى .

توصل البوليس إلى توظيف المرشد كاتباً بمكتب شفيق منصور لمراقبة الحركة به :

ولم نكد ندخل المكتب سوياً حتى وقع بصرنا على كاتب يجلس فى مواجهة الداخل تذكرنا فى الحال إنه هو المرشد الذى كان قد أبلغ عنا ١٩١٩ وعن الدكتور خفاجى الجراح بتهمة إحراز قنابل وأسلحة ولم تثبت التهمة علينا لعدم توفر الأدلة ولعدم العثور على شىء ، غير غلاف قنبلة بأحد أركان عيادة الدكتور كان البوليس قد دسه ليؤيد به بلاغه الكاذب .

وأيقنا أنه مدسوس من البوليس السياسى ليحصى المترددين على المكتب ويقدم تقريره لرؤسائه أولاً بأول . فلفتُّ نظر شفيق إلى ذلك الأمر الخطير فبادر وتخلص منه ولكن بعد فوات الأوان .

ثم وقعت مفاجأة أخرى يوم أن زرت بعد ذلك بأيام مكتب صديقى محمد صفوت المهندس

بالعمارة البلجيكية بشارع حسن الأكبر لعمل يخص الشعبة ومعى أيضاً محمود راشد وإذا بنا نجد نفس المخبر يعمل به كاتباً – وكانت غلطة أو غفلة من شفيق لا تغتفر – إذ تبين أنه هو الذى أهدى به صفوت ، وما إن كشفنا لصديقنا صفوت عن حقيقة الكاتب حتى عجب من تصرف شفيق وبادر وتخلص منه .

والواقعتان لا دليل عليهما إطلاقاً سوى شهادة المرشد وهى ليست قاطعة إذ تحتمل الكذب كما تحتمل الصدق . ويضعفها بل ويرجح كذبها عدم اعترافى وإصرارى على الإنكار .

عدول عبد الحميد عن الاعتراف ضدى : (مثل من الوفاء)

وما علمته من صديق ثقة بعد الإفراج عنى ووقع من نفسى موقع التقدير والإكبار قصة عدول عبد الحميد عنايت عن اعترافاته ضدى ، وتتلخص فى أنه أخذ مرة يجهش بالبكاء فى زنزانته بالسجن بعد عودته من التحقيق ويصيح بأعلى صوته طالباً السماح له بمقابلة النائب العام لأن لديه أقوالاً هامة يريد أن يدلى بها أمامه فأجيب إلى طلبه فوراً . ولما مثل بين يدى طاهر باشا نور أخذ يجهش بالبكاء مرة أخرى واستمر يبكى فسأله الباشا عما يبكيه فلم يجبه فى أول الأمر ، فكرر الباشا السؤال وطلب إليه أن يكف عن البكاء وأن يتكلم بما يريد وإلا فسيأمر بإعادته إلى السجن (وأنا أعلم أن عبد الحميد مع صغر سنه يجيد التمثيل فى مواقف الشدة وله سابقة كهذه مع مستر إنجرام سنة اعتقالنا بسجن الأجانب ١٩٢٣) فأجاب عبد الحميد بأنه تحت الضغط والمضايقات وإرهاقه فى التحقيق وتكرار السؤال عن عبد العزيز على وعن صلته به ومدى اشتراكه فى حوادث الاغتيال ضعف وأمكن استخلاص الاعترافات الباطلة منه بالإكراه بأن عبد العزيز شريك فى حوادث القتل إلا أنه بعد أن عاد إلى زنزانته بالسجن وخلا لنفسه أفاق لسقطته وشعر بما وقع فيه من خطأ جسيم لا يغتفر وبأنه ظلم نفساً بريئة ، وكان الأجدر به أن يصبر على الأذى مهما كان وأن لا يقول إلا الحق ولم يكن بد – وهو لم يقو على وخز الضمير – إلا أن يطلب الحضور ليخرج من قلقه ويصحح خطأه بقول الحق فيقرر وهو بكامل قواه العقلية العدول عن الاعترافات السابقة ضد عبد العزيز على فهو برىء من كل ما نسب إليه وأمر الباشا كاتب الجلسة ليثبت تلك الأقوال فى المحضر وضرب عبد الحميد بذلك أروع الأمثال فى الوفاء .

وصية عبد الخالق عنايت لشقيقه عبد الفتاح وعبد الحميد
قبيل سفره إلى أوروبا لمواصلة دراسة الطب بالنمسا :

وذكرنى موقف عبد الحميد هذا بوصية عبد الخالق لأخويه عبد الفتاح وعبد الحميد ونحن مجتمعون

يوماً بمنزلهم لوداعه قبيل سفره إلى النمسا لدراسة الطب ، إذ أوصاهما بالحرص على ولائهما واحترامهما وحبهما لى وأن يكونا دائماً بجوارى وطوع إشارتى فى خدمة رسالتنا ، ثم شد على أيدينا وأخذ عليهما عهداً بأن يحملا عنى قدر الطاقة عبء العمل وأن يجنبانى مواقف الخطر وأن يفديانى بروحهما فأنا فى نظره فى منزلة أخيهم الأكبر محمود ، وختم قوله بعبارة «إن وقعت الشعبة فى مكروه لا قدر الله فليكن عبد العزيز آخر من يضار» ولم أملك وقتئذ إلا أن أقبله فى جبينه قبلة الإخاء على ذلك الحب الصادق الخالص والوفاء الجم . وأن أدعو له بالسلامة فى الحل والترحال والتوفيق فى دراسته وحياته .

ولعل عبد الحميد بعد اعترافه ضدى تذكر وصية شقيقه عبد الخالق فتيقظ ضميره وبادر بالعدول .

وفاء وثبات العمال من أعضاء الشعبة :

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام مع التقدير والإكبار ويدل على فرط وفاء أعضاء الشعبة من العمال وحبهم لى عدم اعتراف أحد منهم رغم ما لاقوه من عنت وإرهاق فى التحقيق وتعذيب فى السجن لحملهم على الإفضاء بمعلومات واستخلاص الاعترافات منهم بالباطل فبروا بثباتهم وإخلاصهم باقى إخوانهم فى الشعبة ممن إنهارت قواهم ولم يصمدوا فاعترفوا .

من أسباب عدم إدانتى :

ولولا موقف الرجولة والوفاء من العمال ولولا ما أيدنى به الله من قوة فثبتنى ولم أعترف . ولولا تضارب أقوال من اعترفوا ولولا عدول بعضهم (راشد وعبد الحميد) عن أقوالهم واعترافاتهم لأدانني التحقيق ولحولت إلى المحاكمة مع من أدينوا وحوكموا . لا أنى بقيت فى المعتقل حوالى التسعة شهور بين سجن الأجانب وقراميدان بالقلعة ثم بسجن الأجانب إلى ما بعد تنفيذ حكم الإعدام شنقاً فى الفدائيين الأبطال .

الدفاع عن المتهمين :

اشترك فى الدفاع عن شفيق منصور الأساتذة إبراهيم الهلباوى ووهيب دوس وعبد الملك حمزة ودافع عن محمود راشد الأستاذ أحمد بك مصطفى وعن محمود إسماعيل الأستاذ أحمد رشدى وعن إبراهيم موسى الأستاذ عبد الرحمن البيلى وعن راغب حسن الأستاذ صالح جودت والأستاذ أحمد يحيى .

الحكم بالإعدام :

وصدر الحكم على المتهمين فى ١٩٢٥/٦/٧ بالإعدام شنقا إلا محمود صالح فقد حكم عليه بالسجن مع الأشغال لمدة سنتين وخفف عن عبد الفتاح إلى الأشغال الشاقة المؤبدة وكانت المحكمة مؤلفة من أحمد عرفان باشا والمستر كرشو ومحمد مظهر .

القبض على أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى فى يونيو ١٩٢٥ :

ومما أذكره أن البوليس قبض أثناء تحقيق القضية على الدكتور أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى عضوى جمعية التضامن الأخوى السرية وقدمها للمحاكمة بتهمة اشتراكها فى حوادث الاغتيالات السياسية وحكمت المحكمة ببراءتهما فى ١٩٢٦/٥/٢٥

تنفيذ حكم الإعدام وأقوال كل متهم :

وفى صباح الأحد ١٩٢٥/٧/٢٣ وبدون سابق إعلان كان تنفيذ حكم الإعدام شنقا فى المحكوم عليهم حسب الترتيب الآتى :

١ – عبد الحميد عنايت وكان رابط الجأش وكانت آخر كلماته « قمت بعملى أحسن قيام وإنا لله وإنا إليه راجعون ، رب أدخلنى جنة النعيم

٢ – شفيق منصور وكان فى منتهى الضعف والاضطراب وأخذ يصيح « عاوز أشوف أختى »

٣ – إبراهيم موسى وكان رابط الجأش وصاح إن قلبى مطمئن بالإسلام ونطق بالشهادتين

٤ – على إبراهيم وكان ثابتاً هادئاً وأوصى بالتمسك بالدين وأن يتبرأوا ممن يخالف دين محمد ونطق بالشهادتين .

٥ – راغب حسن كان كثير الصياح وصاح بأنه مظلوم وبأنه لم ير ابنه وأن ذنبه فى رقبة من ظلمه

٦ – محمود راشد وكانت الابتسامة لا تفارقه وصاح بأنه يعلم أنه برىء وطلب أن يدفن مع والده ونطق بالشهادتين

٧ – محمود إسماعيل وكان ثابت الجأش وصاح «إن دمى على رأس من ظلمنى وأنا وابنى وأهلى فداء لمصر وليسقط الظلم ، ونطق بالشهادتين

واستلم محمد نجيب الهلباوى على حساب القيم الأخلاقية وجثث الأبطال مكافأة العشرة آلاف جنيه التى وعد بها .

رجعة إلى الوراء التحاق ببنك مصر :

ما إن علم الأستاذ أحمد عبد الوهاب وكيل المالية وكان أستاذى بمدرسة التجارة العليا ومن المعجبين بخلق وذكائى – بموضوع استقالتى من الحكومة ١٩٢١ حتى بادر باستدعائى وعرض علىّ العمل ببنك مصر وكان مديره طلعت حرب يبحث عن خريجى التجارة العليا ليعملوا معه فى البنك من أول نشأته ليدربهم على أعمال البنوك ، وليستغنى بهم عن العنصر الأجنبى الذى اضطرت الحاجة للبدء به .

وصادف العرض هوى فى نفسى فقبلت بلا تردد لميلى بطبيعتى إلى الأعمال الحرة ولاعتقادى فى نفس الوقت أنى أؤدى خدمة وطنية لبلادى . وقابلت مدير البنك الذى رحب بى وأشعرنى بتزكية أستاذى أحمد عبد الوهاب لى وأنه يقدرها حق قدرها وألحقنى بقسم الحسابات رئاسة الزميل المرحوم على ممتاز وكان هو الآخر قد استقال من خدمة الحكومة والتحق بالبنك . ثم نقلت إلى قسم الأوراق المالية والكامبيو والبضائع وحفظ الأوراق المالية رئاسة مستر هرموز ، وفى ذلك القسم رقيت إلى وكيل حفظ الأوراق المالية . ثم نقلت إلى قلم الاكتتابات ثم إلى قسم المراجعة كوكيل له ثم رقيت إلى رئاسة القسم إلى أن استقلت سنة ١٩٢٥ مما سيأتى شرحه فيما بعد .

محاولة اغتيال الخائن محمد نجيب الهلباوى بدس السم له فى الشراب :

فى غضون سنة ١٩٢٧ عاد الدكتور عبد الخالق عنايت من النمسا إلى مصر لزيارة عائلته وكانت هديته لى زجاجة صغيرة جداً تكاد تكون فى حجم زجاجة القطرة أو أقل منها وبها سم وهو من أخطر أنواع السموم . وقال وهو يقدمها لى خفية إنه أحضرها معه خصيصا لمحاولة قتل محمد نجيب الهلباوى والتخلص منه بدس السم له فى شراب أو طعام جزاء وفاقا على خيانته .

ومكث الدكتور بيننا بضعة أيام وكان عليه أن يعود إلى النمسا لتأدية الامتحان النهائى فى الطب . إلا أن السلطات هنا اتخذت معه إجراء تعسفياً يوم سفره إذ أنزلته من الباخرة وهى تتأهب للرحيل من ميناء الإسكندرية ومنعته من مغادرة القطر وأمرته بالبقاء بمصر إلى أن يعود الملك من أوربا (وكان وقتئذ فى زيارة لإنجلترا) حتى لا يكون فى أوربا طالما أن الملك هناك خشية على حياته . طال حجز عبد الخالق وضاعت عليه فرصة دخول الامتحان فى ميعاده وعالجت الموقف بإرسال برقية إلى مدير الجامعة بانسبورك أبلغه اعتذار الدكتور عبد الخالق عن التخلف عن أداء الامتحان لعدم تمكنه من العودة لظروف قهرية خارجة عن إرادته .

وبمجرد أن عاد الملك من رحلته من الخارج أخلى سبيل الدكتور وسمح له بالسفر وسافر فوراً إلى النمسا تاركاً لى مهمة الانتقام من الهلباوى . وقابل مدير جامعته وشرح له تصرف السلطات المصرية معه فقدر المدير موقفه وسمح له بأداء الامتحان الذى اجتازه بتفوق .

ثم أخذت فى عمل التحريات عن أخبار وتحركات نجيب الهلباوى وأمكننى أن أصل بعد جهد إلى أنه لم يطق البقاء فى القاهرة بعد تنفيذ حكم الإعدام فى حادث مقتل السردار واستيلائه على مبلغ العشرة آلاف جنيه المكافأة التى وعد بها ونزح لعنة الله عليه إلى بلدته « أبا الوقف » بالصعيد ليتوارى عن الأنظار ولينشد الأمان والطمأنينة على حياته بين أهله وعشيرته . وأنه يقبع فى عقر داره خائفاً يترقب وأن شبح الانتقام يطارده ولا يفارق خياله فلم يغادر البلد خوفا على حياته من أى اعتداء قد يقع عليه . وبذا لم يكن الطريق إلى التنفيذ سهلا خصوصا لو علمنا أن أى غريب يدخل القرية يكون محط الأنظار وموضع تساؤل من المتطفلين وما أكثرهم ، وينفضح أمره بسهولة وقد يتعرض للأذى وتتعرض مهمته للفشل ، ومن معوقات التنفيذ أيضا أنه لم يكن على قيد الحياة من أعضاء الجمعية للاستعانة بهم سوى الأستاذين محمد حمدان عبده (بالمعارف) ومحمد ربيع (بالزراعة) وهما من شعبتى ، ومن الخطر المجازفة بإشراكهما فى العملية ، حيث لم يسبق اختبارهما فى عملية قتل ، وإن كانا قد أتما دور التدريب على استخدام المسدس . وبذا قدر لنجيب أن يفلت من الانتقام . وما تشاءون إلا أن يشاء الله . ولئن أفلت الهلباوى من الجزاء فى الدنيا فلن يفلت من عقاب الله فى الآخرة ، والله شديد العقاب .

أما الزجاجة فبقيت محتفظاً بها والأمل يراودنى أن يهيئ الله لنا فرصة لتنفيذ محاولة اغتيال نجيب ، وهذا لم يتم حتى شاء الله أن أهديها لفريق من الإخوان المسلمين ١٩٦٤ مما سأذكره بعد فى الجزء الثانى من المذكرات فى موضوع الرحلة الروحية

قصة الاغتيال السياسى

اعتقالى سياسيا لأول مرة ١٩١٩ وأنا موظف بالحكومة ولثانى مرة سنة ١٩٢١ وأنا موظف بالبنك :

وكنت اعتقلت قبل ذلك المرة الأولى ١٩١٩ وأنا إذ ذاك موظف بالحكومة واعتقل معى الدكتور خفاجى الجراح (ابن أخت الدكتور الجراح على إبراهيم باشا) وصديقى محمود راشد الموظف بتنظيم القاهرة – وكنا نجتمع بانتظام بعيادة الدكتور خفاجى نتناول الحديث فى السياسة وفى شئون البلد فلفق لنا البوليس تهمة إحراز أسلحة وقنابل وكان المبلغ أحد المرشدين من سكان عابدين لم تسعفنى الذاكرة بتذكر اسمه برغم ما كان له من يد فى القبض علينا فى حادث السيرلى ستاك سردار الجيش المصرى ١٩٢٤ . وقد فشل البوليس فيما دبر ، إذ لم يسفر التفتيش عن الأسلحة والقنابل المزعومة إلا على العثور

على ماسورة قنبلة فارغة كان قد دسها ذلك المرشد خلسة فى أحد جوانب العيادة ولم يطل بنا الاعتقال وأفرج عنا .

واعتقلت للمرة الثانية سنة ١٩٢١ وأنا ببنك مصر بتهمة الاشتراك فى حوادث القتل السياسى وبقيت فى السجن حوالى ثلاثة أسابيع ولم يسفر التحقيق عن إدانتى لعدم اعترافى بشىء ولعدم توفر الأدلة فأفرج عنى وعدت إلى عملى .

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فإن البوليس السياسى قام فى ذلك الحين أيضا بتدبير مؤامرة ضد بعض شباب الوفد المتحمس وقبض عليهم وأودعهم سجن الاستئناف بباب الخلق بتهمة انتمائهم إلى جماعة سرية للاغتيالات السياسية برئاسة عبد الرحمن بك فهمى سكرتير الوفد وقتئذ . وأذكر منهم السادة إبراهيم عبد الهادى وعبد الحليم عابدين وعبد الرحمن الجديلى وحسنى الشتناوى والشيخ محمد يوسف وتوفيق صليب والشيخ السمالوطى الذى استخدمه البوليس شاهد ملك فى القضية التى لفقها البوليس السياسى لأولئك الشبان ومن معهم وحوكموا أمام محكمة عسكرية برئاسة القاضى الإنجليزى كريشو وحكم عليهم بالسجن مدداً مختلفة .

تأسيسى مكتب تجارى :

ساعدنى عملى ببنك مصر على أن أجرب حظى فى الاشتغال بالتجارة وكنت أميل إلى الاشتغال بها ، وفتحت مكتبا تجاريا بعمارة الكنيسة قرب البنك وحصلت على تزكية من الغرفة التجارية المصرية (وكنت دائم الاتصال بها) على توكيلات من الخارج وقمت بصفقات فى الأقمشة الصوفية والحريرية وأربطة الرقبة وأسلحة الحلاقة ولعب الأطفال والأوانى والإلمنيوم والبودنج والشكولاته وكنت فى بادئ الأمر أشتريها لحسابى وأبيعها للأهل والأصدقاء إلا أنى بعد حين لم أستطع الاستمرار فى الجمع بين عمل البنك وعمل المكتب وخصوصا بعد أن شعرت بحقد بعض زملائى على ، والوشاية بى لدى المدير بأنى أشغل نفسى بعمل خارجى ، وكان المدير حكيما فى تصرفاته إذ دعانى لمقابلته وكاشفنى بما بلغه من عملى الخارجى ونصحنى بالتفرغ لعمل البنك فصفيت أعمال المكتب .

زواجى من خطيبتى :

وبعد عام تقريبا من التحاقى بالبنك تزوجت من عزيزة خطيبتى كريمة المرحوم محمد بك لبيب فى حفل متواضع لم أدع إليه من إخوانى سوى عبد الخالق عنايب ومحمود راشد ومحمود إسماعيل وشفيق منصور (اعتذر عن عدم تمكنه من الحضور) ومحمد حمدان عبده وأحمد رفعت .

من ذكريات الخطوبة :

وكنت طول مدة خطوبتى لعزيزة شريكة حياتى أعدها للجو الذى أريده لها لتكون عونا لى فى طريق نضالى . أخذتها مرة فى زيارة لمنزل السيدة الوقور خالة عبدالخالق عنايت بناحية دير الطين (دار السلام حاليا) ومن هناك خرجنا بعد تناول الغذاء وبصحبتنا عبد الخالق وتسلقنا المقطم فى الجهة المقابلة للبلدة وبعيداً عن عيون الناس تدربنا ودربناها معنا على الرماية بالمسدس .

هذا ، ولقد سبق أن أشرت بتفصيل إلى حادثتين هامتين الأولى حادثة مرافقتها لى بناء على أمرى إلى مكتب الأستاذ شفيق منصور المحامى لاستلام مسدسين لتخفيهما فى صدرها تحت ملابسها لتفلت من تفتيش الجنود الإنجليز لى فى الطريق بحثاً عن السلاح ، والثانية حادثة تسليمى إياها بعد فشل خطة اغتيال محمد توفيق نسيم باشا القنبلة التى كانت معدة لإلقائها عليه والمسدس الذى كنت أتسلح به لإخفائهما والقيام على حراستهما إلى أن أستردهما .

وهنا أرجو أن لا يخطر ببال القارئ أن إعدادى لخطيبتى على نحو ما ذكرت خول لها يوما معرفة شيء ما – ولو تلميحاً – عن الشعبة وتحركاتها ، ولو أنها تشعر إجمالا بأنى فدائى وهبت نفسى لوطنى .

اعتقالى لثالث مرة :

وبعد عام من زواجى اعتقلت للمرة الثالثة سنة ١٩٢٣ بتهمة الاشتراك فى حوادث الاغتيال السياسى وكنت مازلت موظفا ببنك مصر وبقيت حوالى أربعة شهور فى الاعتقال متنقلا ما بين سجن الأجانب وسجن الاستئناف إلى أن أفرج عنى لعدم توفر الأدلة .

قصة مراسلة عائلى :

كانت حجرتى بسجن الأجانب تقع بالدور الأرضى وتطل على الشارع الخلفى للسجن وكان مسموحاً لى أن أتناول طعامى من منزلى وكان يحضره لى شقيقى محمد وذات يوم وأنا أرقب مجيئه من شباك الحجرة حضر ورآنى فأخذ يلوح بيده ويشير إلى الصندوق الذى بيده وكأنه يريد أن يفهمنى أن لى رسالة مخبوءة فى غلاف صندوق الشكولاته الورق المرسل مع عمود الأكل وهو من بقايا الصناديق التى كنت أستوردها لمكتبى التجارى من الخارج – وبمجرد أن سلمنى الحارس الإنجليزى الأكل أخذت أفتش الصندوق وأركانه ، وإذا بالرسالة مبخأة بمهارة ببطانة غطائه بطريقة لا يمكن أن يفطن إليها أحد ، وكنت محتفظاً بقطعة رصاص صغيرة أخفيتها بين ملابسى وكتبت ردى ودسسته فى نفس

المكان ، ولكى أضمن تكرار العملية رجوت الحارس الإنجليزى وأنا أسلمه الفوارغ أن يطلب من شقيق وهو يردها إليه أن يكرر تعبئة الصندوق ذاته – من وقت لآخر بالشكولاته واللب والحلوى للتسلية ، وطبعا كنت أتحفه ببعضها كل مرة . وكنت طلبت فى ردى أن يرسلوا إلىّ الأكل فى حلة – بدل العمود – مكسو قاعها بالهباب ويرسلوا مع الأكل دبوساً صغيراً لأحفر به ردى على هباب الحلة «فكانوا يضعون رسالتهم داخل حبة الجوز (عين الجمل) بعد تفريغها ويدسونها فى الحمام المدفون فى الأرز أو فى محشى الكوسة أو الباذنجان وكنت أحفر بدورى الرد بالدبوس على هباب قاع الحلة . ونجحت الحيلة وبتلك الطريقة المضمونة أصبحت أتبادل الرسائل مع عائلتى بانتظام وباطمئنان بصندوق الشيكولاته تارة وبالحلة تارة أخرى لمدة طويلة مستغلا غفلة الحراس إلى أن نقلت إلى سجن الاستئناف فتوقفت المراسلة . وهكذا يفعل الإيمان مع الحرص واليقظة والكتمان مالا يخطر على بال ، وصدق قول الله تعالى : «وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يُبْصرون»

زوجتى تضع لى ذكرا :

وبسجن الاستئناف – وكان مديره إبراهيم صفوت وهو من جمعية التضامن الأخوى – دخل علىّ الزنزانة ذات صباح وبشرنى بأنى رزقت ولداً وذاع الخبر السار بين المعتقلين ، وأذكر منهم يوسف العبد وشقيقه عبد الرؤوف العبد وفضيلة الشيخ مصطفى القاياتى والأستاذ أحمد وفيق ومحمود راشد وعبد الفتاح عنايت وشقيقه عبد الحميد عنايت والعمال إبراهيم موسى ومحمد فهمى وعثمان الطوبجى الجزمجى وطلبوا من مدير السجن أن يسمح لهم بالاحتفال داخل زنزاناتهم بتلك المناسبة السعيدة فوافق مشكوراً وكانت ليلة من ليالى العمر لا تنسى تميزت بترتيل بعض آيات الذكر الحكيم ثم ترديد بعض الأناشيد الوطنية مما لم يشهده السجن من قبل ، واستبشر الكل بذلك النبأ خيراً وقد كان ، فلم تمر أيام إلا وقد أفرج عنى .

اعتقالى لرابع مرة ومعى أشقائى الثلاثة :

فى فبراير ١٩٢٥ دهم رجال البوليس السياسى الإنجليزى منزلنا لتفتيشه وكانوا فى تلك المرة أشد بطشاً وصلفاً وعنفاً منهم فى المرات السابقة فى سنوات ١٩ و ٢١ و ١٩٢٣ وركزوا اهتمامهم على شقتى فى الطابق الثانى من المنزل وفتحوا أدراج مكتبى وجمعوا منها بعض الأوراق وأخذوا من فوق المكتب بعض الكتب ونزعوا المشمع المثبت بمسامير فوق الأرضية البلاط وفكوا بعض البلاط وشقوا المراتب والمخدات ودسوا أيديهم وعصيهم فى صفائح المسلى وجوالات الأرز وفتشوا بدقة دواليب الملابس كل

ذلك بحجة البحث عن السلاح ثم صعدوا إلى الدور الثالث – سكن العائلة – وفتشوا مكتب الوالد وجمعوا ما راق لهم من أوراق ، ثم ختموا ذلك التفتيش التعسفى بالقبض علىَّ أنا وأشقائى محمود وأحمد ومحمد بدعوى الاشتراك فى حادث قتل السردار سيرلى ستاك وكنت وقتئذ رئيس قسم المراجعة ببنك مصر ومتزوجا ولى الطفل على الذى ولد وأنا فى سجن الاستئناف معتقلا سنة ١٩٢٣ ، والطفلة « عائشة » وكان أخى محمود طالب علم بالأزهر الشريف وأحمد طالبا بالقضاء الشرعى ، وقد قبضوا عليه بالمدرسة ومحمد بالثانوى . وبرغم قوة إيمان الوالد الشيخ الوقور والوالدة الأم الحنون واعتمادها على الله ، لكان تفتيش المنزل على تلك الصورة البشعة المزعجة ثم القبض علينا جملة نحن الأشقاء الأربعة هدَّ – ولا شك – من كيانهما .

إيداعنا نحن الأربعة سجن الأجانب :

أودعنا سجن الأجانب وهو والحق يقال أفضل السجون المصرية من حيث توفر الراحة ، إذ ينام المعتقل فيه على سرير وفرش نظيف مريح ويسمحَ له بالتريض كل يوم فى ساحة السجن التى تتوسط حجراته لمدة حوالى عشر دقائق وبالخروج إلى دورة المياه كلما أراد . أما فى السجون الأخرى فكنت أفترش برشاً على الأرضية الأسفلت من الليف المجدول والتحف ببطانية من الصوف ولا أغادر الزنزانة إلى دورة المياه إلا مرة واحدة فى الصباح كل أربع وعشرين ساعة عندما يسمح السجان لى بذلك . وإن أردت قضاء حاجة لى فى تلك المدة فعلى استخدام الجردل الموجود داخل الزنزانة .

الافراج عن محمود ومحمد :

وبعد أيام أفرج عن شقيقى محمود ومحمد وبقى معى أحمد وكنت تعلمت من تكرار اعتقالى أن احتفظ معى لمثل تلك الظروف بمجرد توقيع القبض علىَّ بقطعة صغيرة جداً من رصاص أحشرها حشرا فى زاوية جيب الجاكتة الداخلى الصغير وبدبوس إبرة أدسه فى عروة الجاكت وقصاصة ورق صغيرة أخفيها فى ملابسى لاستخدامها عند الضرورة .

مراسلتى لأخى أحمد داخل السجن :

وصممت على أن أراسل أخى داخل السجن لأشد من أزره وتفاهمت معه فى غفلة من الحارس الإنجليزى على أن نتراسل وأن نتخذ من سيفون المرحاض مكاناً أميناً لوضع الرسالة فوقه فكنت أكتب الرسالة وأضعها بحذر فوق السيفون ومعها قطعة الرصاص ليكتب بها الرد ، وكان أحمد يفعل مثل ما أفعل واستمر الحال على ذلك الوضع كلما سنحت الفرصة .

رؤيتي مصادفة لشفيق منصور وهو منهار ومحمود إسماعيل على سلم المحافظة :

وذات صباح استدعيت للمحافظة بصحبة الحارس الإنجليزى المدجج بالسلاح وقد وضع القيد الحديدى فى يدى . وهناك بحجرة الانتظار التقطت حديثا دار بالإنجليزية بالقرب منى بين اثنين من الضباط ، فهمت منه أنى استدعيت من السجن خطأ وأنى لست فى عداد من سيقدمون للمحاكمة ، وبدرت من أحدهما إشارة إلى الحارس بإعادتى من حيث أتيت وفى أثناء نزولى من المحافظة لركوب السيارة إلى سجن الأجانب لمحت الأستاذ شفيق منصور تبدو عليه أمارات التعب ومحمود إسماعيل صاعدين على السلم وأثر فى نفسى ذلك المنظر كثيراً ورثيت لحالها وسألت الله لهما اللطف .

آخر رسالة منى لأخى أحمد لم تصله :

ولما عدت إلى زنزانى بالسجن دونت فى الحال ما سمعت وما رأيت فى قصاصة ورق وطلبت من الحارس السماح لى بالخروج إلى دورة المياه حتى أتمكن من تركها لأخى أحمد على ظهر السيفون كالعادة ليطمئن إلى أنه لم يجد فى الموقف جديد بالنسبة لى . إلا أن الحارس فتح باب الزنزانة وطلب منى أن أسرع بلبس ملابسى من جديد حيث إن إشارة وردت للسجن بأنى مطلوب ثانية على عجل للمحافظة فلبست بدلتى والرسالة معى ولازمنى الحارس إلى دورة المياه فلم أتمكن من وضع الرسالة بصندوق البريد (فوق السيفون) فأخفيتها بخفة تحت جوربى دون أن يشعر الحارس . على أمل أن أعيد محاولة وضعها بعد عودتى من المحافظة ولم أدر أنها ستكون آخر رسالة منى لأخى .

نقلى إلى سجن قره ميدان بالقلعة :

ركبت السيارة بصحبة الحارس الإنجليزى والقيد الحديدى فى يدى كالمعتاد ولما وصلت بنا السيارة إلى ميدان باب الخلق لم تعرج بنا على المحافظة بل شقت طريقها إلى شارع محمد على فى اتجاه القلعة فأيقنت أنى منقول إلى سجن قره ميدان بالقلعة وقد كان .

التفتيش الدقيق عند دخول السجن :

وتقضى التعليمات بأن يفتش الداخل تفتيشاً دقيقا كاملا عند مدخل السجن فيؤمر بأن يخلع ملابسه الداخلية والحذاء وغطاء الرأس ويصبح كيوم ولدته أمه ، وهذا ما جرى معى تماماً وكدت أقع فى مأزق بسبب احتفاظى بالقصاصة التى كنت أعددتها لأحمد أخى ، ولكن بفضل من الله ألهمت سرعة

البديهة وأوتيت قوة الأعصاب فأخذت أخلع الجورب فى ثبات ضاغطا بيدى على القصاصة حتى لا تقع من داخله ويفتضح أمرى وأخفيتها فى يدى ، أما قطعة الرصاص المحشوة فى مكانها فى زاوية جيب الجاكت الداخلى فلم تصل إليها يد الحارس الذى قام بتفتيش ملابسى بدقة وقد اجتزت المأزق بسلام وحفظنى الله وهو خير الحافظين .

إيداعى فى الزنزانة رقم ٣ :

وأودعت السجن داخل الزنزانة رقم ٣ فى مواجهة حجرة مأمور السجن الإنجليزى وكان سائق السيارة محمود صالح بالزنزانة رقم ١ وإبراهيم موسى بالزنزانة رقم ٥ والزنزانتان رقما ٢ و ٤ خاليتين وهكذا (زنزانة مشغولة وزنزانة خالية) وبادرت بالتخلص من القصاصة وطلبت من الحارس الإذن لى بالذهاب إلى دورة المياه فمزقت القصاصة وألقيتها بالمرحاض ، وبذا أسدل الستار على قصة المراسلة داخل السجن .

ولم أطلب إلى التحقيق بعد انتقالى إلى سجن قره ميدان حيث قد انتهى وحول من أدينو إلى المحاكمة التى استمرت شهوراً حتى صدر ضدهم حكم الإعدام شنقا ونفذ فى ١٩٢٥/٧/٢٣ كما سبقت الإشارة إليه . وطال اعتقالى حوالى سبعة شهور قضيتها متنقلا بين سجن الأجانب وسجن قره ميدان ثم سجن الأجانب إلى أن أفرج عنى بعد تنفيذ الحكم بمدة .

حياة الزنزانة :

ولم أكن أفزع أبداً للقبض على أو أفزع للاعتقال شأن المتوكل على الله ولم أشق باعتقالى فى أى مرة ، بل كنت أسمى فترة الاعتقال فترة رحلة روحية أشعر فيها بالطمأنينة والسعادة الروحية حيث لا عمل لى إلا أن أقطع النهار والجزء الأكبر من الليل فى ذكر الله وأداء الصلاة مع الإكثار من النوافل وتلاوة القرآن الكريم وتدبر آياته البينات . فلم أكن أحس بفراغ أو أدع نفسىَ نهباً لوساوس الشيطان فكنت مستغرقاً طول وقتى فى عبادة الله أخشى عقابه وأرجو ثوابه راضيا بقضائه وقدره .

أحلامى السارة :

وكنت كثيراً ما أرى فى نومى أحلاما سارة أستبشر بها خيراً ، ومما أذكره ولا أنساه أنى صحوت من نومى ذات ليلة وأنا أتلو الآية الكريمة «فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن» والمؤذن وقتذاك يؤذن لصلاة الفجر من مسجد أولاد عنان القريب من سجن الأجانب ، وسألت الله بعد صلاتى أن يكون ذلك إيذانا بالفرج القريب .

يوم الإفراج :

وما إن طلع النهار حتى فتح الحارس الإنجليزى باب الزنزانة وطلب منى ارتداء ملابسى للذهاب إلى المحافظة لمقابلة النائب العام بمحكمة الاستئناف بباب الخلق ، وهناك قابلت السيد بك مصطفى الذى أبلغنى نبأ الإفراج عنى ، وبعد أن وجه إلىّ اللوم على سلوكى وحذرنى من الوقوع فى مثل ما وقعت ، فاعتبرت ذلك اللوم والتحذير اتهاماً وألهمنى ربى وأجبت عليه فى الحال : وحتى ساعة الإفراج لا أنجو من اتهامك وخرجت إلى منزلى لأسجد لله شكراً أن ثبتنى بروح من عنده واستجاب لى ونجانى من القوم الظالمين . وكان قد أفرج عن أخى أحمد ثالث يوم امتحانه بدار العلوم وكان يذهب للجنة الامتحان تحت الحراسة .

أزمة كتاب الإسلام وأصول الحكم :

من القضايا الهامة الحساسة والخطيرة التى ظهرت سنة ١٩٢٥ وشغلت الصحافة المصرية والرأى العام وخصوصا العلماء ردحا من الزمن ، قضية الخلافة وما ثار حولها من نقاش وجدل بين مؤيدين ومعارضين ، ذلك الكتاب الذى أصدره فى أبريل من تلك السنة قاضى محكمة المنصورة الشرعية وقتئذ الأستاذ على عبد الرازق الأزهرى النشأة وعضو حزب الأحرار الدستوريين وموضعه (الإسلام وأصول الحكم) وتضمن بحثاً صريحاً فى الخلافة والحكومة فى الإسلام . فرق فيه بين الخلافة كنظام سياسى والإسلام كدين . وأكد أن القرآن الكريم والسنة المحمدية لم يأمر المسلمين بالخلافة لتكون نظاماً إسلامياً ، بل إن شكل الحكومة قد ترك للمسلمين أنفسهم ليختاروا ما يشاوءون وأن الله أرسل نبيه محمداً إلى البشر ليكون رسولا لا ليكون ملكاً ، وخلص إلى القول بأن الخلافة ليست فى شىء من الخطط الدينية بل هى سياسة بحتة . . وتكهرب الجو وزاد الخلاف حدة .

وضاقت هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف بما تضمنه الكتاب من رأى جرىء اعتبرته تهجماً على الخلافة وتقليلا من شأنها واعتبرت الكاتب كافراً مرتداً عن الإسلام وطلبت تطليقه من زوجته لو كان متزوجاً وتطرف البعض فطالب بإعدامه .

وغضب الملك فؤاد الذى كان يتطلع لأن يكون خليفة المسلمين وأنزل جام غضبه على عبد العزيز فهمى باشا وزير الحقانية وقتئذ ورئيس حزب الأحرار الدستوريين الذى ينتمى إليه على عبد الرازق فأقاله من منصبه وجرت إقالة الوزير من منصبه إلى استقالة كل من الوزيرين محمد على علوبة باشا وتوفيق دوس باشا تضامنا معه ، وهما من الأحرار الدستوريين ، وأصدر الملك مرسوما ملكياً فى

١٩٢٥/٩/٥ بتكليف على ماهر باشا وزير المعارف بالقيام بأعباء وزارة الحقانية بجانب عمله حتى يتم تعيين وزير بدلا من عبد العزيز فهمى . كما عين فى المناصب التى خلت وزراء معروفين بالولاء له وأصبحت الوزارة أداة فى يده ، فكان ذلك حافزا لتضامن الوفد والأحرار الدستوريين والحزب الوطنى ضد حكومة زيور القائمة وقتئذ ، واستمر ائتلاف تلك الأحزاب قائماً إلى أن عقدوا مؤتمراً وطنياً فى فبراير ١٩٢٦ وقرروا فيه دخول الانتخابات التى كانوا قد قاطعوها من قبل . وكان الخليفة فى تركيا فى ذلك الحين من الضعف بحيث حرك مطامع الملك فؤاد فى الخلافة والسعى لها ليصبح خليفة المسلمين وزين له المنافقون ممن حوله ومن العلماء الفكرة وحثوه على المضى فى تحقيقها بكل السبل وهنا مكمن الخطر .

وإنجلترا الواقفة للعالم العربى والإسلامى بالمرصاد بادرت وأدلت بدلوها بدهاء فى الدلاء وأظهرت للملك تمام استعدادها ورضاها لمعاونته والوقوف بجانبه فى تحقيق رغبته لالتقاء مصالحها بمطامعه ولتصبح الخلافة ألعوبة فى يدها ويصبح العالم الإسلامى فى قبضتها وتحت سيطرتها وسلطانها .

وعقد بمصر مؤتمر للخلافة تحت رعاية شيخ الأزهر الشيخ الأحمدى الظواهرى إلا أنه لم يكتب له النجاح بفضل صمود المؤمنين الصادقين ومقاطعتهم للمؤتمر وعدم مجاراة ذوى الأهواء ، واكتفى المؤتمرون بالموافقة على إصدار مجلة باسم الخلافة تدعو أن يكون فؤاد خليفة وهذه أيضا لم تستمر ولم يصدر منها سوى عدد واحد وفشلت مجهودات الملك وأعوانه من الإنجليز وعملائهم وأسدل الستار على المهزلة ووقى الله الكنانة شر الفتنة .

ومما لا شك فيه بجانب هذا أن كتاب الإسلام وأصول الحكم قد فجر قضية حرية التفكير وأحدث حرية فكرية ، إذ وقف عبد العزيز فهمى باشا المفكر المصرى وعباس العقاد وطه حسين والمازنى ومحمود عزمى وكثير غيرهم من المفكرين يؤيدون الكاتب ويدافعون عن حرية الرأى وعن حق المفكر فى أن يقول ما يشاء دون حجر على حريته أو إلحاق الضرر به نتيجة لإبداء رأيه ، وظهر أثر ذلك فى رجوع الأزهر عن رأيه الظالم وتصحيح خطئه فى الكتاب والكاتب بعد أن كلف الأمام الأكبر الشيخ المراغى كلا من فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز والشيخ عيسى منون بإعادة قراءة الكتاب بعين فاحصة مدققة لمعرفة ما إذا كان يتعارض مع الإسلام ، ففعلا وقررا أن ليس فيه ما يتعارض مع الإسلام وأن الكاتب كان فى كتابته حريصاً على دينه متمسكاً بعقيدته وشجبا بذلك قرار هيئة كبار العلماء ، وأقرهما الإمام الأكبر فى رأيهما وأبطل حكم الهيئة والرجوع إلى الحق فضيلة ، ورد للكاتب الحر اعتباره وتدرج فى الوظائف حتى شغل وظيفة وزير الأوقاف فى ١٩٤٧/٣/٣ .

استقالتى من البنك سنة ١٩٢٥ :

ورأى طلعت حرب بعد اعتقالى فى حادث قتل السردار أن يبعدنى – على حد قوله – عن مضايقات البوليس ومراقبتهم التى تلاحقنى وأن يسند إلى وظيفة وكيل فرع بنى سويف وكان والدى فى تلك الأثناء قد أصيب بجمرة فى ظهره وهو مريض بالسكر مما يحتم علىّ وأنا أكبر إخوتى الذكور سنا أن أبقى بجواره فرفضت السفر إلى بنى سويف برغم ما فى النقل من ترقية من رئيس قسم إلى مدير فرع ، وحاول طلعت حرب أن يثنينى عن رأيى ولم يفلح وقدمت استقالتى سنة ١٩٢٥ ومات والدى رحمة الله عليه فى نفس العام بعد جراحة أجراها له الدكتور الجراح الكبير على رامز بمستشفى الروضة .

محاربة الإنجليز لى فى رزقى :

بقيت نحو عام أبحث عن عمل ، والمحتل لى بالمرصاد يوصد فى وجهى سبل الرزق وتلك طبيعته مع المناضلين ، إلى أن أعلنت مصلحة السكك الحديدية عن وظيفة مفتش حسابات خالية وتقدمت لشغلها ، وأرفقت بطلبى مسوغات التعيين وكان لى زميل خريج التجارة العليا موظف بالمصلحة ورجوته أن يتابع الطلب . وبعد قليل استدعيت للكشف على طبياً ونجحت وبلغنى من زميلى عبد العزيز مصطفى أن إدارة المستخدمين فى سبيل إعداد خطاب تعيينى . وهنا وقعت المفاجأة إذ أطلت إدارة الأمن العام بوزارة الداخلية برأسها وأصدرت الأمر إلى المصلحة بحفظ طلبى لأننى ممن اعتقلوا فى حادثة السردار وما سبقها من حوادث اغتيال سياسى ، وليس لمثلى أن يشغل وظيفة حكومية ، واستدعانى مدير المستخدمين بالمصلحة وبادرنى عند مقابلته بمكتبه بالسؤال عما إذا كنت أنا عبد العزيز على الذى اتهم فى مقتل السردار وحوادث الاغتيال التى سبقته ، فأجبت بالإيجاب فأبدى أسفه لأن الأمر صدر له بعدم إتمام إجراءات التعيين وحفظ الطلب بعد أن كان على وشك توقيع الخطاب بتعيينى . وهكذا كانت عين الإنجليز تتعقبنى لتضايقنى فى رزقى يريدون بذلك أن يفتوا فى عضدى ويثنونى عن مواصلة نضالى قاتلهم الله . وفاتهم أن من كانت عين الله ترعاه لا يضل ولا يشقى .

التحاقى بوظيفة مدير حسابات شركة المقاولات «نصير» :

ويريد الله أن يطلب بنك مصر فى ذلك الوقت من عميله المقاول الكبير عبد الرازق بك نصير أن يعين لإدارة حساباته أحد خريجى التجارة ليدخل عليها النظم الحديثة ليطمئن البنك للتعامل معه ، ورشحنى لوظيفة مدير حسابات الشركة بالقاهرة . شركة المقاولات «نصير» ورحب نصير بك بالفكرة

واستدعاني وقابلته بشارع المناخ (وكنت علمت من قبل بطلب البنك وتزكيته لى من زميلى رئيس الحسابات الجارية محمود سكر) واستلمت العمل.

بدأت بوضع النظم الحديثة :

أمسكت للحسابات الدفاتر النظامية وأنشأت قسما للسكرتارية وآخر للأرشيف (الدفتر خانة) على أحدث النظم وحزت رضا وثقة المرحوم عبد الرازق بك نصير فضلا عن محبته ، وكان يعمل بالقسم الهندسى بالمكتب نجله إبراهيم نصير ونسيبه مختار إبراهيم وكلاهما خريخ الهندسة وكنا على أتم وفاق.

كان المكتب مركزا آمنا لنشاطى السياسى :

وقد سهل على أن أتخذ من مكتبى مركزا لنشاطى السياسى فكنت أكتب المنشورات الثورية وأقوم بطبعها ثم أرتب توزيعها وكنت أستعين ببعض إخوانى من شباب الحزب الوطنى فمنهم من كان يتولى وضع المنشورات فى الظروف ويكتب عليها العناوين ومنهم من كان يلصق الطوابع ومنهم من كان يتولى إلقاءها بصناديق البريد وفى مناطق متفرقة من المدينة ومنهم من كان يعد الطرود الصغيرة لتصديرها وذلك كله وفق نظام وضعته لتقسيم العمل بينهم وكان يتم فى صمت وحذر داخل المكتب دون أن يشعر أحد بشىء مما يجرى وكثيراً ماكان يتم بعد خروج الموظفين مساء زيادة فى الاحتياط.

الكشف عن سياسة الإنجليز وسياسة أعوانهم فى منشورات ثورية :

أما المنشورات التى كنت أكتبها فكانت تدور حول الكشف عن سياسة الإنجليز القائمة على مبدأ «فرق تسد» والتى بها يفرقون بين أبناء الوطن الواحد ويمزقون وحدة الأمة ويحطمون جهودها . وحول الكشف عن سياسة أعوانهم مرضى النفوس دعاة التردد والهزيمة فى تكالبهم على كراسى الحكم وتزيينهم للأمة مهادنة الإنجليز وترويجهم لمبدأ المفاوضة معهم كسبيل لحل القضية المصرية واستعانتهم بأولياء نعمتهم الإنجليز فى إخماد كل صوت ينادى بمبدأ الجلاء الناجز ويطالب بالاستقلال التام . وقصفهم كل قلم يدعو لذلك . وإشاعتهم فى الناس روح الهزيمة والاستسلام.

حيوية الأمة قد تنكمش ولكنها لا تموت :

وكتبت رأيى بأن الحيوية فى الأمة قد تنكمش ولكنها لا تموت أبداً . . وأن الشعلة الوطنية قد تخبو حيناً ولكنها لا تلبث أن تشتعل من جديد وأن الصراع بيننا وبين الإنجليز طويل ومرير وأن الفئة المؤمنة الصابرة العاملة فى الأمة مازالت – مع قلة عددها وضعف إمكانياتها – على طريق الحق صامدة

لا ترضى بغير الجلاء الناجز بديلاً ولا بغير البذل والفداء لنيل استقلال وادى النيل سبيلاً وإن هى سكتت حيناً لظروف خارجة عن إرادتها فالمعركة بقوة الإيمان مستمرة حتى يجلو الغاصب ويتحقق الاستقلال التام وتفوز الأمة بالنصر المبين أو تفنى دونه .

وفاة نصير بك ١٩٣٢ :

وفى ١٩٣٢ فجعت الشركة بوفاة المرحوم عبد الرزاق بك نصير بعد أن أخذت مكاناً مرموقاً بين شركات المقاولات والمقاولين وأخذت أعمالها بعد وفاته تقل ومركزها المالى يتأثر . لذلك رأيت وجوب ضغط المصاريف الإدارية وأن أبدأ بنفسى وفكرت فى الاستقالة فى وقت أصبح العمل فيه لا يتحمل مرتبى الكبير وصارحت إبراهيم نصير نجل المرحوم عبد الرزاق بك نصير بما فكرت .

استقالتى :

فقبل استقالتى ١٩٣٤ مشفوعة بتقديره لكفاءتى وأمانتى وإخلاصى ووفائى .

مواصلة إصدار المنشورات ومطابع طبعها :

وواصلت إصدار المنشورات الوطنية الملتهبة وأنا بمكتب نصير لأوقظ النفوس وأجدد الحماس ، وبعد أن كنت أطبعها بمطبعة محمد محمد عبد اللطيف بالأزهر الشريف وفقت للاتفاق على طبعها بمطبعة الصاوى بشارع الخليج المصرى وبمطبعة المهدى بشارع الأزهر وكانت الأخيرة تحت إشراف إسماعيل بك العسيلى عضو اللجنة الإدارية للحزب الوطنى ومطبعة الفتوح بالسيدة . وكنت أوقع المنشورات بتوقيع «لجنة شباب الحزب الوطنى» لأوهم أنها من عمل لجنة لا من عمل فرد ولأشبع سجيتى من ناحية أخرى فى عدم حب الظهور .

بداية متواضعة والجهاز المساعد :

وبدأت أطبع مئات من كل منشور أوزعها باليد أو بالبريد على شباب الحزب الوطنى ، وكان يسهم معى من شباب الحزب كل من عبد الكريم متولى الشماع والشيخ محمود القاياتى والمدرس يوسف دسوقى فى مصاريف الطبع والتوزيع وكل من محمد فؤاد فريد الموظف ببنك مصر ومحمد عبد الرحمن شاهين المدرس ومحمود العيسوى الحقوقى والدكتور حسن نور الدين وعطية مدكور الموظف ببنك مصر وعبد السلام مصطفى الحقوقى وفى كتابة العناوين على الظروف والطرود وفى التغليف ولصق الطوابع

والتوزيع . وكنت أرسل الطرود بالبريد إلى بعض أعضاء الحزب الوطنى البارزين فى الجهات ، وأذكر منهم الدكتور منصور القاضى سكرتير عام الشبان المسلمين بالإسكندرية والأستاذ حسين رمزى الأرناؤطى والحاج رمضان زيان التاجر والأستاذ ياقوت السهوى وكلهم بالإسكندرية . والدكتور محمد فاضل بدمنهور والأستاذ مصطفى العسقلانى والدكتور عبد الغفار متولى بالمنصورة وإلى غيرهم . ليوزعوها بمعرفتهم فى جهاتهم ومنهم من كان نشاطه يساعد على إعادة طبعها لتعم أهل منطقته .

زيادة المطبوع واتساع رقعة التوزيع :

وتدرجت وزاد المطبوع من كل منشور إلى بضعة آلاف فى حدود إمكنياتنا الضعيفة واتسع نطاق التوزيع مع الزمن فأصبح يعم دواوين الحكومة ودور السفارات ونوادى الأحزاب والمدارس والكليات والمعاهد والأزهر الشريف معقل الثورات والجمعيات والنقابات والبنوك والمحال التجارية الكبرى وأهم مدن القطر .

ملف خاص بالأسماء والعناوين :

وأمسكت بنفسى ملفًا خاصًا ودونت فيه أسماء وعناوين كل من أرسل إليهم المنشورات بالبريد مرتبة ترتيباً أبجديًا . وكانت المنشورات دعوة صدق للعقيدة الوطنية وكشفاً عن مساوئ المحتل وأعوانه والملك وبطانته وتحريضاً على محاربتهم والتخلص منهم فكانت كجذوة النار المتوهجة تضئ طريق العمل والأمل فى ظرف تضافرت فيه عوامل الشر — الاحتلال والسراى والحكام . . على إخفاق صوت الحق وكانت الحكومة قد عطلت جريدة الحزب وأغلقت ناديه واضطهدت رجاله وأنصاره وسفهت بوقاحة مبدأه وسخرت من التمسك بالمطالبة بالجلاء الناجز والاستقلال التام لوادى النيل .

فزع السلطات ومراقبتها لمن حامت حولهم الشبهات :

وأحست السلطات بخطورة تلك المنشورات وفزعت لانتشارها وأمرت البوليس بالبحث بهمة لمعرفة القائمين بها . ووقع فى يد البوليس مظروف محول إليه من دار المندوب السامى وبداخله أحد المنشورات وأخذ فى مراقبة مكتب الأستاذ عبد المقصود متولى المحامى أمام سراى عابدين وكان شباب الحزب يجتمع فيه لعدم وجود ناد للحزب ، وكنا قد اتخذناه مركزاً لنشاطنا .

ولما أحسسنا بتلك المراقبة توقفت عن إصدار المنشورات ونبهت على زملائى ليأخذوا حذرهم وقللنا من اجتماعاتنا ، واقترح الدكتور حسن نور الدين لابعاد الشبهة عنى ووفاء منه وإخلاصاً لى — أن أسلمه الملف الخاص بالأسماء والعناوين ليحفظه بمنزله مع ما يحتفظ به من صور المنشورات .

تفتيش منزل الدكتور حسن نور الدين وجمع صور المنشورات والملف الخاص :

ولسوء الحظ لم يكن الدكتور حسن نور الدين حريصاً وكان يستخف بالبوليس وتحركاته بل أخذ يفاخر علناً بكتابة وطبع المنشورات وتسرب إلى البوليس الذى يراقبنا بعض أقواله (وتلك من مساوئ الثرثرة) فبادر وفتش منزله واستولى عليها وقبض عليه وأخذ فى استجوابه ثم ألقى القبض علىَّ وكنت وقتئذ وكيل القسم المالى لمحافظة القاهرة ، وعلى كل من محمد عبد الرحمن شاهين المدرس ومحمود العيسوى المحامى وعبد السلام مصطفى المحامى وهم من بين الذين كانوا يترددون على مكتب الأستاذ عبد المقصود متولى وكانوا محل شبهة .

قضية المنشورات :

وأودعنا سجن الإستئناف وحقق معنا بتهمة كتابة وطبع وتوزيع منشورات أعتبرتها السلطة خطراً على الأمن لما تضمنته من تطرف فى التعبير وإثارة للشعور وهجوم عنيف على المحتلين وأعوانهم والملك وبطانته وعلى الأوضاع القائمة وعلى المسئولين فى البلاد .

كبير خبراء الخطوط وتقريره :

وأتوا بكبير خبراء الخطوط الأستاذ على سعودى الخطاط واستكتبنا جميعاً ليضاهى خطوطنا على الظروف المضبوطة بصناديق البريد . وعلى ظرف المندوب السامى وأتوا بملف خدمتى من المالية ليضاهوا بين خطى بالملف وبين ما استكتبونى . ومن تحصيل الحاصل أن أقول إنى «لم أكن من البله فلا أغير خطى ليغاير المكتوب على المظروف وعلى كشوف الأسماء والعناوين المحفوظة بالملف المضبوط مما أوقع كبير الخبراء فى خطأ إذ نسب كتابة الكشوف إلى الدكتور حسن نور الدين ونسب كتابة الظروف ومنها ظرف المندوب السامى إلى كل من محمد عبد الرحمن شاهين وعبد السلام مصطفى .

الإفراج عنى وعن العيسوى بضمان مالى :

وبعد ثلاثة أسابيع تقريباً أفرج عنى وعن العيسوى بضمان مالى ، وحول حسن نور الدين وشاهين وعبد السلام إلى المحاكمة وأخذت القضية تؤجل أكثر من مرة لاضطراب الأحوال السياسية وتغير الأوضاع فى البلد وأخيراً أخلى سبيلهم بعد دفع كفالة مالية وحفظت قضية المنشورات وأسدل الستار عليها ، وخسرنا الملف الهام الذى كنت أنشأته وصور المنشورات التى أصدرتها . وعثرت بين أوراقى على

نسخة من منشور بعنوان «نداء» وبتوقيع لجنة شباب الحزب الوطنى وبتاريخ ١٩٣٣/٥/٢٥ وهذا نصه : حضرة الأخ المحترم .

«إليك يا من فهمت قضية بلادك المعذبة وأشرب قلبك إيماناً بحقك المقدس فلم تمل مع الأهواء ولم تسهوك الوعود ، بل صمدت للإرزاء ولم يرهبك الوعيد فأنت أنت ذلك المصرى الوطنى الصميم الحافظ للوعد . الباقى على العهد .

إليك أيها المخلص نوجه كلمتنا وبك نكون أول فرقة من فرقنا معتمدين بعد الله على مؤازرتكم لنا فى تحقيق ما عاهدنا الله عليه . جادين لا هازلين ولا حانثين فى أن نرجع بحزبنا الوطنى إلى سابق عهده من فتوة وقوة وبأمتنا المصرية الكريمة إلى إيمانها الثابت بحقها فى الاستقلال الكامل لمصر وسودانها وملحقاتها .

وليس لنا من سبيل وقد تنافرت القلوب فأصبحنا شيعاً «كل حزب بما لديهم فرحون» وعميت الأبصار فضللنا السبل وسرنا على غير هدى . وانحطت الأخلاق واعتلت الأجسام وسقمت العقول وتزعزعت العقيدة وتدهورنا فى كل ناحية من نواحى الحياة فغفلنا عن الغاصب وهو آخذ بناصيتنا وأشهرناها حرباً داخلية فتشتت الجميع وتفرقت الكلمة وتصدعت الصفوف وأذلنا المحتل ووجد منا المطية الذلول لتنفيذ مآربه والوصول لغايته .

نعم ليس لنا من سبيل بعد أن تفاقم الخطب والأسى يملأ القلوب وأصبحنا مجردين من أسلحة النضال ضد الغاصب إلا أن نعمل بادئ ذى بدء على تفهيم الشعب حقه . وتطهير عقول الناشئة من أباطيل السياسة وتضليل محترفيها وغرس بذور العقيدة السياسية الصحيحة . وتعهدها بالنمو متوسلين بكل ما أوتينا من وسائل الهداية والإرشاد .

سنصدر المنشورات والمذكرات ونحيى الذكريات ونسمع صوتنا رهيباً فى كل المناسبات واضعين نصب أعيننا إقامة ما تصدع . وتأليف ما تفرق لمناصبة الغاصب العداء ولا عدو لنا سواه . حتى تجمع الأمة على غايتنا ونلتف حول علمنا . ونقف أمام الغاصب كتلة واحدة . وهنا لك يقول الشباب كلمته ويؤدى رسالته فإما إلى الصدر وإما إلى القبر» .

القاهرة فى أول صفر ١٣٥٢ لجنة شباب الحزب الوطنى

الموافق ٢٥ مايو ١٩٣٣

كتبت ذلك المنشور بمثابة تجديد نشاط الحزب الوطنى بعد أن وفق الحزب إلى تأجير ناد له بسراى متحف الشمع بشارع دار النيابة وبدء صفحة جديدة لنضاله بعد أن بقى مدة طويلة بلاناد وبلا جريدة تنطق بلسانه نتيجة محاربة الإنجليز والوفد له .

حمى المفاوضة أيضاً ووفاة سعد :

وكان أن جرت المفاوضة الرابعة بين مصر وإنجلترا على يد عبد الخالق ثروت باشا والمستر تشمبرلين فى صيف ١٩٢٧ وتعثرت كالعادة وإنتهت بالفشل ورفضت الأمة مشروع معاهدة ثروت تشمبرلين الذى لا يحقق استقلال البلاد .

وفى ١٩٢٧/٨/٢٣ توفى سعد أثناء تلك المفاوضات وخلفه فى زعامة الوفد مصطفى النحاس وتولى الوزارة خلفاً لثروت .

وجرت المفاوضات الخامسة على يد محمد محمود باشا رئيس الأحرار الدستوريين الذى تولى رئاسة الوزارة فى ٢٧ / ٦ / ٢٨ بعد إقالة النحاس فى ٢٥ / ٦ / ١٩٢٨ وانتهت أيضاً بالفشل سنة ١٩٢٩ برغم ما بذله محمد محمود من جهود ضخمة للترويج له والعمل على التصديق على مشروع معاهدته .

سر قطع المفاوضات فى نظرى :

هذا ولم يكن قطع المفاوضة فى كل مرة نتيجة صلابة المفاوض المصرى بقدر ماكان نتيجة دهاء وخبث المفاوض الإنجليزى والطريقة الماكرة التى كان يدير بها المفاوضة ، إذ كان يتعمد اصطدام المحادثات بعقبة ليقطعها مع ترك الباب مفتوحاً لكى لا تفلت الفريسة (مصر) من بين براثنه ولكى يضيف فى كل مفاوضة مكسباً جديداً لمكاسبه السابقة .

واتخذ الحزب الوطنى من ذلك الواقع الملموس وتكرار فشل المفاوضات الذى أصبح واضحاً للعيان سنداً قويًّا أضافه إلى حججه البالغة وألزم به المتمسكين بالمفاوضة برغم فشلها لغاية فى نفوسهم) الحجة الدامغة على صدق وطنيته وسلامة نظريته وصلابة موقفه فى أن المفاوضات لم تكن ولن تكون بحال من الأحوال وسيلة لاستخلاص الحقوق أو استقلال البلاد فضلاً عن أنها سلاح ماض فى يد الغاصب لتفتيت قوى الشعب وتضييع وقته وبعثرة جهوده . ولا ينكر ذلك أو يجارى فيه إلا كل مضلل مكايد خداع . ويسوقنى هذا إلى ذكر حادث هام يذكر بالفخر والتقدير لشاب من الحزب الوطنى هو الدكتور مصطفى عمر رئيس قسم البكتريولوجيا بالقصر العينى ، إذ شهر مسدسه فى وجه سعد زغلول مهدداً بقتله يوم أن قابله بالفندق الذى كان ينزل به بباريس خصوصاً ليثنيه عن المفاوضة مما يدل على مدى تمسك الحزب وشبابه بمبدأ «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء وثباتهم عليه» .

وفى ١٩٢٩/١٠/٢ قدم محمد محمود باشا استقالته بعد فشل جهوده فى الترويج لمشروع محمد محمود – هندرسون وخلفه عدلى يكن باشا الذى كلف بتأليف وزارة انتقالية تقوم بإجراء الانتخابات

للتمهيد لعودة الحياة النيابية التى كانت تعطلت وأسفرت النتيجة عن فوز كبير للوفد . فكلف النحاس بتأليف الوزارة ومنحه المجلس تفويضاً لإجراء مفاوضات مع إنجلترا فأجراها مع هندرسون إلا أنها اصطدمت بالمادة الخاصة بالسودان فقطعت من الطرفين وعاد النحاس وقامت العراقيل فى وجهه فاستقال فى ٣٠/٦/١٧ وقبلت الاستقالة وعين الملك إسماعيل صدقى باشا رئيساً للوزارة الذى بدأ برنامجه بتأجيل انعقاد البرلمان شهراً ثم استصدر مرسوماً بفض الدورة البرلمانية فى ٣٠/٧/١٢ ثم صدر الأمر الملكى بإلغاء دستور ٢٣ فى ٣٠/١٠/٢٢ وحل مجلسى النواب والشيوخ ثم وضع صدقى دستور ٣٠ وقانوناً جديداً للانتخاب وفى نوفمبر من نفس السنة ألف حزب الشعب «وضم إليه بعض أعضاء مجلس إدارة الأحرار الدستوريين وبعض الاتحاديين وتولى هو رئاسته بنفسه وأصدر جريدة الشعب» لتكون لسان حاله كل ذلك ليمكن لديكتاتوريته واضطهاده للشعب واعتدائه الصارخ على دستور البلاد ، دستور ٢٣ . إلا أن الشعب المتحفز لم يقف جامداً أمام التصرفات الجائرة واضطهاده وتضييق الخناق عليه والاعتداء على دستوره وفرض دستور جديد عليه بالقوة لا يحقق أمانيه وآماله فقام بالمظاهرات الصاخبة التى عمت البلاد وكان ضحيتها عشرات القتلى ومئات الجرحى ، وأضرب عمال العنابر والورش الأميرية عن الاشتراك فى الانتخابات وقاموا بمظاهرات الاحتجاج على سياسة صدقى وقوبلت بمنتهى القسوة والعنف والشدة . وهكذا استمر الصراع بين سخط وغليان الشعب واضطهاد وتعسف صدقى إلى أن استقال (والحق يعلو ولا يعلى عليه) فى ١٩٣٣/٩/٢١ وبعد أكثر من ثلاث سنوات فى الحكم . ويواصل الشعب كفاحه فيسترد دستوره إثر ثورة عارمة قام بها شبابه يوم ٣٥/١١/١٣ وهو يوافق يوم عيد الجهاد – احتجاجاً على تصريح صمويل هوم وزير خارجية بريطانيا فى ٣٥/١١/٩ بأن حكومته لا توافق على إعادة دستور ١٩٢٣ وتصدى الجنود الإنجليز المدججون بالسلاح للمتظاهرين بقسوة بقيادة الضابط ليز وكان فى مقدمة الذين سقطوا غدراً عبد المجيد مرسى الطالب بكلية الزراعة وعبد الحكيم الجراحى الطالب بكلية الآداب وعلى طه عفيفى الطالب بدار العلوم . وعلى أثر ذلك تكونت الجبهة الوطنية من زعماء جميع الأحزاب واضطر الملك إلى الموافقة على عودة دستور ١٩٢٣ وهكذا حقق الشعب الصامد المجاهد أمنيته ومن سار على الدرب وصل .

تكوين الجبهة الوطنية :

وضاقت الأمة ذرعاً بالتمزق وخيبة الأمل وارتفع صوتها عالياً تناشد جميع الأحزاب توحيد الصف ورأيت الفرصة سانحة لإصدار منشورات للضرب على تلك النغمة المحببة وأراد الله أن تستجيب الأحزاب للدعوة ، وتكونت أخيراً جبهة وطنية من أقطاب الأحزاب فى ١٩٣٥/١٢/١٣ ومارست

عملها بعض الوقت وأصدرت بعض القرارات ، ولكن – مع الأسف – تغلبت بعد حين الأهواء الحزبية فهدمت ما بنى وعادت الأحزاب سيرتها الأولى كل حزب يريد أن يفرض إرادته ويتمسك بوجهة نظره . فانفرط عقد الجبهة الوطنية ، والوطن فى ذلك هو الضحية – وهكذا يكتب الفشل لكل عمل لا يصدر عن إيمان صادق – ولكل كيان يجمع بين عناصر متنافرة . تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى .

* * *

اختيارى سكرتيراً لنادى الحزب :

وقع اختيار اللجنة الإدارية للحزب علىَّ لأتولى سكرتارية النادى وإدارة شئون الشباب ، وأطلقت يدى فى العمل ، فحانت لى فرصة ذهبية لمواصلة نشاطى بتوسيع وتركيز وكنت عدت ثانية إلى خدمة الحكومة بعد استقالتى من مكتب نصير ١٩٣٥ .

المحاضرات الدينية فى المقام الأول :

نظمت بدار الحزب المحاضرات وأعطيت الدينية منها اهتمامى الأول والأكبر ، وذلك لتثبيت وتربية الشباب على التخلق بخلق القرآن الكريم والتأدب بآدابه وتمجيد القيم الروحية والتمسك بها مع السلوك السوى . وكان شقيقى الشيخ محمود على واعظ القاهرة من أبرز من قاموا بهذه المهمة .

المحاضرات الثقافية والاجتماعات السياسية :

ونظمت المحاضرات الثقافية والاجتماعات السياسية لتسليح الشباب بالعلم والمعرفة فكانت حلبة خطباء الحزب وأنصاره من الرجال والشباب للدعوة لمبدأ الحزب ولتضافر – الجهود جميعها ضد العدو الأوحد (الإنجليز) واستنكار تعدد الأحزاب – ونحن أمة محتلة ونبذ مبدأ المفاوضة – ولتبيان أن الحق لا يتجزأ ولا يكون موضع مساومة وأنه لا يمنح بل يؤخذ قسراً .

* * *

المعاهدة المشئومة :

وكانت الطامة الكبرى تلك المفاوضة التى أجراها مصطفى النحاس خليفة سعد زغلول وانتهت بمعاهدة ٣٦ المشئومة التى وقعها فى ١٩٣٦/٨/٢٦ وصححت من وضع الاحتلال الباطل لمصر وجعله احتلالاً شرعيًّا وأبقت الاستقلال صوريًّا . وأضل الله مصطفى النحاس فأجرى على لسانه بعد توقيعه

تلك المعاهدة تصريحه المعروف «إنها وثيقة الشرف والاستقلال» ولو أنصف لسماها معاهدة الخزى والاستعباد «ونصت المعاهدة على :

نصوص المعاهدة :

١ - إنهاء الاحتلال العسكرى والوصاية البريطانية مع استثناء بعض القواعد العسكرية بحجة الدفاع عن وادى النيل وقناة السويس ضد أى عدوان خارجي .

٢ - وضع الأراضى المصرية وطرق مواصلاتها ومطاراتها وموانيها تحت تصرف الجيش البريطانى .

٣ - تخلى إنجلترا عن المصالح الأجنبية .

٤ - تعهد إنجلترا بإدخال مصر عصبة الأمم .

٥ - إبقاء السودان شركة بين مصر وإنجلترا .

٦ - تعهد الطرفين بعدم عقد معاهدة سياسية تتعارض مع مضمون تلك المعاهدة .

٧ - إعادة النظر فى تلك المعاهدة بعد ٢٠ عاماً .

حفلة تفنيد معاهدة ١٩٣٦ :

وكان من أبرز الحفلات السياسية بالنادى تلك التى خصصتها لتفنيد معاهدة ١٩٣٦ المشئومة والتى تحدث فيها أكثر من قطب من رجالات الحزب ووزع فى ختامها على الحاضرين وهم يربون على الخمسمائة كتاباً فى المعاهدة من وضع الأستاذ عبد المقصود متولى المحامى عضو اللجنة الإدارية فضح فيها نية سياسة الإنجليز وكشف عن ضعف الساسة المصريين وغفلتهم وسفّه مبدأ المفاوضة . ودعا الأمة إلى ضرورة التمسك بمبدأ الجلاء والعمل له والفناء فى سبيله ، فهو السبيل لنيل الاستقلال .

إحياء المسيرة الصامتة :

أحييت سنة مسيرة المواكب الصامتة إلى قبرى الزعمين مصطفى كامل ومحمد فريد فى ذكرى وفاتهما وإلقاء الخطب الوطنية على قبريهما على غرار ما كان يقوم به الحزب فى سنوات ما بعد وفاة الزعيم الأول مصطفى حتى صدر أمر السلطات الحاكمة بناء على رغبة المندوب السامى البريطانى بإلغائها ومحاربتها . ولما كان قرار الإلغاء مازال قائماً نافذ المفعول كنا نذهب إلى المقبرة فرادى أو جماعات صغيرة ونتجمع هناك نلقى الخطب ونجدد العهد بمواصلة الجهاد .

إحياء الذكريات :

وأحييت إقامة حفلات الذكريات الوطنية ، ففى ١٩ يناير من كل عام كنت أحيى ذكرى اتفاقية السودان التى وقعها بطرس غالى باشا ناظر النظار وأعطت إنجلترا حق مشاركتنا فى إدارة السودان فى ١٩ يناير ١٨٨٩ . وفى ١٠ من فبراير ذكرى وفاة الزعيم مصطفى كامل الذى مات فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ وفى ٣٠ من مارس ذكرى موقعة رشيد التى دحر فيها المصريون الحملة الإنجليزية على مصر فى ٣٠ مارس ١٨٠٧ وفى ١٣ من يونيو ذكرى مأساة دنشواى التى وقعت فى ١٣ يونيو ١٩٠٦ . وفى ١١ من يوليو ذكرى ضرب الإسطول البريطانى للإسكندرية غدراً فى ١١ من يوليو ١٨٨٢ . وفى ١٥ من سبتمبر ذكرى احتلال الجيش البريطانى مدينة القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ . وفى ١٥ من نوفمبر ذكرى وفاة الزعيم محمد فريد حيث مات ببرلين فى ١٥ نوفمبر ١٩١٩ .

طريقة الإعلان :

لم يكن للحزب فى ذلك الحين جريدة تنطق بلسانه فكنت أعلن عن المحاضرات والحفلات السياسية بتوزيع بطاقات الدعوة فضلاً عن الإعلان فى آخر كل محاضرة وحفلة عن ميعاد وموضوع المحاضرة التى تليها وكنت أخص حفلات الذكرى باهتمام زائد ، فكنت بخلاف الدعوات أطبع الإعلانات ذات الحجم الكبير وأكلف من يلصقها بالميادين والشوارع الهامة وأمام دور الحكومة والبنوك والجمعيات ودور العلم وعلى أعمدة الترام .

طريقة مبتكرة :

ومرة فى ذكرى ١١ من يوليو ، ذكرى ضرب الإسكندرية ابتكرت طريقة للإعلان أعتقد أنه لم يسبقنى إليها أحد واستعنت فى تنفيذها بالعامل أحمد الدرينى الخطاط من أعضاء الحزب الوطنى وأحضرت له ألواحاً مسطحة من الصاج وتطوع بالحفر عليها بالبنط الكبير عبارة «١١ يوليو ذكرى ضرب الإسكندرية» وقام بنفسه بنقشها بالورنيش الأبيض على أرض الميادين (وبالأخص ميدان عابدين وميدان لاظوغلى) وعلى أعمدة الترام وجدران الدواوين والمبانى فى الجهات الآهلة بالسكان واستمر الليل طوله وفى غفلة من البوليس وبمنتهى الحذر حتى أتم العملية بنجاح .

البوليس يحاول محوه :

وفى صباح ١١ من يوليو فوجئ الناس والبوليس بالإعلان المطبوع بالورنيش وتملك البوليس الغيظ وأسرع واستعان بفرق من رجال النظافة بمصلحة التنظيم للإسراع بمحو الكتابة محواً تامًا حتى لا تترك أثراً .

المحو إعلان عن الإعلان :

وكانت عملية محو الإعلان وقد استغرقت وقتاً طويلاً هى فى ذاتها إعلان عن الإعلان ونجحت الفكرة والحمد لله ولم ينجح البوليس رغم كثرة عيونه فى معرفة الفاعل .

نواة صالحة من شباب الحزب الوطنى :

ازداد الإقبال على دار الحزب وفى حفلات الذكرى بنوع خاص وازداد الأنصار واكتشفت خميرة صالحة من شباب الحزب ثمرة تلك الجهود ، أذكر منهم بقدر ما تعى الذاكرة/محمد فؤاد فريد (ببنك مصر) ومحمد حمدان (بالمعارف) – عباس حمدى (بالأوقاف) خير الدين عنايت (بالمعارف) خليل مذكور (بالمعارف) – محمود السويقى (بالمالية) – عبد الكريم الشماع (تاجر) يوسف دسوقى (المعارف) – الشيخ محمود القاياتى (من الأعيان) الشيخ عبد المجيد الربيعى (بالأزهر) الشيخ محمد عمارة (بالأزهر) عطية مذكور (ببنك مصر) أحمد إبراهيم السراوى (تاجر وترزى) أحمد نجيب (صحفى) حافظ زهران (المعارف) محمود العيسوى (محام) محمد المغربى – عبد الفتاح مصطفى العجيزى – على منصور (المحامى) محمد العطيفى (تاجر) محمد سليم الحجازى (حقوقى) يوسف كمال عبد الحميد (حقوق) – عبد المعطى عطيه (حقوقى) مصطفى المنزلاوى – حسن الأنور خليل – محفوظ عزام (حقوق) محمد إبراهيم جمعه (المعارف) على فهمى الداغستانى (هندسة) محمد عبد الرحمن شاهين (المعارف) محمد عبد الرحمن أباظه (حقوقى) محمد سلام مذكور (دار العلوم) محمد فريد أبو العز (صيدلى) عبد العزيز حسيب (عامل) حسين العربى (عامل) محمد فهمى (عامل) أحمد الدرينى (عامل) محسن زكى (حقوقى) حسن نور الدين (طب) عبد القادر مصطفى (حقوقى) عبد السلام مصطفى (حقوقى) رجائى العشماوى (حقوقى) سالم السيد يوسف (المالية) عبد العزيز الشوربجى وحسن البسيونى وفتحى رضوان ومحمود الحناوى وماهر محمد على (حقوقيون) .

أول حفلة أقيمها خارج دار النادى :

وشجعنى النجاح المطرد على إقامة حفلة ذكرى وفاة الزعيم مصطفى كامل بمسرح دار التمثيل العربى فى ١٩ فبراير ١٩٣٥ ، وأردت أن تأخذ طابع القومية فدعوت إليها من كل الأحزاب (وكانت صلتى بالجميع طيبة والحمد لله) ومن رجال الصحافة واستجابوا للدعوة وازدحمت الدار على سعتها ولم يبق فيها مكان لقدم وخطب فى الحفل كل من محمد حافظ رمضان رئيس الحزب والأساتذة عبد الرحمن الرافعى المحامى وفكرى أباظه من أعضاء اللجنة الإدارية للحزب وشكرى كيرشاه المحامى (خطيب الثورة) ومصطفى الحفناوى وافتتحت الحفل بالقرآن الكريم ثم بكلمة منى فى حياة الزعيم وجهاده ثم أخذت فى تقديم الخطباء ، وفى الختام ألقى الأستاذ حسن حسى شقيق الزعيم كلمة شكر العائلة . وكانت المنصة تزدان بصورة كبيرة للزعيم الشاب وقد نشرت صحيفة الأهرام تفصيل ما دار فى الحفل .

نجاح الحفلة :

وانتهت الحفلة بسلام ونالت إعجاب وتقدير الجميع على حد سواء وكان نجاحها إعلاناً بأن صوت الحق يعلو ولا يعلى عليه وبأن الحزب الوطنى أصبح يقف على أرض صلبة وبأنه حزب النضال حقًّا .

كلمة الصحافة :

وطلعت علينا الجرائد فى اليوم التالى ١٩٣٥/٢/٢٠ وخصوصاً الأهرام تنشر بإسهاب وصف الحفلة وما سادها من روح قومية ونظام ، إذ جمعت فى صعيد واحد الوطنين والوفديين والدستوريين كما نشرت ما ألقى من خطب فاضت كلها وطنية وحماسة . وفى كلمة الأهرام ما يغنى عن التفصيل إذ كتبت تحت عنوان بالبنط الكبير «الاحتفال بذكرى المغفور له مصطفى كامل باشا» ما يلى :

جماعة من شباب مصر المثقف لا يمتون إلى الأحزاب السياسية بصلة قاموا أمس بتنظيم الاحتفال بذكرى الزعيم الأول مصطفى كامل باشا . أقاموها بظاهرة وطنية رائعة احتشد لها ما يزيد على أربعة آلاف مصرى . جاءوا تدفعهم الوطنية الصميمة ويحدوهم روح الفقيد وعقيدته الخالصة لله وللوطن .

فنى الساعة ٣ بدأ الجمهور يفد على مسرح دار التمثيل العربى حتى امتلأت المقاعد والمقاصير وازدحمت الطرقات بين المقاعد حتى لم يعد هناك موضع لقدم . وكان يشرف على نظام الحفل من الشبان الأساتذة مصطفى الحفناوى وعبد العزيز على ومحمد عبد اللطيف وحسن رضوان وأحمد الشربينى وفؤاد فريد .

وفى الساعة ٤ تماماً تقدم الأستاذ عبد العزيز على إلى المنصه وافتتح الحفل بقوله : «بسم الله الرحمن الرحيم» وبأى الذكر الحكيم نبدأ الحفلة ، وتلا أحد المقرئين آيات من القرآن الكريم . ثم تليت الاعتذارات ومنها رسالة لحضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون يقول فيها : كنت أود أن أحضر الاحتفال بذكرى المغفور له زعيم مصر الأول مصطفى كامل باشا ولكن حالت المقادير دون ذلك . . فأرجو قبول عذرى مع مشاركتى لكم فى تمجيد هذه الذكرى . ورسالة من شاعر القطرين الأستاذ خليل مطران وبرقيات من شباب الإسكندرية ومن الدكتور منصور القاضى سكرتير الشبان المسلمين بها ومن لجنة الحزب الوطنى بالجيزة يطالب فيها بفك عقال تمثال الفقيد . ومن شباب الحزب الوطنى ببنى سويف . وكانت الحماسة بالغة أقصى حدها بين الحاضرين . وكانت هتافاتهم أثناء الخطب «مصر فوق الجميع» لتحيى ذكرى مصطفى كامل «ليسقط الاحتلال» ليسقط الاستعمار «يحيا الشهداء» . وقد ألقى الأستاذ عبد العزيز على كلمة اللجنة واستهلها بقوله : لما اختار الله مصطفى إلى جواره فى العاشر من شهر فبراير سنة ١٩٠٨ أجمعت الأمة قاطبة على تخليد ذكراه بإقامة تمثال له فى أحد الميادين الكبرى ، وساهم الكل فى أداء ذلك الواجب . وتم صنع التمثال . ولكن سياسة الاستعمار وهى لا ترضى إلا بقبر الشعور الوطنى ، خشيت فعل التمثال فى النفوس الناشئة وهو رمز المطالبة بالجلاء - وكراهية الاحتلال والثبات على المبدأ . والفداء فى أداء الواجب فلم تتورع أن تنتقم من مصطفى فى تمثاله فحجبته عن الأنظار .

وغاب عنها أن مقره المهج والقلوب . وبقى التمثال سجيناً بكلية مصطفى يرقب يوم الخلاص وهم يرونه بعيداً ونراه قريباً . وختمها بالدعوة إلى توحيد الصفوف ثم قال :

« دعوتنا من قرارة النفس لا من طرف اللسان من أجل وادى النيل . ولوادى النيل وفى سبيل وادى النيل .

فمن أجل وادى النيل ندعو دعوة خالصة إلى طرح التنابذ والشقاق وجمع الصفوف وتوحيد الجهود وإنكار الذات لتحرير وادينا من جميع مظاهر الاحتلال .

ولوادى النيل نعمل عمل الجندى المجهول فى صمت وحزم على خلق الشباب والأمة خلقاً آخر . سنخلق بفضل الله من الفرقة اتحاداً ومن التنابذ إخاء . ومن العداء سلاماً . وسنمزق ثوب الحزبية البغيض المهلهل . ونلبس ثوب القومية المحبب القشيب ، سنعنى بالقلوب الخاوية فنعمرها بالعقيدة . وبالنفوس السقيمة فنطهرها بالفضيلة وبالأجسام الهزيلة فنقويها بالرياضة . وبالعقول الضعيفة فنفديها بالعلم والإيمان سالكين إلى القلوب سبيلها حتى يصل الإيمان إليها . ومتى تملك الإيمان القلوب - وهى

لا تخضع لغير سلطان البيان والحجة . دفع المؤمنين إلى التمسك بعقيدتنا والدعوة لها . بل والفناء فى سبيلها .

وفى **سبيل وادى النيل** نضحى بالروح والمال والولد . فلا تستقر لنا حال أو تهدأ لنا حركة حتى نحيا حياة العزة أو نموت فى سبيلها كراماً .

لقد بلغت فاللهم أشهد .

«قرار المجتمعين»

وفى آخر الحفل وقف الأستاذ مصطفى الحفناوى سكرتير اللجنة وقال : رأت اللجنة بمناسبة وجود هذا الجمع العظيم من صفوة المصريين والذين يمثلون هيآت الأمة المختلفة أن نطلب إلى حضراتكم إصدار قرار يعلن على الملأ وقد وضعت اللجنة صيغة القرار ثم تلاه لأخذ الرأى عليه .

١ – المطالبة بفك اعتقال تمثال مصطفى كامل ووضعه فى أحد الميادين الهامة .

٢ – يعلن جمهور المحتفلين وعددهم يزيد على أربعة آلاف مواصلة الكفاح لتخليص وادى النيل من براثن الإنجليز وإجلائهم عن مصر وسودانها .

وقد أمن المجتمعون على ذلك بالإجماع .

هذا وكان من خطباء الحفل :

١ – عبد الرحمن بك الرافعى .

٢ – فكرى بك أباظة .

٣ – الشيخ عبد الوهاب النجار .

٤ – الأديب جمال العقاد – وألقى كلمة الأقطار الشقيقة .

٥ – حرم الدكتور عثمان بك لبيب .

٦ – مصطفى الحفناوى .

٧ – الأستاذ حسن حسنى كامل شقيق الزعيم وألقى كلمة شكر العائلة .

* * *

تكوين فريق البازى فى سنة ١٩٣٤ :

ومع ازدياد المؤمنين والأنصار نبتت عندى فكرة تكوين تنظيم عسكرى من الشباب يدربون عسكرياً ليكونوا حماة الوطن وجنود الاستقلال لا لخدمة الحزب كما كان الحال فى جماعة القمصان

الزرق التى كونها الوفد من الغوغاء وسلحها بالخناجر والهراوات لاستخدامها ضد الأحزاب الأخرى ولإرغام الناس قسراً على السير فى ركاب الوفد وترك لها العنان فعاثت فى الأرض فساداً تحت بصر الوفد وسمعه بل وبتحريض منه حتى ضاق الناس ذرعاً من عبثها وسوء سلوكها إذ كان أفرادها يحضرون فى اجتماعات الأحزاب الأخرى وحملاتهم الانتخابية ليفسدوها ويثيروا الشغب ويعكروا صفو المجتمعين بنداءاتهم الوقحة مثل «الحماية على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى» وليسقط السودان رغم أنف حافظ رمضان وعدلى من أقطاب الأحرار الدستوريين وحافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى .

وقد شاركنى فى الفكرة محمد فؤاد فريد ورعاها - بمجرد عرضها عليه - رئيس الحزب محمد حافظ رمضان وسعى لإخراجها إلى حيز الوجود - وترك لى حرية اختيار أفراد التنظيم بحكم أنى سكرتير النادى والقائم على شئون الشباب . وفقت فى اختيار النواة الأولى وقسمتها إلى فرق للطلبة وأخرى للموظفين وثالثة للعمال مراعياً تقارب الثقافة والسن والمهنة - ثم وضعت على رأس كل فريق رئيساً من أعضائه وأنشأت لكل فريق سجلاً خاصًّا به بمعاونة صديقى فريد .

اسم التنظيم العسكرى وزيه وشارته :

ورأى الرئيس أن يطلق على التنظيم اسم البازى وأن يكون زى العضو مكوناً من قميص كاكى بكم طويل وبنطلون أسود قصير (شورت) وحزام وسط من الجلد وشراب رمادى طويل وحذاء أسود وعصا يد قصيرة من الزان الغليظ . وأن يضع شارة تحمل رسم السيف والباز وعبارة «أد الواجب ودع ما يكون» .

وتم سك مائة شارة مبدئياً وزعت على الأعضاء فوراً واتصل الرئيس بمدير بنك مصر طلعت حرب ومؤسس شركاته ليدبر للفريق قماش القمصان من شركة المحلة فاستجاب ومنحنا ما يكفينا من إنتاج الشركة مشكوراً .

رحلتان لأول كتيبة :

وبمجرد أن جهزت الكتيبة الأولى بزيها الخاص وشارتها قامت برحلتين خلويتين جهة أهرامات الجيزة تحت إشراف رئيس الحزب للقيام بالتدريبات العسكرية قرب شاليه وهيب دوس باشا الذى تفضل لصلته الوثيقة بحافظ باشا - ووافق على اتخاذنا الشاليه معسكراً مؤقتاً للتنظيم .

الرحلة الأولى :

وفى الرحلة الأولى ألقى الرئيس كلمة أعلن فيها تكوين فريق البازى ووضح أهدافه وسبب تكوينه ثم أعقبه الأستاذ فتحى رضوان بكلمة فى الموضوع ثم أدت الكتيبة بعض التمرينات ، أخذت بعدها قسطاً من الراحة بالشاليه وعادت إلى القاهرة ، وبعد أسبوع قامت برحلة أخرى وأدت تمريناتها .

أمر البوليس بفض التنظيم :

وما إن نما الخبر إلى رجال البوليس حتى اتصلت السلطات بمحافظ باشا وطلبت وقف نشاط البازى وأمرت بعدم السماح لأفراده بالظهور بالزى الخاص وبفض التنظيم بدعوى عدم ملاءمة الظروف لظهور مثل تلك التشكيلات شبه العسكرية والتى تعتبرها خطراً على الأمن العام .

تعنت البوليس ورفضه قبول فهم الحقيقة :

وعبثاً حاول الرئيس أن يفهمهم بأن التنظيم يهدف إلى خدمة القضية المصرية بعيداً عن الشغب أو العنف بتكوين الشاب القوى الجسم السليم العقل . السوى السلوك – وليس هو لخدمة الحزب كما يتبادر إلى ذهن البعض بالقياس إلى القمصان الزرق أو القمصان الخضر ولا خطر البتة على الأمن من وجوده .

الرضوخ للأمر الواقع :

وأسدل الستار قهراً على حركة كان يرجى لها الازدهار كما يرجى منها النفع الكبير وتواصى الفريق بأن ينمى كل فرد بوسائله الخاصة تلك الروح التى أنشىء من أجلها التنظيم وأن يكون دائم الصلة بزملائه حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً وحتى يأتى الظرف الذى يساعد على جمع الشمل من جديد ووصل ما انقطع وعساه يكون قريباً .

* * *

أهم الأحداث فيما بين مقتل السردار ١٩٢٤ والحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ :

بعد أن سقطت وزارة سعد فى أعقاب مقتل السردار فى ١٩٢٤/١١/١٨ تولى أحمد زيور باشا الوزارة من بعده فى ١٩٢٤/١١/٢٤ وقام بتنفيذ كل ما طلبته إنجلترا تعويضاً عن مقتل السردار .

توفى سعد باشا فى ١٩٢٧/٨/٢٣ وفى نفس السنة جرت مفاوضات للمرة الرابعة بين عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزارة ومستر تشمبرلين رئيس الوزارة البريطانية وفشلت .

وفى ١٩٢٩ جرت مفاوضة للمرة الخامسة بين محمد محمود باشا رئيس الوزارة ورئيس الأحرار الدستوريين وبين رئيس الوزارة البريطانية وفشلت كما فشل غيرها من قبل .

وفى ١٩٣٠ أقيل مصطفى النحاس باشا من الوزارة وتولاها إسماعيل صدقى باشا من بعده وأبطل دستور ١٩٢٣ ووضع دستوراً آخر عرف بدستور ١٩٣٠ وحل البرلمان وعطل الصحف وقيد الحريات وحكم البلاد بيد من حديد . ومسنى من ذلك البطش أن فتش منزلى بمصر الجديدة بحجة البحث عن السلاح إلا أنه لم يقبض على . وخرج البوليس بخفى حنين .

عمت الفوضى البلاد واضطربت الأحوال وعادت الأمة إلى التعبير عن سخطها بتنظيم المظاهرات الصاخبة مطالبة بعودة دستور ١٩٢٣ ورفع القيود عن الحريات . . وتحول إعلان السخط بالتظاهر إلى الاعتداء بإطلاق الرصاص على محمد توفيق رفعت باشا رئيس مجلس النواب وإلقاء القنابل على دار قيادة الجيش البريطانى ثم تدبير مؤامرة لاغتيال الملك فؤاد ورئيس وزرائه إسماعيل صدقى الذى استقال ١٩٣٣ .

وخلفه فى رئاسة الوزارة عبد الفتاح باشا يحيى ولم يطل به الوقت حتى استقال هو الأخر وخلفه محمد توفيق نسيم باشا وكان متكالباً على الحكم ضعيفاً لا يبرم أمراً إلا بإشارة الإنجليز الذين كانوا يتدخلون فى شئون مصر الداخلية متذرعين بالتحفظات الأربعة التى تضمنها تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .

وفى عهد توفيق نسيم باشا أعلن صموئيل هور وزير الدولة للشئون الخارجية تصريحه المشهور بأن دولته تعارض عودة دستور ١٩٢٣ بدعوى أنه غير صالح للتطبيق .

رضوخ توفيق نسيم للإنجليز :

ورضخ توفيق نسيم لرغبة إنجلترا ولم يستجب لطلب الأمة عودة دستور ١٩٢٣ وقام الطلبة فى ٣٥/١١/١٣ بمظاهرات صاخبة احتجاجاً على تصريح هور وتبرما فى نفس الوقت بضعف رئيس الوزراء وخنوعه واستخفافه بالشعب ومطالبه . وقوبل الطلبة برصاص جنود الاحتلال وسقط منهم قتلى وجرحى كثيرون أذكر منهم الشهداء عبد المجيد مرسى الطالب بكلية الزراعة ومحمد عبد الحكيم الجراحى الطالب بكلية الآداب وعلى طه عفيفى بدار العلوم وتميزت تلك المظاهرات عما سبقتها فى مناسبات أخرى بأن المتظاهرين كانوا بالإجماع يرددون الهتافات بالمطالبة بالجلاء الناجز والاستقلال التام بمصر والسودان وإن لا مفاوضة إلا بعد الجلاء – وتلك مبادئ الحزب الوطنى – واختفت هتافات

«الحماية على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى» «وليسقط السودان برغم أنف حافظ رمضان» وتلك شعارات دعاة التردد والهزيمة واستبشرت بذلك التحول خيراً .

عودة دستور ١٩٢٣ وتكوين الجبهة الوطنية وعودة الحياة النيابية وسفر النحاس الى لندن فى ٣١/٢/١٣ للمفاوضة :

وتحت ضغط وغليان مرجل الوطنية المصرية وإصرار الأمة على عودة دستورها وتحت ضغط الظروف الدولية أيضاً إذ كانت إيطاليا متقدمة وقتئذ فى حربها ضد الحبشة وكانت ألمانيا تنذر وتهدد بحرب عالمية ثانية مما أرغم إنجلترا على أن تطأطئ رأسها للعاصفة وتلين بعض الشىء فلا تتمسك باعتراضها على عودة دستور ١٩٢٣ ، لهذا كله أصدر الملك فؤاد أمراً ملكياً بعودة دستور ١٩٢٣ وفى ديسمبر ١٩٣٥ تكونت الجبهة الوطنية من جميع الأحزاب وأعيدت الحياة النيابية فى ظل دستور ١٩٢٣ وفى ٣٦/١/٢٢ سقطت وزارة نسيم وخلفه فى الوزارة على ماهر الذى لم يبق فى الحكم أكثر من أربعة شهور — وخلال فترة رئاسة على ماهر للوزارة أصدر الملك فؤاد مرسوماً ملكياً بتشكيل وفد المفاوضة برئاسة مصطفى النحاس باشا بتاريخ ٣٦/٢/١٣ .

وفى ١٩٣٦/٤/٢٨ مات الملك فؤاد وكان ولى العهد فاروق فى إنجلترا لإتمام تعليمه فعاد إلى مصر فى ٦ مايو ١٩٣٦ وتشكل مجلس وصايا برئاسة الأمير محمد على وعضوية عبد العزيز عزت باشا ومحمد شريف صبرى باشا واستمر المجلس يمارس سلطاته إلى أن بلغ فاروق سن الرشد فى يوليو ١٩٣٨ . وأجريت الانتخابات فى أوائل مايو ١٩٣٦ وأسفرت عن فوز الوفد بالأغلبية ، فدعا فاروق النحاس لتشكيل الوزارة وشكلها فعلاً فى ٣٦/٥/١٠ .

وفى ٣٦/٨/٢٦ وقع مصطفى النحاس معاهدة النحس التى سماها «معاهدة الشرف والاستقلال» برغم ما نصت عليه من بنود تذهب بالاستقلال وتقيد الأمة بالأغلال مما سبق وأشرت إليه .

عودة النحاس إلى مصر وترويجه لقبول المعاهدة :

وعاد النحاس من إنجلترا وأخذ الوفد يروج للمعاهدة ويدعو إلى قبولها بكل وسيلة واستخدم فريق القمصان الزرق فى الإرهاب والتهديد لفرضها على الأمة فرضاً . وكان الوفد قد كونه من الغوغاء وسلحه بالخناجر والهراوات وترك له العنان فعاث فى الأرض فساداً تحت بصر الوفد وسمعه ، بل وبتحريضه وكان أفراده يحضرون اجتماعات الأحزاب الأخرى وحفلاتهم الانتخابية ليفسدوها ويثيروا فيها الشغب ويعكروا صفو المجتمعين بنداءاتهم البذيئة الوقحة مثل «الحماية على يد سعد خير من الإستقلال على يد

عدلى » وليسقط السودان برغم أنف حافظ رمضان حتى ضاق الناس بهم ذرعاً . وهب الوطنيون بزعامة الحزب الوطنى وكان له ناد يمارس فيه نشاطه . يفندون المعاهدة المشئومة ويحثون الأمة على رفضها وينذرونها من سوء المصير إن هى رضخت للتضليل والتهديد وقبلتها .

انشقاق الوفد ١٩٣٧ وانشقاق الأمة :

وفى ١٩٣٧ انشق الوفد على نفسه وانسلخ منه أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وبعض زملائهما وكونوا حزبا جديدا برئاسة أحمد ماهر وسموه حزب الهيئة السعدية ، وتصدع الوفد وانقسمت الأمة على بعضها – فريق يدعو للمعاهدة وفريق يصر على رفضها وانشغلت الأمة عن الغاصب الجاثم فوق أرضها بحرب داخلية واضطربت الحياة اضطراباً شديداً كان له أسوأ الأثر على النواحى الاجتماعية والاقتصادية فضلا عن الناحية السياسية .

حادث السينما بجوار جمعية الشبان المسيحية ١٩٣٧ :

رأيت – وقد فاض الكيل – أن الفرصة سانحة لأعبر عن السخط على ذلك التمزق وعن معارضة الأمة للمعاهدة بطريقة العنف ، وأن أضرب عصفورين بحجر واحد ، وكان بجوار جمعية الشبان المسيحية بشارع إبراهيم باشا سينما صيفية يرتاد صالتها المكشوفة الضباط الإنجليز والهنود ، ووضعت الخطة لمهاجمته واتفقت مع زملائى عبد المعطى عطية (عضو الحزب الوطنى) وكان يملك سيارة صغيرة وعز الدين فهمى وشقيقه عبد القادر فهمى (من جماعة مصر الفتاة) على أن يلقى عبد القادر قنبلة يدوية على صالة السينما فى يوم تزدحم فيه بروادها فاخترت مساء يوم أحد على أن يقف عبد المعطى ومعه عز الدين بسلاحه قرب مدخل السينما بشارع إبراهيم فى حالة استعداد وترقب لتأمين هرب عبد القادر بعد التنفيذ وعلى أن أتولى بنفسى الخطة التى وضعتها وهى مراقبة المكان وإعطاء الإشارة بالبدء . وعرض على عبد القادر عند شرح الخطة أن يستعين بزميل له يثق به ويطمئن إليه وسبق له أن جربه فى إلقاء القنابل فوافقت وزودنا كلا منهما بقنبلة . وتم كل شىء فى هدوء حسب الترتيب المرسوم وبمجرد أن أعطيت الإشارة ألقى كل من المنفذين قنبلته على الصالة من فوق السور الخلفى للسينما المطل على حارة جانبية بعد بدء العرض بقليل . وأحدثت القنبلتان دوياً هائلا وقتل وأصيب الكثير من الضباط وتمكن عبد القادر وزميله من التسلل بمنتهى الهدوء والثبات من خلف السور وعادوا إلى سيارة عبد المعطى التى كانت فى انتظارهما ولم أترك المكان حتى اطمأن قلبى وغابت السيارة عن الأنظار ونجح التدبير والحمد لله – وفى اعتقادى أن كتمان التدبير وإحكام الخطة وعامل المفاجأة لأعظم قدراً وأخطر

شأنا من نجاح التنفيذ ذاته ، ولولا إحكام الخطوة الأولى ما كان نجاح الخطوة الثانية- ووصفت الصحف الحادث بأنه خطير وبأن الصالة تحولت إلى بركة من الدماء لكثرة المصابين وبأن الخطة كانت محكمة والتنفيذ مفاجئا . ولم يقبض على أحد ولم يعرف الفاعلون وبقى الحادث سرا دفينا- مما زاد فى جلاله- لا يعرف تفصيله إلا من دبره ومن نفذه وقيد ضد مجهول .

أول محاولة لقتل النحاس باشا :

هذا وتطوع عز الدين فهمى (عضو مصر الفتاة) لمحاولة قتل النحاس باشا تعبيراً عن السخط وتأييدا لرفض المعاهدة ، وتربص له واختفى خلف أحد أعمدة البواكى عند تقاطع شارعى عباس وإسماعيل بمصر الجديدة قريبا من منزله ورماه برصاصة من مسدسه وهو مار بسيارته ليلا فأخطأه - وكانت هذه أول محاولة لاغتيال النحاس ، وهرب عز الدين واختفى بأحد المنازل القريبة من مكان الحادث إلا أن البوليس كان قد تعقبه وألقى القبض عليه- وقدم للمحاكمة بعد أن حقق معه وأدين باعترافه ولم يعترف على أحد وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة .

اقالة النحاس بعد بلوغ فاروق سن الرشد ١٩٣٨ :

وما إن بلغ فاروق سن الرشد فى ١٩٣٨ حتى عين على ماهر باشا رئيسا للديوان برغم معارضته النحاس الشديدة ، وأقال النحاس وكلف محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين بتشكيل الوزارة وبقى فى الحكم إلى أن استقال ١٩٣٩ وخلفه على ماهر الذى استقال هو أيضا ١٩٤٠ وخلفه سرى باشا فى الحكم حتى ١٩٤٣ .

الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل (حلم يراودنا) :

وكانت راودتنا سنة ١٩٣١ أنا والدكتور إسماعيل صدقى الجراح أمين صندوق الحزب الوطنى والأستاذ عبد المقصود متولى المحامى عضو اللجنة الإدارية للحزب والأستاذ الكاتب الوطنى محمد الهيهاوى والزميل محمد فؤاد فريد الموظف ببنك مصر والزميل محمد عبد الرحمن شاهين المدرس بوزارة المعارف- وكنا دائمى الاجتماع بانتظام ، إما بعيادة الدكتور صدقى أو بمكتب الأستاذ عبد المقصود متولى- راودتنا فكرة القيام بحملة سياسية قوية للدعوة إلى نبذ تعدد الأحزاب والمحتل جاثم على أرض الوطن .

درس الفكرة :

أخذنا نواصل درس الفكرة من جميع نواحيها مدة طويلة وقطعنا فى البحث شوطاً كبيراً حتى اختمرت فى نفوسنا وعقدنا النية على ألا نقف موقف العاجزين فنكتفى بالتحسر على ما هالنا من تمزق الأمة وتطاحن أحزابها وتكالب ساستها على الحكم .

رسم الخطة :

ورسمنا الخطة بأن نطلق على عملنا الجديد اسم « الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل » وبأن نبدأ بنشر فكرة الوحدة شفويًّا بين أعضاء الحزب ثم ننطلق بها إلى الناس عامة عن طريق الكلمة المسموعة بإلقاء المحاضرات والكلمة المقرؤة بالنشر بالصحف أو بإصدار المنشورات وأن نركز فى الناحيتين على أن الدعوة إلى تغير جذرى شامل فى حياتنا ومفاهيمنا لا تكون برفع الشعارات البراقة بل بالعمل النافع المدروس الدائم ، وأن نعمل على أساس العقيدة الوطنية السليمة وفى إطار ميثاق قومى يرسم خطوط التغيير ويبين الغاية ويحدد وسائل تنفيذه فى بساطة ووضوح . حتى نزيح ما غشى عن الأبصار وران على القلوب وحتى تصحو الأمة على صوت الحق وتوحد صفوفها وتنبذ تعدد الأحزاب وتأخذ بأسباب قوتها فى مواجهة عدوها الأوحد .

مركز خاص للوحدة لممارسة نشاطها :

ورأينا أن نخصص لنا مركزا نمارس فيه نشاط الوحدة وجمعنا من أنفسنا مبلغا سمح لنا بتأجير شقة بالدور الأول بالمنزل ٦٧ شارع الحيوياتى بعابدين وصندوق بريد رقم ١٦٤٤ وعهد إلىَّ إخوانى بتنظيم المحاضرات وكتابة النشرات بعد أن فشلت جهودنا مع الصحف لتنشر لنا .

دورى فى تنظيم المحاضرات وكتابة المنشورات وترتيب الرحلات :

قمت بفضل الله بما أوكل إلىّ ، فنظمت محاضرة كل أسبوع ، وكان من أبرز المحاضرين الأستاذ عبد المقصود متولى والأستاذ محمد الههياوى ، وأخذت أصدر المنشورات فى المناسبات واخترت لها عنوان « مصر بين شقى الرحى » وأوقعها بعبارة « الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل » وصدر أول منشور بتاريخ ٤ / ١١ / ١٩٣٤ وكان آخر منشور بتاريخ ٤٦/٣/٢٩ ولم يكن ما أقدمنا عليه انفصالا عن الحزب الوطنى أو تحولا عن مبدئه كما ظن البعض فى بادئ الأمر وإنما كان تطويراً لابد منه لانضواء

الأمة الوطنى جميعها تحت لواء واحد ضد عدو واحد على مبدأ واحد هو مبدأ الحزب «الجلاء الناجز والاستقلا التام» .

الوحدة دعوة صدق لتوحيد الصفوف :

فكما أن المنشورات التى كنت أكتبها بتوقيع «لجنة شباب الحزب الوطنى أو حفنة الفداء» أو العيون الساهرة «كانت دعوة لتفتيح الأذهان وتوضيح الحقائق واستنهاض الهمم على الصراط السوى فإن نشرات «الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل» التى كنت أكتبها بعنوان «مصر بين شقى الرحى» هى دعوة صادقة مخلصة لتوحيد الصفوف وتجميع الجهود .

تفتح القلوب للدعوة :

ومع نضج الوعى ووضوح الرؤية فطن الكثيرون إلى أن الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل لم تكن جماعة جديدة بقدر ما هى فكرة وطنية ترمى بدعوتها وعملها إلى ضم الجهود فى بوتقة واحدة والوقوف أمام العدو الأوحد صفًّا واحداً .

مصر بين شقى الرحى على كل لسان :

وسارت قافلتنا فى طريقها بإيمان وثبات تتحدى كل الصعوبات حتى أصبحنا ونشرات الوحدة وندواتها ورحلات شبابها الخلوية حديث الناس وأصبحت عبارة «مصر بين شقى الرحى» على كل لسان .

وهنا رأيت أن أسمع صوتنا وأبلغ رسالتنا إلى الملوك والرؤساء العرب فى الخارج وإلى كبار القوم والساسة فى الداخل ، فكتبت باسم الوحدة خطاباً طبعته على ورق مصقول وزعته عليهم وكان نصه :

كتاب الوحدة إلى الملوك والرؤساء العرب :

«جرت عادة من يتصدون لعمل عام أن يتعجلوا فى طلب معونة الغير قبل أن تختمر الفكرة فى نفوسهم ويستقر بهم الأمر فى حدوده الأولى الضيقة وأن يتلمسوا بادئ ذى بدء المعونة المالية . ولو أن المال عصب الأعمال حقا إلا أننا نعتقد أن طبيعة الأمور تقتضى من أمثال هؤلاء التفكير أولا ثم الأيمان بما يهدى إليه التفكير السليم والبحث الدقيق . ثم الاعتقاد بوجوب العمل لتحقيق الإيمان بالفكرة ثم وضع البرنامج الكفيل بذلك ثم العمل فى صمت وبإخلاص وقوة لتنفيذ البرنامج خطوة خطوة . بحيث

لا تترك خطوة إلا إذا تمت على أحسن حال . ولا يبدأ فى أخرى إلا إذ هيئ لها كل وسائلها حتى يؤمن الزلل ويضمن السير من فوز إلى فوز ، ويكون هذا من فضل الله .

وهنا تبرز قيمة الحاجة إلى المال ومقداره قل أو كثر بما يتكافأ وميدان العمل ذاته والغاية المنشودة منه . وقد يتوفر منه فى أول الأمر لدى القائمين بالعمل ما يسمح لهم بالبدء معتمدين– بعد الله– على أنفسهم فقد يهديهم العمل إلى عدم الانتظار أو طلب المعونة فيعملون فى دائرتهم الضيقة المحكمة دون التطلع إلى الاعتماد على الغير أو التوسع على غير أساس وطيد ، وذلك كما نفهم هو الترتيب الطبيعى للأمور وللنهوض بأعبائها . فإن سبقت خطوة الأخرى واختل ذلك الترتيب الطبيعى وهوما تقع فيه غالباً الجماعات الراغبة فى العمل عن عاطفة بحتة دون تحكيم العقل . اختل التقدير واضطرب نظام العمل وضاعت الفكرة بين هذا وذاك وقد تكون فكرة سامية تسمو إلى حد طلب البذل بالروح والمال لمصلحة المجموع . ويكون لذلك الفشل أسوأ الأثر فى نفوس المجتمع مما يفسد الجو على كثير من العاملين المخلصين .

وإنا نحمد الله تعالى الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . فإن كتبنا لكم اليوم بعد أن أرسلنا لكم بانتظام نشراتنا السابقة التى تكشف عن روحنا وعن غايتنا ، فإنما لنلتمس المعونة الروحية والفكرية قبل كل شىء فهى الدعامة التى تبنى عليها ، لأن الشعب مفتقر إلى فهم الحقيقة . والشعوب بطيئة الفهم– نستخلصها من بين الظلمات والحجب الكثيفة التى يجب أن تتضافر القوى المؤمنة على تبديدها وهتك أسرارها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وتفضلو بقبول فائق الاحترام ،	الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل
١٣٥٧ هجرية – ١٩٣٨ ميلادية	١٤٥ شارع عماد الدين

هذه ولو أن الأحزاب لم تلغ إلا أن رسالتنا نجحت إلى حد كبير فى الحد من التعصب الأعمى للحزبية وفى النفور من تعدد الأحزاب وفى التطلع إلى الوحدة القومية كدعامة قوية للتغير الجذرى الشامل المرتقب . إنهم يرونه بعيدًا ونراه قريبا » وسرنا فى طريقنا لا نلوى على شىء إلى أن حملنا لواء الدعوة للنضال الجماعى المسلح » .

أول منشور ٤ نوفمبر ١٩٣٤ :

وكان أول منشور كتبته باسم الوحدة القومية وبعنوان « مصر بين شقى الرحى » هو الآتى « تتخذ الأمم الحية من الشدائد ما يشد العزائم ويحفزها للقيام بما يجب أن تقوم به إرضاء لله والوطن لا إرضاء لبعض الناس .

ونحن تمر بنا الحوادث وتنتابنا الكوارث والأمة ويا للأسف ساكنة صاغرة فهل هذا ذنب الأمة المستسلمة أو ذنب من سلمتهم قيادتها وتصدوا للزعامة فيها . إننا لا نخلى الأمة من اللوم على استسلامها كما لا نخلى القادة والزعماء من المسئولية لتنكيهم طريق الرشاد .

قد خلقت إنجلترا فى الشهور الأخيرة فى الجو مشاكل تريد بها أن تنفذ مرحلة من مراحلها الاستعمارية المبيتة من عهد بعيد لاستعباد وادى النيل . وبينما نراها – مع قوتها – تكون حكومة وشعبا وجبهة واحدة وتقف موقف الحزم والشدة تريد أن تملى إرادتها وتضرب ضربتها ترانا – مع ضعفنا – وكل حزب بما لديهم فرحون . جعلنا الوطنية تنافساً فى المصالح الشخصية وقتالا فى سبيل الحكم إذ بردت الوطنية فى صدورنا . واستعبد الغرور قلوبنا . واستذلت المطامع رقابنا . ولم تنسنا الشدة . ولو إلى حين – تلك الأحقاد والمطامع الشخصية والنزعات الحزبية ، فوجد الغاصب فينا مطية لتنفيذ مآربه . وكسب على طول الخط وخسرنا . وأصبحنا ومصر بين شقى الرحى فلا الغاصب يرحمها ولا أبناؤها ينصرونها .

ولو استعرضنا موقف الأحزاب بلا استثناء إزاء الأزمة الراهنة لما وجدنا من قام بعمل إيجابى مشرف . بل شغل الكل بصوالحهم وذواتهم وشنوها حربا كلامية لم يتورع البعض فيها عن التعرض للشخصيات بألفاظ جارحة تمجها النفس الكريمة ويأباها الطبع السليم وتطاحنوا على كراسى الحكم وتمسحوا بأعتاب المندوب الإنجليزى واتخذوا لندن قبلتهم ومهبط الوحى لهم حتى أخذت إنجلترا بأعنتهم فألهتهم – بما كانوا يلوحون به لهم من عرض زائل – عن قضية بلادهم المعذبة بانقسامهم وكأن تسيير الأمور فى هذه البلاد بإرادة المندوب الإنجليزى وحكومته دون أن يكون للأمة المصرية صاحبة الشأن فى توجيهها أى دخل . وكان علاج الحالة فى نظر هؤلاء القادة الأجلاء فى انتصار حزب على حزب وفى إحلال وزارة مكان وزارة . أما تكوين الأمة تكوينا سليما وتسلحها بكل ما يطلبه الجهاد الحق من عقيدة سليمة وخلق قويم ونفوس أبية نزاعة إلى العمل والتضحية فهم عنه لاهون . هذا والكل يدعى خدمة الوطن والوطن تعس بتفرق كلمتهم والأمة ذليلة بضعفهم والغاصب ماض فى طريقه لا يلوى على شيء .

«إنا نهيب بالزعماء أن يبصروا نور الحق فينكروا ذواتهم ويترفعوا عن إشباع مطامعهم ويتناسوا أحقادهم وينظموا صفوفهم ويوحدوا مجهوداتهم ضد الغاصب فى سبيل خلاص بلادهم وقد جربوا سياسة الركون إلى الوعود وأسرفوا فى حسن الظن بالغاصب وتذوقوا سياسة الخضوع لما تمليه إرادته وتوحى به سياسته ولم تجن الأمة من وراء ذلك إلا ما نحن عليه اليوم من انقسام ومذلة وضعف . إلا أنهم هم المسئولون فليتقوا الله فى أمتهم ووطنهم ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، كما نهيب بالأمة ألا

تستسلم بعد اليوم ولا تحسن الظن بمن كانوا حتى اليوم شراً ووبالا عليها وأن تعتمد على نفسها فى استرداد حريتها فليس ينفع الشعوب لتحريرها سوى العمل الإيجابى .

١٩٣٤/١١/٤ الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل

ثانى منشور ٢٦ نوفمبر ١٩٣٤

٣٤/١١/٢٦ كتبت المنشور الثانى ونصه

مصر بين شق الرحى

بينا فى الكلمة السابقة أن الإنجليز هم أصل البلاء ولم نخل الأمة من اللوم على استسلامها ، كما أننا حملنا من تصدوا للزعامة فينا مسئولية ما وصلنا إليه من تأخر فى جميع نواحى الحياة لتنكيبهم طريق الرشاد وركونهم إلى وعود الغاصب برغم وضوح بطلانها . واتباعهم سياسة حسن الظن به رغم تعدد اقتنائه على حقوقنا وتدخله فى الصميم من شئوننا وميلهم إلى سياسة الانتظار برغم ما أدت إليه من موت الشعور الوطنى وقتل روح العمل .

وأهبنا بالأمة ولا نزال نهيب بها ألا تستسلم وأن تستيقظ وتعمل ، كما ناشدنا المتزعمين – ولا نزال نناشدهم بحق الوحدة الممزقة – أن يطرحوا التنابذ والشقاق ويترفعوا عن التمسح بالاعتاب والترامى على كراسى الحكم . ويوحدوا مجهوداتهم ضد الغاصب ، والغاصب وحده ويجمعوا كلمتهم على ميثاق وطنى عام إن كانوا فى وطنيتهم صادقين . إذ أن الوطنية الصادقة لا تقر تعدد الأحزاب فى بلد تدنس أرضه المقدسة قدم الغاصب . كما لا تقر حسن الظن بالخصم والركون إلى خططه وتحويل النضال عنه إلى أبناء الوطن الواحد ، بل على العكس هى التى توجد من الأمة كتلة واحدة تخلق فيها عقيدة سليمة وتغذيها بلبان كراهية الغاصب والعمل على تقلص ظله الثقيل . وفوق هذا وذاك هى الوطنية التى تعمل ولا تتكلم .

والآن وقد استقالت وزارة من عهد قريب وهى وزارة عبد الفتاح يحيى باشا وشكلت أخرى وهى وزارة محمد توفيق نسيم باشا (١٤/١١/١٩٣٤) نرجو أن تكون الأمة قد راقبت عن كثب الحوادث التى سبقت الاستقالة والتى لازمت التشكيل . نرجوا أن تكون قد تحققت من صواب رأينا من أن الإنجليز هم دائما علة العلل . فلا تغفل عن تلك الحقيقة بل وتبنى جهادها على ذلك الأساس .

أراد الإنجليز أن تستقيل الوزارة مصحوبة بسخط الأمة وكان لهم ما أرادوا برغم أن رئيسها لم يبن استقالته على النحو المعروف من ضعف الصحة وطلب الراحة . بل سبب استقالته بتدخل الإنجليز وعرضهم رغبات رأى دولته أن فى تحقيقها تفريطاً فى حقوق البلاد ، ولا يظن القارئ الكريم أننا فى

معرض تزكية وزارة ، فليس هذا موضوع اليوم . ولكن لنسجل على الإنجليز تدخلهم وعلى المترعمين تمشيهم وراء إرادتهم . وإلا فأين كانت الأمة وأين كانت مشيئتها طول مدة حكم الوزارة ؟

وأراد الإنجليز أن تكون الوزارة الحالية بالشكل التى شكلت به . فكانت ، وتفاءل المترعمون خيراً لرضاء الإنجليز عنها ، وتلك لعمر الله سنة خاطئة ضارة . فقابلها الشعب المسلوب الإرادة بالفرح والتهليل وهى المشكلة وفق هوى الإنجليز ومشيئتهم . فإلى أى طريق نحن مسوقون ؟ وأى عقل يقبل أن مصلحة الإنجليز الغاصبين تتفق ومصلحة الأمة المهضومة الحق؟ وإلا فأين الخصومة إذن ؟ وعلام الجهاد ؟ أراد الإنجليز وهكذا أراد المترعمون ، أولئك لمصلحة بلادهم وهؤلاء لمصلحة ذواتهم ومصر المسكينة بين شقى الرحى .

إنه يكاد يكون من المبادئ المقررة أن أى وزارة من أى لون كانت فى بلد مغلوب على أمره كبلدنا هى وزارة يشكلها الغاصب مسيرة لا تملك من أمرها شيئاً . تأتمر بأمره وتنفذ له مشيئته وإلا نبذها نبذ النواة لتفسح الطريق لغيرها ، ومن نكد الدنيا علينا أن الإنجليز لا يعدمون من يتهافت على كراسى الوزارة تهافت الذباب على الرمم . فعلى الأمة أن تكون أبعد نظراً وأن تتحقق من موضع قدمها قبل أن تخطو أى خطوة .

وإن ننس لا ننسى تلك الزيارات المتعددة بين رئيس الديوان الملكى والمندوب السامى ودولة محمد توفيق نسيم باشا قبيل تشكيل الوزارة . فهل كانت يا ترى تلك الزيارات لمشورة تؤخذ ؟ أو الرغبات تعرض ؟ أو لمجرد تبادل المحبة والوداد ؟

ولا ننسى تلك العبارة ذات المغزى التى قالها المندوب من إنه يرتاح لدولة رئيس الوزراء الحالى ، ولا ننسى أيضا تلك التهديدات التى جرت على ألسنتهم (وما تخفى صدورهم أعظم) وصرحت بها صحفهم حين لم يبت فى تشكيل الوزارة التى ارتضوها بالسرعة التى يرغبونها ولوحوا فى الجو أن سيكون لهم معنا شأن آخر إن لم تشكل الوزارة بين عشية وضحاها فكان لهم ما أرادوا

وبعد كل هذا تريد صحافتنا ويريد المترعمون أن يدخلوا فى روع الأمة أن الإنجليز لا تتدخلون وأن ليس لهم مطالب أو رغبات . وأن وزارة اليوم غير وزارة الأمس فى التمتع بالحرية فى تصريف شئون البلاد . ألا فلتتق الصحافة وليتق المترعمون الله فى هذا الشعب المسكين والوطن المنكود . فما أشبه الليلة بالبارحة .

ألا وأن الرواية لم تتم فصولا . فهاكم الأصبع الإنجليزية تتدخل فى مسألتى ناظر الخاصة الملكيه والوصاية . وستستمر القافلة طالما أنها لا تجد من يصدها وستصل إلى بغيتها طالما أن فى مصر المطية الذلول .

هذا وقد أعلن صاحب الدولة رئيس الوزارة الحالية أنه سيلغى الدستور الحالى ، وكنا نود أن يتم دولته التصريح . بما يتبع ذلك من إجراء . هل عودة إلى دستور ١٩٢٣ ؟ أم وضع دستور جديد ؟ وسواء كان هذا أو ذاك فإنا نقف قليلا بالأمة وخصوصا لمن جروا وراء الخيال والأمل الكاذب وأملوا الأمة بالغنى الكبير من وراء الإلغاء والتعديل فنذكرهم – إن نفعت الذكرى – بأن الإنجليز تدخلوا فى دستور ١٩٢٣ – وتدخلوا فى دستور ١٩٣٠ وتدخلوا حتى فى قرارات مجلس النواب فى عهد الستور القديم . وهم سوف يتدخلون فى الدستور الجديد ويمضون فى التدخل مادمنا على هذه الفوضى وما بقى لهم فى مصر أذناب ، وسوف تؤيد الحوادث القريبة دعوانا من تدخلهم فى النظام الجديد المنتظر . ولا يفوتنا أن نذكر بهذه المناسبة أنه من الإجرام فى حق الوطن أن تذيع الجرائد المصرية بوحى من المتزعمين وتسجل على الأمة أنها ترضى بأن تخرج – من هذا الظرف بالعودة إلى دستور ١٩٢٣ وفاتهم أنه الدستور الذى لم يكفل سلطة الأمة كاملة والذى اقتطع السودان عن مصر والذى قيل فيه إنه من وضع لجنة الأشقياء . .

وكان من الحكمة بل ومن الواجب إن يذاع ويسجل أن الأمة لا ترضى إلا عن دستور من وضع جمعية وطنية إن كنا حقا مستقلين . وإلا فليقفوا من الأمة موقف المرشد الصريح والناصح الأمين فهذا خير وأبقى .

وإن مصارحة الأمة بالحقيقة ولو كانت مرة وإنارة الطريق أمامها خير من تركها تجرى وراء أمل كاذب كالسراب يحسبه الظمآن ماء . والحقيقة التى لا تقبل الشك أن دستوراً يتدخل فى وضعه الغاصب – وقد تدخل وسوف يتدخل – ويتحكم فى تطبيق نصوصه ، وقد تحكم وسوف يتحكم هو حبر على ورق وشر على الأمة من استعباد مكشوف .

فعلى المتزعمين إن أرادوا بهذه الأمة خيراً أن يصارحوها بهذه الحقائق لتعلم أين هى من الإنجليز . وهل هم حقًّا خصوم شرفاء معقولون كما جاء على لسان أحد الزعماء وأين هى الآن من قضية الاستقلال وهل هى حقًّا فى طريق الاستقلال أم هى فى طريق تسليم البضاعة . بل ولتعلم أين عدتها لذلك الاستقلال المنشود .

تلك كلمة بريئة تبرئ بها ذمتنا ونريح ضميرنا . وسيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى والسلام على من اتبع الهدى .

القاهرة فى ٢٦ من نوفمبر ١٩٣٤ — الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل

ص . ب ١٦٤٤

ثالث منشور ١٧ ديسمبر

وفى ٣٤/١٢/١٧ كتبت المنشور الثالث وهذا نصه :

مصر بين شقى الرحى

بمناسبة مؤتمر الوفد

تلجأ الأمة إلى عقد مؤتمر إذا ما أشكل عليها الأمر أو أظلم أمامها الجو وأدلهم الخطب ، فإذا كان الأمر خاصاً بإحدى نواحى الحياة عقدته من الأخصائيين ، وإذا كان الخطب عاما يمس صالح الأمة فى مجموعها حتم الواجب الوطنى أن يكون قوام المؤتمر رجالات الوطن ، فلا يكون طائفيًا أو حزبيًّا وإنما يكون وطنيًّا عاماً ، وبذلك وحده تكون قرارات المؤتمر عصارة الأفكار الناضجة على ضوء المصلحة العامة لا المصلحة الخاصة ، سليمة لا عوج فيها لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

وفى خلال هذا العام فكر الوفد فى عقد مؤتمر . وقديما عقد الوطنيون مؤتمرات عامة داخل القطر وخارجه يذكرها لهم التاريخ بالفخر والإعجاب لما راعوه فى تشكيلها وما عقدوها من أجله . وما قرروا فيها جميعا من المطالبة بالجلاء وإقرار حق وادى النيل فى الاستقلال الناجز وما بينوه وسجلوه من عيوب الأداة الحكومية وتقهقر الإدارة فى عهد الاحتلال .

وكنا نظن ، وقد انتهكت إنجلترا حرماتنا وأنهكت قوانا ، أن إنجلترا لا تدين فى سياستها الاستعمارية إلا بمبدأ التفرقة فى استعبادها للأمم إلا على أبناء تلك الأمم أنفسهم فسلطت بعضنا على بعض . ومزقتنا شيعاً وأحزاباً . ومكناها منا فأغمدنا سلاحنا فى صدورنا وكنا جميعا بلا تمييز ولا تفريق ضحية تلك السياسة الخرقاء ، كنا نظن ونحن أحوج ما نكون إلى التضامن والقضاء على روح الحزبية البغيضة وقد اكتوينا بنارها — إن الوفد وقد تصدى للتزعم — يشعر بما نشعر به ويعلم أن الوطنية ليست احتكارا وأن أعظم ما نرجوه اليوم هو جمع الصفوف وتوحيد الكلمة وإقامة بناء الوحدة القومية والتمسك بالعروة الوثقى فلا يصبغ المؤتمر بصبغة حزبية ليكون المؤتمر بحق مؤتمراً وطنيًّا عامًّا .

هذا وقد نشرت الجرائد أخيرا برنامج ما سموه المؤتمر الوطنى العام . فهل أعطى الوفد النصيب الأول من أبحاثه لحقوق البلاد وتخليصها من غاصبها ؟ أو هل ذكر السودان حياة مصر وروحها والذى قيل فيه «إن تركناه فهو لا يتركنا » وهل تعرض لحدود وادى النيل وقد أصبح نهبا لكل طامع ؟ وهل اهتم بأمهات المشاكل الخارجية وأفرد لها أبوابا وشكل لها لجانا كما أفرد لتنظيم القرية المصرية والشئون الزراعية والصحية والاقتصادية ... إلخ .

«كلا إن شيئا من هذا لم يكن » .

أما وقد أهمل ما ادعى أنه بطل ميدانه . وأغفل قضية الوطن واشترى الفث بالثمين ، وحسب أن الأمة تقنع بمجرد الإشارة إلى قضيتها تلميحاً – لغرض فى نفسه لا شرحا وتفصيلا ، فمؤتمره مؤتمر حزبى لبحث المسائل الداخلية وليس هو المؤتمر الوطنى العام الذى تنشده الأمة وتعلق عليه الأمل فى وضع ميثاق قومى عام .

هذا وسيكون المؤتمر عقيماً من الناحية الوطنية السلمة . إذ أن الباعث عليه فى الواقع هو تنظيم الوفد لا المصلحة العامة استعداداً لما يمنى به نفسه من العودة إلى الحكم الذى لايزال مغرما به برغم تكرر تجربته الخاسرة ، ومثل الوفد فى غرامه بالحكم كمثله فى تعشقه للمفاوضات برغم ما جر على البلاد فى الحالتين من الخسران المبين . فما الحكم إلا أمانى النفعيين يسيل له لعابهم ، وهو إحدى وسائل إنجلترا المغرية الفاتنة التى تستعين بها على تنفيذ مشيئتها فى البلاد ولا تريد بنا انجلترا إلا شرًّا وهو لهذا مذلة . وليس لنا إلا أن نلغى عقولنا لنجمع بين المذلة والجهاد فى سبيل الاستقلال التام . وما المفاوضة إلا سبيل العاجز القانع بالفتات اليائس من طول الجهاد ، وهى أيضا لإنجلترا سبيل لتقتل الروح الوطنى وتحيله عن الجهاد إلى سقط المتاع لتدرك بها مالا تدركه بالضغط والشدة وليس لنا عقولنا إلا أن نلغى عقولنا أيضاً لنجمع بين حسن الظن بالغاصب ومد أيدينا ليد مخضبة بدماء إخواننا وبين كراهية ومناوأة من هم ألد الخصوم .

ومن حاصل الرأى أن يظن أن فى تنظيم الوفد (إن هيئت له سبل التنظيم) ثمة منفعة تعود على البلاد . فهو أحد الأركان التى لا تستغنى عنها إنجلترا فى تنفيذ سياستها كما لا تستغنى عن غيره من الهيئات السياسية . تضرب هذا بذلك على التوالى والكل فى نظرها لازم الوجود . تستفيد من إضعافه وتقويته على السواء . وستستغل إنجلترا الوفد ضد أبناء وطنه طالما الأحزاب باقية . وطالما اسكتبر الكل استكباراً وأصروا على ما هم عليه من قطيعة وانقسام ولم يدع بالوحدة القومية والعمل لها ، إذ هى القوة التى تخضع لها إنجلترا بل هى سفينة نجاة البلاد . وإن أعوز الوفد الدليل . فعهده بصاحب اليد الحديدية ليس ببعيد . يوم أن منته إنجلترا وساومته بالحكم على تنفيذ خطتها ، فطغى وتكبر وقال أنا ربكم الأعلى حتى إذا ما بطش بطشته التى تريدها إنجلترا وأكسبها ما استخدمته من أجله أقصته عن الحكم . وقد ظن أنه باق فيه . ولفظته ونبذته نبذ النواة . ثم لوحت بالحكم للوفد وهو أقصى أمانيه بعد أن ضيقت عليه الخناق تريد إذلاله ليسهل انقياده وساومته فعاد إشباعا لرغبة الانتقام ممن أذاقوه العسف من أبناء وطنه لأنه رأى فى الحكم مخرجاً يجلى به الإنجليز عن الديار .

وأخشى ما نخشاه أن تتكرر المهزلة وتسرى العدوى فتسمع غدا بالمؤتمر السعدى والمؤتمر الشعبى والمؤتمر الاتحادى . . . إلخ تتنافس الفرق على تسجيل حسن ظنها بغاصبى حقوق البلاد وإذكاء نار

الحزبية وحفر قبر القضية المصرية فلا نسمع يوماً بالمؤتمر الوطني العام .

وهكذا دواليك تشغلنا إنجلترا بأنفسنا وتزحزحنا عن الغرض الأسمى وتنصب نفسها علينا حكما. فتفرض علينا جميعا الطاعة والامتثال . وبذلك تصل - لا قدر الله - إلى أخذ الوثيقة منا بجعل مركزها شرعيا فى البلاد . وهذا جل ما تسعى إليه وتتمناه وهو عين الخطر وقد وصلت إنجلترا فعلا إلى ما تبغى بمعاهدة ١٩٣٦ المشئومة على يد مصطفى النحاس .

ألا قد تبين الرشد من الغى . فيا جلال الوطنية عد واملأ القلوب إيمانا والنفوس حزماً وعزماً والروح تحفزاً وعملا وحتى يبصر القوم نور الحق ولا نرى فوق أرضنا إنجليزيًّا .

القاهرة فى ١٠ رمضان ١٣٥٣ — الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل

١٦ ديسمبر ١٩٣٤ — صندوق البريد ١٦٤٤

رابع منشور ونصه :

مصر بين شقى الرحى
حول مؤتمر الوفـد
(أفلا يتدبرون القول أم على قلوب أقفالها)

* * *

بينا فى الكلمة السابقة متى ولماذا تعقد المؤتمرات عامة كانت أو خاصة . وأشرنا إقراراً للحقيقة إلى أن فكرة عقد مؤتمر ليست الأولى من نوعها وإلى أن المؤتمرات الوطنية السابقة كانت بحق وطنية عامة اسماً ومعنى . وإلى أن قراراتها كانت مملوءة وطنية صادقة ذلك بما كانت تسجله من حقوق البلاد والسبيل إلى الحصول عليها .

ثم بينا للأمة أن مؤتمر الوفد حزبى بحت لتنظيم الوفد للتلويح به لا وطنى عام لمواجهة الغاصب بطلب الجلاء ، ذلك لأن الجزء الأوفر من برنامجه ينصب على الشئون الداخلية . ولأنه أغفل قضية البلاد فلم تكن فى نظره مسألة المسائل وموضوع المؤتمر ولأنه رمى إلى تطمين الإنجليز على سياستهم المرسومة ثم صرحنا بأن التنظيم لو تم لا يجنى النفع من ورائه سوى الإنجليز طالما الأمة على ما هى عليه من قطيعة وتحزب وانقسام ، ثم تضرعنا إلى الله تعالى أن يلهم القوم سبيل الرشاد .

وأخيراً عقد المؤتمر فحسبنا المؤتمرين يهيمون فيما هاموا به بقضية البلاد فيتوجون قرارات المؤتمر بالمطالبة بالجلاء . وبتذكير الإنجليز بما قطعوه من عهود وما أقسموا به من إيمان أنهم عن الديار

نازحون . فإذا بهم لاهون عن قضية البلاد بالحنين إلى العودة إلى دستور ١٩٢٣ الأبتر الذى اقتطع السودان ولم يكفل حقوق الأمة كاملة ولم يكن من وضع جمعية وطنية .

وحسبناهم يترنمون فيما ترنموا به بالسودان حياة مصر فيقررون بطلان جميع ما جرى من افتئات القوة الجائرة على حقوقنا فى ذلك القسم من الديار وبأنه جزء لا يتجزأ من الوادى فإذا بهم لاهون عن حياة مصر بحياة الوفد نفسه وإثبات وجوده .

وحسبناهم يذكرون ما تصدع من بنيان وما تفكك من عرى بسبب سياسة (فرق تسد) فيقررون فى صراحة أن الغاصب هو علة العلل ويعلنون الجهاد الوطنى ضد الاحتلال حتى تستقل الأمة ويستقيم الحال .

فإذا بهم ويا للأسف ، يرددون من جديد نغمة حسن التفاهم والوداد ثمنا لكراسى الحكم بدل بث روح الكراهية والعمل على إذكائها ، ويتمسكون بما اتبعوه قديماً من سياسة الانتظار بدل إخراج إنجلترا والعمل على إجلائها ، ويركنون أيضا إلى المفاوضات فى حل القضية المصرية برغم ما نعتها به سعد باشا نفسه بعد مفاوضة لوزارة العمال الأولى بأنها كانت دعوة إلى الانتحار (يحلونه عاما ويحرمونه عاماً) هذا بدل إعداد الأمة وقد تدهورت أخلاق بنيها واعتلت أجسامهم وسقمت عقولهم وانطفأت شعلة الوطنية فى نفوسهم فأصبحنا خلواً من كل شيء ضعافاً فى كل ناحية ، جهاد ولا جهاد ، تنافس بالعبارات الطنانة والجمل الرنانة : إسراف فى الكلام ولا أعمال وتضليل بالأباطيل وسعى وراء الخيال ، يؤيدنا فى ذلك كل بصير ينظر إلى الأمور بالعين المصرية المخلصة ويجرد نفسه عن الهوى وينزهها عن الحزبية بل يؤيدنا كل نصير للوحدة القومية فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ألا ساء ما يأفكون

أما وقد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وغفلوا عن قضية البلاد وأهملوا سودانها وغضوا الطرف عن تدخل الإنجليز السافر فى كل شأن جل أو صغر من شئوننا ليهيئوا الجو لما هو أشد وأنكى – لاتفاق شريف – يصون مصالح بريطانيا فى مصر وعززوا بقراراتهم صدق ما ذهبنا إليه من أنهم لا يرجون من وراء مؤتمرهم سوى تنظيم الوفد للتلويح به وإثبات وجوده فى الميدان للوصول إلى الحكم . وسوى الرجوع إلى دستور ١٩٢٣ الذى وضع تحت إشراف الإنجليز وبتدخلهم ، وأنهم بذلك حولوا الأمة عن الغرض الأسمى إلى ماهو أدنى . وأنهم بذلك يخدمون السياسة الإنجليزية ويضرون أبلغ ضرر بالقضية الوطنية . وأنهم بذلك لم يفضلوا فى شيء غيرهم من الهيئات المستوزرة . بل هم أكثر ضرراً بما حذقوه من أساليب .

أما وقد كان ما كان . فليهنأ الوفد بما أتقن من زخرف القول . وبما نال من ثقة غالية ولينم ملء

جفونه وليطمئن أعوانه وينتظروا النفع من حوله ، فقد وصل بهم إلى غاية ما يتمنى . وفتح الباب لإنجلترا على مصراعيه يخطب ودها (وتلك الوطنية الصادقة ! ! !) بعد أن بين فى صراحة وجلاء أنه ليس من طلاب الجلاء وإن ذكر فى خطبه وردد على لسانه لفظ الاستقلال التام ينفذ بذلك بأمانة وإخلاص ما أوصى به سعد باشا المرحوم عدلى باشا عند تشكيله وزارة الثقة فى خطاب أرسله إليه من الخارج فى ١٢ فبراير سنة ١٩٢٠ حيث قال (. . . ولا يصعب عليه – يشير إلى اللورد ملنر – أن يتضمن بروجرامكم عبارة الاستقلال التى أوضحناها فيما كتبناه لكم لأنها لا تربط غيركم وهى فوق ذلك ضرورية جدًّا حتى لا تقابلكم الأمة بالنفور . . . إلخ) (وتلك السياسة الحكيمة) وأنه لا يزال حيث كان حريصاً على ما رسمته له إنجلترا ولا يرى فى الإنجليز سوى الخصوم الشرفاء (وهذا عين الوفاق) وسوف لا يضن الإنجليز على الوفد بيدهم يمدونها إليه فى الوقت المناسب تنفيذاً لسياستهم المرسومة بعد أن حرموه ذلك الملبس الناعم الشهى أربع سنوات سويا ويساومونه على الحكم وهو الطامع فيه الحريص على الحصول عليه وإن عز الثمن . ويجلسونه فى كراسى الوزارة حيناً من الدهر . حتى إذا ما وصلوا على يده إلى ما يريدون لفظوه ونبذوه كما لفظوه ونبذوه من قبل . وأحلوا محله غيره ، وهكذا دواليك حسن ظن بالإنجليز وطمع فى الحكم ورجوع إلى مفاوضات ، هذا ما يستخلص فى اجتماع المؤتمر وقراراته فهل هذه هى حقوق البلاد ؟ أم هذه سبيل الجهاد ؟ حسن الظن بالغاصب نغمة تعافها الوطنية الصادقة والحكم فى عهد الاحتلال مذلة وأداة هدم للأمانى القومية والمفاوضة انتحار وتجربة خاسرة فحرام أن يروج الجميع للباطل وإجرام أن لا يرتفع صوت أمام هذه النكبة ينادى فى الأمة حذار فإن السم فى الدسم .

فيعلم الوفد وغيره أن فى الكنانة رجالا يجهرون بالحق لا يخشون فيه لومة لائم ويؤدون الواجب مخلصين لله ولو كره المتجرون بالوطنية . وإن كانت دولة الباطل والتهريج ساعة فدولة الحق والعمل إلى قيام الساعة . وسيعلمون نبأه بعد حين .

هذا ، وإنا نهيب كما أهبنا من قبل بجميع المشتغلين بالقضية المصرية والذين هم يؤمنون بأن مصلحة الوطن فوق كل اعتبار ويضعون الوطن فوق الجميع – وقد أظهرنا رأينا جريئاً من قبل ومن بعد وأيدت الحوادث صدق نظرتنا وطهر سريرتنا ونبل قصدنا – أن يتضافروا معنا جميعا على تنفيذ ما دعونا وندعوا إليه من توحيد الصفوف وتطهير النفوس وجمع الكلمة لإقامة الوحدة القومية . وتنفيذ برنامجها الوطنى العام . لقد بلغنا اللهم فاشهد .

القاهرة فى ١٩٣٥/١/١٤

الوحدة القومية

لاستقلال وادى النيل

لا نزال مضطرين لإسماع صوتنا عن طريق النشرات لأن الجرائد رفضت ولا تزال ترفض أن تنشر لنا .

« الوحدة »

تلك هي المنشورات الأربعة الأولى مما كتبت أكتفى بها كنموذج يستشف منه القارئ الكريم روحنا ودعوتنا الحقة للوحدة التى آمنا بها » .

١ – اتصالات بالهيئات الأخرى

صلتى بالإخوان المسلمين وبجماعة شباب محمد :

جاءنى يوما بنادى الحزب الوطنى الأخ أحمد إبراهيم السوادى – ترزى مصر والسودان والملحقات وجغبوب كما كان يسمى نفسه ، وقال لى هل لك فى أن تزور معى الشيخ حسن البنا رئيس جماعة الإخوان المسلمين فى داره بدرب نافع بالدرب الأحمر لتراه وتتعرف به عن قرب وكلاكما له نشاط ملحوظ فى الناحية الدينية ، ولم أمانع وكنت سمعت خيرا عن الشيخ حسن ولم أره . وما راءكمن سمعا .

فاصطحبنى إلى دار الشيخ ودلفنا من الباب الخارجى إلى ردهة سماوية ومنها إلى صالة فسيحة نوعاً ما بالدور الأرضى مفروشة بالحصر حيث يجتمع الإخوان يتدارسون شئونهم ويسمعون دروس الوعظ التى يلقيها الشيخ ويؤدون فريضة الصلاة . وفى نهاية الصالة على يمين الداخل سلم يوصل إلى الطابق الأول حيث يقيم الشيخ مع عائلته .

والتقيت لأول مرة مع الشيخ حسن وسمعته وهو يلقى درساً دينيًّا على أتباعه ووجدته حلو الحديث غزير المادة مما حببه إلى ، وترددت على الدار وتوثقت الصلة بينى وبينه . وأحب كل منا الآخر فى الله وأخذنا نخوض فى مواضيع شتى دينية واجتماعية وسياسية . وعلمت منه أنه من بلدة المحمودية وكان والده عضوا بجماعة الطريقة الحصانية الإسلامية . التى كان يرأسها الأستاذ أحمد السكرى وأنه حضر إلى القاهرة سنة ١٩٢٣ مع والده وشقيقه عبد الرحمن الساعاتى والتحق بدار العلوم . ولما تخرج عين مدرسا بالإسماعيلية وهناك كون فرعا للطريقة الحصانية ثم رأى تغيير اسم الفرع إلى اسم جمعية الإخوان المسلمين ثم نقل إلى مدرسة عباس بالقاهرة سنة ١٩٣٦ ونقل مقر نشاطه من حارة عبد الله بسوق السلاح إلى شقة كبيرة بمبنى لوكاندة البرلمان بالعتبة الخضراء ، وطرقنا مرة موضوع الفداء وما تحتاج إليه

الرسالات من فدائيين سواء بالروح أو بالمال ، وأشار فى بيانه إلى ما بلغه عنى من خبرة فى ذلك الميدان وبرغبته فى الاستعانة بى لإعداد بعض الإخوان المسلمين للفدائية . فرحبت برغبته وكان ذلك فى خلال سنة ١٩٣٦ .

واتفقنا على أن يختار خلاصة ممن يتوسم فيهم استعداداً لذلك الاتجاه لأبدأ بإشراكهم معنا فى رحلاتنا الخلوية بالمقطم ولأدربهم على الرماية ويكون ذلك أول الشوط .

واختار الشيخ بعض الإخوان أشركتهم معنا فى رحلة إلى وادى حوف سيراً على الأقدام ، وهناك بدأت أمرنهم على الرماية ، ووقع ما لم يكن فى الحسبان ، إذ برز من بينهم فرد يتردد فى استلام المسدس وإطلاقه لا خوفاً ، ولكن لأنه لم يأخذ من الشيخ أمراً بذلك .

وبالرغم من محاولة إقناعه أمام زملائه بأن الشيخ الذى يحرص هو على طاعته وأن لا يعمل عملا إلا بأمره هو الذى اختاره مع من اختارهم من إخوانه للتدريب معنا على الرماية وبأنه بامتناعه عن التمرين وإصراره على موقفه يكون قد فهم الطاعة فهماً خاطئاً فإنه لم يقتنع وأصر على موقفه .

وإن كان زملاؤه قد قاموا بالتمرين إلا أن موقفه الغريب أدخل الشك فى نفوسهم .

ولما عدت إلى الشيخ وقصصت عليه ما كان من أمر أحد من أصطفاهم أسف لما وقع وكانت فرصة للتحدث فى حدود الطاعة الواجبة وفى حدود ما يرسمه الإسلام وفى إطار عدم إلغاء الفرد لعقله وإرادته وضعاً للأمور فى نصابها وحفظاً للشباب من الوقوع فى أخطاء بسبب عدم فهمهم الحقيقية على الصورة المطلوبة كما تحدثنا عن الصفات الواجب توافرها فيمن يتصدى للعمل الفدائى . وأعتقد أنه كان بحثاً بناء مفيداً .

ولا ضير وأنا بصدد ذكر لمحة عن صلتى بالإخوان المسلمين أن نذيع سرًّا ظل مكتوما لا يعرفه سواى ، وسوى عبد الحكيم عابدين وكيل الإخوان المسلمين ، وكان فيه نجاته . وتفصيل الخبر أننا تقابلنا على ظهر الباخرة المسافرة إلى الحجاز فى موسم الحج سنة ١٩٥٤ وكانت برفقته والدته ووالدة المرشد الشيخ حسن البنا وبعد الانتهاء من الحج والزيارة ونحن نستعد للعودة إلى وطننا العزيز نما إلى علمنا أن السلطات بمصر بدأت حملة كيدية مسعورة ضد الإخوان بالقبض عليهم زرافات واعتقالهم بالسجون بدعوى التآمر على قلب نظام الحكم بالقوة . فآثر عبد الحكيم أن يبقى بالسعودية حتى ينجلى الموقف ويتأكد من صحة النبأ وأن يترك لنا والدته ووالدة المرشد فى رعايتنا وكانت معى حرمى التى تعرفت بها على ظهر الباخرة واتفق معى على اصطلاح أبعث به إليه بالتلغراف على عنوان أحد معارفه بمجرد وصولنا إلى القاهرة بسلام ، وحرصت على أن أرسل له التلغراف بالصيغة المتفق عليها فبقى بالسعودية ولو عاد معنا لناله من السجن الأليم والتعذيب المبيت ما نال إخوانه المظلومين

جماعة شباب محمد :

فى أواخر سنة ١٩٣٩ دب خلاف بين نفر من خيرة شباب الإخوان المسلمين وبين فضيلة المرشد العام الشيخ حسن البنا حول بعض تصرفات خاطئة ومخالفات مالية نسبت لفضيلة المرشد ذاته وسقطات خلقية لبعض أعضاء مكتب الإرشاد وعلى الأخص وكيل الإخوان الأستاذ عبد الحكيم عابدين صهر فضيلة المرشد .

استمر الخلاف واشتد الجدل بين الطرفين وفشلت كل محاولات التفاهم وتمسك كل طرف بوجهة نظره وانتهى الأمر بأن أعلن فضيلة المرشد العام فصل أولئك الشبان من جمعية الإخوان .

وفى ٩ ذى الحجة سنة ١٣٥٨ – يناير سنة ١٩٤٠ كون المنفصلون جماعة شباب محمد وكانوا من أصدق الإخوان المسلمين إيمانا بالدعوة والتمسك بها والحفاظ عليها والصلابة فى الحق لا يعرفون فيه هوادة ولا يميلون مع الهوى . وكانوا فى بادئ الأمر قلة إلا أنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى فحملوا الأمانة وأدوا الرسالة على أفضل ما يكون الأداء ، اتخذوا لهم دارا فسيحة بشارع البركة الناصرية بالسيدة زينب أقاموا بها مسجداً للصلاة وأعدوا مدرسة لتربية وتعليم الأطفال المسلمين على النهج الإسلامى القويم وصالة كبرى لإلقاء المحاضرات وإقامة الندوات وإحياء المناسبات الدينية والوطنية واشتروا ماكينة طباعة لطبع جريدة النذير ومن بعدها جريدة الشباب لسان حال الجماعة ، ومطبوعات الجماعة من كتب ونشرات . واختاروا من بينهم الأستاذ حسين يوسف رئيساً لهم وسارت القافلة على بركة الله بصبر وجلد وإيمان ، وزاد عدد أعضائها ومناصريها واتسع نطاق عملها واحتلت الجماعة مكاناً مرموقاً بين سائر الجمعيات الإسلامية ذات الأثر الملموس فى الدعوة للإسلام وحسبت لها السلطات الحاكمة ألف حساب وأخذت فى محاربتها ومطاردة أعضائها وفض اجتماعاتها ومصادرة جريدتها وتعطيل مطبعتها حتى انتهى بها المطاف سنة ١٩٥٤ إلى قفل دارها والاستيلاء على مطبعتها وممتلكاتها وبذلك قضت على نشاطها بعد أن شلت حركتها وهكذا شأن الظالم فى كل مكان .

أما أوجه الخلاف التى فصل بسببها جماعة شبان محمد والتى ألمحت إليها سابقا فقد بينتها الجماعة بالتفصيل فى بيان أصدرته ونشرته فى صدر جريدتها « النذير » لسان حالها بالعدد الأول فى أول محرم ١٣٥٩ – ٩ فبراير ١٩٤٠ تحت عنوان « قضية سبيل الله » موقفنا النهائى من جمعية الإخوان المسلمين وحصرت الخلاف فى نقاط أربع :

أولا : الأمر شورى : إذ يرى فضيلة المرشد العام أن لا شورى فى الدعوة وإنما ينهض بها فرد له أن يأمر وعلى الجميع الطاعة وإنه لم يجد فى الإخوان من هو أهل للشورى .

ويرى فريق شباب محمد أن المرشد مخالف للنظام السياسى للإسلام وفيه تحد لمصدريه الكتاب والسنة مستشهداً بالآية الكريمة « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم **وشاورهم فى الأمر**» .

ثانيا : **العمل تحت لواء الحاكمين بغير ما أنزل الله** : إذ أعلن فضيلة المرشد أن نجاح الدعوة مرهون بإرضاء الحكام والعمل تحت ألويتهم الحزبية ويرى شباب محمد أن فى ذلك الإعلان مخالفة لمبدأ من مبادئ الإخوان التى تقول أن لا نجاح للدعوة إلا بقوة الشعب الذاتية وتوجيه الرأى العام توجيهاً إسلامياً خالصاً دون الاعتماد على الحكام الذين لا أمل فيهم ماداموا يحكمون بغير ما أنزل الله فعارضوا رأى المرشد بكل قوة وذكروه بما ردده أكثر من مرة فى خطبه ومقالاته فى صحف الإخوان بأننا إسلاميون غير حزبيين وأننا نعمل لله والرسول لا لزعيم ولا لحزب .

ثالثا : **التلاعب المالى** : إذ طالب فريق شباب محمد من فضيلة المرشد بوضع حد لما تلوكه الألسن من مخالفات مالية وقعت وصرف أموال الجمعية فى غير ما خصصت له كما تم فى أموال أسهم الدعوة والأموال التى جمعت لمساعدة فلسطين فى نكبتها وتكوين هيئة من المختصين فى الشئون المالية تكون مسئولة أمام الجمعية لضبط الحسابات ومراقبة الصرف فأصم المرشد أذنيه ولم يأخذ فضيلته بذلك الطلب العادل وأصر على رفضه .

رابعا : **تطهير الدعوة** : إذ الح شباب محمد على فضيلة المرشد أكثر من مرة أن يحرص على طهارة الدعوة بإقصاء كل الذين تشوب أخلاقهم الشوائب حتى يسلم كيان الإخوان ويسمو عن المظان والشبهات . فأصر على إبقائهم فضلا عن أنه أسند إليهم أعمالا رئيسية وأخذ يشيد بذكرهم .

هذا وأما من قادوا حركة الوقوف بصلابة فى وجه كل ما رأوه من المخالفات وكانوا النواة الأولى فى تكوين جماعة شباب محمد بعد انفصالهم عن الإخوان فهم الأستاذ حسين يوسف بوزارة المعارف رئيس الجماعة والسادة محمود أبو زيد عثمان المحامى عضو مكتب الإرشاد ومدير وصاحب جريدة النذير . . محمد على المغلاوى عضو مكتب الإرشاد وسكرتير لجنة الطلبة والعمال العامة ، وعثمان المراغى مندوب شعب الأقاليم ، محمد الحسينى عبد الغفار مندوب شعب القاهرة ومندوب كلية الشريعة ، يوسف غنيم مندوب شعبة أسيوط وعلى سامى النشار ليسانس فى الفلسفة وعضو لجنة تحرير النذير ومحمد حسين أبو سالم عضو لجنة الطلبة والعمال العامة ومحمد عزت حسن مندوب كلية الهندسة وعز الدين عبد القادر مندوب كلية الصيدلة ، وهذا أصيب وقتل وهو يجرب تركيباً كيماويا من مواد ناسفة . وتميمى حمزة فراج مندوب الطب البيطرى وعبد العال رشدان مندوب الفنون التطبيقية وراغب خير الله المدرس بالجمعية الخيرية الإسلامية وحسين عوض بريق وأحمد عامر كلية الحقوق ومحمد جميعى المهندس

بالقناطر الخيرية ومحمود جدامى كلية الزراعة وعبد المجيد النجار كلية التجارة ومحمد فهمى عبد الوهاب الفنون التطبيقية .

وكلهم وقعوا على البيان المفصل الذى أصدرته الجمعية وأشرت إليه فيما سبق .

ولقد آزرت جماعة شباب محمد من بدء تكوينها بكل ما أستطيع من عون مادى ومعنوى وفكرى وتوثقت المحبة والثقة والمودة بينى وبين بعض أعضائها ممن اصطفيتهم بعد أن أنست فيهم الخير وأشركتهم فى رحلاتى الخلوية فى وادى حوف بحلوان والربيكى والمقطم للتدريب على الرماية ، وكان من ثمرة ذلك أن اخترت من بينهم وباطمئنان الأستاذين محمود أبو زيد وحسين عوض بريقى للانضمام لعضوية الجمعية الفدائية السرية (التضامن الأخوى) وحلفتهم اليمين كما أشرت إلى ذلك فى موضوع آخر من المذكرات وكذا استخدامى لمخبأ سرى فى مبنى دار الجماعة لحفظ أسلحتى فيه بموافقة رئيس الجماعة الأستاذ حسين يوسف ، وعلم الأستاذ محمود أبو زيد ، وبقى المخبأ وما به من سلاح سراً لا يعلمه سوانا نحن الثلاثة ودون أن يصل إليه البوليس برغم تعرض المبنى للتفتيش أكثر من مرة إلى أن نقل السلاح إلى المقاتلين من الفدائيين فى منطقة القتال .

صلتى بمصر الفتاة :

كان من ثمرة النهضة الصناعية بمصر التى ظهرت بوادرها سنة ١٩٣٠ وما بعدها فى عهد وزارة إسماعيل صدقى باشا (١٩٣٠/٦/١٩ إلى ١٩٣٣/٩/٢٧) تحمس طلبة الجامعة للدعوة لتلك الوسيلة من وسائل الجهاد ومناداتهم مع من نادوا بمقاطعة البضائع الأجنبية والدعوة لتشجيع الصناعة وإحياء مشروعات جديدة بمال الشعب .

وفكر جماعة منهم بزعامة أحمد حسين الطالب بالحقوق فى جمع المال عن طريق طوابع من ذات القرش الواحد لإقامة مصنع للطرابيش يكفينا مؤونة استيرادها من الخارج وكان ذلك سنة ١٩٣٠ ، وأقبل الشعب على شراء الطوابع واستمر الجمع حوالى ثلاث سنوات جمع فى خلالها حوالى الثلاثين ألف جنيه ونجح المشروع وشجعتهم تلك الخطوة على تكوين جمعية باسم مصر الفتاة برئاسة أحمد حسين وكان ذلك فى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٣ ثم تحولت الجمعية إلى حزب باسم حزب مصر الفتاة فى يناير سنة ١٩٣٧ ولما أعلن عن أهدافه رأيت فى بعضها ما يتفق وروح الحزب الوطنى الذى أدين بمبدئه ودفعنى ذلك إلى زيارة مقر الحزب بعمارة المؤيد بشارع محمد على تشجيعا وترحيبا بروح شابة وثابة . . وهكذا - فى رأيى يجب أن يرتفع الوطنى عن التعصب الحزبى ويدلى بدلوه فى كل عمل بناء . إذ ما كاد ينشئ الحزب جريدة «الصرخة» لسان حاله إلا وبادرت فى تواضع بالمساهمة فى استلام بعض

دفاتر الاشتراك بها وتوزيعها وأنا لست عضوا فى الحزب . وكان لتلك المبادرة منى وقعها الحسن فى نفس أحمد حسين الذى لم أكن أعرفه من قبل ، وكذلك عضده فتحى رضوان وكنت أعلم أنه بدأ حياته السياسية وطنيًّا يدين بمبدأ الزعيم الشاب مصطفى كامل ، واستمرت العلاقة بيننا طيبة وبادلنى الحزب الخدمة العامة ، ولا أنسى فى هذا المقام ما قام به من مساعدة قيمة فى تعميم توزيع ما كنت أكتبه من منشورات ثورية رأى أنها تسير فى نفس الخط الذى ينتهجه وأذكر له بالذات يوم أن أصدرت منشورا بعنوان «تحية لامبسون» يوم أن حضر إلى مصر ليشغل وظيفة سفير إنجلترا بها وطلب منى حزب مصر الفتاة أن أمده بأكبر كمية من المنشورات ليعاون فى توزيعها ، وأرسلتها إليه فقام بوضع نسخة منه داخل كل عدد من جريدته المنتشرة بين أعضائه وفى أنحاء القطر– وهذا ولا شك تعاون فى النضال يذكر . ولا يفوتنى أن أذكر أن الحزب غير اسمه سنة ١٩٤٠ من «حزب مصر الفتاة» إلى «الحزب الوطنى الإسلامى» وتعرض أعضاؤه للاضطهاد فاعتقلت السلطات الكثير منهم وعطلت جريدته وجمدت نشاطه وكان ذلك بارزا بعد مؤزارة الحزب لحركة رشيد عالى الكيلانى التحررية بالعراق ضد الإنجليز وظلت السلطات فى اضطهاد الحزب إلى أن تغيرت الظروف واستعاد نشاطه سنة ١٩٤٤ .

ومما زاد فى توثيق الصلة والروابط بينى وبين حزب مصر الفتاة اتخاذ الحزب من دار جمعية الشبان المسلمين (وأنا عضو مجلس إدارتها وأمين صندوقها) مكانا آمنا لمزاولة نشاطه فترة اضطهاد السلطات لزعمائه وأعضائه وغلق داره وتعطيل صحيفته . فكان أحمد حسين رئيس الحزب وزميله فتحى رضوان يلقيان الخطب الملتهبة بقاعة المحاضرات بالجمعية بثا لدعوتهم . كما كان من دلائل تعاطفى مصر الفتاة مع الحزب الوطنى حملة المعارضة الشديدة التى قادها فى البرلمان سنة ١٩٣٦ كل من النائبين الوطنين عبد العزيز الصوفانى وفكرى أباظه حين أراد البرلمان التصدى لأعضاء مصر الفتاة والتضييق على الحزب والحد من نشاطه .

ولا يفوتنى أيضا بهذه المناسبة ذكر اعتداء عز الدين عبد القادر عضو مجلس جهاد مصر الفتاة على النحاس باشا رئيس الوزراء فى ٢٨ / ١١ / ٣٧ بشارع عباس بمصر الجديدة أمام مبنى شركة هليوبوليس إعلانا عن سخط مصر الفتاة وتضامنها مع الحزب الوطنى لمعاهدة ١٩٣٦ .

صلتى بعزيز باشا المصرى –اشتراكه فى جمعية الاتحاد والسفر من تركيا واشتراكه فى قمع الثورات – خلافه مع زعماء الاتحاد والحكم عليه بالإعدام .

قرأت عن عزيز باشا (وقليل من يعرف أن اسمه عبد العزيز على المصرى) وأغرمت بسيرته ونضاله وعرفت أنه ولد عام ١٨٧٨ وأنه أحب الحياة العسكرية والتحق سنة ١٨٩٨ وهو فى العشرين من عمره

بالمدرسة الحربية بتركيا ثم بكلية أركان حرب ثم انخرط فى سلك الجيش التركى سنة ١٩٠٤ واندمج فى الهيئة السرية لجمعية الاتحاد والترقى التركية واشترك فى قمع الثورات بالبلقان وباليمن وقاد المتطوعين فى حرب طرابلس ضد الطليان ١٩١٠ وكان مشهودا له بالعطف على العرب وتأييد مطالبهم وبالثورة على مظالم الخلافة العثمانية وفساد الأوضاع فى دولة الخلافة ثم اختلف مع أنور باشا ونيازى باشا من زعماء جمعية الاتحاد والترقى لتجاهلها مطالب العرب فاعتقل وقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى وحكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص . فى ١٥ /١٩١٣/٤ .

وثار العرب على الحكم فى كل قطر فاضطرت الحكومة التركية إلى العفو عنه فى أبريل ١٩١٤ وعاد إلى مصر واستقبل استقبالا شعبيًّا رائعاً .

سفره إلى الحجاز وتعيينه وزيرا للحربية ونفيه إلى إسبانيا وهربه إلى ألمانيا :

وفى ١٩١٦ سافر إلى الحجاز والتحق قائدا لجيش حسين شريف مكة وعين وزيرا للحربية واعترض على تدخل الإنجليز فى شئون حسين واستقال وعاد إلى مصر ثانية وقبض عليه الإنجليز ونفوه إلى إسبانيا بحجة خطورته وتمكن من الهرب إلى ألمانيا وهناك عين أستاذا فى كلية أركان حرب برلين وبقى حتى عام ١٩٢٤ ثم عاد إلى مصر للمرة الثالثة .

مدير مدرسة البوليس

وفى ١٩٢٨ عين مديرا لمدرسة البوليس فجدد أنظمتها وأضفى على تلاميذه من روحه الوثابة وعنى بصفة خاصة برفع المستوى الخلقى والثقافى والعسكرى فترك فى الكلية أحسن الأثر .

المشرف على فاروق ولىّ العهد :

وفى ١٩٣٦ اختير مشرفا على ولى العهد فاروق وهو فى لندن واشتد الخلاف بينه وبين أحمد حسنين باشا رائد فاروق لانحرافه به عن الطريق السوى واعتزل العمل غير آسف وعاد إلى مصر للمرة الرابعة .

مفتش عام الجيش المصرى وبداية اتصالى به :

وفى ١٩٣٧ عين مفتشا عاما للجيش المصرى وفى نفس السنة كانت بداية اتصالى به عن طريق صديقى محمد علوى الطالب بكلية الفنون الجميلة وتوثقت علاقتى به وكنت أتردد من وقت لآخر على مسكنه بالزمالك مع الإخوة محمد علوى ويوسف كمال وعبد المعطى عطيه من شباب الحزب الوطنى ولم

تنقطع تلك اللقاءات المفيدة حتى بعد أن انتقل إلى سرايه بعين شمس التى كانت ملتقى لبعض الشبان الضباط يفيدون من حنكته وتجاربه وحسن توجيهاته ويستمعون منه إلى صور الجهاد وألوان البطولة ودروس وعبر التاريخ .

استقالته :

وفى ١٩٣٩ استقال لشدة مناوأة الإنجليز له ولزم منزله مما أفسح المجال أمام الشباب عسكريين ومدنيين للحظوة بلقائه والإفادة من آرائه .

محاولة الفرار إلى العراق :

وفى ١٩٤١ والحرب العالمية ما زالت قائمة حاول الفرار إلى العراق بطائرة حربية للمشاركة فى ثورة رشيد على الكيلانى ضد الحكم البريطانى . وكان بصحبته الضابطان الطياران عبد المنعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار من تلاميذه فسقطت بهم الطائرة قرب قليوب لخلل أصابها ولم يصابوا هم بسوء . وعادوا إلى القاهرة واختبأوا بمنزل أحد المواطنين بامبابة يدعى عبد القادر رزق وكان يقطنه بمفرده وبقوا به حوالى العشرين يوما بعيدين عن الأنظار حتى داهم المنزل فى أبريل سنة ١٩٤١ رئيس البوليس السياسى أمام إبراهيم ومعه قوته للبحث والقبض على أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة بناء على معلومات وصلت البوليس بأنه يختفى بالمنزل المذكور فكانت مفاجأة لم يكن يتوقعها إذ وجد أمامه وجها لوجه عزيز المصرى وزميليه وكانو أطلقوا لحياهم للهرب مرة أخرى فقبض عليهم وأودعوا السجن ووجهت إليهم تهمة الخيانة العظمى وعقوبتها الإعدام . وحوكم عزيز المصرى باشا وظل معتقلا إلى أن انتهت الحرب العظمى ١٩٤٥ وأفرج عنه .

تعيينه سفيراً فى موسكو والإنعام عليه بقلادة النيل ووفاته ١٩٦٥ :

وفى ١٩٥٣ عينته الثورة سفيرا لمصر فى موسكو وأنعمت عليه بقلادة النيل تقديرا لجهاده ومات راضى البال فى ١٩٦٥/٥/١٥ رحمه الله وجزاه عن نضاله خيرا .

* * *

اتصالى بشباب الضباط :

بعد صدور الحكم فى قضية السردار ببضع سنوات وفقت لتكوين شعبة من إخوانى المخلصين

الأساتذة محمود أبو زيد وحسين عوض بريق ومحمد حمدان وأمين ربيع أدوا يمين الجمعية وقاموا ببعض الرحلات للتدريب على السلاح إلا أن الأحداث بالبلد كانت تجرى بسرعة ولم تكن حالتهم من قوة التدريب والاستعداد تسمح بتكليفهم بالقيام باطمئنان وثقة ببعض الاغتيالات على غرار ما كانت تؤديه الشعبة التى أعدم أفرادها ، فآثرت عدم المجازفة بأفرادها حتى تتهيأ تماما للعمل– وما أشقه– وهدانى الله فى نفس الوقت– كسباً للوقت أن أنشد سد الفراغ بشباب من الجيوش لما يتوفر لديهم فى نظرى – وقد لا يتوفر لسواهم– من نظام وروح وتنظيم عسكرى وتدريب وتسليح .

الجيش وقتئذ :

هذا مع علمى التام بأن المهمة شاقة تماماً لما كان عليه الجيش من ضعف القوة والإعداد ومن التخلف الروحى والعملى والثقافى وعزلته التامة عن الشئون السياسية ومن أنه آلة مسخرة فى يد الملك ولا يحس الشعب بوجوده إلا حيث تقام الحفلات الرسمية أو يكلف بإخماد انتفاضة وطنية .

التمهيد للاتصال :

ومهدت لتلك الخطوة وأسررت لبعض أخوانى المخلصين وأخص بالذكر منهم عبد المعطى عطيه ويوسف كمال ومحمد عبد الرحمن حسين ومحمد فتح الله درويش بأمنيتى فى التعرف أولا ببعض شباب الجيش ممن يكون فيهم الخير لبدء مرحلة انقلاب مسلح مدروسة لا مرتجلة تقضى على كل الأوضاع السقيمة فى البلاد .

أول الشوط رشاد مهنا ومحمد الخشاب :

وكانت بداية الخيط أن زكى لى زميلى محمد فتح الله درويش الموظف بوزارة المالية الضابطين الشابين رشاد مهنا ومحمد الخشاب وكانت تربطه بالأول صداقة متينة وبالتالى صلة قرابة .

وتوالت بيننا المقابلات لتوثيق الصلة وكانت أحاديثى كلها تدور حول ما يقاسيه الوطن وأبناؤه من مآسى التمزق والجهل والفقر على يد المحتل وحكام البلاد وما يجب علينا عمله من انقلاب لتحرير البلاد من الاحتلال وتصحيح ما نحن عليه من أوضاع . وما يجب نوفره فى العاملين من فهم صحيح لحقوقهم وللواجب عليهم والإيمان بالله وحب الوطن على أن يظهر أثر ذلك كله فى السلوك السوى والعمل الصالح .

وكانت تلك التوجيهات بمثابة شحنات لابد منها لمن يعد نفسه ثم يعد غيره من شباب الضباط للنهوض برسالة الانقلاب المرتقب ففاقد الشىء لا يعطيه .

اجتماع الصوالح :

وكان من أهم ما عقد من اجتماعات لتهيئة الجو للسير على الطريق وإخراج ما يدور بخلدنا إلى حيز العمل تلك التى هيأ لنا فرصتها الأخ عبد المعطى عطيه حيث استضافنا لمدة يومين فى بلدته الصوالح شرقية حيث استمتعنا بكرم الضيافة وجو الريف وهدوئه بعيداً عن ضوضاء المدينة وعيون الرقباء ، وكنا يوسف كمال ومحمد عبد الرحمن حسين والداعى عبد المعطى عطيه (حقوقيين) ووجيه أباظه (الطيار بالجيش) وأنا ، واتفقت كلمتنا بعد عدة جلسات على أن الجيش لابد أن يخرج عن عزلته وأن ينزل إلى الميدان وأن يتحمل القسط الأوفر لتحقيق الانقلاب على أن يبدأ الشوط بالدعوة لتكوين تنظيم سرى من ضباط الجيش للاغتيالات السياسية والتى أتت أكلها . وعدنا من تلك الرحلة المباركة وإذا بمحمد عبد الرحمن يزكى لنا وجيه أباظه الذى وضعناه – وفق نظامنا القديم – تحت الاختبار وكان ذلك فى شهر أكتوبر ١٩٣٥ وعن طريقه تم التعارف مع الطيارين عبد اللطيف بغدادى وحسن عزت وأحمد سعودى .

وكنا نجتمع بهم أنا وصديقاى عبد المعطى عطيه المحامى ومحمد عبد الرحمن حسين بإحدى فيلات شركة مصر الجديدة بناصية شارع دمنهور نتبادل الحديث والرأى حول أوضاع البلد وأوضاع الجيش وواجب شباب الجيش نحو خدمة الوطن .

نظام تكوين الجهاز السرى الخطوة الأولى :

ومع تكرار الاجتماعات توثقت الصلة واستقر الرأى على تكوين خلية سرية منهم تدعو – وفق نظام موضوع – فى سرية تامة وبحذر شديد لفكرة الانقلاب بين زملائهم من شباب الجيش . وعلى أن يسبق الدعوة اهتمام كل فرد من الخلية باستكمال أى نقص أو ضعف فيه ، عملا بمبدأ «ابدأ بنفسك» لكى تكون لبنة الأساس قوية ويصبح كل فرد فيها أهل للعمل الجليل الخطير الذى ينتظره .

الخطوة الثانية :

وبإتمام تلك الخطوة الأولى – وهى أشق الخطوات وأهمها – نعمل للخطوة التالية وهى توسيع الدائرة بأن تجمع حولها – وفق النظام المرسوم خلايا تتكون على غرار ما تكونت هى عليه باختيار الأفراد الصالحين واحداً فواحداً على أن لا تزيد كل خلية عن أربعة أشخاص مع مراعاة الكيف لا الكم فى التكوين كما كان الشأن فى شعبتنا الأولى المدنية .

وجيه خليل وهلال المنجورى ومحمد أحمد صادق :

وكنت من ناحيتى دائب السعى لتعزيز الخلية الأولى وتعرفت على الضابط الشاب وجيه خليل وكثرت لقاءاتنا حيث كان يتردد على منزلى ١٣ شارع صباغ بمصر الجديدة وتوثقت الصلة بيننا ثم فجعت باستشهاده فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ثم تعرفت على الضابط الشاب هلال المنجورى وكان مدرسا بالكلية الحربية وأجريت معه ما أجريته مع من سبقه وفجعت فيه أيضاً بوفاته متأثراً بجراحه فى حادث حريق سيارته بطريق حلوان وتعرفت بالضابط الشاب محمد أحمد صادق وكان من حرس السراى وتوثقت الصلة وكنت أرجو أن أسعد بتكوين الخلية الثانية منه ومن وجيه خليل وهلال المنجورى .

اجتماع بالضابطين الرحمانى وصادق :

وأبدى لى هلال فى إحدى زياراته لى بمنزلى فى أن يجمعنى بالضابطين الرحمانى وصادق لما يعهده فيهما من تلائم مع ما نسعى إليه ورحبت برغبته تمشياً مع أملى فى جمع أكبر عدد من الضباط الصالحين لمهمتنا . وتم اللقاء بينى وبينهما بحضور هلال فى صحراء مصر الجديدة ولم تسمح الظروف بعدئذ مع الأسف بتكرار اللقاء .

لقائى بأنور السادات :

هذا وكان تم بينى وبين الضابط الشاب محمد أنور السادات فى أواخر ١٩٤١ لقاء بمكتب صديق الطرفين الأستاذ إبراهيم رياض المحامى عضو اللجنة الإدارية للحزب الوطنى الذى رتب بناء على رغبة أنور ذاته الذى كاشفنى بما نما إلى علمه عن نشاطى الوطنى وعن الجهاز السرى الذى قام بالاغتيالات السياسية مما دفعه إلى السعى للقائى للإفادة من خبراتى السابقة .

حماسة أنور وعاطفته :

وكان أنور فى ذلك اللقاء كغيره ممن عرفته من الشبان العسكريين مملوءاً حماساً وعاطفة متبرماً بالأوضاع ويريد أن يتلمس – وقد فقد الثقة فى زعماء الأحزاب – طريق الخلاص فشكرت له حماسه وغيرته ونوهت له بأن ما أصاب وطننا من فوضى وتخلف واضطراب وأصاب أبناء وطننا من ضعف وانحلال يتطلب شيئاً آخر غير الحماسة ومجرد الغيرة وأن طريق الخلاص يتطلب منا العمل الجاد مبتدئين

بإصلاح نفوسنا «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» . وانتهى اللقاء بتجاوب أفكارنا وارتياحه لوجهة نظرى وبأمل تكراره كلما سنحت الفرصة .

فقد القيم الروحية أو ضعفها :

ولا أكون متجاوزا الحقيقة لو سجلت هنا أن القيم الروحية – وهى عماد الحياة – لم تكن وقتئذ – مع الأسف الشديد– ذات بال وأهمية عند معظم رجال الجيش بل وعند السواد الأعظم فى الأمة .

إشعار الرعيل الأول بوجوب اعتمادهم على أنفسهم فى مواصلة السير :

هذا ولكى أملأ قلوب أفراد الرعيل الأول من الضباط الشبان ممن سبق ذكرهم ثقة بأنفسهم واعتمادا عليها ، أشعرتهم وقد ثبتت أقدامهم على الطريق بأنى سأقف منهم موقف المتتبع لحركة الجهاز السرى من وقت لآخر للاطمئنان على أن القافلة تسير بالروح المؤمنة التى بعثتها فيهم وفى نطاق النظام المحكم الذى وضعته وبأنه لايعنينى البتة معرفة أسماء عدد أو رتب أو مراكز أعضاء الخلايا الأخرى التى قد يوفقون لتكوينها بقدر ما يعنينى رسوخ قدم الجهاز والمحافظة على السرية التامة لنجاح الخطة . وكان أكثرهم اتصالا بى فى تلك المرحلة عبد اللطيف البغدادى فكنا نلتقى بين الحين والحين ومنه أقف على مدى نشر فكرة التنظيم السرى بين الضباط .

أثر المنشورات الوطنية :

ومما لا شك فيه أن للمنشورات الوطنية التى كنت أصدرها بانتظام باسم الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل «مصر بين شقى الرحى» والتى صدر منها اثنان وعشرون منشورا . . . والمنشورات الأخرى التى كنت أوقعها باسم «العيون الساهرة» وحفنة الفداء . والتى غزت وحدات الجيش بفضل توزيعها بحكمة بمعرفة أعضاء الجهاز أثراً بالغاً فى سريان فكرة التنظيم السرى بين شباب الجيش والانضمام إليه إذ كانت تندد فى عنف بتطاحن الأحزاب وصراع الزعماء على الحكم وتدعو بحرارة إلى وجوب العمل الجاد المتواصل للخلاص .

وكبر التنظيم واشتد مع الزمان ساعده ووقف على أرض صلبة يترقب الفرصة للقيام بالثورة التى بقيت أملا فى الصدور وتحققت يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وفتحت الطريق للتحرر المأمول .

أفراد الرعيل الأول فى كلمات :

ومن الخير أن أشير بكلمة إلى الطابع المميز لبعض أفراد الرعيل الأول من التنظيم (الذين سموا أنفسهم الضباط الأحرار) وأن اتفقوا كلهم فى الإخلاص وحب العمل - فرشاد مهنا غيور متدين هادئ الطبع محب للاطلاع . والخشاب حذر هياب وحسن عزت جسور مندفع وسعودى مستهتر عصبى المزاج والبغدادى هادئ قليل الكلام ووجيه أباظه بسيط مسالم ووجيه خليل جرىء مقدام وهلال المنجورى وديع سليم الطوية ومحمد أحمد صادق ديبلوماسى وأنور متوثب متفتح .

اجتماعى بجمال :

وأما جمال عبد الناصر فلم يجمعنى به لقاء قبل الثورة إلا أنه زارنى بمنزلى بصحبة الخشاب بعد قيام الثورة ودار الحديث بيننا حول موضوع الساعة وكان ينصت إلى باهتمام وارتياح وقال إنه يود لو طال بنا الوقت ليستمتع بحديثى الهام لولا ارتباطه بميعاد مع زملائه الضباط بالقيادة .

وكان لقاء والحمد لله مثمراً - ثم تكررت بيننا اللقاءات بمبنى القيادة العامة للقوات المسلحة وكان وقع الاختيار على لأتولى وزارة الشئون البلدية والقروية فى أول وزارة للثورة .

حسن عزت وصنع قنابل مولوتوف :

حدث فى إحدى اللقاءات مع خلية الطيارين (البغدادى ووجيه أباظه وحسن عزت وسعودى) والحديث يدور حول أهمية السلاح ووجوب توفره لدى المنظمة للتدريب ولا دخاره لوقت الحاجة أن أبدى لى الطيار حسن عزت استعداده لصنع قنابل مولوتوف بنفسه إذا حصل على ما يلزم لصنعها من ملح بارود وكبريت عمود وعددا من العلب الصفيح الصغيرة الإسطوانية الشكل فأحضرت له كمية وفيرة من المواد وما لا يقل عن مائة علبة صفيح فارغة .

اندفاع سعودى وهوسه :

وكان حسن يسكن هو وزميله الطيار سعودى أبو على فى فيلا بحدائق القبة واتخذ من إحدى حجراتها معملا زوده ببعض العدد والآلات وبدأ فى صنع القنابل ووقع خطأ أثناء العمل أدى إلى تطاير شرر كاد يحدث حريقا ولكن الله سلم . وكان سعودى وقتئذ بالفيلا فطير الخبر لزملائه فى المطار - ولعله فعل ذلك تفاخرا - وهو على أى حال نقص يؤخذ عليه ونقض لعهد الجماعة بأن يلزم كل فرد الكتمان التام .

سرعة بديهة حسن عزت :

ومن حسن الحظ أن شعر حسن بما وقع فيه سعودى من خطأ وعدم تقدير للمسئولية وفكر فى نقل كل المواد والعلب ومعها شنطة أسلحة كانت مودعة عنده فى الفيلا إلى مكان آخر أمين فورا حيث خشى أن يكون من بين من سمعوا الخبر من يبلغ الجهات المسئولة فيفتضح الأمر وتتوقف العملية فضلا عما قد يصيبه هو وسعودى من أذى . وتلك فطنة من حسن عزت وسرعة بديهة يشكر عليها .

ساعة نقل المواد والسلاح إلى مكان أمين :

وهرع إلى حين بلغه الخبر يطلب منى العون السريع فأعددت فى الحال سيارة أحد إخوانى هو الأستاذ عبد المعطى عطية ونقلنا بها المواد والعلب وشنطة السلاح ليلا إلى منزل ابن خالى محمد محمود قطب بشارع الدويدار بمنشية الصدر .

تفتيش الفيلا وعدم العثور على شىء :

وأعقب ذلك التصرف السريع ما توقعه حسن إذ أن البوليس هاجم الفيلا فى اليوم التالى وفتشها ولم يعثر على شىء ومرت الواقعة بسلام إلا أنها بينت مدى تهور وقصر نظر وتهاون سعودى ، وفى نفس الوقت جرأة وبديهة ويقظة حسن .

عناد سعودى :

وإن كان الشىء بالشىء يذكر فإنى أسجل فى هذا المقام إصرار وعناد سعودى على أن يكون هو رسول مصر إلى روميل فى الصحراء الغربية للاتفاق مع الألمان على تنسيق الحرب والمقاومة ضد الإنجليز بمصر على أساس تزويد المقاومة المصرية بالأسلحة والعتاد واحترام الألمان لاستقلال مصر حتى لا تستبدل احتلالا باحتلال .

وطار سعودى إلى الصحراء الغربية :

واستقل سعودى فعلا قبيل فجر أحد الأيام طائرة الطيار حسن إبراهيم ذات المحرك الواحد وكان وقتئذ الطيار المسئول عن الحراسة الجوية للقاهرة واستعان سعودى بزميله الطيار حسن عزت الذى أدار محرك الطيارة بعد أن صعد سعودى إلى مقعد القيادة فأخذ طريقه فى الجو وتعرض لمطاردة طائرات

أمريكية تمكن من إصابة بعضها وإرغام البعض على الهبوط فى منخفض القطارة . وتخطى سعودى بشجاعة كل العقبات والمواقع المضادة للطائرات ووصل إلى مقر روميل فى الصحراء . ثم انقطعت أخباره إلى أن أعلنت وزارة الحربية المصرية فى يوليو ١٩٤٢ اعتباره مفقوداً .

القبض على حسن عزت ومحاكمة حسن إبراهيم :

وعند افتضاح أمر الطائرة حوكم حسن إبراهيم وصدر قرار بتأخير أقدميته ٣٣ ضابطاً وألقى القبض على حسن عزت صديق سعودى .

ومما عرفته عن سعودى أنه من مواليد إسكندرية ١٩١٩ وهو ابن المؤرخ المصرى الشيخ حسين أبو على وتخرج فى الكلية الحربية قسم الطيران ١٩٣٩ وكان الأول على دفعته رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

* * *

محاولة شراء سلاح من الإسماعيلية :

وبصدد تدبير السلاح عرض على محمد عبد الرحمن حسين نسيب الطيار وجيه أباظه أن فى إمكانه الحصول على مسدسات لو دبرت له مبدئياً مبلغ ثلاثين جنياً وأنه فى إمكانه تكرار العملية كلما سنحت له الفرصة .

ودبرت المبلغ من مالى الخاص وسافرت إلى محمد عبد الرحمن ببلدة الزقازيق ومن هناك استأجرنا سيارة تاكسى إلى الإسماعيلية ذهاباً وإياباً . وفى الطريق استأذن منى ليمر على أعرابى يثق به ليصحبنا كدليل . ووصلت بنا السيارة إلى الإسماعيلية قرب الغروب وأوقفها محمد فى شارع جانبى لا أذكر اسمه ونزل منها ومعه الأعرابى وتركانى فى السيارة انتظر عودتهما ومعهما السلاح وطال انتظارى ساعات وخيم الظلام وتحرج الموقف وساورنى القلق .

الفخ الذى نصب لمحمد عبد الرحمن :

وأخيراً عاد محمد وحده متجهماً يتميز غيظاً دون أن يحضر سلاحاً . وكان فى خجل شديد وشبه مذهول من شدة الصدمة فأيقنت — دون أن أسأله شيئاً — أن الإعرابى خدعه وأوقعه فى فخ نصبه له مع نفر من المحتالين للاستيلاء على المبلغ وهو وحده لم يقو على اتخاذ أى إجراء واستسلم للأمر الواقع وضاع علىَّ المبلغ ونحن أحوج ما نكون إلى المال .

اكتئاب محمد ونصحي إليه :

عادت بنا السيارة إلى الزقازيق تنهب الأرض نهباً لأدرك آخر قطار إلى القاهرة فأدركته بصعوبة وكان زميلي محمد صامتاً طول الوقت كثير التنهيد والتدخين ولم أشأ أن أزيده همًّا على هم إلا أني لم أطق أن يمر الحادث ببساطة ولم أتركه دون لومه فى رفق على سرعته وتعجله فى الحكم على الأشخاص ونصحته بأن لا يغلب عواطفه وأن لا يجرى وراء سراب كاذب حتى لا يقع فى مثل ما وقع فيه ويخدع بتلك السهولة وليأمن الزلل .

مخابئ السلاح :

وكما كنت دائب السعى فى الحصول على سلاح لتسليح أفراد الشعبة كنت دائماً كبير الحرص على المحافظة على ما نحصل عليه من سلاح بإخفائه فى أكثر من مكان لأتقى خطر فقده كله إذا ما كان فى مكان واحد ودهمه البوليس يوماً . وذلك سر أكشف عنه هنا لأول مرة لم يكن يعلم به أحد حتى أفراد الشعبة .

مخبأ بخزينة بنك مصر :

فكنت وأنا رئيس حفظ الأوراق المالية ببنك مصر وفى سنى حوادث الاغتيال السياسية ما بين ١٩٢١ و ١٩٢٤ أتخذ من خزائن حفظ الأوراق المالية وكلها تحت يدى ومفاتيحها معى بحكم وظيفتى مخبأ آمنا لحفظ المسدسات والقنابل اليدوية مطمئنًّا كل الاطمئنان أنه لا يخطر على بال أحد إطلاقا أن خزائن البنك تكون مخبأ سلاح ، وزيادة فى الحرص لم يكن يعلم بذلك المخبأ أحد من أفراد الشعبة . وهذا فضلاً عن المخبأة الأصلى الذى كان أعده محمود راشد بضلفة أحد أبواب مسكنه بطريقة لا يلحظها أحد ، وكان لا يعلم بأمر ذلك المخبأ إلا نحن الاثنان وكان السلاح المحفوظ به هو الذى كان يستخدم فى حوادث الاغتيال قبيل القيام بحادثة ، ويرد إلى مكانه بالتالى بعد التنفيذ ليقوم راشد بتنظيفه وترتيبه فى موضعه الذى بقى سرًّا إلى أن كشف عنه التحقيق فى حادث السردار ، وكان البوليس قد علم به من وقت أن اصطحب عبد الحميد عنايت الخائن نجيب الهلباوى إلى منزل راشد وتسلم منه السلاح للهرب وكان راشد مصرًّا على الإنكار وأنه لا يحفظ سلاحاً عنده إلى أن فاجأه المحقق بضلفة الباب التى أمر بخلعها من مكانها وواجهه بها فانهارت قوى راشد وفقد صوابه ولم يجد بُدًّا من الاعتراف مكرهاً .

مخبأ بمنزل ابن خالى عبد الخالق قطب :

ومخبأ آخر اتخذته بمنزل ابن خالى عبد الخالق قطب – وهو أبعد ما يكون عن الشبهات بشارع ماسبيرو بملك اللواء سوسو باشا بمصر الجديدة . أودعت فيه بندقية تومى كنت أشتريتها من مالى الخاص وصفيحتين مملؤتين برصاص البنادق كنت حصلت عليهما بلا ثمن من الضابط عبد الحميد المهدى نجل عثمان باشا المهدى حصل عليهما بالاتفاق معى من مخازن الجيش البريطانى بالقلعة بطريقة خاصة . وعبد الحميد ابن أخت صديقى محمد فتح الله درويش الموظف بالمالية والذى سبق أن أشرت إليه بأنه هو الذى زكى لى رشاد مهنا ومحمد الخشاب .

مخبأ بمنزل ابن خالى محمد محمود قطب :

ومخبأ رابع بمنزل ابن خالى محمد محمود قطب – وهو أيضاً بعيداً عن أى شبهه – ٢٢ شارع الدويدار بمنشية الصدر وكان به شنطة بداخلها ثلاثة مسدسات بجانب كمية من كبريت العمود وملح البارود وصفائح فارغة مما كنت أعددته لصنع قنابل مولوتوف بمعرفة حسن عزت (سبق الإشارة إلى ذلك) .

ومن فضل الله أن يد البوليس لم تصل إلى أى مخبأ منها لأنها أبعد ما تكون عن الشبهة .

ظروف تجميع السلاح ونقله إلى مخبأ واحد :

ثم اضطرتنى ظروف اقستقالتى من بنك مصر وعثور البوليس على السلاح الذى كان مخبأ بمنزل محمود راشد ورغبة كل من عبد الخالق قطب ومحمد محمود قطب فى ترك مسكنه إلى مسكن آخر . اضطرتنى إلى التفكير فى نقل السلاح إلى مكان آخر يكون آمناً وبعيداً عن الشبهة .

مخبأ بمنزل حسن يوسف :

ولم تكن عملية تجميع السلاح ونقله سهلة إذ يجب أن تتم بكل حرص وفى خفاء ، وعلمت من صديقى محمود أبو زيد أن حسن يوسف رئيس جمعية شباب محمد وهو عضو بها يقطن مع عائلته فى منزل تملكه بجهة السيدة زينب ولا يسكن فى المنزل سواها ولا يتردد فى قبول نقل السلاح إلى منزله .

رشاد مهنا ونقل السلاح :

نقلت ما كان مخبأ بالبنك إلى منزلى وطلبت من صديقى رشاد مهنا أن يساعدنى فى نقله ونقل ما كان لدى ابن خالى عبد الخالق وابن خالى محمد محمود قطب إلى منزل الأخ حسن يوسف بالسيدة ، فاستجاب فى شهامة وأحضر سيارة من سيارات الجيش وقادها بنفسه وجمعنا السلاح ونقلناه ليلاً بأمان إلى مخبئه الجديد .

إهداء السلاح إلى الفدائيين بالقنال :

ثم قضت ظروف بنقله إلى مخبأ سرى ببدروم جمعية شباب محمد بشارع البركة الناصرية بالسيدة زينب إلى أن سنحت فرصة مد الفدائيين به بمنطقة القنال .

* * *

العودة إلى العمل بالحكومة ١٩٣٥ :

لما استقلت من عملى بشركة المقاولات « نصير » ١٩٣٤ عدت إلى خدمة الحكومة فى أواخر سنة ١٩٣٥ برغبة أيضاً من أستاذى أحمد عبد الوهاب . وكانت اللوائح المالية تقضى بأن أبدأ السلم من أوله من جديد ، فوعدنى بتسوية حالتى عند أول فرصة وشغلت وظيفة وكيل حسابات محافظة مصر من الدرجة السادسة براتب حوالى تسعة عشر جنيهاً . ولولا ما كنت أدخره من مال لوقت الشدة لضاقت بى الحال وأنا والد لسبعة أبناء وكلهم بالمدارس .

مواصلة نشاطى بنادى الحزب :

وعاد نشاطى السياسى سيرته الأولى وكان واضحاً فيما جرى بنادى الحزب بشارع دار النيابة (قصر متحف الشمع) فضاق بى ذرعاً وزير المالية مكرم عبيد باشا وكان يتصورنى ثوريًّا خطيراً ومتعصباً دينيًّا كما صرح بذلك لأخصائه فى أكثر من مناسبة . وأصدر أمراً بنقلى إلى الزقازيق بوظيفة وكيل حسابات مبانى الشرق ليبعدنى عن مركز نشاطى .

لم يفت ذلك فى عضدى بل واصلت نشاطى بالقاهرة التى كنت أعود إليها كل مساء من الزقازيق التى لم أبت بها ليله واحدة طول مدة خدمتى بها التى امتدت حوالى السنة . فكنت برغم أنف مكرم عبيد محور الحركة الدائبة بنادى الحزب الوطنى .

المكتب الثقافى لبيت المغرب ١٩٣٧ :

وفى غضون ١٩٣٧ أنشأت حكومة المغرب مكتباً ثقافيًّا بعمارة زغيب بميدان الأوبرا سمته المكتب الثقافى لبيت المغرب ليتولى شئون الطلبة المغاربة الموزعين على المدارس والمعاهد والكليات بمصر ويرعاهم ويصرف عليهم وكانوا وقتئذ حوالى الأربعين طالباً . وليعمل فى نفس الوقت على توثيق الصلة بين مصر والمغرب .

وأسندت الإشراف على المكتب إلى الأستاذ المكى الناصرى وهو مغربى تلقى دراسته بالجامعة المصرية . ووقع اختيار المكى الناصرى على الدكتور أحمد أمين الأستاذ بالجامعة ليدير وينظم بالمكتب موسماً ثقافيًّا للطلبة المغاربة أصلاً ولمن يؤم المكتب من رواد الثقافة .

إلقاء المحاضرات :

وكان يلقى المحاضرات فى الصالة الكبرى بالمكتب أساتذة من الجامعة اختارهم الدكتور أحمد أمين أذكر منهم الأساتذة أمين الخولى وعبد الحميد العبادى ومصطفى الزيادى ومصطفى السقا وعبد المنعم الشرقاوى كما شارك هو نفسه فى إلقاء بعض المحاضرات .

طبع الكتب وتوزيعها بالمجان :

ولم تقف رسالة المكتب عند ذلك بل تعدته إلى طبع كتب الدين والاجتماع على ورق مصقول فاخر وكانت توزع بالمجان على الطلبة المغاربة وأئمة القوم والمترددين على سماع المحاضرات من المصريين .

قيامى بأعمال الحسابات والسكرتارية :

وعرض على أحمد أمين العمل معه مساء للقيام بأعمال الحسابات والسكرتارية وقبلت بارتياح ذلك العمل الإضافى لقلة مرتبى بالحكومة وأصبحت أحد أسرة المكتب المنحصرة فى الأستاذ المكى الناصرى وشقيقه الحاج اليمنى الناصرى والدكتور أحمد أمين وفىّ .

حفلة الافتتاح بحضور ولى العهد :

وبعد بضعة شهور اطمأن فيها المشرف « المكى الناصرى » على سير العمل والأمور بالمكتب ، وعلى استقرار وضع طلبة البعثة سافر إلى المغرب تاركاً الإشراف من بعده لشقيقه الحاج اليمنى الناصرى وذلك

بعد أن أقام حفلة الافتتاح ودعا إليها السيد/ولى عهد المملكة المغربية وكان وقتئذ طالباً بمدرسة مصر الجديدة وكبار الشخصيات من الأساتذة والعلماء وجميع طلبة البعثة وبعض الأخصاء.

أثر الجهود المبذولة وأسماء بعض المترددين على المكتب من زملائى المدنيين والعسكريين :

وكان للمحاضرات القيمة التى تلقى بانتظام وأقبل عليها شباب مصر مع شباب المغرب وللكتب النافعة التى تطبع على نفقة المكتب وتوزع بالمجان خير أثر فى خدمة الثقافة وتوثيق الصلات بين مصر والمغرب. وأصبح المكتب نادياً يؤمه كثير من صفوة الشباب المصريين فضلاً عن الطلبة المغاربة، أذكر منهم مع حفظ الألقاب زملائى. محمد حمدان عبده المدرس ومحمود أبو زيد المحامى وحسين عوض بريقى المحامى وعبد المعطى عطية المحامى ومحمد عبد الرحمن شاهين المدرس ومحمود العيسوى المحامى وخير الدين عنايت المدرس ويوسف كمال المستشار ومحمد إبراهيم جمعة المدرس وحسن السيد المحامى ومحمد فتح الله درويش بالمالية ومحمد عبد الرحمن حسين المحامى ومحمد فؤاد فريد ببنك مصر وإبراهيم على خليفة بالضرائب وكلهم من شباب الحزب الوطنى. والشيخ حسن الباقورى من الإخوان المسلمين ورشاد مهنا ومحمد الخشاب وحسن عزت وعبد اللطيف البغدادى وأحمد سعودى ووجيه خليل وهلال المنجورى ووجيه أباظه من ضباط الجيش ممن كانت تسمح لهم ظروفهم بالحضور لسماع المحاضرات أو للزيارة الخاصة.

اتخاذ المكتب مركزاً أميناً لنشاطى :

وكنت بفضل الله حائزاً لثقة الحاج اليمنى الناصرى كما كنت موضع ثقة أخيه من قبل مما سهل علىّ اتخاذ المكتب مركزاً لنشاطى السياسى، فكنت أجتمع بإخوانى هؤلاء بعد كل محاضرة للحفاظ على الرابطة القائمة بيننا ولتبادل الرأى فيما يجرى فى البلد من حولنا وفيما يجب أن نؤديه لخدمة وطننا. هذا عدا الاجتماعات الأخرى التى كنت أعقدها مع الخاصة منهم فى مواعيد نتفق عليها دون أن يكون فى ذلك أى حرج أو ما يلفت النظر بعد أن أصبح المكتب مفتوحاً للجميع مرحباً بكل زائر.

وكنت لم أتوقف عن كتابة المنشورات الثورية واتخذت المكتب مركزاً أميناً لتوزيعها بواسطة هؤلاء الإخوان كما لم أتوقف عن تنظيم الرحلات الخلوية التى كانوا يشتركون فيها وكنا والحمد لله حلقة لا تنفصم.

توقف وصول الإعانة الشهرية بسبب الحرب :

وبقيت أتخذ من المكتب مركزاً لنشاطى فيه أجتمع بإخوانى بكامل حريتى ومنه أوزع منشوراتى وأضع نظام رحلاتى . إلى ما بعد قيام الحرب الكبرى الثانية بعامين تقريباً بعد أن انقطعت عن المكتب الإعانة المالية التى كانت ترسلها حكومة المغرب شهريًّا وبانتظام للصرف منها على طلبة البعثة ولم يقو المكتب على الاستمرار فى تقديم خدماته .

تدخل القنصل الإسبانى لانتزاع السلطة من الحاج اليمنى الناصرى :

واستغل القنصل الأسبانى بمصر ذلك الظرف وكان قد عز عليه استقلال بيت المغرب عنه فى إدارة شئون البعثة ورعاية طلبتها فانتهز فرصة الضيق المالى الذى وقع فيه المكتب بانقطاع وصول الإعانة بسبب الحرب وسعى بالوقيعة بين الحاج اليمنى الناصرى وبين طلبة البعثة وحرضهم على الخروج عن طاعته ولوح لهم وأغراهم بمدهم بالمال ليعوض عليهم جزءاً من الإعانة الحكومية التى كانت تمدهم بها حكومتهم وانقطعت عنهم .

الاضطرار إلى ضغط المصروفات وتأجير بعض الحجرات :

واضطر الحاج اليمنى الناصرى إلى ضغط المصروفات والتفكير فى تأجير بعض حجرات المكتب للاستعانة بالإيجار على الصرف منه فى أضيق الحدود . ووفقت فى تأجير حجرة لـلأستاذ حسين عوض بريقى المحامى وأخرى لـلأستاذ حسن السيد المحامى مع شريكه الأستاذ نظير السيد . وثالثة للأستاذ محمد قراعه المحامى وكلهم من أصدقائى .

توقف نشاط المكتب :

إلا أن القنصل الإسبانى بادر – وقد ضم الطلبة إلى جانبه – وسحب السلطة من الحاج اليمنى وأصبح هو المتحكم فى شون البعثة . وتوقفت تماماً رسالة المكتب وأسدل بذلك الوضع المؤلم الستار على نشاط محمود كان يأمل الكثيرون من ورائه – لو طال به المدى – الخير للمغرب ولمصر معاً .

وفى أواخر أغسطس **١٩٣٩** تدهور الموقف العالمى وقدم محمد محمود باشا رئيس وزرائنا استقالته لأسباب صحية وعين فاروق مكانه على ماهر باشا .

الحرب العالمية الثانية فى ١٩٣٩ – ١٩٤٥ :

وفى أول سبتمبر ١٩٣٩ انطلقت الشرارة الأولى التى أشعلت الحرب العالمية الثانية فأعلنت ألمانيا الحرب على (بولاندا) ودخلتها قواتها الجرارة فى نفس اليوم واحتلتها بلداً بلداً .

وفى ٣ سبتمبر ١٩٣٩ أعلنت إنجلترا الحرب على ألمانيا وتبعتها دول الإمبراطورية البريطانية ثم أعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا وتبعتها مستعمراتها فى آسيا وأفريقيا ولم يمض العام حتى امتدت الحرب إلى الشرق الأقصى وجزر المحيط .

تفوق ألمانيا الساحق :

وفى الأيام الأولى من تلك الحرب الضروس اجتاحت الجيوش الألمانية بولاندا وبلجيكا وهولاندا وفرنسا واحتلت باريس وألقت بجيوش بريطانيا فى البحر فى موقعة دانكرك الشهيرة واحتلت دول وسط أوربا ثم زحفت على روسيا وتقدمت جيوشها حتى دقت أبواب موسكو العاصمة وحاصرت ليننجراد .

التاريخ يعيد نفسه واستغلال إنجلترا لمعاهدة ١٩٣٦ :

وتعرضت مصر لمزيد من طغيان وجبروت إنجلترا التى استندت إلى ما جاء بمعاهدة ١٩٣٦ المشئومة ودفعت الوزارة المصرية إلى إعلان الأحكام العرفية ووضع الرقابة على المطبوعات وقطع علاقاتها مع ألمانيا وحلفائها ومصادرة ممتلكاتها واعتقال رعاياها واحتلت الجيوش البريطانية معظم المدن والموانى المصرية واستولت السلطة العسكرية على المحصولات الزراعية كما فعلت تماماً فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ وهكذا يعيد التاريخ نفسه .

دخول إيطاليا الحرب ١٩٤٠ :

وفى ١٩٤٠ دخلت إيطاليا الحرب بجانب ألمانيا وزحفت جيوش الدولتين من ليبيا واحتلت السلوم ووصلت إلى سيدى برانى داخل الحدود المصرية من الغرب واشترك الجيش المصرى مع الجيش البريطانى فى الدفاع عن مصر وخصصت له القيادة البريطانية الجزء الداخلى من الساحل جهة مرسى مطروح واحتل الجنود البريطانيون منطقة الساحل وطلبت إنجلترا عزل عزيز المصرى رئيس أركان حرب الجيش المصرى لاتهامه بميوله الألمانية وأمرت بتسريح القوة المصرية وتسليم أسلحتها للقوة البريطانية بحجة تخوفها من أن تضربها القوة المصرية من الخلف .

تصريح روزفلت رئيس أمريكا ١٩٤٠ :

وفى يوليه ١٩٤٠ أعلن روزفلت الرئيس الأمريكى تصريحه بحق الأمم فى الحريات الأربع وهى :

١ – حرية العقيدة .

٢ – حرية الرأى .

٣ – حرية التحرر من الخوف .

٤ – حرية التحرر من البؤس .

حرج موقف بريطانيا فى الشرق ١٩٤١ :

وفى ١٩٤١ واجهت بريطانيا فى الشرق موقفاً حرجاً إذ قام رشيد عالى الكيلانى بثورة مسلحة ضدها فى العراق وهددت جيوش رومل الإيطالية جيوشها فى مصر واشتدت وطأة الهجوم الألمانى على جزيرة مالطة بالبحر الأبيض المتوسط وقطعت الإمدادات للحربية القادمة إلى الإسكندرية حتى أن الإمبراطورية البريطانية فكرت فى الانسحاب وقصر دفاعها على جبل طارق بإسبانيا .

ميثاق الأطلنطى ١٩٤١ حبر على ورق أيضاً :

وفى أغسطس ١٩٤١ صدر ميثاق الأطلنطى بين روزفلت الرئيس الأمريكى وتشرشل رئيس الوزراء الإنجليزى بإعلانهما احترامهما حق جميع الشعوب فى اختيار شكل حكوماتها وأن تسترد الأمم المغلوبة على أمرها حقها المسلوب وأن لا يقع أى تبدل إقليمى يتعارض مع رغبة الشعوب صاحبة الحق فى ذلك ولم يكن هذا إلا تخديراً وخداعاً للأمم .

اجتماع القاهرة ومذكرة زعماء المعارضة :

وأعقب صدور ذلك الميثاق الخداع اجتماع ثلاثى بالقاهرة بين الزعماء روزفلت (أمريكا) وتشرشل (إنجلترا) وكاى شيك (الصين) وانتهز زعماء المعارضة فى مصر فرصة اجتماع الرؤساء الثلاثة وتقدموا بمذكرة يطالبون فيها برفع القيود التى فرضتها على مصر معاهدة ١٩٣٦ وبانسحاب القوات الأجنبية عن مصر فور انتهاء الحرب العالمية القائمة . وبالاعتراف باستقلال مصر التام . وكانت وزارة الوفد هى المتربعة وقتئذ فى كرسى الحكم . ومما يؤسف له أشد الأسف ويضم إلى مساوئ وزارة الوفد إصرارها على رفض نشر تلك المذكرة الهامة فى الصحف أو حتى مجرد الإشارة إليها .

مظاهرات فبراير ١٩٤٢ :

وفى أول فبراير ١٩٤٢ قامت مظاهرات تطالب بإسقاط الحكومة لولائها السافر للإنجليز وكانت وقتئذ برئاسة حسين سرى باشا . وصادفت تلك الحركة هوى فى نفس الملك فاروق لغرض شخصى ، فأقال حسين سرى بدعوى أنه قطع العلاقات الدبلوماسية مع حكومة فيشى الفرنسية دون الرجوع إليه وتحقيقاً لتعليمات السفير البريطانى . وعين مكانه على ماهر باشا رئيساً للوزارة واستمرت المظاهرات العدائية لإنجلترا وأخذ المتظاهرون يرددون هتاف « إلى الأمام يا روميل » وكان الألمان قد استعادوا مدينة بنى غازى وتملك الإنجليز الفزع والذعر والخوف وفكروا فى الهروب إلى الجنوب وبدأت القطارات والطائرات والسفن تحمل الجنود والضباط ومؤنهم وعتادهم وعائلاتهم وأمتعتهم خارج البلاد واكفهر الجو وعلت الفرحة وجوه المصريين أملاً فى اقتراب يوم الخلاص من كابوس الاحتلال .

أزمة الحكم ١٩٤٢ :

وفى ٣ من فبراير اتصل سير مايلز لامبسون السفير البريطانى بالملك فاروق وأخبره أن حكومته تصر على تغيير الوزارة القائمة وتشكيل حكومة وفدية لحماً ودماً برئاسة مصطفى النحاس .

تشاور الملك والزعماء والاتجاه إلى تشكيل وزارة قومية برئاسة النحاس :

وفى نفس اليوم رد فاروق على السفير بانه سيتصل بالشخصيات السياسية ومن بينها النحاس وعلى ماهر للتشاور فى الأمر قبل أن يقطع برأى . واجتمع الملك فعلاً بالزعماء فى نفس اليوم أيضاً وتشاوروا فى إصرار إنجلترا على تنحية على ماهر وتعيين النحاس واشهوا لمواجهة الموقف الشائك إلى التفكير فى تكوين وزارة قومية يرأسها النحاس .

الإنذار البريطانى ١٩٤٢/٢/٤ :

وفى صبيحة ٤ من فبراير ١٩٤٢ سلم السفير البريطانى لمكتب أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى إنذاراً بريطانيًّا خطيراً ونصه « إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساء اليوم أن النحاس دعى لتأليف الوزارة فإن جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » .

تحكم إنجلترا :

وقام صراع رهيب بين الملك الشاب وإنجلترا . وهو يريد أن يثبت وجوده كملك غير عابئ بإنجلترا وجبروتها ، وهي تريد أن تذله وتذل الأمة معه وأن تثبت له أنه أضعف من أن يقف هو والأمة في وجهها . وأن الأمر بيدها وحدها . تأمر بما تشاء وعلى الجميع الطاعة والإذعان . وتلك صورة من الصلف والكبرياء . وهل من مدكر ؟

اجتماع الملك ثانية بالزعماء :

وفي نفس اليوم اجتمع الملك ثانية بالزعماء وتلا عليهم رئيس الديوان الإنذار البريطاني فقرر الجميع إرسال احتجاج للسفير وقعوه بما فيهم النحاس .

احتجاج الزعماء على الإنذار البريطاني :

وأجمعوا على تأليف وزارة قومية ورضوا للخروج من المأزق أن يكون النحاس رئيساً لها إلا أن النحاس أصر في عناد على أن تكون الوزارة وفدية لحماً ودماً ، وهنا فاحت رائحة الخلاف وظهرت بوادر النية المبيتة والتواطؤ مع السفير .

رفض لامبسون الاحتجاج :

ورفض لامبسون احتجاج الزعماء وقال لأحمد حسنين باشا إنه سيقابل الملك بنفسه في الساعة التاسعة من مساء اليوم ذاته ليوضح له الأمر ، وازداد الموقف خطورة وبلغ التوتر ذروته .

التمهيد بالتهديد :

وفي حوالي الساعة الثامنة والنصف من مساء ٤ من فبراير ١٩٤٢ سبقت الدبابات البريطانية السفير إلى قصر عابدين وحاصرته ومنع الجنود الإنجليز دخول أي شخص إلى القصر أو الخروج منه . وجردوا حرس السراي من أسلحتهم (وأعجب كيف رضخوا لذلك) وكان الملك مازال مجتمعاً بالزعماء .

تهديد الملك بأن يختار بين أمرين :

التنازل عن العرش أو تكليف النحاس بتشكيل الوزارة :

وفى تمام الساعة التاسعة انتقل السفير بموكبه إلى السراى ومعه القائد العام للقوات المسلحة وبعض الضباط واتجه فوراً فى صلف وكبرياء إلى حيث كان اجتماع الملك بالزعماء (حتى ليقال إنه نهر كبير الياوران عندما تقدم للقائه ودخل غاضباً على الملك) وخير الملك بين أمرين لا ثالث لهما وكلاهما مر . إما التوقيع على وثيقة تنازله عن العرش وإما التوقيع على أمر تكليف النحاس بتشكيل الوزارة فوراً . وعقب على ذلك بأن الموقف لا يقبل الإبطاء ، والجيوش الألمانية على مشارف العلمين على حدود مصر الغربية ولابد من أن تبادر بريطانيا وتؤمن مركزها .

القدر القاسى :

وأذعن الملك واختار أن يكلف النحاس تشكيل الوزارة فألفها وفدية لحماً ودماً كما اشتهى وعلى أسنة الرماح البريطانية على حد قول أحمد ماهر رئيس السعديين ، وانكشفت المؤامرة المدبرة بين السفير والوفد . وبذلك أضاف النحاس إلى صحيفته نقطة سوداء بجانب تلك التى اكتسبها بتوقيعه معاهدة ١٩٣٦ المشئومة والتى جانبه التوفيق يوم أن نعتها بمعاهدة الشرف والاستقلال . وجدير بالذكر هنا وغنى عن التفصيل الخطابان المتبادلان بين النحاس باشا والسفير البريطانى بالاتفاق .

نص خطاب النحاس فى ٥ / ٢ / ١٩٤٢ للسفير :

يا صاحب السعادة

لقد كلفت بمهمة تأليف الوزارة وقبلت هذا التكليف الذى صدر من جلالة الملك بما له من الحقوق الدستورية . وليكن مفهوما أن الأساس الذى قبلت عليه هذه المهمة هو أن لا المعاهدة البريطانية المصرية ولا مركز مصر كدولة مستقلة ذات سيادة يسمحان للحليفة بالتدخل فى شئون مصر الداخلية وبخاصة فى تأليف الوزارة أو تغييرها .

وإنى امل يا صاحب السعادة أن تتفضلوا بتأييد ما فى خطابى هذا من المعانى وبذلك تتوطد صلات المودة والاحترام المتبادلين وفقا لنصوص المعاهدة .

وتفضلو يا صاحب السعادة بقبول فائق الاحترام ، ، ،

نص خطاب السفير فى نفس اليوم للنحاس :

يا صاحب المقام الرفيع .

لى الشرف أن أؤيد وجهة النظر التى عبر عنها خطاب رفعتكم المرسل منكم بتاريخ اليوم وإنى أؤكد لرفعتكم أن سياسة الحكومة البريطانية قائمة على تحقيق التعاون بإخلاص مع حكومة مصر كدولة مستقلة وحليفة فى تنفيذ المعاهدة البريطانية المصرية من غير أى تدخل منها فى شئون مصر الداخلية ولا فى تأليف الحكومات أو تغييرها .

وإنى لأنتهز هذه الفرصة لأذكر لرفعتكم فائق احترامى .

هذا وفى نفس اليوم وبعد تأليف الوزارة ذهب السفير إلى النحاس وهنأه بين هتاف الوفديين بحياته وحياة بريطانيا وهم يحملونه على الأعناق وكانت نقطة محزنة مخزية من سقطات الوفد .

الدرس القاسى :

ولو لم يجد السفير البريطانى من بيننا المطية الذلول بخروج النحاس على الإجماع طمعا فى الحكم الزائل . ولو لم يضيع الزعماء والساسة على مدى السنين أوقاتهم وأوقات أحزابهم فى التطاحن والجرى وراء المتاع الزائل وأعدوا أنفسهم والأمة التى يتزعمونها ويزعمون خدمتها إعداداً كاملا لمواجهة مواقف الشدة هذه ولو لم يكن جيشنا أضعف من أن يحمى الديار أو يثور للإهانة ويثأر للشرف والكرامة لما وقعت تلك المأساة القاتلة ، ولما تمكن السفير ولا إنجلترا من توجيه تلك اللطمة المخزية القاسية .

حقا إنه درس بالغ القسوة . أفهل يكتب لنا أن نفيق من غفلتنا ؟

استمرار انتصارات دول المحور :

وفى صيف ١٩٤٢ سقطت طبرق فى أيدى المحور واندفع روميل القائد الألمانى الماكر نحو الحدود المصرية حتى بلغ العلمين وأسر أربعين ألفاً من الجنود البريطانيين وخسرت إنجلترا أفضل قطع أسطولها فى البحر الأبيض المتوسط . واحتل الألمان أوكرانيا واندفعت جيوشهم نحو منابع النفط فى القوقاز كما وقع القسم الأكبر من الشرق الأقصى فى أيدى اليابان .

تجدد المظاهرات فى مصر واستعداد القيادة البريطانية للرحيل منها :

وفى مصر اندلعت المظاهرات من جديد تنادى إلى الأمام يا روميل تنفيسا عما فى الصدور من قد دفين وكراهية للإنجليز . وبدأت القيادة البريطانية تستعد للرحيل من مصر وأخذت تحرق المستندات التى تحت أيديها وتخلى مقرها العام ودور سفراء حلفائها وكانت كل الظواهر تبعث على الظن برجحان كفة المحور وقرب يوم النصر .

وبقى النحاس فى الحكم حائزاً الرضاء الإنجليزى التام إلى أن أذن الله وتغيرت الظروف وأقيل فى

أكتوبر ١٩٤٤ وعين الملك أحمد ماهر باشا (رئيس الهيئة السعدية) رئيسا لوزارة ائتلافية شكلها من حزبه وحزب الأحرار الدستوريين وحزب الكتلة الوفدية والحزب الوطني لأول مرة ممثلا فى رئيسه حافظ رمضان باشا .

رجحان كفة الحلفاء :

وكان ميزان القتال بدأ يميل إلى صالح الحلفاء وترجيح كفتهم بعد انتصارهم على روميل فى العلمين وتصدع الهجوم الألمانى فى روسيا ونشاط الأسطول الفرنسى فى البحر الأبيض المتوسط .

زيارة إيدن وزير خارجية بريطانيا لمصر :

وفى يناير ١٩٤٥ مع بداية انقشاع غيوم الحرب زار إيدن وزير خارجية إنجلترا مصر وقابل أحمد ماهر باشا رئيس الوزراء وأطلعه على جلية الموقف الحربى ورجحان كفة الحلفاء وانهيار جبهة المحور .

ورأى أحمد ماهر أن يعجل بإعلان الحرب على ألمانيا ودول المحور على زعم أنه قد يصيب مصر خير من انتصار الحلفاء الذى كاد يجزم به بعد لقائه إيدن وعلى زعم أن تقبل مصر عضوا فى جماعة الأمم المتحدة ، وكان إعلان مصر الحرب ومؤازرتها الحلفاء شرطاً أساسياً لانضمامها لتلك الجماعة .

بيان أحمد ماهر رئيس الوزراء فى مجلس النواب :

وفى ٢٤ من فبراير ١٩٤٥ ألقى أحمد ماهر بيانا فى جلسة سرية لمجلس النواب دعا فيه بحرارة لفكرة إعلان الحرب على دول المحور لما يراه فى ذلك من مزايا محققة لمصر وأمكنه أن يحصل على موافقة شبه إجماعية على إعلان الحرب .

الاعتداء على أحمد ماهر وإلقاء القبض على القاتل :

وما يكاد يخرج من مجلس النواب مغتبطاً بتلك النتيجة متجها إلى مجلس الشيوخ ليلقى فيه البيان حتى باغته الفدائى الوطنى محمود العيسوى المحامى وأطلق عليه من مسدسه أربع طلقات اخترقت صدره وأردته قتيلا ، وساد المكان هرج ومرج وثبت العيسوى فى مكانه ولم يحاول الهرب ، وقبض عليه وسيق إلى السجن رهن التحقيق . ومحمود العيسوى من شباب الحزب الوطنى المتطرف دمث الخلق ذكيًّا جريئاً فى الحق حصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩٣٩ ودبلوم – القانون الخاص سنة ١٩٤٠ ودبلوم القانون العام ١٩٤١ وبعد إبرام معاهدة ١٩٣٦ أعد رسالة الدكتوراه فى الحقوق عن مركز مصر الدولى وكان يعمل بمكتب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى المحامى الوطنى .

إلقاء القبض عليّ وعلى آخرين :

وألقى القبض عليّ وعلى عبد السلام مصطفى المحامي زوج كريمتي ضمن من قبض عليهم وأودعنا سجن قسم مصر الجديدة على ذمة التحقيق بتهمة اشتراكنا فى الحادث لمجرد أننا من الحزب الوطنى وأننا من أصدقاء القاتل .

التحقيق مع محمود العيسوى المحامى واعترافه بالقتل :

جرى التحقيق مع العيسوى وأوذى كثيراً وهدد أثناء التحقيق لينتزعوا منه اعترافاً على شركاء له ، وفاتهم أن التهديد لا ينال البتة من أصحاب الوطنية الصادقة والإيمان الراسخ كالعيسوى ، وأغرى بالمال وهو الرقيق الحال وتلك هى بعض وسائل البوليس لاستخلاص الاعترافات فكان العيسوى أمام التهديد والإغراء ثابتا رابط الجأش فردهم بإباء وعزة نفس خائبين مصمما على قول واحد وهو أنه الفاعل وحده وأنه أقدم على قتل رئيس الوزراء لإنقاذ البلاد من نكبة محققة لو هى دخلت حرباً لا ناقة لها فيها ولا جمل . فأدين وقدم للمحاكمة . وقال أحد الثقات يومئذ أن جسم الجريمة وهو المسدس لم يعثر عليه ولو شاء العيسوى وأنكر لما أدين ولما حوكم .

الحكم بالإعدام شنقاً :

وفى ٢٨ / ٧ / ١٩٤٥ صدر حكم الإعدام شنقاً ولما جئ به إلى المشنقة توضأ وصلى ركعتين قبل أن يعدم ، رحمه الله رحمة واسعة مع الأبرار والشهداء والصالحين . وكان قد أخلى سبيل كل المقبوض عليهم .

محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء ومذكرته للسفير (لامبسون) :

وخلف محمود فهمى النقراشى المرحوم أحمد ماهر فى رئاسة الوزارة وأراد أن يلطف من حدة التوتر السائد وقتئذ وأن يكسب رضا الشعب ، فألغى الأحكام العرفية فى أكتوبر ١٩٤٥ ورفع للسفير البريطانى لورد كيلرن (لامبسون) مذكرة فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٥ جدد فيها المطالب والأهداف الوطنية بالجلاء الناجز ووحدة وادى النيل لرفعها إلى حكومته فأصر السفير على رفضها بحجة أن قضية الجلاء عن مصر والسودان لم يحن الوقت بعد لبحثها .

معارضة الوفد للمذكرة :

ووقف الوفد من تلك الخطوة موقف المناوئ المعارض لكل ما يجرى على يد غيره ولو كان فيه ولو بعض الخير لمجرد الإحراج ولإسقاط الحكومة القائمة ولينفرد هو بالحكم فى أنانية واستكبار .

محاولة اغتيال النحاس :

وفى ٦ / ١٢ / ١٩٤٥ حاول أحد الشبان اغتيال مصطفى النحاس وألقى قنبلة على سيارته أثناء انتقاله من منزله إلى النادى السعدى لحضور الاحتفال بذكرى عيد الهجرة النبوية ولم تصبه القنبلة ونجا بأعجوبه إذ سقطت القنبلة خلف السيارة وفر الفاعل ولم يقبض على أحد وقيد الحادث ضد مجهول .

أدائى فريضة الحج وما كنت أشغله من وظائف :

وفى ١٩٤٥ أديت فريضة الحج لأول مرة ومعى زوجتى وكنت أشغل يومئذ وظيفة مفتش مالية مديرية الغربية بالانتداب وكنت تدرجت فى وظائف رئيس حسابات مصلحة الأموال المقررة بالقاهرة بعد نقلى إليها من وكيل حسابات مبانى الشرق بالزقازيق فمدير للقسم المالى بمديرية القليوبية .

تسوية مدة خدمتى وحصولى على الدرجة الرابعة :

وسعيت لتسوية حالتى بضم مدة خدمتى السابقة فى الحكومة ومدة خدمتى ببنك مصر وشركة المقاولات « نصير » على أنها مؤسسة شبه حكومية ، وطبقاً للوائح حصلت على الدرجة الرابعة وشغلت وظيفة مدير إدارة ضريبة الملاهى بالقاهرة . وفى تلك الوظيفة شعرت بكثير من الاستقلال الذاتى فكنت أول من سن سنة استفتاح الرسائل الرسمية بالبسملة وبدئها وانهائها بعبارة « السلام عليكم ورحمة الله » وكان ذلك غريبا فى نظر المسئولين وجرأة منى على الخروج على التقاليد .

سنتى فى كتابة الرسائل الرسمية :

وما لبث أن ألف الجميع ما سننته عن إيمان واتبعوه حتى أصبحت كل المكاتبات مع الزمن تحمل البسملة وتبدأ وتنتهى بتحية الإسلام وكم كنت سعيداً بذلك . ونقلت من ضريبة الملاهى إلى وظيفة وكيل القسم المالى بمحافظة القاهرة ثم انتدبت مفتشاً مالياً لمديرية الغربية وأديت فريضة الحج وعدت وعينت مديراً للقسم المالى بمحافظة القاهرة ومنحت الدرجة الثالثة وانتدبت لفترة مديراً للإدارة المالية بوزارة الوقاية .

أمين عثمان على المسرح ١٩٤٥ :

ظهر أمين عثمان على المسرح السياسى . وكان من مواليد الأسكندرية ودرس فى كلية فيكتوريا بها ونال شهادة البكالوريا ١٩١٨ ثم سافر إلى إنجلترا ودرس القانون بجامعة أكسفورد وحصل على درجة الأستاذية فى ١٩٢٣ وتزوج من الليدى كاتلين جريجورى الإنجليزية وعاد إلى مصر ١٩٢٤ وتبنته إنجلترا فتدرج بسرعة فى الوظائف الحكومية الرئيسية حتى عين وزيرًا للمالية ١٩٤٢ .

وكانت لأمين عثمان بوصفه سكرتير عام هيئة المفاوضات اليد الطولى فى إنجاح مفاوضات الوفد على يد مصطفى النحاس والتى انتهت بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ المشئومة مما رشحه ليكون همزة الوصل بين الإنجليز والوفد .

تكوين رابطة النهضة وتصريحات أمين عثمان :

وفى ١٩٤٤ أسس جماعة لتوثيق الروابط بين إنجلترا ومصر سماها « رابطة النهضة » واتخذ لها مقرا ٢٤ شارع عدلى بالقاهرة ، وأبدى نشاطاً ملحوظاً لدعم جماعته الجديدة ، وأخذ يلقى بوصفه رئيس الجماعة تصريحات كشفت عن سوء نيته توَجّها بتصريحه المشهور « إن إنجلترا ومصر متزوجتان زواجا كثوليكياً لا انفصام بينهما » .

وفى أواخر ١٩٤٥ سافر إلى لندن ليقدم للحكومة البريطانية مبلغ مائة ألف جنيه على أنه تبرع جمعه من الشعب المصرى للمساهمة فى إعادة بناء إحدى القرى البريطانية التى دمرتها الغارات الألمانية فى الحرب الكبرى .

ولما عاد أمين عثمان من إنجلترا ترددت أنباء عن اتجاه الحكومة البريطانية إلى ترشيحه لتشكيل وزارة مصرية برئاسته ويكون من أعضائها ملك القطن فرغلى باشا والمليونير عبود باشا وصيدناوى باشا وأمثالهم ممن ترضى عنهم إنجلترا .

قتل أمين عثمان :

وفى مساء ٥ من يناير ١٩٤٦ تربص لأمين عثمان ثلاثة شبان أطلقوا عليه الرصاص وهو يهم بدخول مقر الرابطة وأصابوه ونقل فى الحال إلى مستشفى مورو بالجيزة وحالته خطرة للغاية وتولى الدكتور مورو إجراء عملية جراحية له لإنقاذ حياته ولكن دون جدوى وتوفى على الأثر ووقى الله البلاد من شره وذهب غير مأسوف عليه .

وبعد الحادث بقليل تلقى قسم عابدين بلاغا بتوقيع عبد العزيز الشافعى المهندس سابقاً بوزارة المواصلات يقول فيه إنه عضو فى رابطة النهضة وأنه شهد قبل الحادث شخصاً يختفى وراء شجرة قريبة من الدار ، وكان قد لاحظ وجوده على تلك الحال قبل ذلك عدة مرات وأنه يعرفه وأنه حسين توفيق أحمد نجل وكيل وزارة المواصلات .

من حامت حولهم الشبهات :

فاتجهت شبهات البوليس السياسى نحو حسين توفيق وفتش منزله وقبض عليه وعلى أخيه وأودعا السجن للتحقيق : ولم يطق حسين صبرا على حياة الزنزانة التى لم يتعودها فانهارت قواه واعترف ، وألقى

البوليس بناء على اعترافه القبض على الكثيرين ومنهم عزيز المصرى باشا وأنور السادات ، وأدين حسين وحوكم وحكم عليه بالسجن . ودبر خطة الهرب وهرب قبل أن يقضى المدة كلها فى السجن .

جيل جديد من شباب الحزب الوطنى :

وكما يحدث عادة أقحم فى الاتهام كثيرون لم تكن لهم صلة بالحادث وقد حكمت المحكمة فعلا ببراءتهم ، أما الذين دبروا وخططوا ونفذوا فنهم من لم يتهم أصلا ومنهم من اتهم وحكم عليه وكانوا كلهم والحق يقال مجموعة من شباب الحزب الوطنى شكلها وتولى قيادتها الأستاذ سعد كامل ابن أخت الأستاذ فتحى رضوان ، وكانوا ممن اعتنقوا مبدأ الحزب الوطنى مع المجموعة التى انشقت من حزب مصر الفتاة بقيادة الأستاذ فتحى رضوان . وكونوا من بينهم اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى واتخذوا مقراً لهم فى شارع شريف بينما كان المقر الرئيسى للحزب فى شارع قصر النيل ، وبدأوا نشاطهم بمواصلة الاجتماع بمقرهم يديرون ويرسمون الخطط للعمل الفدائى السرى بعيداً عن المقر العام للحزب . وقاموا فعلا بمحاولات اغتيال بعض الضباط الإنجليز بضاحية المعادى قبل قيامهم باغتيال أمين باشا عثمان .

المدبر والمخطط :

ومع أن الأستاذ سعد كامل كان المدبر والمخطط للمجموعة فإنه لم يتهم فى مقتل أمين عثمان ، فأخذ يحاول إنقاذ زملائه الذين اتهموا فيه وخطط لاختطاف المتهم حسين توفيق وهو فى طريقه إلى عيادة طبيب الأسنان التى كان مسموحا له أن يتردد عليها ولكن الخطة لم تنجح .

هرب حسين توفيق :

وحدث أن طلب حسين توفيق فى إحدى المرات من الضابط المرافق له أن يسمح له أن يزور والدته فى مصر الجديدة فأذن له وذهبا معاً . وفى أثناء الزيارة دخل حسين دورة مياه الفيلا فوجد نفسه أمام الباب الخلفى للفيلا فخرج إلى الحديقة ومنها إلى الشارع وفكر فى الهرب ، ولم يكن أصلا يدبر له واستأجر سيارة واتجه بها إلى منزل الأستاذ سعد كامل بالدقى وفاجأ الأسرة بدخوله ، ثم أخذه الأستاذ سعد وتوجه به إلى مكتب الأستاذ عصمت سيف الدولة بشارع خيرت بالسيدة زينب . وهناك استدعوا الأستاذ محمد إبراهيم كامل الذى كان متهما مع حسين توفيق وقضى مدة عقوبته — ومن هناك انتقلوا إلى منزل الأستاذ إحسان عبد القدوس وكان يعتبر نفسه من شباب الحزب الوطنى . وبعدها نقل حسين مرة أخرى إلى مصر الجديدة بمساعدة الضابط حسن عزب .

وهكذا جمعت هذه الحادثة بين أفراد أعمار مختلفة من أبناء الحزب الوطنى واستطاعوا أن يهربوا حسين توفيق عن طريق قنا والقصير إلى السعودية بالاتفاق مع الأمير فيصل الذى تولى الملك بعد ذلك .

ما أشيع حول الهرب وحقيقة الأمر :

ولقد قيل يومئذ إن للملك فاروق يداً فى تهريب حسين توفيق أو علمًا بطريقة هربه وإن أبا حسين قد ساعد فى ذلك . والحقيقة أن شباب المجموعة الفدائية لجأوا إلى والد حسين يطلبون منه مبلغ ٥٠٠ جنيه يدفعونها أجرا لصاحب القارب الذى سيبحر به من القصير إلى السعودية فرفض ، وطلب إليهم أن يقنعوا حسين بتسليم نفسه . فاحتالوا للحصول على المبلغ بطريقة أخرى واستكتبوا حسين مقالا بتفصيلات غير دقيقة لاختفائه وهربه وباعوها إلى جريدة أخبار اليوم التى نشرتها بالزنكغراف وفازت بصفقة صحفية ناجحة وفازوا هم بالمبلغ الذى مكن لزميلهم الهرب إلى الخارج .

مشروع معاهدة صدقى بيفن ١٩٤٦ :

وفى أبريل ١٩٤٦ تولى إسماعيل صدقى رئاسة الوزارة ووجه اهتماماً كبيراً إلى الناحية الاقتصادية والتطوير الصناعى بالبلد وقام بمفاوضة مستر بيفن وتوصل معه إلى مشروع معاهدة نص على :

أولاً – إنهاء العمل بمعاهدة ١٩٣٦ .

ثانياً – جلاء القوات البريطانية التام عن الأراضى المصرية فى ميعاد أقصاه سبتمبر ١٩٤٩ .

ثالثاً – فى حالة الاعتداء المسلح على مصر يتخذ الطرفان بالاتفاق أى إجراء تتبين ضرورته .

رابعاً – تكوين لجنة دفاع مشترك من السلطات الحربية لدى الحكومتين لدرس وسائل الدفاع عنهما فى البحر والبر والجو.

خامساً – الاحتفاظ بمعاهدة ١٨٩٩ المتعلقة بالسودان .

رفض الأمة للمشروع وسقوط وزارة صدقى وتأليف وزارة النقراشى ومطالبه من إنجلترا :

ورأت الأمة أن المشروع لا يحقق مطالبها فرفضته وسقطت وزارة صدقى وخلفه النقراشى وحاول من جديد إقناع إنجلترا بإعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٦ وبأنها مناقضة للاتفاقيات الدولية ، وطالب بجلاء القوات البريطانية ملوحًا بأن الاحتلال لو بقى قائماً فلن يكون فى وسع أحد أياًّ كان إخماد سخط الشعب المتزايد وثورته الهادرة متى اشتعلت يوماً ما . كما طالب بإنهاء النظام الإدارى القائم بالسودان .

إصرار إنجلترا على رفض المطالب والتجاء النقراشى لمجلس الأمن :

وأصرت إنجلترا على موقفها من الرفض وتمسكت بتنفيذ شروط معاهدة ١٩٣٦ المشئومة ، وفشلت محاولة النقراشى مع إنجلترا فلجأ إلى مجلس الأمن فى أغسطس ١٩٤٧ وعرض عليه القضية المصرية

مطالباً بصدور قرار فيها ، إلا أن المجلس – مع الأسف – مجاملة لبريطانيا لم يصدر أى قرار غير عابئ بالبيان الهام ذى المغزى الخطير الذى ألقاه أمام المجلس وجاء فيه . . . . . وهذا السخط المتملك لنفوس الجماهير لا يمكن تداركه فحسب ، بل هو شيء لا محيص عنه ولا سبيل إلى إخماده حتى لقد أوشك أن ينفجر . وطالما أدى إلى أعمال العنف بل أفضى فى الشهور الأخيرة إلى إراقة الدماء وإزهاق أرواح كثيرة . وأود يا سيدى الرئيس أن أكرر . ما دام الاحتلال باقياً فلن يكون فى الطوق تهدئة سخط الشعب ولا هناك سبيل إلى إخماده إذا اشتعل وأن زمام الأمر ليفلت بسهولة فى مثل هذه الأحوال .

مظاهرات الأمة من جديد :

وفعلاً قامت الأمة بمظاهرات تطالب بالجلاء الناجز وبالاستقلال واستمرت المظاهرات صاخبة فأقضت مضاجع الإنجليز وأقلقت بالهم وأصبحت حياتهم فى خطر .

رحيل القوات البريطانية إلى منطقة القنال :

فاضطرت القوات البريطانية إلى الانسحاب من داخل البلاد إلى منطقة القنال وتحصنوا فيها فأقاموا قاعدة عسكرية ومطارات واسعة ومستودعات هائلة تحت الأرض للذخيرة وزادوا قواتهم إلى ثمانين ألفاً . ولم يرو رحيل الجنود البريطانيين عن داخل البلاد غليل الأمة الثائرة فبقى المرجل يغلى .

قرار تقسيم فلسطين ١٩٤٧ :

وفى ١٩٤٧/١١/١٩ طرحت قضية فلسطين على الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة فأصدرت قرارها المشئوم بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية على أرض فلسطين العربية مؤيدة بذلك وعد بلفور الصادر من إنجلترا فى ١٩١٧/١١/٢ بإعطاء اليهود وطناً قومياً فى فلسطين فأصاب القرار الوطن العربى فى الصميم – وكان المفروض أن يكون ذلك القرار الخطير إنذاراً كافياً لإيقاظ النائمين وتنبيه الغافلين فى الأمة العربية والإسلامية حكاماً ومحكومين ليأخذوا الأمر بالجد ويتركوا الارتجال والإهمال والتمزق التى غرقوا فيها لذقونهم ويعملوا عمل الدارسين المخططين لإحباط كل ما يراد بالوطن العربى والإسلامى ودرء الخطر قبل وقوعه ولكن ذلك – والحسرة تملأ الفؤاد – لم يكن .

تجدد المظاهرات وإصابة سليم زكى بقنبلة إصابة قاتلة :

وتجددت مظاهرات الطلبة الصاخبة – والطلبة دائماً وقود الثورات – واشتد الهياج وقام البوليس المصرى يحاول تشتيتها وقمعها بالقوة وسنحت الفرصة لأحد طلبة الطب فألقى قنبلة من فوق سطح الكلية على رئيس القسم السياسى سليم بك زكى الذى كان يشرف بنفسه على حركة القمع فأرداه قتيلاً .

وما تشاءون إلا أن يشاء الله :

وإن كان الشىء بالشىء يذكر فسليم هذا كنت راقبته من قبل أنا ومعى عبد الحميد عنايت ليلتين متتاليتين وكانت الشعبة قررت قتله وهو عائد من عمله بالمحافظة بباب الخلق إلى منزله بروض الفرج ، وكنا نتربص له لساعة متأخرة من الليل ولا يحضر فننصرف دون أن نظفر به وبقى حياً يرزق حتى أتاه اليقين وصدق الله العظيم إذ يقول «وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير» «وإذا جاء أجلهم فلا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون» .

المحاولة الثالثة لقتل النحاس :

ثم جرت محاولة للتخلص من النحاس باشا فألقى أحد الشبان قنبلة على حجرة نومه يريد قتله فأصابت مخدعه ولم يصب النحاس بسوء .

قرار حل الإخوان فى ٤٨/١٢/٢٥ وحادث قتل النقراشى فى ١٩٤٨/١٢/٢٨ :

وأصدر النقراشى رئيس الوزراء قراراً بحل الاخوان المسلمين ولم يمض على صدور القرار ثلاثة أيام حتى تصدى له الشاب عبد المجيد حسن الطالب بالطب البيطرى وهو من جماعة الإخوان وأطلق عليه رصاص مسدسه وهو يهم بركوب المصعد صباحاً بوزارة الداخلية يوم ٤٨/١٢/٢٨ فسقط قتيلاً فى الحال . وكان عبد المجيد يرتدى – للتعمية – زياً عسكرياً وثبت فى مكانه ولم يحاول الهرب وقبض عليه وحقق معه . والحق يقال ، كان عبد المجيد فى تنفيذ القتل وفى التحقيق فى الحادث وفى المحاكمة على السواء رابط الجأش ثابت الجنان وأدين وحكم عليه بالإعدام شنقاً . وتقبل الحكم – ككل فدائى – بالرضا والاطمئنان ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته :

إبراهيم عبد الهادى وإعلان الأحكام العرفية وسجن وتعذيب الإخوان :

وتولى الوزارة من بعد النقراشي إبراهيم باشا عبد الهادى رئيس الديوان الملكى وقتئذ وأحد أقطاب السعديين فأعلن الأحكام العرفية وزج فى السجون مئات الشباب من الاخوان . . وأوعز بتعذيبهم بأشد أنواع العذاب قسوة ، وزعم أنه بذلك يمكنه أن يحملهم على الإدلاء بمعلومات عن التنظيم السرى للإخوان ولكنه كان أمام كتلة صلبة وخاب ظنه ولم يفز بطائل .

عودة إلى فلسطين :

رفض الفلسطينيون قرار التقسيم وعقدوا العزم على العمل لإلغائه بقوة سواعدهم وتكونت كتائب من الفدائيين بدأت بجبل الخليل وأطلق عليها قوات الجهاد المقدس بقيادة البطل المجاهد عبد القادر الحسينى وامتدت إلى القدس وحيفا والناصرية وحنين وغيرها من البلاد ودخلت مع اليهود فى معارك ضارية فى بيت لحم ورام الله وراس جالاً والطنطور والصليب والقسطل وكانت أشدها ضراوة فى طريق القدس وكان اليهود قد تمكنوا من احتلالها بمساعدة الإنجليز فداهمهم فيها برجاله البطل عبد القادر الحسينى واستردها بعد جهاد مرير أبلى فيه هو ورجاله بلاء حسناً إلى أن لقى ربه راضياً مرضياً .

دور الشعوب العربية :

وهبت الشعوب العربية لنجدة إخوانهم الفلسطينيين فتطوع كثير من الفدائيين المصريين ومنهم بعض العسكريين وسافروا إلى فلسطين بقيادة البطل أحمد عبد العزيز والتحموا مع اليهود فى معركة قربة صورياهر جنوب القدس عندما هاجم اليهود ساحة الحرم وأطلقوا الرصاص على المصلين .

وفى معركة تيه اليمن التى طردوا منها اليهود بعد أن هزموهم شر هزيمة ومعركة عراق المنشية التى استشهد فيها يوم ٢٢/٨/٤٨ القائد البطل أحمد عبد العزيز بعد أن كبد العدو خسائر فادحة ثم تولى القيادة من بعده محمد على فكرى وعبد الجواد طبالة وسيف اليزل وكان الجميع والحمد لله مثال التضحية والصمود .

وسافر أيضاً إلى فلسطين فريق من الفدائيين العراقيين بقيادة فوزى القاوقجى وساهموا بنصيب مشكور فى معركة كفار عصيون التى غنم فيها العرب كثيراً من المؤن والأسلحة ومعركة بيت شوريك التى قتل فيها من اليهود ما يربو على الأربعين . كما أسهم فى مساعدة الفلسطينيين ومقاومة العصابات الصهيونية كثير من فدائيي سوريا ولبنان والأردن والسعودية . وكم كنت أتمنى للمناضلين أن يستمروا فى

نضالهم إلى آخر الشوط لا يلوون على شيء للسيطرة على الموقف ولاسترداد الحق المغتصب وأن يجنبهم الله خدع السياسة وأباطيلها ومتاهاتها وخداع السياسيين وذوى المنافع الذاتية . والوقوع فى فخ المفاوضات والمبادرات السلمية واللقاءات الدبلوماسية بزعم الوصول إلى سلم دائم عادل . فمن يجرى وراءها ويظن الخير فيها لا يجنى إلا كل شر وخسارة من تضييع الوقت والجهد وتفريق الكلمة وتمزيق الشمل والتحول من الجهاد الجاد إلى الهزل والعبث . فما اغتصب بالقوة لا يسترد إلا بالقوة ، قال تعالى : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» سورة الأنفال .

حملة الإرهاب اليهودية :

وأما اليهود فما إن فازوا بقرار التقسيم فى ٢٨/١١/٤٧ حتى شنوا حملات الإرهاب على العرب الآمنين العزل من السلاح وشردوا منهم ما يزيد على ثلثمائة ألف نفس .

مذبحة دير ياسين :

ودبروا مذبحة دير ياسين الوحشية فى ٩/٤/٤٨ ولم يرحموا طفلاً رضيعاً ولا امرأة حاملاً ولا شيخاً كبيراً . بل ذبحوهم ذبح النعاج فرداً فرداً . ذبحوا حوالى ٢٥٠ شخصاً منهم ٢٥ امرأة حبلى و٥٢ طفلاً قطعت أيديهم وأرجلهم أمام ذويهم الذين اجتزت رؤوسهم ومثل بهم .

احتلال المدن الهامة :

وفى ٢١/٤/١٩٤٨ احتلوا حيفا وبعد ثلاثة أيام (٢٤/٤/٤٨) احتلوا يافا وفى ٩/٥/٤٨ احتلوا صفد وخلا لهم الجو واحتلوا عكا وبيار عدس وطبريا وبيسان والقطاع العربى من القدس والقطمون وكفار عصبون وغيرها .

وتم فى ١٤/٥/٤٨ انتهاء الانتداب البريطانى على فلسطين وإعلان الدولة اليهودية وتولى بن جوريون رئاسة الحكومة وتولى ويزمان رئاسة الدولة .

انتقام مصر :

وقام الشباب بمصر يستنكر اعتداءات اليهود وينتقم لإخوانهم الفلسطينيين من وحشية اليهود

وبربريتهم فألقى القنابل بحارة اليهود بالموسكى وعلى محلات شيكوريل وأوركو وأضرموا فيها النيران وعلى مبنى شركة الإعلانات الشرقية .

دور الحكومات العربية : قرار دخول الجيوش العربية فلسطين فى ٤٨/٥/١٥ .

وقررت الدول العربية فى ٤٨/٥/١٥ دخول جيوشها فلسطين لإنقاذها مما حل بها ، إلا أنها مع الأسف – دخلتها بسلاح مغلول فاسد ، فدخلتها مسوقة بالعاطفة والارتجال دون تخطيط أو تنسيق أو تدبير غافلة تقدير الموقف وحسن الإعداد له فما كانت العاطفة أو الارتجال أو الغفلة أبداً سلاحاً فعالاً فى ميادين القتال ولم يضيع الشرق كله إلا ما ران على قلوب أهله وحكامه من غفلة وما ساد تصرفاتهم من ارتجال . فكانت النتيجة الحتمية لتلك الحملة المسلحة خسارة الجولة فى النهاية .

الجيش المصرى :

فى ١٥ مايو ٤٨ دخل الجيش المصرى فلسطين بذخيرة تبين أنها فاسدة وبدون وضع خطة موحدة مع باقى الجيوش العربية التى دخلتها . واحتل غزة والمجدل واسدود وتوغل حتى وصل إلى القدس .

الجيش الأردنى :

واستولى الجيش الأردنى على رام الله واللد ووصل أيضاً إلى القدس والتقى بالجيش المصرى على بعد حوالى ثمانية كيلومترات من تل أبيب :

جيوش سوريا والعراق ولبنان :

ودخل الجيش السورى سمح وصفد كما استولى الجيش العراقى على حنين وطولكرم وقليقلة . واستولى الجيش اللبنانى على الفانورة والزيت ونهاريا :

المراقبون العسكريون :

ورجح المراقبون أمام ظاهرة التقدم هذه قرب تحكم العرب فى الموقف نهائياً برغم وقوف الدول الاستعمارية إلى جانب إسرائيل .

تدخل الإنجليز لإنقاذ اليهود .

وفى ٤٨/٦/١١ سارع الإنجليز وتدخلوا لإنقاذ مائة ألف يهودى مهددين بالقدس بالفناء أو بالاستسلام .

خيانة ملك الأردن :

وأطلت الخيانة برأسها ولعب الملك عبد الله ملك الأردن والقائد الأعلى للجيش دوره الخطير الإجرامى فأمر جلوب باشا الإنجليزى قائد جيوشه بالتلكؤ فى احتلال القدس وبالانسحاب من مثلث رام الله . اللد . الرملة كى يهيئ لليهود احتلالها لقمة سائغة والخروج بذلك من المأزق الذى وقعوا فيه .

تدخل مجلس الأمن وقرار وقف القتال وقتل برنادوت :

وفى نفس اليوم تدخل مجلس الأمن وأصدر قراره بوقف القتال واعلان الهدنة الأولى بين العرب واليهود ثم أوفدت هيئة الأمم المتحدة كونت برنادوت السويدى مندوباً عنها ليقضى فى النزاع القائم بين اليهود والعرب . ولم يعجب اليهود ما لمسوه فيه من حزم وعدل ورفضوا مشروعه الذى اقترحه لفض النزاع فدبروا لقتله وقتلوه فى القدس غدراً فى ١٨ / ٩ / ٤٨ ومن قبل قتل اليهود فى عام ١٩٤٤ اللورد موين وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الأوسط لمجرد أنه نصح تشرشل بعدم الموافقة على هجرة مليون يهودى من المجر إلى فلسطين وأخذ تشرشل بنصيحته .

انسحاب الجيش العراقى :

وتتوالى بعد ذلك الأحداث . ففى ١٠ / ٤٨/١١ استولى اليهود على الجليل وانضم القسم الباقى من فلسطين إلى الأردن وفى ٢ / ٢ / ٤٩ انسحب الجيش العراقى .

توقيع الهدنة الدائمة بين مصر وإسرائيل وعودة الجيش المصرى :

وفى ٢٤ / ٢ / ٤٩ تم توقيع الهدنة الدائمة بين مصر وإسرائيل وعاد الجيش المصرى دون أن يحقق الغاية من التدخل وبذلك الوضع المخزى ينتهى أحد فصول المأساة الأليمة .

رد الفعل فى إسرائيل : إسرائيل تواصل تنفيذ مخططها :

وتجد إسرائيل فى غفلة وتمزق العرب ومساندة الاستعمار لها السند القوى لتواصل تنفيذ مخططها. فتقوم فى ١٠ / ٢ / ٤٩ باحتلال ميناء ايلات الاستراتيجى وتدبر فى ٢١ / ٥ / ٤٩ مذبحة وادى عربه وتدبر فى ٦ / ١ / ٥١ مذبحة بيت لحم وفى ٢٨ / ٣ / ٥٤ تحاول تدمير نحالين وفى ٢٨ / ٢ / ٥٥ تهاجم غزة وتعود فى ٢١ / ٥ / ٥٥ وتهاجم خان يونس وفى ٢٩ / ٥ / ٥٦ تدبر العدوان الثلاثى على مصر بالاتفاق مع فرنسا وإنجلترا وفى ١ / ١١ / ٥٦ تعود وتهاجم غزة مرة أخرى .

عود على بدء

وعد بلفور وتقسيم فلسطين :

سبق أن أشرت إلى نكبة فلسطين العزيزة بقرار الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة الصادر فى ٢٩ / ١١ / ٤٧ بتقسيمها بين اليهود والفلسطينيين ذلك بعد نكبتها بوعد بلفور المشئوم الصادر فى ٢ / ١١ / ١٩١٧ بحق اليهود فى اتخاذ فلسطين وطناً لهم وما تلا ذلك من قيام اليهود بحملات إرهابية ضد العرب وتقتيلهم وإخراجهم من ديارهم . بل والعمل على إبادتهم بطرق وحشية بربرية بزت ما ارتكبه النازيون ضدهم من جرائم فظيعة فى الحرب العالمية الثانية .

اليهود وقول الله فيهم :

ومن الخير أن أشير هنا إلى جوانب تلك القضية الهامة وأهم أطرافها . وأبدأ بالكتابة عن اليهود أصل البلاء وهم أهل غدر وخيانة وخبث ونفاق وفساد فى الأرض . قال الله تعالى فى كتابه الكريم «ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءو بغضب من الله . وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق»

قال جل من قائل : «لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» . وقال تعالى «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا» .

وايزمان واقامته دولة تجمع شتات اليهود :

ولم يكن لليهود وطن يجمعهم بل كانوا مشردين منبوذين فى أقطار العالم إلى أن فكر كبيرهم رأس

الصهيونيين وايزمان فى أواخر القرن التاسع عشر فى إقامة دولة لهم تجمع شتاتهم ثم أتبع التفكير بالتخطيط والتدبير – وهو ما يجب اتباعه فى أى مشروع اتقاء الزلل أو الفشل ، وجمع حوله شياطين الصهاينة ورأوا جميعهم أن لابد لنجاح فكرتهم من الاستعانة بحليف شيطان مثلهم فوجوده بلا عناء فى الاستعمار وتحالفوا معه . وتضافر الكل وعقدوا النية على تحقيق أمنيتهم الغالية مهما كلفهم ذلك من عناء ومهما صادفهم من عقبات وسخروا كل أجهزة الإعلام والدعاية لتهيئة الأذهان وكسب العالم للعطف على قضيتهم .

وقضى الصهيونيون السنين فى عمل دائب فى السر والعلن لا يملون ولا يفترون . وطرقوا كل الأبواب فى محاولات للحصول على أرض الميعاد ورفضوا كل عرض عليهم بالاستيطان فى المكسيك أو جنوب أمريكا أو الأناضول أو تركيا أو جنوب أفريقيا وغيرها . فخابوا ولم يفوزوا بطائل ولفظهم كل قطر كانوا يمنون أنفسهم بالاستيطان فيه . ومن الحق أن يقال إنهم لم ييأسوا ولم يثنهم الفشل عن تكرار المحاولة فى خبث ودهاء ، وكانت خاتمة المطاف أن شاء حظ فلسطين أن يقع اختيارهم عليها وكان يعيش فيها من اليهود بضعة آلاف عيشة رغدة فى أمان واطمئنان بين ظهران العرب . عيشة لم يعيشوها فى أى بلد آخر .

وصدر وعد بلفور الظالم فى ٢ / ١١ / ١٩١٧ بحق اليهود فى اتخاذ فلسطين وطناً لهم مما شجعهم على المضى فى مخططهم الإجرامى ، ومن سوء الحظ أن كان العرب وقتئذ ممزقى الشمل متفرقى الكلمة ضعفاء لا يقدرون على رد البلاء والتحكم فى الموقف .

الدعاية الخبيثة للهجرة لفلسطين وإقامة المستعمرات فى الأراضى المغتصبة :

وقام الصهيونيون بدعاية مكثفة فى العالم لترغيب اليهود فى الهجرة إلى فلسطين فأخذوا يهاجرون إليها من أقطار العالم زرافات حتى زادت نسبة عددهم فيها . ثم أخذوا فى التوسع فى رقعة الأرض التى اغتصبوها من العرب وأقاموا عليها المستعمرات ، ومما زاد الطين بلة وكان ضغثاً على ابالة ذلك الجرم الجسيم الذى لا يغتفر وبقى وصمة فى جبين العرب ، إذ وسوس الشيطان لضعاف النفوس من ملاك الأرض غير الفلسطينيين ففرطوا فى أراضيهم وأخذوا يبيعونها لليهود بيع السلع مقابل ما أغروهم به من مال زائل . فأثروا بارتكابهم تلك الجريمة الشنعاء وإيثارهم العرض الفانى على الوطن الباقى .

احتلال القدس ورفع شعار من النيل إلى الفرات :

واحتل اليهود فيما احتلوا من البلاد القدس وأحرقوا فيها المسجد الأقصى أولى القبلتين وثانى الحرمين .

وملأهم الغرور إزاء تخاذل العرب وقتئذ فنادوا بأنهم لا يرضون عن الاستيلاء عما بين النيل والفرات بديلاً وبنوا سياستهم على ذلك بكل فجر وغطرسة وتبجح وقالوا فى صلف وكبرياء إنهم شعب الله المختار ولم يكن ذلك بمستغرب ، فهم الذين تطاولوا على رب العزة وقالوا قطعت ألسنتهم «يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا» . وادعوا على الله الفقر خسئت نفوسهم وقالوا «إن الله فقير ونحن أغنياء ألا ساء ما يأفكون .

أسطورة الجيش اليهودى لا يقهر وخط بارليف لا يخترق :

ثم زاد اليهود من صلفهم بعد نكسة ١٩٦٧ القاتلة التى ذاق فيها العرب ومصر على الأخص الأمرين وتمادوا فى غرورهم وأعلنوا على العالم أن الجيش اليهودى لا يقهر وبأنهم يملكون أقوى قوة ضاربة للطيران فى الشرق وبأن خط بارليف الذى أقاموه فى الضفة الشرقية للقنال أقوى من أن يخترق وسيكون مقبرة لكل من تسول له نفسه اختراقه أو الاستيلاء عليه .

حرب رمضان والقضاء على الأسطورة :

إلى أن أفاقوا على الحقيقة الباهرة التى لم يتوقعوها وهى انتصار الجيوش العربية الساحق عليهم فجأة فى حرب ١٠ رمضان ٩٣ و٦ أكتوبر ١٩٧٣ والذى قضى دون رجعة على نظرية الأمن الإسرائيلى وأسطورة أن الجيش الإسرائيلى لا يقهر وأنه يملك أقوى قوة ضاربة للطيران فى الشرق وعلى خرافة أن اختراق خط بارليف الحصين والذى صرفوا فى إنشائه الملايين يستعصى على كل مهاجم .

مؤازرة الاستعمار وهيئة الأمم المتحدة للصهيونية :

هذا ، وهناك عنصر الاستعمار ودوره فى القضية وهو لا يحتاج من الباحث المنصف أى جهد ليلمس تآمره السافر مع اليهود ومؤازرته لهم فى السر والعلن وبكل الوسائل ليمكن لهم فى أرض العرب ورقابهم حتى تتم حلقات المؤامرة التى دبروها لطرد العرب من ديارهم وتشريدهم وجعل فلسطين وطناً قومياً خالصاً لهم .

ولا يقل عنصر هيئة الأمم المتحدة أو مجلس الأمن خطورة عن دور الاستعمار فهو يمثل أيضاً التحيز الكامل لليهود وهم على باطل والظلم الصارخ للعرب المعتدى عليهم وعلى ديارهم وهم على حق . وآية ذلك القرارات الظالمة التى صدرت من الهيئتين مجحفة بحق العرب عند نظر قضيتهم ولا غرابة فى ذلك فكلتا الهيئتان عصابة لا ترعى للحق ذمة إذ ليس للحق وحده فى نظرها أى وزن أو اعتبار وهى الغارقة

فى المادة إلى أذنيها فلا تذعن للحق ما لم تسنده قوة مادية وهذا ما لم يكن متوفراً للعرب بعد ، وكان نصيب قضيتهم الفشل . ومن الإنصاف فى هذا المقام أن نقول إن اللوم كل اللوم يقع على عاتق العرب أنفسهم أصحاب القضية الذين مع الأسف الشديد غفلوا عن درس القضية درساً وافياً ولم يخططوا للدفاع عنها ولم يحاولوا تبصير العالم بحقيقتها فكانوا فريسة للطامعين (اليهود) والظالمين المتآمرين (الاستعمار) وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن .

الفلسطينيون خصوصاً والعرب عموماً :

أما الطرف الأهم فهو على الخصوص الفلسطينيون أصحاب القضية ومحورها وعلى العموم العرب بحكم الاخوة والتضامن ووحدة الهدف والمصير .

ومما يحز فى النفوس ويملؤها حسرة وأسى تلك الحقيقة المرة المؤلمة المتمثلة فى عدم تقدير هؤلاء للموقف الحرج حق قدره وإعدادهم العدة له . فلا تضافر قوى ولا توحيد كلمة ولا جمع شمل ولا إعداد روح ومادة لملاقاة العدو . بل قابلوا أسلحة العدو الفتاكة المتعددة بالتلويح ببطولات الأجداد وتصييع الوقت فى التغنى بمفاخرهم وترديد العبارات الحماسية التى لا تسمن ولا تغنى من جوع . قوم بضاعتهم الكلام وقابلوا خطط العدو المدروسة المحكمة بالارتجال سلاح الضعفاء الغافلين فأفقدى كل مقومات الحياة . فكانت المعركة بهذا الوضع غير متكافئة ، ولا عجب أن تتوالى هزائم العرب حتى ظن أن ليس لهم من الشدة والخذلان مخرج . ومتى كانت بضاعة الكلام وسياسة الارتجال سلاحاً ماضياً قاطعاً فى يد المناضلين ؟ ؟

ويشاء الله الرؤوف بعباده أن ينتقض بعض الشباب الفلسطينى . ممن لم تلن له قناة ولم يرض الذل والهوان . ويهب نفسه وما يملك للدفاع عن الذمار واستخلاص ما ضاع ويعاهد الله بقلب مؤمن سليم على أن ينزل إلى ميدان المعركة فإما الانتصار بعد أن يلقن اليهود درساً لا ينسوه ويذيقهم ذل الانكسار ، وإما الاستشهاد ليحظوا بما وعد الله به عباده الشهداء من نعيم مقيم ، وانتظم الشباب المؤمن فى جماعات للمقاومة وأخذت تزداد حتى ضمت الكثير من الفدائيين وأخذ يمارس التدريب العسكرى الشاق ويتمرن على حمل واستعمال السلاح بكافة أنواعه مسلحاً نفسه بالإيمان القوى والخلق العظيم والإقدام والجرأة فضلاً عن السلاح المادى . استعداداً للمعركة ثم نزل إلى الميدان معتمداً على الله متوكلاً عليه . وقدموا من البطولات ما أصبح مضرب الأمثال وما زالت المعركة الضارية قائمة فالصراع بين اليهود والعرب شاق ومرير وطويل حتى يأذن الله ويكتب لعباده المجاهدين الصابرين الصامدين النصر المبين الذى وعدهم به فى كتابه الكريم إذ يقول : «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين»

ويقول «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز».

وإنى إذ أسجل هنا بعض التواريخ التى لازمت الصراع اليهودى الفلسطيى أرجو مخلصاً أن تنقش على صدر المجاهدين تحفزهم على المضى فى مواصلة الأخذ بالثأر وتخليص الحق المغتصب والفوز بالنصر. والنصر آت لا ريب فيه وعلى الباغى تدور الدوائر وما ضاع حق وراءه مطالب. وما النصر إلا من عند الله القوى العزيز. وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

أيام لا تنسى فى تاريخ فلسطين

ما بين نوفمبر ١٩١٧ وأبريل ٦٤

- ١٩١٧/١١/٢ وعد بلفور
- ١٩٢٨/٩/٢٤ حادث حائط المبكى فى القدس
- ١٩٤٧/١١/٢٩ قرار الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين
- ١٩٤٨/٤/٩ مجزرة دير ياسين ذهب ضحيتها على يد اليهود ٢٥٠ قتيلاً من رجال ونساء وأطفال

  مجزرة فاقت فى بشاعتها كل ما ارتكبه النازيون من جرائم ضد اليهود فى الحرب العالمية الثانية
- ١٩٤٨/٤/١٧ استشهاد البطل عبد القادر الحسينى فى معركة القسطل
- ١٩٤٨/٦/٢١ تسليم بريطانيا حيفا لليهود
- ١٩٤٨/٤/٢٤ « « يافا «
- ١٩٤٨/٥/ ٩ سقوط صفد فى أيدى اليهود
- ١٩٤٨/٥/١٤ انتهاء الانتداب البريطانى رسميًّا على فلسطين وإعلان المجلس الوطنى اليهودى وجود الدولة اليهودية وتولى بن جوريون رئاسة الحكومة ووايزمان رئيساً للدولة
- ١٩٤٨/٥/١٥ دخول الجيوش العربية الحرب لإنقاذ فلسطين والأراضى التى سلمتها بريطانيا لليهود وكان اليهود قد شردوا حوالى ٤٠٠٠٠ فلسطيى من ديارهم.
- ١٩٤٨/٦/١٠ تدخل الإنجليز لإنقاذ ١٠٠٠٠٠ يهودى مهددين بالفناء فى القدس أو الاستسلام

- ١٩٤٨/٦/١١ إعلان الهدنة الأولى ووقف القتال .
- ١٩٤٨/٧/١٥ « « الثانيـة
- ١٩٤٨/١١/١٠ استيلاء اليهود على الخليل
- ١٩٤٨/١٢/١٠ ضم القسم الباقى من فلسطين للأردن
- ١٩٤٩/ ٢/ ٢ انسحاب الجيش العراقى من فلسطين
- ١٩٤٩/ ٢/٢٤ توقيع اتفاقية الهدنة الدائمة بين مصر واليهود
- ١٩٤٩/ ٣/١٠ احتلال اليهود لميناء إيلات الاستراتيجى
- ١٩٥٠/ ٥/٢١ مذبحة وادى عربة
- ١٩٥٢/ ١/ ٦ مذابح بيت لحم
- ١٩٥٤/ ٣/٢٥ محاولة اليهود تدمير نحالين
- ١٩٥٥/ ٢/٢٨ هجوم اليهود على غزة
- ١٩٥٥/ ٥/٢١ « « « وخان يونس
- ١٩٥٦/١٠/٢٩ العدوان الثلاثى على مصر من إجلترا وفرنسا وإسرائيل
- ١٩٥٦/ ١/١١ هجوم اليهود على غزة
- ١٩٦٠/ ١/٢٤ اعتداء اليهود على قرية التوافيق السورية

فضيحة الأسلحة الفاسدة :

وهذا يجرنا إلى فضيحة الأسلحة الفاسدة التى قدمت للجيش المصرى وكشفت عن انحلال الأخلاق وضعف النفوس والضمائر ومست الجالس على العرش وبطانته وكثيراً من المسئولين ممن أثروا الإثراء غير المشروع ولوكان فيه ضياع الأرواح الغالية من الضباط والجنود .

أقطاب الجريمة :

إذ عقد عبد الغفار باشا عثمان مدير متحف السراى صفقة توريد ٢٥٠ ألف قنبلة مع شركة إيطالية وصفقة أخرى مع شركة إسبانية . وعقد أدمون جهلان مدير حسابات السراى صفقة بمليونى قنبلة من مخلفات الحرب فى الصحراء الغربية ظهر فساد أكثرها عند استعمالها فى الميدان .

الاستجواب الجرىء للوطنى الأستاذ مصطفى مرعى :

أثار ذلك العمل الإجرامى المحامى الوطنى الجرئ مصطفى مرعى عضو مجلس الشيوخ فقدم استجواباً جريئاً إلى رئيس المجلس فى ٢٩/٥/١٩٥٠ مبيناً بالأرقام والمستندات هول الجريمة وكاد يتهم المسئولين صراحة بتدبير مؤامرة لتقويض الجهود الحربية بتقديمهم تلك الذخيرة التالفة للجيش المحارب فى فلسطين .

تدخل الملك وحفظ التحقيق :

وجرى تحقيق المسألة الخطيرة وتدخل الملك فى الأمر ليحمى أعوانه ولضعف فى النفوس حفظ التحقيق بناء على توجيه من الملك .

عدالة السماء :

ولكن الله يمهل ولا يهمل فلم تمض ثلاث سنوات على الحفظ حتى شكلت محكمة الثورة ١٩٥٣ برئاسة عبد اللطيف البغدادى وعضوية أنور السادات وحسن إبراهيم لمحاكمة من ثبتت إدانتهم فى قضية الأسلحة الفاسدة . وقضت فى ٧/١١/١٩٥٣ بأحكام مختلفة منها السجن ومصادرة أموال كل من عبد الغفار عثمان مدير متحف السراى والدكتور أحمد النقيب طبيب الملك الخاص ومحمد كامل قادويش رئيس النيابة وحلمى حسين السائق الخاص للملك وكريم ثابت مستشار الملك الصحفى وتحذير محمود عزمى النائب العام .

الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل تؤبن أحد أقطابها :

وفى ١٩٤٩ فجعت بموت صديقى الوطنى الكبير المرحوم الدكتور إسماعيل صدقى الجراح ووكيل جمعية الشبان المسلمين بالإسكندرية وأمين صندوق الحزب الوطنى وكبير مؤسسى جماعة الوحدة الوطنية لإستقلال وادى النيل .

وكان فقده خسارة ، وأى خسارة ، فقررت أنا وزملائى – وفاء لروحه – إقامة حفلة تأبين له حددت لها الساعة الخامسة من مساء ٢١ جمادى الأول ١٣٦١ – ١٠ من مارس ١٩٥ بقاعة الدكتور عبد الحميد سعيد بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين وأعلنت عنها بمقر الوحدة وطبعت بطاقة الدعوة ووزعتها قبل الحفلة بوقت مناسب .

أقيمت الحفلة فى ميعادها وكان فى مقدمة الحاضرين من زملاء الفقيد الأساتذة زكى باشا على سكرتير عام الحزب الوطنى وعبد المقصود بك متولى المحامى وعبد الرحمن بك الرافعى المحامى عضو اللجنة الإدارية للحزب وعبد الرحمن باشا عزام وكثير من شباب الحزب من عارفى فضل الفقيد ومقدرى جهوده رحمه الله .

وافتتحت الحفل بتلاوة أى الذكر الحكيم ثم قمت ورثيت الفقيد بكلمة مختصرة قلت فيها : إن أفراد الرعيل الأول من رجال الحزب الوطنى – وإن جمعهم إطار واحد من الإيمان الصادق والوطنية الخالصة العاملة – فإنه يكاد يكون لكل منهم طابع خاص وصفات بارزة مميزة .

فلو ذكرنا مثلاً مصطفى كامل خطر ببالنا على الفور الزعيم الشاب والخطيب القوى والكاتب الوطنى القدير الجرىء والمكافح البطل . ولو ذكرنا محمد فريد ذكرنا على الفور الوفاء والبذل والتضحية وإنكار الذات والصبر على المكاره . واليوم ونحن نؤبن المرحوم الدكتور إسماعيل صدقى والأسى يملأ القلوب على وفاته والوطن أحوج ما يكون إلى جهاده الصامت نذكر النبوغ فى الطب والحركة الدائمة وصفاء الذهن وعمق التفكير والاعتداد بالنفس وإحكام التدبير . ونذكر بجانب ذلك الحياء الجم والتواضع وإنكار الذات وعلو النفس والهمة . فقد كان رحمه الله مجموعة فضائل لا تتوفر إلا للرجل القوى الإيمان مما تضيق به هذه الكلمة وأترك شرحه وتحليله لحضرات السادة الأفاضل من زملائه فهم أقدر منى على ذلك وأجدر به .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أنوه بأن رجال الحزب الوطنى إذا ما أقاموا حفلة تأبين أو حفلة ذكرى لأحد من رجالهم فإنهم لا ينشدون الإشادة بذكره بالذات وهم يعلمون أنه أدى واجبه خالصاً لله راضياً لا يبغى جزاء ولا شكوراً والله عنده حسن الثواب . بل إنهم يتخذون من مثل تلك المناسبات فرصة للدعوة لرسالتهم التى لا تطيب لهم الحياة إلا بتحقيقها وللتحدث فى القضية الوطنية التى ملكت عليهم نفوسهم ومشاعرهم فلا يملكون التهاون فيها أو التنحى عن شرحها فى أناة وصبر . والدفاع عنها فى ثبات وحزم مهما تغيرت الظروف وتألبت عليهم الأحوال ، فطريق الجهاد طويل وشاق وليس مفروشاً بالورود .

ورجال الحزب إن تحدثوا عمن سبقوهم من إخوانهم الراحلين أوكشفوا عن نواحى البطولة فيهم فلأن سيرتهم هى تاريخ الحركة الوطنية ولأن كل موقف من مواقفهم الفذة هو درس من دروس الوطنية ولكى يبينوا للناس أن مرد تلك البطولات والمواقف الجليلة إنما هو الإيمان والإيمان وحده .

وختاماً أسأل الله أن يحفظ علينا إيماننا وأن يعصمنا من الزلل وأن يوفقنا لترسم خطى من سبقونا ممن ثبتوا على الإيمان «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر

وما بدلوا تبديلاً » . كى نؤدى الرسالة ونعيش أحراراً أو نموت كما ماتوا فى ميدان الجهاد كراماً .

رحم الله الفقيد وأسكنه فسيح جناته مع الشهداء والصديقين وألهم ذويه وإخوانه وعارفى فضله جميل الصبر والسلوان . وشكر الله سعيكم أجمعين . . .

« ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

ثم قام الأستاذ زكى باشا على وابن الفقيد وأفاض فى تاريخ حياته وماضيه الوطنى المجيد ، وتلاه عبد الرحمن باشا عزام وكشف عن بعض نواحى جهاده وخص بالذكر احتواءه ومساندته للشبان المجاهدين فى حرب طرابلس ضد الطليان من ضباط ومدنيين .

وانتهت الحفلة كما بدأت بتلاوة بعض آيات الذكر الحكيم والترحم على روح الفقيد .

النحاس عاد إلى الحكم ١٩٥٠ وحاول الحصول ولو على اتفاقية كمشروع صدقى بيفن الذى رفضه من قبل :

فى يناير ١٩٥٠ جاء إلى الحكم مصطفى النحاس خلفاً لوزارة حسين سرى باشا . وحاول أن يزحزح الإنجليز عن موقفهم المتشدد إزاء القضية المصرية ولو باتفاقية كمشروع صدقى بيفن الذى كان يرفضه وحاربه من قبل لمجرد أنه لم يأت على يديه ، وكان ينص على أن الأحتلال ينتهى فى مدةّ أقصاها سبتمبر ١٩٤٩ .

إصرار الإنجليز :

وأراد النحاس بتلك المحاولة أن يصحح من خطئه الفاحش يوم أن وقع معاهدة ١٩٣٦ إلا أنه لم يفلح وأصر الإنجليز على موقفهم المتعنت من معارضة مطالب مصر . أفهل يتعظ المتكالبون على المفاوضة ؟ ؟

قطع المفاوضات وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ :

وفى ١٩٥١/١٠/٨ تجرأ النحاس باشا وأعلن فى البرلمان تحت ضغط إرادة الشعب تقرير قطع المفاوضات مع إنجلترا وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ التى أتت على يديه قائلاً أنه من أجل مصر عقدت معاهدة ١٩٣٦ ومن أجل مصر أعلن اليوم إلغاءها . وليس لى أن أقول فى هذا الموقف السليم إلا أن الرجوع إلى الحق فضيلة . وأن الله واسع المغفرة .

وبإلغاء معاهدة ١٩٣٦ لم يعد لبقاء القوات الإنجليزية بمصر سند قانونى ولم تعد تتمتع إنجلترا

بالإمتيازات والحقوق التى كانت استمدتها من المعاهدة وأصبح بقاء قواتها اعتداء صارخاً على مصر يتحتم على الحكومة والشعب معاً مقاومته بكل السبل .

المظاهرات من جديد والحكومة تصطاف فى الإسكندرية :

وهب الشعب وبدأت المقاومة فى صورة مظاهرات تحتج على السياسة البريطانية وبقاء الاحتلال وتؤيد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وتطالب برفض التعاون مع المحتل (المقاطعة) وبطرده من الديار فى الوقت الذى لم تحرك فيه الحكومة ساكناً ضد اعتداء القوات البريطانية على الشعب فى منطقة القنال .

ترك العمال عملهم بمعسكرات القنال :

وترك العمال المصريون – وهم يربون على الخمسين ألفاً – العمل بالمعسكرات البريطانية ووزعت الحكومة بعضهم على مصالحها وأجرت على الباقين إعانات شهرية حتى اضطرت إنجلترا إلى الاستعاضة عنهم بعمال استقدمتهم من مستعمراتها .

إضراب عمال الشحن والتفريغ :

ورفض عمال الشحن والتفريغ شحن وتفريغ البواخر البريطانية فى منطقة القنال وامتنع المتعهدون عن مد القوات البريطانية بما تحتاجه من تموين .

المطالبة بقطع العلاقات مع بريطانيا وبالإفراج عن المعتقلين السياسيين وتوزيع السلاح :

وامتنع سائقو وعمال القطارات عن نقل الجنود والمعدات البريطانية ونادت الصحف بقطع العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع بريطانيا وطالبت الإفراج عن المعتقلين السياسيين وتوزيع الأسلحة على المواطنين .

الإخوان ومراقبة طريق السويس الإسماعيلية :

ونشطت حركة الإخوان المسلمين فى مراقبة الطرقات المؤدية إلى السويس والإسماعيلية وأوقفوا شحنات الخضار والفاكهة المرسلة إلى المعسكرات البريطانية .

أثر المقاومة السلبية :

وكانت تلك صورة رائعة لحركة المقاومة السلبية فعلت فعلها وأثمرت ثمرتها وأوجس المحتل منها خيفة وخشى أن تعقبها خطوات أشد عنفاً .

مظاهرات بمدن القنال ورد الإنجليز عليها :

وعمت المظاهرات الصاخبة مدن القنال وواجهها أرسكين قائد القوات البريطانية وقد فقد صوابه – بالمدافع الرشاشة والسيارات المصفحة وسقط كثير من القتلى والجرحى فى الإسماعيلية وبورسعيد واحتلت القوات البريطانية مكاتب الحكومة وطردت منها الموظفين . وهاجمت المعسكر قرب فردان واستولت على كوبرى فردان وأخذت تعيث فى المنطقة فساداً تعتدى على الآمنين وتسلب أقواتهم وتنهب المحال التجارية وتسرق كل ما تصل إليه أيديها فسادت المنطقة حالة من الذعر والإرهاب والفوضى وأخذ الشعب يتأهب للأخذ بالثأر .

التحول إلى الحق :

منذ أن بدأت تتبدد أوهام تحقيق الاستقلال عن طريق المفاوضات مع العدو المحتل بعد الحرب العالمية الثانية ويتضح صدق شعار الحزب الوطنى الذى لم يتنازل عنه أبداً من أنه «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» وقبيل إلغاء المعاهدة المشئومة سنة ١٩٥١ اتخذت دعوة الحزب الوطنى للجلاء الناجز والاستقلال التام سبيلها إلى النفوس بقوة ، واقترح الأستاذ فكرى أباظة عضو الحزب فى مجلة المصور عمل شارة يكتب عليها «الجلاء» يضعها المصريون على صدورهم . وسرعان ما قبل المصريون الاقتراح ولبس أغلبهم تلك الشارة وحولت الحركة الشعبية وجهها شطر الحزب الوطنى تتزود من فلسفته الوطنية ومنهجه وأسلوبه فى التعامل مع الأعداء . مما حمل وزارة الوفد تحت الضغط إلى إلغاء المعاهدة .

وما إن الغيت حتى عبر الشعب عن تقديره لفضل الذين كانوا على حق وأقاموا حفلة كبرى فى فندق الكونتنتال لتكريمهم وكلهم من رجال الحزب الوطنى وكان معهم الأستاذ وهيب دوس المحامى ممن كانوا اعترضوا على المعاهدة وفى ذلك الحفل الكريم أصدرت جموع الشباب قراراً جماعياً تلاه على الحاضرين الأستاذ يوسف حلمى أحد شباب الحزب الوطنى يقضى بقتل كل من يتحدى إرادة وشعور الشعب ويقدم على مفاوضة الإنجليز مرة أخرى .

وأخذ الشبان يجتمعون فى دارهم فى شارع قصر النيل وهمهم بحث ومناقشة دورهم فى النضال بعد

إلغاء المعاهدة ، وأسفرت اجتماعاتهم عن تقرير الخروج من دائرة المسالمة إلى انتهاج طريق العنف والعمل الفدائى وتشكيل الكتائب العسكرية وحث المصريين على التطوع للانضمام إليها لمقاومة الإنجليز وطردهم .

ثم بدأوا بالإعلان عن ذلك بكتابة منشور وزعوه فى ١٩٥١/١٠/١٩ بالجامع الأزهر بعد صلاة الجمعة وبعد أن أعلن الأستاذ ماهر محمد على من فوق منبر الأزهر بعد الصلاة دعوة الحزب لإنشاء كتائب التحرير وقوبل إعلانه بالتكبير والتهليل .

وذاعت الفكرة وانتقلت إلى الأحزاب وسارع كل حزب بالإعلان عن تكوين كتائب تحرير خاصة به واتخذ معسكرات خارج القاهرة وزخرت بالمئات من المتطوعين ولكنها كانت مع الأسف إلى الفوضى وحب الظهور أكثر منها إلى النظام والعمل الجاد ، واختلط فيها الحابل بالنابل وكان هم كل حزب أن يعلن عن إعداد المتطوعين وأن يستعرضهم دون أى اهتمام بحسن الاختيار أو التدريب .

وأما شباب الحزب الوطنى الذين كانت لهم خبرة سابقة بالنشاط السرى فقد اتخذوا من تلك الحركة الشعبية الدافقة سبيلاً لتشكيل كتائب مقاومة يُنتقَى أفرادها ويدرسون أفضل تدريب ويسلحون بما فيه الكفاية . وكل ذلك طبق نظام دقيق وسرى . ومبعث السرية هنا هو عدم اطمئنانهم لما كانت تتظاهر به الحكومة من الرضا على العمل الفدائى .

ويشاء القدر أن يكون الأستاذ عصمت سيف الدولة المحامى أحد أفراد هؤلاء الشبان محامياً لأسرة الضابط عبد المجيد فريد الذى توثقت بينهما الصلة خلال عمله وعن طريقه تم التعارف بين عصمت والضابط رشاد مهنا . وأخذ الثلاثة يجتمعون بمكتب الأستاذ عصمت بشارع خيرت بالسيدة زينب يدبرون خطة إعداد المتطوعين واتفقوا على أن يتم اختيار الصالحين منهم بعد اختبارات دقيقة ثم يدعون إلى دروس يلقيها عليهم بالمكتب بعض الضباط والمدربين حتى إذا ما بلغ عددهم عشرين ينقلون إلى سلاح المدفعية للتدريب العملى بين الجنود ثم ينقلون إلى سلاح المهندسين للتدريب على المتفجرات وكيفية استعمالها .

وتكونت على هذا الوجه فى بادئ الأمر كتيبتان تضم كل منهما حوالى عشرين متطوعاً وجعلت لها قيادة مدنية وأخرى عسكرية . أما القيادة المدنية فكانت من شباب الحزب الوطنى كتيبة مصطفى كامل بقيادة عصمت سيف الدولة وكتيبة محمد فريد بقيادة حسن بسيونى . وأما القيادة العسكرية فقد تولاها الضباط الأحرار وأوكلوا أمرها إلى الضابط الطيار وجيه أباظه الذى كان أول من بدأت به تشكيل الضباط الأحرار مع زملائه عبد اللطيف البغدادى وحسن عزت وأحمد سعودى وحسن إبراهيم

وسافرت الكتيبتان مصطفى كامل ومحمد فريد إلى منطقة أبو حماد والتل الكبير وبقيتا تزاولان

نشاطها فى المنطقة إلى آخر يناير ٥٢ أى بعد حرق القاهرة دون أن يعلم أحد من أمرهما شيئاً بفضل الجدية والسرية التامة والبعد عن المن أوحب الظهور والعمل الخالص لوجه الله .

وكان بجانب الكتيبتين تشكيل منظمة الإخوان المسلمين بالإسماعيلية وتشكيل لمصطفى الجيار بالسويس ، والكل يعمل فى كتمان ويقاتل فى صمت بينما تعج الطرقات والقرى حول معسكرات الإنجليز بآلاف من كتائب الأحزاب الأخرى تستعرض نفسها يومياً وتردد الهتافات وتتاجر بالوطنية فكانت كالطبل الأجوف لا تفعل شيئاً ولو أنها كانت على كل حال غطاء جيداً للذين يفعلون ولا يتكلمون .

موقف شهامة وبطولة :

كان الدكتور عبد الكريم درويش عميد أكاديمية الشرطة حالياً ضابطاً فى مركز أبو حماد مدة حركة الكتائب وكان يتولى اتصال الإدارة الحكومية بالقوات الإنجليزية . وفى مساء أحد الأيام عرف بحكم مهنته أن الإنجليز قد اكتشفوا أن جماعة من الفدائيين قد أقاموا فى وكر مجاور لمعسكر المحجر غرب التل الكبير استعداداً لاقتحامه وتدميره فقام مسرعاً وقاد بنفسه سيارة الشرطة « البوكس » وصار فى جنح الليل يبحث عن الفدائيين حتى وجدهم فأبلغهم أن الإنجليز قد اكتشفوا مكانهم وحملهم فى سيارة حتى أخرجهم من المنطقة قبيل الفجر . وما إن وصلوا إلى مكانهم الآمن حتى سمعوا دوى قنابل ، إذ كانت المطارات الإنجليزية تدك المكان الذى كانوا فيه من حوالى نصف ساعة فقط .

وهكذا أنقذ ذلك الضابط الوطنى الشهم أفراد كتيبة مصطفى كامل التى كانت كامنة بجوار المعسكر للانقضاض عليه .

الحكومة وتنظيم كتائب للمقاومة :

وأعلنت الحكومة – وقد يكون الإعلان لحاجة فى نفسها – أنها ستنظم كتائب للمقاومة تحت إشراف اللواء محمد صالح حرب رئيس الشبان المسلمين . فتطوع للانضمام إليها كثير من العمال والطلبة وتدربوا على استعمال السلاح وطرق زرع ونزع الألغام وعلى المصارعة اليابانية وسيطرت الحكومة على تلك الكتائب ويغلب على ظنى أنها فعلت ذلك لاستغلالها لمصلحتها فى الوقت المناسب كما استغلت جماعة القمصان الزرق من قبل . ويؤيد ظنى هذا أنها منعت تنظيم فرق المتطوعين خارج نطاقها وبعيداً عن سلطتها ولو أنها غضت الطرف عن نشاط الفدائيين بمنطقة القنال خوفاً وطمعاً .

من المقاومة السلبية إلى الكفاح المسلح .

وتطورت حركة الشعب من مقاومة سلبية إلى كفاح مسلح فى المنطقة كلها وحمل لواءه المتطوعون والفدائيون وكانت الحكومة قد سمحت للمواطنين بحمل السلاح دفاعاً عن أنفسهم ، بل وأوحت إلى الموسرين بشراء السلاح وتوزيعه على غير القادرين على الحصول عليه ، وكان الفدائيون يسلحون أنفسهم بما يدبرون ثمنه من مالهم الخاص . وبما كانوا يستولون عليه من أسلحة من يقتلوهم من الجنود الإنجليز . وبما يستحوذون عليه من المعسكرات البريطانية بعد مهاجمتها وقتل حراسها .

أعمال الفدائيين :

وقام الفدائيون بنسف وتدمير وحرق ومهاجمة المعسكرات وقتل الجنود ونسفوا محطة بترول نفيشه أكبر محطات الجيش البريطانى . ودمروا محطة المجارى داخل معسكرها ونسفوا أنابيب المياة قرب السويس وهجموا على مطار كسفريت وأشعلوا النار فى مطاراتها ونسفوا بالمواد المتفجرة مخازن ومستودعات البترول فى معسكر العجرود قرب السويس أيضاً . كما هاجموا الكثير من المعسكرات ليلاً . وهاجموا نهاراً معسكر التل الكبير ونسفوا محطة المياه به . وألقوا القنابل على القاطرات والسيارات المحملة بالمؤن لشل حركة التموين ونجحوا فى تكبيد الإنجليز خسارة كبيرة فى الأرواح .

قلق القيادة البريطانية وإنذار أرسكين :

واشتد قلق القيادة البريطانية على جنودها بعد أن أصبحوا معرضين فى كل وقت لهجمات الفدائيين وأصبحت حياتهم جحيماً لا يطاق . فأعلن أرسكين أنه سيسحق بقواته وبأعنف الوسائل أى اعتداء يقع من الفدائيين وأنه يحمل أولى الأمر فى مصر المسئولية عن تلك الأعمال .

حملات أرسكين الوحشية :

ودبر أرسكين فى نفس الوقت حملات إنتقامية وحشية على القرين والسويس وكفر أحمد عبده والتل الكبير وبورسعيد والإسماعيلية تصدى لها الفدائيون والأهالى بكل بسالة وإقدام .

فى بلدة القرين :

فى القرين أمطر الإنجليز البلدة بوابل من قنابل الهاون والفيكرز وهدموا الكثير من بيوتها على من فيها وهدموا المستشفى الوحيد بها وقتلوا الكثير من أهلها وأتلفوا مزارعهم .

فى الإسماعيلية :

وفى نوفمبر ١٩٥١ دخل الإسماعيلية حوالى ١٥٠٠ ضابط وجندى وتحرشوا بجنود بلوك الخفر بمبنى المحافظة وكانوا حوالى المائتين وأطلقوا عليهم النار دون سبب فأصابوا بعضهم ، ورد عليهم الجنود بالمثل برغم ضعف سلاحهم وقلة عددهم وذخيرتهم وردوهم على أعقابهم .

للمرة الثانية :

وفى اليوم التالى عاد الجنود الإنجليز وكرروا الاعتداء بصورة أشد وحاصروا مبنى المحافظة بدباباتهم بينما أخذت طائراتهم تحلق فى سماء المدينة لإلقاء الرعب فى النفوس ، وقاوم جنود بلوك النظام وساندهم الفدائيون ما وسعهم الجهد . فلم يتمكن الإنجليز برغم تفوقهم الساحق فى العدد والعدة من اقتحام المبنى . وأخيراً حولوا الهجوم على مركز الإسعاف المواجه لمبنى المحافظة واحتلوه ليوجهوا منه ضربتهم . وبعد قتال مرير وبعد نفاد ذخيرة المصريين اقتحم الطغاة دار المحافظة واستولوا عليه على جثث الشهداء .

وأفضت تلك النتيجة إلى اتفاق بين أرسكين ومحافظ القنال عبد الهادى غزال على أن ينسحب الجنود الإنجليز من المدينة وأن لا يظهروا فيها وأن ينتقل أفراد الأسر البريطانية من داخل المدينة إلى المعسكرات خارجها أملاً فى أن يخفف ذلك الإجراء من حدة التوتر .

فى السويس يومى ٢ ,٣ ديسمبر ١٩٥١ :

وفعل الإنجليز فى السويس مثل ما فعلوه فى الإسماعيلية وصدهم جنود بلوكات النظام بمساعدة الأهالى والفدائيين أيضاً وردوهم على أعقابهم .

وفى اليوم التالى أيضاً عاد الإنجليز معززين قوتهم بفرقة لواء المظلات ومدافع الهاون والفيكرز وشددوا الهجوم وكانت موقعة مريرة اشتركت فيها مع الجند والأهالى كتيبة الشهيد البطل أحمد عبد العزيز الفدائى وكانت الخسارة فى الأرواح فادحة من الطرفين .

إزالة كفر أحمد عبده :

وفى ١٩٥١/١٢/٧ واستمراراً فى حملة الانتقام والغدر وجهت القيادة البريطانية إنذاراً إلى السيد إبراهيم زكى الخولى محافظ السويس بأنها ستهدم كفر أحمد عبده بدعوى أنه وكر للفدائيين . واتصل المحافظ فوراً بوزير الداخلية فؤاد سراج الدين وأبلغه الإنذار فأمره الوزير برفضه فرفضه .

إنذار القيادة لمحافظ السويس مرتين واتصال المحافظ بوزير الداخلية مرتين :

وأعادت القيادة إنذارها بأنها ستنفذ فى صباح ١٩٥١/١٢/٨ ما صممت عليه من إزالة كفر أحمد عبده وبالفعل حلقت طائراتها فى سماء المدينة وأخذت البوارج الحربية تقترب من الميناء والسيارات المصفحة تحاصر البلد من كل ناحية . فاتصل المحافظ مرة أخرى بوزير الداخلية يطلعه على الموقف فأصر على رفض الإنذار وأمر المحافظ باستمرار المقاومة بكل وسيلة بناء على قرار مجلس الوزراء الذى اتخذ فى ذلك الشأن . وكان المفروض بل من الواجب على من أمر باستمرار المقاومة أن يبادر بمد المدافعين بما يلزمهم من سلاح وذخيرة وقوة عسكرية ولكن – مع الأسف الشديد – بل ومن العجب أن الوزير لم يفعل شيئاً من ذلك ، وهذا هو عين الارتجال ومعالجة الأمور بالتشنج والعاطفة لا بالفعل والعقل المدبر الرزين .

تصرف المحافظ للمحافظة على الأرواح :

وقدر المحافظ خطورة الموقف وتصور هول ما يتعرض له الكثير من أهل الكفر من إبادة محققة لو نفذ أمر الوزير ورفض الإنذار وحاول المقاومة وجها لوجه أمام الآلاف من الجنود الإنجليز تحميهم وتساعدهم دبابات ومصفحات وطائرات وبوارج وكأنهم فى موقعة حربية وهولا يملك إلا سلاحاً عاديًّا وقوة صغيرة وذخيرة محدودة .

تنفيذ الإنجليز خطة الإبادة :

ورأى بثاقب فكره أن لا يلقى بمواطنيه إلى التهلكة وأن يحقن الدماء فلم ينفذ قرار مجلس الوزراء وأمر السكان بمغادرة الكفر . وكان الإنجليز قد بادروا بوضع المتفجرات والديناميت فى بيوت القرية ونسفتها نسفاً وأتت الدبابات فأتمت الجريمة البشعة بتسوية الأنقاض المتخلفة بالأرض . وسبق السيف العزل .

شعلة المقاومة تزداد تأججا :

وظن الإنجليز أنهم بفعلتهم النكراء ووحشيتهم قضوا على حركة المقاومة ولكن ما لبث أن قام الفدائيون فى النصف الأخير من ديسمبر ١٩٥١ بعدة هجمات انتقامية ناجحة اثبتت أن الشعلة الوطنية ما زالت متأججة وأن قافلة الانتقام تسير فى طريقها بخطى ثابتة وعزم قوى غير هيابة ولا وجلة مهما كانت فداحة التضحيات .

انتقام الفدائيين :

هاجموا ميناء فنارة وأشعلوا به النيران . وهاجموا محطة لا سلكى الفردان وأشعلوا بها النيران أيضاً . وهاجموا نقطة المحجر فى طريق التل الكبير وانتهزوا فرصة تجمع الإنجليز ليلة عيد رأس السنة وانقضوا عليهم فى حفلاتهم الساهرة الصاخبة فعكروا عليهم صفوهم وكبدوهم خسائر فادحة . وبعد أيام نسفوا مخزن الذخيرة على بحيرة التمساح وهاجموا معسكر أبو صير .

انتقام الإنجليز البربرى :

وانتقم الإنجليز لأنفسهم أبشع انتقام فدكوا فى ١٢ / ١ / ١٩٥٢ بلدة التل الكبير بمدافعهم الثقيلة دكًّا . وقبضوا على سبعة من الفدائيين وقتلوهم ونكلوا بجثثهم أبشع تنكيل ثم أحتلوا حى العرب بالإسماعيلية ونبشوا المقابر بحثاً عن السلاح والذخيرة واستولوا على ماوجدوه بها وكان التفتيش بناء على معلومات قدمها لهم خائن يدعى محمود صبرى وقبضوا على خمسة فدائيين وقتلوهم ومثلوا بجثثهم مثل مافعلوا بإخوانهم بالتل الكبير .

مجزرة الإسماعيلية وإنذار القائد العام البريطانى :

وفى ٢٥ / ١ / ١٩٥٢ وجه القائد العام البريطانى إنذاراً إلى قائد قوات بلوك النظام بالإسماعيلية بأن تسلم القوة جميع أسلحتها وذخيرتها للقوات البريطانية وأن تجلو عن المدينة فى ميعاد لايتجاوز الساعة السادسة مساء ورفض القائد الإنذار بناء على أمر وزارة الداخلية بعدم التسليم ومقاومة أى اعتداء بالقوة .

حصار المدينة :

ويعيد التاريخ نفسه . فى الميعاد المحدد بالإنذار حاصر المدينة حوالى عشرة آلاف جندى وضابط بريطانى مزودين بالدبابات والسيارات المصفحة ومدافع الميدان وأخذوا يقصفونها بمدافعهم مركزين الضرب بصفة خاصة على مبنى بلوك النظام ودار المحافظة ودام القصف لمدة ساعتين فهدموها على من فيها واقتحمت الدبابات المبنيين على جثث المدافعين الذين استمروا يقاومون بصمود وبسالة لآخر رمق وأبوا الاستسلام برغم تفوق العدو عليهم عدداً وعدة فمات من مات وأسر من بقى حيًّا وهم قليل .

الموقف الرائع :

وبذلك الاستبسال – برغم عدم تكافؤ القوتين – سجل رجال البوليس ومن انضم إليهم من الفدائيين أروع الأمثلة وأنبلها فى البذل والفداء فى سبيل الواجب الوطنى .

إضراب عمال وموظفى المطار :

وفى ليلة ٢٦ / ١ ١٩٥٢ أضرب عمل وموظفو مطار فاروق وعطلوا نزول ركاب أربع طائرات لشركة الخطوط الجوية البريطانية ورفضوا تزويد الطائرات بالوقود وحالوا بينها وبين استئناف السفر وكانت هذه المعركة باكورة الانتقال لمجزرة الإسماعيلية .

تظاهر جنود البوليس والطلبة والمطالبة بالسلاح للأخذ بالثأر :

وفى الصباح الباكر من ٢٦ / ١ / ١٩٥٢ خرج جنود بلوكات النظام بالعباسية بكامل أسلحتهم وقصدوا حرم الجامعة المصرية حيث انضمت إليهم جموع الطلبة واتجهوا جميعا نحو مجلس الوزراء فى مظاهرة مطالبين بالسلاح لمحاربة الإنجليز بالقنال وللثأر للشهداء من رجال البوليس والمواطنين ، ثم اتجهوا إلى قصر عابدين لنفس الغرض .

حفلة القصر :

وكان الملك فاروق قد دعا فى ذلك اليوم الوزراء ورجال الدولة وكبار المسئولين فى الجيش والبوليس للاحتفال بمولد ولى عهده أحمد فؤاد ، والكل يغنى على ليلاه شعب ثائر وملك لاه . .

حريق القاهرة :

واتجهت المظاهرة إلى ميدان الأوبرا تنادى بالانتقام للشهداء وانضم إليها الأهالى واندس فيها من اندس ، فما لبثت أن تطورت المظاهرة الوطنية إلى تحطيم ونهب وحرق المتاجر الكبيرة كشيكوريل وأوركو وشملا وبعض دور السينما كمترو وراديو وريفولى وبعض الفنادق الكبرى كشبرد وكونتننتال وسميراميس وبعض المطاعم الفاخرة كجروبى والكورسال والأمريكين ووكالات السيارات أوستن وكليزر واستود بيكر وبنك باركليز (وفيه احترق تسعة بريطانيون) ونادى تيرف كلوب الإنجليزى . وكان أول ماأصيب فى تلك الحركة كازينو أوبرا بميدان الأوبرا .

جمود المسئولين :

وامتدت تلك الحركة بصورة مفجعة مروعة إلى الساعة الخامسة مساء واحترقت القاهرة قبل أن يفكر أى مسئول فى المبادرة بإنقاذ الموقف . فالكل – مع الأسف الشديد – لاه فى حفلة الملك بقصر عابدين غافل عما أصاب عاصمة البلاد ، وكأن تلك السلبية كانت عن عمد لغاية لايعلمها إلا الله .

تبادل الاتهامات والنيابة تتهم أحمد حسين :

واتهمت النيابة الأستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة وآخرين معه بالاشتراك بطريق التحريض والاتفاق على ارتكاب حرق المحلات التجارية عمداً وإتلاف ونهب ما بها بالقوة .

الملك يتهم الوفد :

واتهم فاروق وزارة الوفد لوقوفها موقف المتفرج وبعجزها عن حفظ النظام واتخذ من ذلك الاتهام ذريعة لإقالتها فأقالها .

الوفد يتهم الملك :

واتهم كل من النحاس « رئيس الوزراء » وفؤاد سراج الدين « وزير الداخلية » الملك فاروق بأنه هو الذى غل أيديهما عن الحركة وعن تدخل الجيش فوراً لإعادة النظام ليتخذ من الموقف المضطرب سنداً لإقالة حكومة الوفد .

آخرون يتهمون الإنجليز :

واتهم آخرون الإنجليز بتدبير الحادث (مع بعض العناصر) ليتخذوا منه سبيلا إلى التدخل بحجة حفظ النظام والمحافظة على الأرواح .

وسواء اتهمت النيابة حزب مصر الفتاة بالتحريض على ارتكاب الحادث أو اتهم الملك الوزارة الوفدية بالعجز عن حفظ النظام أو اتهمت الوزارة الملك بأنه مدبر الحادث لإحراجها وإقالتها أو اتهم البعض الإنجليز أنفسهم بتدبيره لصالحهم ، فمما لاشك فيه أن الحادث صورة لغضبة الشعب اتسمت بالعنف والشدة تنفيساً عما فى الصدور وتعبيراً عن السخط والرغبة فى الأخذ بالثأر دون حساب للعواقب ، وإن أراد كل طرف أن يستغل الحادث لحسابه .

مضى النهار ولم يتحرك الجيش إلا مساء :

وفى المساء فقط نزل الجيش المصرى إلى شوارع المدينة لإقرار النظام وكانت الجلبة قد هدأت وانفض الناس . وعين النحاس حاكماً عسكريا فأصدر أمراً بمنع التجول من الساعة السادسة مساء حتى الصباح ، وأمر بالسجن مدة لاتقل عن خمس سنوات لكل من يضبط معه سلاح .

ولقد حز فى نفسى وملأ قلبى حسرة وأسى أن أرى عاصمة بلادى تحرق وتخرب جهاراً نهاراً بيد نفر من أبنائها وصفوا يومئذ بالغوغاء والدهماء . وأن أرى الجالس على العرش وبطانته وحكام البلاد والأحزاب يسارعون بالتراشق بالتهم كل طرف يريد أن يلقى تهمة الحريق والتخريب . وإشاعة الذعر والفوضى وبلبلة النفوس على غيره ويبرئ نفسه من تلك الجرائم النكراء . التى لم يحركوا لها ساكناً بل وقف الكل موقف المتفرج والمدينة تحترق .

ولو رجعنا إلى الوراء وتتبعنا بعين الفاحص المدقق الأحداث السابقة للحريق ثم الملازمة لوقوعه والأوضاع القائمة فى البلاد الممثلة فى ملك شاب يلهو ويعبث وبطانة سوء تطغى وتفسد . وأمة مهضومة الحق ممزقة الشمل مسلوبة الإرادة مستعبدة وأحزاب متطاحنة متنافرة لا هم لزعمائها وكبرائها إلا الجرى وراء كراسى الحكم وإرضاء المحتل بأى ثمن ، لو استثنينا الحزب الوطنى فلم يكن يطمع فى الحكم والبلاد محتلة .

نعم لو رجعنا إلى الوراء وأدخلنا فى حسابنا أوضاعنا الفاسدة ومارزئنا به من أحداث قاتلة على يد المحتل وأعوانه تحرياً للحقيقة وربطنا بينها وبين الحادث لايجانبنا الصواب لوحكمنا بأن المسئولين وان لم يكن فى مقدورهم حقيقة أن يدبروه لأنهم أضعف من ذلك إلا أنهم ولاشك ارتضوا إن جهلا أوعمداً جريا وراء مغنم ذاتى أن يكونوا أدوات مسخرة فى تنفيذ حلقة من مخطط خبيث محكم من وضع مخابرات الدول الكبرى وعلى رأسها من يعمل على إشاعة الفوضى والاضطراب والتسيب والتفكك والانهيار وكل عوامل التخلف والضياع لضمان استمرار بقاء بلدنا المفدى يرزح تحت نير الاستعمار ويبقى ضمن منطقة نفوذه ممايحتم علينا اليقظة والحذر والاستعداد لمايدبر لنا من شر . فالمخطط الإجرامى مستمر والرواية لم تتم فصولها وإن ماتم لايعدو أن يكون نذير الخطر . ولابد من دعوة صادقة وعمل جدى متواصل مهما طال الزمن لتغيير جذرى شامل لبناء الفرد المسلم الصحيح الجدير بخلافة الله فى أرضه ولخلق مجتمع آخر مثالى على أساس الإيمان بالله ، ورسله وكتبه واليوم الآخر . مجتمع يعبد الله ولايشرك به أحداً . مجتمع يعمر ولايدمر ولايسعى فى الأرض فساداً . فالله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ووسيلة التغيير بين أيدينا كتاب الله وسنة رسوله .

ولقد حدثتنى نفسى يوم الحريق بوجوب توقيع جزاء رادع فورى من نوع ماكانت شعبنا السرية تقوم به فى الماضى وتذكرت ماتم من اغتيالات سياسية من بدء اغتيال بطرس غالى باشا ناظر النظار على يد الوطنى الفدائى إبراهيم ناصف الوردانى سنة ١٩١٠ إلى اغتيال أحمد ماهر باشا رئيس الوزراء على يد الوطنى الفدائى محمود العيسوى ١٩٤٥ وتمنيت لو أن لى قوة فأطيح برؤوس أينعت وحان قطافها وأريح الوطن وبنيه منها ومن غدرها وخيانتها . فيرتاح ضميرى ولكن ماكل مايتمنى المرء يدركه ، وقد عز الزميل وعز النصير بعد إعدام إخوانى أفراد الشعبة السرية بعد حادث اغتيال سردار الجيش سنة ١٩٢٤ ولم تجد الأيام بمثلهم . ومانيل المطالب بالتمنى فطويت بين جوانحى على مضض ماحدثتنى به نفسى . ومأأقسى على النفس من عجز المرء عن تحقيق آماله حتى ولوكان العجز لأمور خارجة عن إرادته ، ورضخت للواقع مكرها مردداً قول الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

سائلا الله الهداية للعاملين والسلامة للوطن وللمواطنين .

إقالة النحاس :

وفى ٢٧ / ١ / ١٩٥٢ أقال الملك مصطفى النحاس وأمر على ماهر بتشكيل وزارة من جميع الأحزاب وبالعمل على إعادة الاستقرار فى البلاد .

أربع وزارات فى حوالى ستة شهور :

وفى النصف الأول من عام ١٩٥٢ تناوبت حكم البلاد أربع وزارات كان أطولها عمرا وزارة أحمد نجيب الهلالى الأولى « إذ تولى الوزارة فى تلك الفترة مرتين » وقد بقيت فى الحكم ثلاثة شهور . وكانت من أقصر الوزارات عمراً وزارته الثانية إذ بقيت فى الحكم يوماً واحداً قامت الثورة بعده فأطاحت بها فى ٢٣ / ٧ / ١٩٥٢ .

الوزارة الأولى : وزارة على ماهر من ٢٧ - ١ - ٥٢ إلى ١ - ٣ - ١٩٥٢

أخذ على ماهر على عاتقه بعد تشكيل وزارته خلفا للنحاس وقف أعمال العنف والنضال المسلح . وسعى جاهدا لمعرفة الفدائيين ومقدار مالديهم من أسلحة وذخائر . وتمكن بوسائله الخاصة من الوقوف على ماأراد . فألقى القبض على كثير من الفدائيين وزج بهم فى السجن ، واتصل فى نفس الوقت ببعضهم واستمالهم إليه وبين لهم أن مصلحة الوطن تقتضيهم وقف نشاطهم لفترة مالإفساح المجال أمامه

لمحاولة مفاوضة الإنجليز للحصول عن طريق المسالمة - كما زعم - إلى حل القضية المصرية . على أنه إذا لم ينجح فى مفاوضاته مع الإنجليز فلهم الحق فى أن يعودوا إلى نضالهم المسلح ، وأغراهم فأفرج عن إخوانهم المقبوض عليهم (وهكذا يكون السم فى الدسم) .

وخفت حدة التوتر فى القنال وحاول على ماهر الوصول إلى حل مع إنجلترا إلا أن رجال السراى تدخلوا فى شئون البلاد وكادوا يفرضون على الوزارة إرادتهم كما أن الوفد وقف لعلى ماهر بالمرصاد مناوئا يريد إفساد خطته ويسد الطريق أمامه - كى لاينفرد بالمفاوضة مماضايقه وسبب له كثيراً من الحرج ، ولم يقو على الاستمرار على العمل فى ذلك الجو الموبوء فاستقال .

الوزارة الثانية : وزارة أحمد نجيب الهلالى من ١ - ٣ - ٥٢ إلى ٢ - ٧ - ١٩٥٢

وخلفه أحمد نجيب الهلالى وأبدى تحمسا لتطهير المناصب الكبرى ممن لايستحقون شغلها حتى ولو كانوا من حاشية الملك . ولوضع الرجل المناسب فى المكان المناسب . فأوغر بذلك صدور الكثيرين من المنتفعين ، وتدخلت السراى فرشحت من رجالها كلا من كريم ثابت المستشار الصحفى وأحمد النقيب لمنصب وزير وكامل القاويش لمنصب النائب العام .

وحاول الهلالى الاتفاق مع الإنجليز على الجلاء ووحدة وادى النيل فتصدى له الوفد كعادته يناوئه ويعرقل جهوده لينفرد هو بالمفاوضة (أفيونته) وبقى الهلالى فى الحكم حوالى ثلاثة شهور فى صراع مع السراى ومع الوفد كما كان الشأن مع سلفه على ماهر ولم يقو هو أيضا على الاستمرار فى جو مشحون بالدسائس والفتن فاستقال .

الوزارة الثالثة : وزارة حسين سرى من ١ - ٧ - ٥٢ إلى ٢٢ - ٧ - ١٩٥٢

وخلفه حسين سرى الذى واجه نفس الموقف من الدسائس وفرض الإرادة والتدخل السافر ، إذ طلبت منه السراى حل نادى ضباط الجيش ونقل رئيسه المنتخب اللواء محمد نجيب إلى منقباد ، وكان فاروق قد خلعه من قيادة حرس الحدود ووضع مكانه اللواء سرى عامر أحد أعضاء عصابة الأسلحة الفاسدة التى قدمت للجيش فى حرب فلسطين . وترجم الضباط عن استيائهم من تلك الحركة بانتخابهم بالإجماع اللواء محمد نجيب رئيساً لمجلس إدارة ناديهم متحدين بذلك السراى . ثم طلبت السراى أيضا تشتيت حوالى ١٢ ضابطاً بنقلهم إلى وحدات متفرقة .

فرفض حسين سرى أمر السراى وأصرت السراى على طلبها ، فعرض من ناحيته للخروج من الموقف المتأزم أن يعين محمد نجيب وزيراً للحربية وأن يقال حسين عامر تهدئة لتبرم ضباط الجيش ،

فرفض الملك أيضا ذلك الحل وهدد بإلغاء نتيجة انتخابات مجلس إدارة النادى وبتعديل قانون النادى ، فازداد الموقف تدهوراً فاستقال حسين سرى .

الوزارة الرابعة : وزارة أحمد نجيب الهلالى من ٢٢ – ٧ إلى ٢٤ – ٧ – ١٩٥٢

وخلفه أحمد نجيب الهلالى – على أنه رجل الساعة – فأصر فى هذه المرة على تنفيذ سياسته فى تطهير السراى من أمثال كريم ثابت وإلياس أندراوس قبل أن يخطو أى خطوة فى عمله وتظاهر الملك بالموافقة .

إلا أن القدر لم يمهله فانفجرت ثورة ٢٣ / ٧ / ١٩٥٢ . فى اليوم التالى من توليه الوزارة وسقطت وزارته التى لم تبق فى الحكم غير يوم واحد . وأصدر الملك فاروق فى ٢٤ / ٧ /١٩٥٢ إلى على ماهر باشا أمراً ملكياً بتأليف الوزارة فشكلها وقبلت فى نفس اليوم وبقى فى الحكم إلى أن قدم استقالة وزارته يوم ٦ /٩ /١٩٥٢ إلى مجلس الوصاية المؤقت وقبلت فى ٧ / ٩ /١٩٥٢ .

انفجار الثورة ٢٣ / ٧ /١٩٥٢ الغاية المرجوة من الحركة :

عرف الشعب طريقه وقد تجسم أمامه احتلال جاثم وحكم فاسد . وحاكم غافل لاه ، ووضع متدهور وانحلال شامل . وتجسمعت لديه الأسباب ولم يبق فى طوق الصبر منزع فانفجرت ثورة ٢٣ /٧ / ١٩٥٢ على يد الضباط الأحرار بأمل تحقيق ماتهفو إليه النفوس من إجلاء الغاصب . وتحطيم الأغلال والقضاء على الفساد والانحلال وإرساء قواعد العدل والحرية وتكوين جيش قوى يحمى الديار وتحقيق أستقلال تام وخلق مجتمع فاضل . وتم الانقلاب بنجاح دون إراقة دماء بفضل الله وفضل المفاجأة التى تم بها ولذا سميت بالثورة البيضاء .

خلاصة موجزة

وهكذا بدأ النضال المصرى ضد الإحتلال البريطانى سلمياً بزعامة رئيس الحزب الوطنى الشاب مصطفى كامل بإيقاظ النفوس وإحياء الشعور ونشر الدعوة للإيمان بحق الأمة فى الحياة الحرة الكريمة ، وللعمل الدائب لغرس الروح الوطنية والتحرر من الخوف والإقبال على العلم مع التحلى بالخلق الكريم لتقوى الأمة على إصلاح حالها وطرد الغاصب وأستخلاص حقها المغتصب من بين براثنه وتلك غاية أمانى الأمم المغلوبة على أمرها – ومع مر السنين وازدياد الوعى أخذ النضال السلمى بعد أن أرسى الحزب الوطنى قواعده يتطور إلى نضال مسلح لاستخلاص الحق بالقوة إيماناً بأن الحق لايمنح ولابد له

من قوة تسنده وتلك طبيعة الأمور. وبدأ الحزب الوطنى تلك الصفحة من النضال بتكوين جمعية سرية من شباب الحزب الفدائى ممن وهبوا أرواحهم فداء لوطنهم وكان أول عمل لهم قتل بطرس غالى باشا ناظر النظار سنة ١٩١٠ بيد الفدائى المصرى البطل إبراهيم ناصف الوردانى .

واشتد ساعد الجمعية وكثر أفرادها خصوصاً فى الإسكندرية والقاهرة وتكررت حوادث الإغتيال الفردية ضد المستعمرين وعملاء الإنجليز لتطهير البلاد منهم ولإرهاب أمثالهم .

ثم تحول الإغتيال الفردى ضد المستوزرين إلى أغتيال الإنجليز أنفسهم عسكريين ومدنيين بعد ثورة ١٩١٩ لإقلاقهم وتنغيص حياتهم وأنتقاماً من انجلترا فى أشخاصهم .

ثم سمحت الظروف وقضت الحوادث بتحويل الأغتيال السياسى إلى نضال جماعى مسلح برزت صورته على أحسن وضع من التضامن والوفاء والبذل والإقدام فى قتال المتطوعين والفدائيين من شباب الحزب والإخوان المسلمين وشباب محمد ومصر الفتاة وبعض العسكريين ضد اليهود فى فلسطين وضد الجيش البريطانى ذاته فى منطقة القنال .

وهكذا يكون الحزب الوطنى قد قاد فى صدق وإخلاص وجرأة وثبات حركة النضال السلمى والمسلح فى الخط المستقيم من البداية إلى النهاية وأدار المعركة ضد الغاصب وعملائه بحزم وبنجاح بفضل الله . والفضل من عند الله يؤتيه من يشاء .

ولعلى بهذا القدر الموجز أكون قد أعطيت صورة واضحة وإن لم تكن فى ظنى كاملة تماماً للنضال المصرى فيما بين سنة الإحتلال ١٨٨٢ وسنة الثورة ١٩٥٢ بقدر ماوعته الذاكرة .
وإن كان قد فاتنى بعض الشيء فلم أسجله ، فلعل ماذكرته لم يذهب بجوهر الموضوع ، والله ولى التوفيق .

فى أعقاب الثورة :

وفى يوم ٢٤ /٧ / ١٩٥٢ كتبت رسالة بأنطباعاتى ومايجيش فى صدرى من وحى الساعة وأهديتها لروح صديقى المرحوم الدكتور إسماعيل صدقى وكيل جمعية الشبان المسلمين بالإسكندرية وأمين صندوق الحزب الوطنى وأحد مؤسسى جماعة الوحدة القومية لإستقلال وادى النيل وإلى أرواح شهدائنا الأبرار وقدمتها لقيادة الثورة آملا ألاتكون صيحة فى الهواء ونصها :

صيغة الإهداء

إلى روح أخى فى الله المرحوم الوطنى الكبير الدكتور إسماعيل صدق وإلى أرواح جنود الله فى أرضه ممن سبقونا بالإيمان أهدى هذه الرسالة فى وقت شاء الله لرسالة الحق أن تشق طريقها وأن يكتب لها النجاح فيرفع الجيش علمها . ويجنى الوطن والمواطنون أولى ثمراتها . وتنعم الأرواح الطاهرة بهدوئها واطمئنانها فى جنة الخلد فإنا على العهد باقون وإلى الذروة بأذن الله واصلون . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

نص الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

«وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين»

كانت غضبة الجيش التى باركها الله فترجمت عنها وثبته المفاجئة القوية وضربته الأولى القاصمة صدى لما يجيش فى الصدور ومايداعب النفوس من آمال .

وإن كنا قد دعونا لفكرة الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل من نحو عشرين سنة تقريباً مواصلين خدمة الفكرة الوطنية التى عشنا لها وسنموت عليها واتخذنا الأحاديث الخاصة والمحاضرات العامة والنشرات الدورية (مصر ين شق الرحى) وسيلة للدعوة للفكرة ولتعميمها وقلنا يومئذ « إن تكن اليوم صيحة فى واد فإنها ستأخذ غداً بالأوتاد » .

وقد أراد الله أن تأخذ الفكرة سبيلها رويداً رويداً إلى النفوس الزكية والقلوب المؤمنة والعقول الواعية حتى أصبح لها مع الزمن أنصار وأى أنصار .

وقد يكون من الخير أن نعود فى هذه المناسبة الكريمة – مناسبة الثورة ونذكر الشعب بصيحتنا البريئة التى آتت بفضل الله أكلها وننشر فى هذه الرسالة جوهر مادعونا له بالأمس ومازلنا ندعو له اليوم وسنثابر على الدعوة والعمل حتى تتحقق الغاية من فكرة الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل ويجلو الغاصب عن البلاد جلاء ناجزاً غير مشروط وتتمتع البلاد بكامل حريتها واستقلالها .

ومادمنا بصدد الثورة فمن الخير أن نسجل رأينا على النحو الآتى :

١ – الأصل فى الثورة أن يقوم بها الشعب بنفسه أصلا وقد يظاهره الجيش والبوليس .

٢ – ولايكتب لثورة ما النجاح إلا إذا قامت بعد استكمال عناصرها وفى الوقت المناسب .

٣ – ولاتعتبر أنها استكملت عناصرها إلا بعد أن يكون الشعب قد مر بمراحل أساسية الواحدة تلو الأخرى :

(ا) مرحلة الشعور الكامل بالمظالم والمفاسد وبحقه فى الحياة الحرة الكريمة .

(ب) مرحلة الإيمان الراسخ بفكرة وجوب التحرر من تلك المظالم والمفاسد والتخلص ممن كانوا السبب فيها ومرتكبيها .

(جـ) مرحلة التسليح بعناصر ومقومات الحياة : الإيمان والخلق والعلم والمال والقوة .

(د) مرحلة العمل والجهاد (وهى خاتمة المراحل) بتجنيد وتعبئة كل القوى متضافرة فى شتى الميادين .

وفى تلك المراحل قد يتعثر الشعور وقد يضعف الإيمان وقد تفتر الهمة للعمل وقد يطول العهد بالظلم والظالمين وبالفساد والمفسدين .

وقد تختفى القوة الكامنة فى الشعب حيناً وتظهر حيناً وتنكمش وتقوى إلا أنها لاتموت أبداً بل تبقى حية تأخذ من ظلم الظالمين كما تأخذ من نضال المصلحين مادة تنسق بها الطريق بين الأشواك لاستكمال عناصر الحياة والقوة والمتعة والعزة .

ومتى كملت وفاض الكيل ولم يبق فى قوس الصبر منزع هب الشعب وقام على قلب رجل واحد ثائراً يكتسح كل شىء فى طريقه ويضع الحد الفاصل بين ماضى يفيض بما حمل من أوزار ومستقبل مرتقب سعيد بمايبشر من تصحيح شامل لجميع مافسد من أوضاع تحقيقاً للحياة الحقه المنشودة ، وبذا تتم الثورة ويقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وهذا والأصل أن يكون الحكام والقادة فى عهد ثورة ما من عنصر الثوار يفكرون بتفكير الثورة ويعملون بروح الثورة فتسير الأمور على بركة الله بالحزم والعزم والحسم دون تردد أوفتور أوتقصير .

* * *

الموضوع :

أما وقد فاجأ الجيش العالم كله بحركته الموفقة وضرب ضربته القاضية مؤيداً من الشعب كل التأييد فقد أصبح لزاماً عليه أن يحمل الأمانة كاملة إلى آخر الشوط مع خطورتها ومشاقها .

وإنى لأرجو أن تتأصل فكرة الانقلاب واضحة المعالم من البدايةفى نفوس الشعب عامة وفى نفوس حاملى الأمانة ورافعى لوائها من رجال الجيش وعلى أن تفهم على النحو الآتى :

(ا) أن الحركة قومية بحتة .

(ب) وأن الباعث عليها بقاء الاحتلال وفساد جميع الأوضاع القائمة .

(جـ) وأن تلك الأوضاع من صنع المحتل - أصل البلاء - وأعوانه الذين تضافروا معه على حرمان الأمة من مقومات الحياة لتبقى ضحية الفرقة والجهل والمرض ولجعلها تدور فى فلك المحتل وتربط مصيرها بعجلته .

(د) وأن الغاية من الحركة : التحرير الكامل والسعادة الشاملة والعزة والقوة للوطن وبنيه .

(هـ) وأن عدة الأمة لتلك الغاية السامية تتمثل فى الشعور الكامل بالفهم الصحيح ، فالإيمان القوى والعمل الصالح البناء مرحلة تلو مرحلة .

(و) وأن الطريقة العملية هى إعداد الفرد أولا وخلق القدوة الحسنة قبل كل شىء . فالفرد الصالح نواة الأسرة الصالحة ومتى صلحت الأسرة صلح المجتمع .

وكل هذا يقتضى ممن حملوا الأمانة :

(ا) السيطرة على الموقف واليقظة لكل مايدبر ويحاك فى الداخل والخارج فى السر والعلن ، حتى لايفلت الزمام من أيديهم وحتى يواجهوا أى احتمال فى حزم وسرعة بت .

(ب) الكتمان وعدم الكشف عن كل خططهم والتزام الاقتصاد فى الأحاديث والتصريحات .

(جـ) تطهير الجو من العناصر التى ثبت فسادها ولو بإبعادها إلى مكان سحيق اتقاء شرها فى الوقت الحالى والمستقبل .

(د) النظرة إلى الأحزاب القائمة بأنها صنائع المحتل لو أستثنينا الحزب الوطنى .

(هـ) الاهتمام الكلى بإعادة بناء البيت « الأسرة » وإعادة تنظيمه ومن التشريعات الجديدة لتقوية ورفاهية وحماية الشعب وفى مقدمتها التشريعات الاجتماعية والاقتصادية وبصورة لاتسبب هزات عنيفة فى المجتمع والإفادة من كل الثروات والخبرات التى أنعم الله بها علينا .

(و) عدم الانزلاق إلى تهوين القوة الثائرة بتحويلها إلى أسطورة الانتخابات والدستور والبرلمان قبل الأوان فذلك شر مستطير ووضع فى غير موضعه .

(ز) عدم تمكين المحتل من أى مغمز يقضى به على الحركة ، فهو ولاشك دائب السعى للقضاء عليها بما أوتى من دهاء ، وبما ادخر فى البلد من أذناب مازالوا يلعبون بالنار ويدبرون فى الظلام .

(حـ) الحذر كل الحذر من التفكير فى معالجة الناحية الخارجية قبل إعداد الشعب الإعداد الكامل ليقوى على فرض إرادته .

(ط) وليس من الخير فى شىء الارتجال وتعجل الثمرة فإن دور الإعداد ووضع الأساس هو دائماً

أشق الأدوار وأطولها مدى ، ومن أشد الأخطار أن تنتقل بالشعب من دور التكوين إلى دور تكليفه بالعمل قبل الأوان دون أن نزوده ونسلحه بكل مايتطلبه النضال من إيمان وخلق وقوة روحيه ومادية ففاقد الشيء لايعطيه .

ومما يقوى الأمل ويبشر بالخير استجابة الشعب لفكرة الانقلاب ومؤازرة القائمين به بعد أن طفح الكيل وشرب الكأس مراراً وإنا لنرجو أن تتغلغل تلك الظاهرة فى النفوس فتستحيل إيمانا قويًّا بفساد جميع الأوضاع السابقة وعزماً أكيداً على مواصلة أزر القائمين على الحركة ماداموا على العهد .

والشعوب متى تيقظت وآمنت بما لها وعرفت ماعليها سارت فى طريقها ثابتة الخطى لاتلوى على شيء وفرضت إرادتها وبلغت المكان اللائق بها ولو كره المبطلون .

* * *

رحلاتى وأسفارى

(١) سفرى إلى تركيا

٣٠-٧-٣٤ إلى ١٩-٨-١٩٣٤

فى ٣٠ / ٧ / ١٩٣٤ سافرت إلى الخارج ولأول مرة فى رحلة إلى تركيا مع فريق من جوالة الشبان المسلمين برئاسة الأستاذ الوقور الشيخ عبد الوهاب النجار وكيل المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين واستغرقت الرحلة المدة من ٣٠ / ٧ / ٣٤ إلى ١٩ / ٨ / ٣٤ وضم الفريق الأساتذة مهنى سالم مهنى (محام مختلط بالإسكندرية) مصطفى فهمى (بقلم قضايا بلدية الإسكندرية) فهمى العلايلى (تاجر أخشاب بالإسكندرية) عبد الرحمن عمارة (وكيل القسم المالى بالإسكندرية) عبد الغنى مدين (مدرس بمعهد إسكندرية الدينى) حسين عطية (مهندس ميكانيكى بمدرسة محمد على الصناعية) أحمد صبحى جنينه (مدرس بمدرسة رأس التين الثانوية) عبد السلام أنور (مدرس بمدرسة المعلمين ببنى سويف) شاهين حمزة (موظف بوزارة المواصلات بالقاهرة) عزيز بكير (موظف بحسابات محافظة إسكندرية) صلاح الدين الياقر (مدرس بشبرا الثانوية) محمود الجروانى (مدرس بالتجارة المتوسطة بالإسكندرية) عبد الحميد عبد المنعم (مهندس صوت بشركة مصر للسينما بالقاهرة) عبد الفتاح صقر (مدرس بمعهد طنطا) محمد إبراهيم لطفى (موظف ببريد الإسكندرية) محمد مرسال (بحسابات محكمة اللبان الأهلية) عصام محمد سليمان (طالب ثانوى) حسين كامل السلانيكى (أمين محفوظات وزارة الخارجية) محمد حامد حمزة (طالب بدار العلوم) أحمد على (مدرس بمعهد التربية بالقاهرة) وأنا وكنت وقتئذ مدير حسابات شركة المقاولات - نصير) .

يوم الاثنين :

وفى ذلك اليوم أقلعت بنا الباخرة التركية (إيجه) ميناء الإسكندرية بعد الظهر وودعنا على رصيف الميناء كشافة الشبان المسلمين بالإسكندرية بالأناشيد الوطنية وتمنياتهم لنا بسلامة الوصول والعودة (والباخرة إيجه) من البواخر التركية الكبيرة ونظيفة ومريحة وطاقمها وديع مؤدب ومعظمهم مسلمون ولكنهم لايتكلمون العربية .

يوم الأربعاء :

وفى ١ / ٨ / ٣٤ ظهراً رست الباخرة على رصيف بريه ميناء أثينا عاصمة اليونان ويربطها بها ترام تحت الأرض ركبناه وقطعنا المسافة بين الميناء والعاصمة فى حوالى خمس عشرة دقيقة . ولضيق الوقت لم نتمكن من زيارة بعض معالم المدينة زيارة عابرة فشاهدنا الأوكروبول من الخارج حيث كان مغلقاً ثم تناولنا الغداء بفندق إيلاس (من أشهر الفنادق بأثينا وعدنا توًّا إلى الباخرة حيث كان من المقرر أن تقلع بنا الساعة الرابعة .

يوم الخميس :

وفى ٢ / ٨ / ٣٤ وصلت بنا الباخرة إلى أزمير وبها زرنا متحف كنيسة « أرم » وميدان الجمهورية يتوسطه تمثال مصطفى كمال يمتطى جواداً ويشير بسبابته إلى البحر فى حالة توثب إليه رمزاً لحرب الأناضول التى شنتها تركيا بقيادته لطرد اليونان منها . واتسع وقتنا لزيارة إدارة جريدة « العهد الجديد » وحوالى الساعة الثالثة والنصف غادرنا أزمير (ذات المبانى الجميلة المدرجة فى الارتفاع فوق الجبل فى شكل بديع وذات الطرقات الفسيحة النظيفة المرصوفة فى طريقنا إلى اسطمبول . ومن حسن حظنا أن تقابلنا على ظهر الباخرة مع طلبة من الكلية الحربية التركية كانوا عائدين من اجازاتهم ، وسرعان ماتم التعارف بيننا وبينهم وتبادلنا الأناشيد الوطنية وكان مما أنشدناه نشيد « اسلمى يامصر » ومرت بنا الباخرة فى المساء بجزيرة « صافس » التى بدت فى ظلام الليل بأنوارها المتلألئة كأنها النجوم فى الأرض .

يوم الجمعة :

وفى ٣ / ٨ / ٣٤ دخلت الباخرة بوغاز الدردنيل وهو ضيق يكاد يكون فى عرض نيل مصر ومرت فى سيرها بجنان قلعة « ثم بضاحية مشعل كى » أى الغيط الأخضر جنوب غرب اسطمبول ثم بدت لنا العاصمة بمبانيها المتدرجة فى الارتفاع فوق الربا تحيطها الحدائق الغناء والنباتات المتسلقة ومآذنها العالية فى منظر بديع ساحر ثم دخلت الباخرة تتهادى (بوغاز البوسفور) وألقت مراسيها فى تمام الساعة الرابعة ووجدنا فى انتظارنا موظفى القنصلية المصرية الذين استقبلونا بالتحية والترحاب وسهلوا لنا كل إجراءات الجمرك ونقلوا أمتعتنا بإحدى اللوريات الكبيرة إلى سراى المغفور لها أم المحسنين « بيبك » حيث وقع اختيار السلطات عليها لإقامتنا بها مدة الرحلة . وكان من بين المستقبلين صديقى العزيز الدكتور حسنى مورو الذى رافقنا مشكورا ولم يتركنا حتى استقر بنا المقام بالسراى ونصبنا خيامنا بين أشجار ضخمة

وأخرى متسلقة على مرتفع مدرج على البوسفور وماأبدعه من موقع مريح خلاب . وتفضلت البرنسيسة خديجة هانم وأمرت بإعداد طعام العشاء لنا على حسابها الخاص وكان مكونا من فطائر محشوة باللحوم وباذنجان وبطيخ فأكلنا بشهية هنيئا مرئيا وبعد استراحة قليلة نمنا نوماً هادئا عميقاً بعد عناء السفر .

يوم السبت :

وفى ٣٤/٨/٤ بعد تناول الفطار وتحية العلم قصدنا دار القنصلية المصرية وسعدنا بمقابلة وزيرنا المفوض الأستاذ عبد الملك حمزة بك والقنصل وصفى بك وجراح مصر الكبير الدكتور على إبراهيم باشا الذى تصادف وجوده بالقنصلية . وبعد تبادل التحيات وأطيب التمنيات توجهنا إلى قبر الجندى المجهول ووضعنا عليه باقة كبيرة من الزهور ثم زرنا المعرض المقام فى سراى « غيطه » ولاحظنا أن أسعار المعروضات المختلفة مرتفعة ثم قصدنا مطعم « جمال بك » لتناول الغداء ومما لفت نظرنا النظافة والأناقة ونشاط وأدب العاملات التركيات ومعرفتهن لأكثر من لغة .

يوم الأحد :

وفى ٣٤/٨/٥ قمنا بنزهة بحرية فى البوسفور وهو طويل كثير التعاريج ومن المناظر المألوفة أن كثيراً من المنازل الواقعة على شاطئه لها جراجات بحرية للقوارب التى يستخدمها سكانها فى تنقلاتهم . ومرت بنا الباخرة على « قلعة الفاتح » ثم سراى الخديو عباس على الشاطئ الأسيوى » وسراى إسماعيل التى تقابلها على الشاطئ الأوروبى ثم رست بمحطة « صاريا » قبيل نهاية البوسفور وركبنا عربات خفيفة تجرها خيل تسع الواحدة خمسة أشخاص وذهبنا إلى هنكارسو وتناولنا طعام الغذاء فى مطعم تظلله الأشجار فوق مرتفع مغطى بالخضرة ويطل على التقاء البوسفور بالبحر الأسود . وتتوسط المكان « نافورة تصل إليها المياه داخل مواسير من ينابيع باردة كالثلج – ويستخدمونها كما نستخدم نحن الثلاجة يحفظون بها البطيخ والفواكه والقوارير ببرودتها ويسحبون منها الماء عند الطلب وكان جوًّا شاعرياً تخلله الغناء واللعب على الناى والضرب على الكمان والنقرزان من نفر من الزائرين . وعدنا إلى الباخرة حوالى الساعة الثالثة والنصف واتجهت إلى « روملى كوان » وهناك بمقهى « أونوربير» تناولنا الشاى وعدنا حوالى الساعة الخامسة والنصف إلى « غلطة » حيث وصلناها بالباخرة حوالى الساعة السابعة وكان صديقى الدكتور حسنى مورو قد دعانى أنا وشقيقى أحمد لتناول العشاء فى أتويل بارك . أفخم فندق فى اسطمبول ويقع فى حى « تقسيم » وهو المكان المحبب للغازى كمال أتاتورك يقصده كلما أراد الترويح عن نفسه ، وتناولنا العشاء الفخم بين سماع الأوركسترا ومشاهدة الرقص حتى الساعة العاشرة والنصف ثم عدنا بالترام إلى «كاراكى» ومنها إلى بيبك حيث مخيمنا بالسراى .

يوم الاثنين :

وفى ٣٤/٨/٦ قمنا صباحاً بجولة فى القرى الذهبى وزرنا مسجد أبى الأيوب الأنصارى وسعدت بتلاوة ما تيسر من آيات الذكر الحكيم على الحاضرين وكان من بينهم سيدات يستمعن إلى من وراء حجاب . ثم تبعنى شقيقى أحمد فتلا أيضاً بعض آيات من القرآن الكريم ثم طفنا بمكتبة المسجد وبها كتب قيمة وفهرس للكتب العربية . ثم عدنا بالباخرة إلى غلطة ومنها إلى اسطمبول القديمة (جنوب القرن الذهبى) حيث زرنا السوق وهو يشبه خان الخليلى بمصر إلى حد كبير إلا أنه متسع وبه أربعة عشر بابا ويحوى كل ما يحتاج إليه الإنسان إلا أن الأسعار به مرتفعة ، ثم تناولنا الغداء بمطعم «فوتيه» وعدنا إلى مقرنا ببيك .

يوم الثلاثاء :

وفى ٣٤/٨/٧ قمنا بجولة خصصناها لزيارة الآثار والمساجد ومما زرناه (المسجد الجديد «فنى جامع» والذى أقامته أم السلطان محمد الرابع حرم السلطان إبراهيم حوالى ١٦٥٤ ومسجد أيا صوفيا وكان المؤذن لصلاة الظهر بالتركية فأدينا به الصلاة جماعة خلف الإمام التركى وهو يتلو القرآن دون أن يعرف العربية واستمعنا بعد الصلاة إلى مقرئ المسجد يرتل القرآن بصوت رخيم ولا ينقصه إلا ضبط العربية ثم أنشد بالعربية أيضاً نشيداً فى مدح الرسول عليه السلام . ومما يدهش حقًّا أنه أدى ذلك بالعربية وهو لا يعرفها . ومسجد السلطان أحمد الرابع الكبير «ويتميز بحديقة فسيحة فى مدخله تتوسطها مسلة مصرية وتاج كبير من البناء على شكل التاج الألمانى تذكاراً لزيارة غليوم إمبراطور ألمانيا للسلطان . كما يتميز ذلك المسجد بمآذنه الست . ثم زرنا المتحف الحربى وهو فخم ورائع وغنى بالآثار العسكرية وبه نماذج مجسمة لكل أشكال ورتب الجندى التركى والإنكشارية وأزيائهم المختلفة فى مختلف العصور ثم توجهنا إلى مقر الوالى محى الدين بك الذى أحسن استقبالنا وأكرم وفادتنا وتمنى لنا طيب الإقامة وأراد أن يطمئنا على مكانة الدين فى نفوس الأتراك وتمسكهم الشديد به فركز فى حديثه على نفى كل ما كان يشاع عن أعمال للأتراك خارجة عن الدين ووصفها بأنها شائعات مغرضة للوقيعة بين المسلمين . ثم تفضل ودعانا لزيارة قصر «بيلارلى» على الشاطئ الأسيوى للبسفور وهو من الآثار التى لا تزار إلا بتصريح — وأمر بإعداد لانش بخارى خاص يحملنا إلى القصر فى اليوم التالى ثم قصدنا دار جريدة «جمهوريت» التركية فأعلنا شكرنا للشعب والحكومة والوالى على حسن الضيافة .

يوم الأربعاء :

وفى ٨/٨/٣٤ زارنا فى الصباح وزيرنا المفوض عبد الملك بك حمزة رداً على زيارتنا له ومضى معنا بعض الوقت – ثم حضر سكرتير الوالى وكان قد أعد اللنش الخاص لزيارة « سراى بيلارلى » فركبناه وقطع بنا المسافة فى حوالى خمس وعشرين دقيقة . وأخذنا بروعة وفخامة القصر إذ يشمل صالات فخمة واسعة وأعمدة كثيرة من مرمر ورخام أزرق ، وجدرانه مرتفعة مغطاة بالخشب المنقوش المحلى بالذهب وأثاثه مطعم بالعاج والسن والصدف والذهب وأرضيات مغطاه بأبسطة تركية فخمة غالية الثمن ويتناثر فى نواحى القصر زهريات كبيرة ملونة بديعة الصنع ومرايا كبيرة فى الحوائط وبالقصر حمام بنى خصيصاً للإمبراطورة « أوجينى » عندما زارت السلطان ، هذا عدا الحمام الفخم الكبير الموجود به والذى ما زال يحتفظ بقبقاب السلطان . وعلمنا أن القصر بنى فى عهد السلطان عبد العزيز وسجن ومات فيه السلطان عبد الحميد وبالدور الأول من القصر صالة كبيرة يتوسطها حوض واسع من الرخام وحوله مقاعد وموائد – وبالقصر حديقة واسعة بها حوض سباحة فسيح مساحته ٥٠ متراً × ١٠٠ متر تحيط به التماثيل من البرنز لمختلف الحيوانات ، ومما يلفت النظر بالدور العلوى ويستحق الذكر منظار مكبر مثبت على قاعدة أمام باب الشرفة الواسعة المطلة على البحر ومنه يرى الناظر بوضوح تام أدق الأشياء الموجودة على الجانب الآخر من البوسفور .

تمتعنا حقًّا بما شاهدناه بالقصر من بديع وأبهة الملك ، ثم عدنا باللنش الذى كان فى انتظارنا إلى « بيبك » وتناولنا الغذاء ثم خرجنا إلى « غلطة » لزيارة باقى المساجد التى لم يتسع وقتنا بالأمس لزيارتها ، ركبنا الترام قاصدين السور القديم من البوسفور إلى مرمرة ومررنا من تحت باب « أدرنه » وهو مبدأ الطريق الزراعى إلى مدينة (أدرنه وزرنا جامع العقربة » وكان قديماً كنيسة وبمدخله صور للمسيح عليه السلام وللسيدة مريم وهو جامع صغير يقع فى حى قديم متهدم يقطنه الأرمن . ثم زرنا جامع « الفاتح » وهو على العكس متسع وعظيم وبه أثاث فاخر ونقوش ، تصل إليه المياه بسور يشبه سور العيون عندنا بمصر القديمة . ثم جامع السليمانية وكان الليل قد حان فأدينا به صلاة المغرب فى الظلام لعدم وجود إضاءة بالمسجد كله إلا جهة القبلة . فسعدت هناك بتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم ثم تبعنى شقيقى أحمد فتلا سورة القيامة ، ومما يلفت النظر إنصات المستمعين فى خشوع وسكينة وبكاء الكثير منهم متأثراً بتلاوة القرآن . وفى ختام الجولة زرنا سوق المدينة وهو يشبه إلى حد كبير سوق الخضار عندنا بالقاهرة ثم عدنا إلى بيبك حوالى الساعة الثامنة والنصف .

يوم الخميس :

وفى ٩ /٨ /٣٤ قمنا بجولة فى البوسفور إلى مرمرة مارين بجزيرة الأمراء «بيوك أضا» والقشلاق العسكرى الكبير وسراى مدرسة الطب ومحطة «حيدر باشا» لسكة حديد الشرق ومحطة قاضى كورى ثم جزيرة كينالى أوده وسكانها من الأرمن وجزر الورجازاه وهيبلى أوده وبيوك أودة (اده يعنى جزيرة وكلها متقاربة من بعضها وأكبرها الأخيرة وبين تلك الجزر جزيرة صغيرة جدًّا يملكها أرمنى يدعى «كنكريان» وكان فليسوفاً عاش فيها إلى أن مات ونزلنا بجزيرة بيوك أضا وهى تشبه كثيراً ضاحية المعادى بمصر . كل طرقاتها نظيفة ومعبدة إما بالأسفلت أو بالحجارة يقطنها كثير من الإفرنج وتعد مصيفاً جميلاً بها غابات من الصنوبر وبلاجها جميل يقع على مسيرة نحو نصف ساعة من الميناء ويهرع إليها الكثير من أهالى اسطمبول . مضينا بها وقتاً هنيئاً ثم عدنا إلى «غلطة» وفى «طب فيو» زرنا متحف الجواهر ويحوى القاعة التى يعقد فيها مجلس الوزراء جلساته يعلوها شرفة كان يجلس فيها الباشاه ويسمع ما يدور من مناقشات . وحجرة المكتب وحجرات أسلحة السلاطين وبها سيوف وخناجر وبنادق مذهبة ومن بينها سيوف صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام وسيوف كتب عليها «معاذ بن جبل» وبنادق ضخمة يصعب حملها وصالة استقبال السلطان عبد الحميد وحجرة أوان فاخرة مطعمة بالجواهر وبعضها محفوظ داخل دواليب وبعضها معلق فوق الجدران وحجرة بها أوان من ذهب وأخرى من فضة وأطقم شاى وقهوة بعضها من فضة ونموذج من فضة لمسجد السلطان أحمد ومركب مرصعة بالجواهر وزهريات مختلفة الأحجام والأشكال وحجرة لملابس السلاطين يتوسطها عرش الأكاسرة وحجرة تضم النياشين والساعات والعصى والمباسم يتوسطها عرش السلطان أحمد وأدوات كتابية ومسدسات وبنادق مرصعة . وحجرة عرش مراد (عرش الاستقبال فى الاعياد) مفروشة بسجاجيد فخمة ثمينة وبها مصاحف عديدة من بينها مصحف كلماته محفورة فى أوراق الفضة وبالحجرة مفاتيح الحصون والقلاع ويد «يوحنا» وجمجمته التى سحبت من كنيسته ، وحجرة خاصة بملابس الطفل محمد ابن عبد الحميد وفاطمة بنت مصطفى ومعها ساعة عقاربها من ماس . وحجرة بها خيمة السلطان محمود ومباخر وأدوات مرصعة بالجواهر وجوارب – وملابس مختلفة وأحذية . وبالمتحف عدا تلك الحجرات المتعددة جناح آخر يحوى صوراً وبعض الأثاث المذهب والمطعم بالصدف وبه شرفة كبيرة تطل على البوسفور كما تطل على حديقة متحف الغناء . وبها كشك كبير كان يجلس فيه الصدر الأعظم لمراد الرابع وكشك آخر يعرف باسم «كشك بغداد» عبارة عن حجرة مزخرفة بالصدف والفسيفساء وبها أرائك شرقية . وبالمتحف قسم الحرملك ذات السرر والأثاث الفخم الفاخر ويمتاز بجماله الرائع ثم

حجرة السلطان الكبرى وبها عرض تحوطه أرائك الحريم وتعلوها شرفة للموسيقى ومكان خاص للملابس . ثم حجرة الباش أغا والأغوات وأولاد السلطان .

وبالجملة فمتحف الجواهر هذا متسع غنى بالتحف والآثار والجواهر ويكاد يكون فريداً فى نوعه ومحتوياته فهو من أروع وأهم ما شاهدناه فى زيارتنا لتركيا .

يوم الجمعة :

ويوم ٣٤/٨/١٠ خصصناه للفسحة الحرة فآثرت البقاء فى حديقة السراى للاستجمام والقراءة وذهب شقيقى أحمد مع « فريد بك » الدليل المصرى الذى كان يرافقنا فى جولاتنا إلى ماينه عند محطة « قاضى كوى » التى تبعد عن غلطة حوالى ساعة ونصف بالباخرة لزيارة عائلة هناك يعرفها .

يوم السبت :

وفى ٣٤/٨/١١ زرنا يالوغا « مصيف الغازى مصطفى كمال وهى جزيرة هادئة نظيفة طرقاتها معبدة وحدائقها متسعة منسقة أبدع تنسيق تتخللها مسالك وطرق ضيقة ترتفع وتنخفض بين مساق ومياه طبيعية تجرى حارة وباردة . ومبانى الجزيرة غاية فى الروعة والجمال وبها منازل مخصصة للنوم والراحة وبها مطاعم ومشارب وأماكن للاستجمام وبها أيضاً أثر بيزنطى عبارة عن عمودين أمام قوس من حائطين مزدوجتين يفصلها نفق (فراغ) ضيق لا يستطيع المرء أن يمر به إلا وهو منحن ، وللغازى بالجزيرة منزل خاص له وصادف وجوده بالجزيرة وقام بزيارتنا وشاهدناه بالطريق فى سيارته وتبادلنا التحية وله أيضاً « شفللك ينتج « السوت » وهو لبن مثلج شربنا منه وارتحنا له . ومضينا بالجزيرة وقتاً طيباً وعدنا إلى مكاننا .

يوم الأحد :

وفى ١٢ /٨/ ٣٤ أقامت لنا المفوضية المصرية حفلة شاى فى دارها الجديدة – بسراى بيك حضرها معنا الوزير المفوض عبد الملك بك حمزة والقنصل حقى بك ومدير المطبوعات توحيد بك السلحدار والحسينى الخطيب وأحمد رمزى وحلمى . . وألقى فضيلة الشيخ النجار رئيس الرحلة كلمة شكر وأعقبه الوزير المفوض مرحباً متمنيًا لجمعية الشبان المسلمين كل توفيق فى خدمة الإسلام والمسلمين . وكان حسن الختام أن طلب منى أن أرتل بصوتى (الرخيم) فى زعمهم بعض آيات الذكر الحكيم ففعلت ثم تبعنى كالعادة شقيقى أحمد فرتل بعض آيات من سورة الفتح . وبعد انتهاء الحفلة

العائلية قصدنا « فاتراكى » ومنها إلى التونيل . لزيارة القنصل لشكره ، والتونيل عبارة عن ترام تحت الأرض يجرى فى نفق طوله ٥٥٠ متراً يقطعها فى دقيقة ونصف دقيقة ويسير بلا سائق متى ركب جميع الركاب أقفلت أتوماتيكيا جميع الأبواب وانطلق الترام كالسهم يشق النفق . وبالقنصلية نصحونا أن لا تفوتنا زيارة « شملجة » على الشاطىء الاسيوى فركبنا الباخرة من « غلطة » إلى « اسكودار » ومنها ركبنا الترام لمسافة حوالى خمس وعشرين دقيقة ، ثم سرنا على الأقدام فى طريق مرتفع حتى كشفنا البوسفور والقرن الذهبى وإسطمبول . منظر بديع وسبحان الخلاق العظيم . وجدنا « شملجة » خالية تقريبا من الزوار حيث لا تزدحم بهم إلا يوم الجمعة ، يوم الراحة الأسبوعية . وهناك قصدنا مقهى محوطا بالسلك تتوسطه عين ماء واسترحنا واستمتعنا بالمنظر الفريد من ذلك المكان المطل على البوسفور والقرن الذهبى واسطمبول وكان هو آخر مكان فى رحلتنا المفيدة الممتعة وغادرنا تركيا فى اليوم التالى عائدين إلى وطننا حامدين شاكرين .

يوم الثلاثاء :

وفى ١٤ / ٨ / ٣٤ أقلعت بنا الباخرة عائدة إلى الوطن العزيز وكان فى وداعنا رجال المفوضية وصديقى العزيز الدكتور حسنى مورو .

يوم الأربعاء :

وفى ١٥ / ٨ / ٣٤ وصلت الباخرة إلى أزمير واتسع الوقت لزيارة « كارثباكا » التى تصل إليها بباخرة أخرى قطعت المسافة فى ثلث ساعة وقصدنا إلى بلاجها « بالترام » والترام هناك تجره الخيل على قضبان . . وهناك تناولنا الغذاء وأخذنا قسطا من المتعة والراحة وعدنا إلى أزمير وزرنا سوقها واشترى البعض منا بعض حاجاته .

يوم الخميس :

وفى ١٦ / ٨ / ٣٤ بعد مغادرة أزمير مرت الباخرة بالجزر المتناثرة فى بحر الأرخبيل حتى وصلت بيريه وفى هذه المرة كان لدينا وقت لركوب الترام إلى أثينا . عاصمة اليونان . حيث تناولنا الغذاء بمطعم « هلاسى » الشهير بميدان « أمونيا » ثم عدنا إلى الباخرة التى أقلعت بنا حوالى الساعة الخامسة مساء وكان الريح شديداً والبحر هائجاً .

يوم الجمعة :

وفى ١٧ / ٨ / ٣٤ مرت الباخرة بجزيرة « كريت » وأقمنا حفلة سمر على ظهرها وكنا جميعا والحمد لله بصحة جيدة .

يوم السبت :

وحوالى الساعة الحادية عشر قبيل الظهر ١٨ / ٨ / ٣٤ لاح لنا من بعد ميناء الإسكندرية وأخذت تزداد الرؤية وضوحا كلما اقتربت الباخرة ورفع العلم المصرى وحياه الجميع وأخذنا ننشد « اسلمى يا مصر » ورفع العلم التركى وحياه الجميع . ثم صعدنا إلى حجرة عزيز بك قبطان الباخرة وقدمنا له جزيل الشكر ودعوناه هو والسيدة حرمه وراسم بك عضو مجلس الأمة الوطنى التركى ومحمد بك النابلسى من أعيان فلسطين وكانوا من ركاب الباخرة لحفلة شاى فى جمعية الشباب المسلمين بالإسكندرية مساء الأحد ١٩ / ٨ / ٣٤ بمناسبة العودة بسلامة الله ونجاح الرحلة التى كانت بفضل الله ممتعة ومريحة ومفيدة .

(ب) سفرى إلى الشام
٢٧ / ٧ / ٣٨ - ١١ / ٨ / ٣٨

سافرت إلى الشام بحراً فى صيف ١٩٣٨ مع فريق كشافة وجوالة الشبان المسلمين للاشتراك فى مؤتمر بلودان الكشفى العربى والذى ضم كشافة من سوريا وفلسطين والأردن والعراق ومصر والسودان وسمح لى بأن أصطحب معى نجلى الصغير عماد الدين ولم يكن تجاوز السادسة بعد . فى الساعة الثالثة بعد ظهر الأربعاء ٢٧ / ٧ / ٣٨ ركبنا الباخرة اسبيريا من ميناء الأسكندرية قاصدين بيروت وكنا ٣٥ (خمسة وثلاثين) (٦ من المركز العام و٢٨ من فرع الإسكندرية وجامعة القاهرة و ١ من كشافة الشرق بالقاهرة) وكان فى توديعنا الدكتور منصور القاضى كاتم سر الشباب المسلمين بالإسكندرية والإستاذ مهنى سالم زعيم رهط الجوالة بها وجمع غفير من كشافة وأعضاء الجمعية فى الساعة التاسعة صباح ٢٨ / ٨ / ٣٨ ووصلنا بيروت إلا أن الباخرة وقفت بعيداً عن الشاطىء لعدم وجود رصيف ترسوا عليه السفن فحملتنا اللنشات إلى البر وتناولنا طعام الغداء فى أحد مطاعم المدينة ثم بدأنا الرحلة بالسيارات إلى بلودان فى الساعة الرابعة بعد الظهر وسلكت بنا طريقاً ملتوياً فوق الجبال . مرت بنا السيارات فى الطريق بين بيروت وبلودان على « عاريا » وعالية وحمدون وصوفر « ومريجات » واشتورة وزيدانى » ثم

إلى بلودان على ارتفاع ١٥٠٠ متر من سطح البحر وعلى بعد ١١٥ كيلوا متر من بيروت وتوقفنا قليلا فى اشتورة للتزويد بالبنزين اللازم . وواصلنا السفر وتوقفنا اضطرارياً عند مزلاق السكة الحديد . بزيدانى إذ كان القطار ماراً فى ذلك الحين ومما لاحظناه أن عجلات السكة الحديد تشبه تروس الساعة لتتمكن من صعود الجبال والمرتفعات ومقاومة الانحدار عند النزول . وتعتبر زيدانى مصيفا إسلامياً جميلا ومشهورة بالفاكهة ثم تابعنا السير إلى مقر المعسكر ببلودان ووصلنا الساعة السابعة مساء وكان على ارتفاع ١٥٠٠ متر من سطح البحر وكان فى استقبالنا فرق الكشافة السورية وعلى رأسها القائد العام للمخيم على عبد الكريم الدندشى والتقينا بجوالة العراق وعددهم ٣٨ وجوالة دمشق وعددهم ١٨ ودير الزور وعددهم ٦ وحوران وعددهم ٣ وبذا أكتمل عدد المشتركين فى المؤتمر ١٠٠ وتم انتخاب الأستاذ على حسن رئيسا للبعثة وانتخبنا نحن فريق القاهرة الأستاذ صالح جمال محمد رئيسا للفرق والأستاذ محمود عبد اللطيف راسم سكرتيرا له وانتخبت أنا أميناً للصندوق وكان الأستاتذة جمال محمدو خشبة ومحمد حمدان عبده ويوسف عليوة ابو الخير (مصور الرحلة) أعضاء وكانت سوريا قد عملت مشكورة كل الترتيبات اللازمة لنزولنا بالخيام المعدة لمبيتنا واستكمال وسائل الراحة من توفير المياة وتعبيد أرض المؤتمر وإعداد المراحيض وتنظيف المكان وبعد تناول العشاء نمنا فى مخيماتنا نوماً هادئاً عميقاً .

وفى الساعة الخامسة من مساء ٢٩ / ٧ / ٣٨ افتتح المؤتمر بحضور صاحب الفخامة جميل بك مردم رئيس مجلس وزراء سوريا وصاحب المعالى عبد الرحمن بك الكيالى وزير المعارف وأصحاب المعالى الورراء والنواب والأعيان وجمع كبير من الأهالى المدعوين . وألقى رئيس الوزراء كلمة جامعة حيا فيها الحركة الكشفية ونوه بأمل العرب فى الوحدة . وبعدها كانت المفاجأة السارة . إذ صعد إلى المنصة نجلى الصغير عماد الدين فى زى الكشافة وعلى رأسه العقال والكوفيه وحيا الحاضرين وألقى أكثر من نشيد وطنى تعلمه فى روضة أطفال مصر الجديدة وكان ثباته وإجادته الإلقاء والتعبير وثقته بنفسه موضع إعجاب الجميع حتى أنهم استعادوه مع التصفيق الطويل أكثر من مرة ، وكانوا ينادونه بالجرموز المصرى . وجرموز «كلمة يطلقوها على الكشاف الصغير مقابل كلمة (شبل) » عندنا وهنأه رئيس الوزراء على توفيقه وطبع على جبينه قبلة أبوية . ثم قام الأستاذ على حسن (رئيس البعثة) وشكر سوريا حكومة وشعبا على الحفاوة بالبعثة المصرية والبعثات الأخرى وتعاقب خطباء العراق وشرق الأردن وسوريا وسط هتافات حماسية مدوية لوحدة العرب وعزة العروبة ثم قام رئيس الوزراء ومن معه بزيارة جميع المخيمات الموجودة بالمعسكر وكان كل فريق يقابلهم بالأناشيد الوطنية مناديا بالوحدة العربية ثم قامت الفرق بزيارة بعضها البعض للتعارف وتوثيق الروابط واستمر دلك المهرجان إلى منتصف الليل بين فرحة اللقاء والأمل فى المستقبل .

وفى صباح ٣٨/٧/٣٠ استيقظنا كعادتنا مبكرين وبعد تحية العلم وتناول الفطور سرنا فى طوابير منتظمة إلى متنزهات «أبى زاد» وهناك تناولنا طعام الغداء بدعوة من البلدية بين عزف الموسيقى ومناظر الطبيعة والمياه الصافية المنحدرة فى شكل شلالات والخضرة البديعة والهواء العليل صنع الله ومن أحسن من الله صنعاً . وعدنا حوالى الساعة السادسة إلى بلودان سيرا على الأقدام ، وفى المساء بعد تناول العشاء أقمنا حفلة سمر بديعة اشتركت فيها جميع الفرق بأناشيد وطنية واستكشات وألعاب الصواريخ النارية وحضر الحفلة كثير من الأهالى والمصيفين .

وفى ٣١ / ٧ / ٣٨ توجهنا سيراً على الأقدام إلى الجرجانية وهى قريبة من بلودان سلكنا إليها طرقاً جبلية إلا أن بها فندقاً جميلا رخيص التكاليف تتوسط بهوه نافورة بديعة استرحنا حولها قليلا ثم انتقلنا إلى بيين ومنها إلى « بردة » وبها عين عظيمة يخرج منها نهر تعتمد عليه المنطقة كلها فى رى أراضيها . وقد أعجبنا طعم مياهه وهى معدنية نوعا وهنا أقامت لنا البلدية حفلة شاى متواضعة . وكنا موضع حفاوة أهل البلد ومصيفيها ومن بينهم مصريون يفضلون ذلك المصيف عن سواه .

وحوالى الساعة السابعة مساء عدنا إلى « بلودان » بالسيارات وأقمنا بالمعسكر كعادتنا حفلة سمر جميلة ألقيت فيها الأغانى والأناشيد الحماسية وكلها تدعو إلى الوحدة العربية .

وفيما بين ١ / ٨ / ٣٨ و ٥ / ٨ / ٣٨ قمنا بجولة بالسيارات زرنا فيها دمشق وحمص وحماه ثم المعرة وحلب ثم اللاذقية ثم طرطوس وسلكيح ثم بيرود .

فنى ١ / ٨ / ٣٨ قصدنا دمشق وفى طريقنا إليها مررنا على الزيدانى « ثم بيسلون » وفيها نصب تذكارى لقتلى ثورة سوريا ضد الفرنسيين ١٩٢٠ ثم الهامة ودمر الربوة إلى أن وصلنا دمشق وبها استرحنا قليلا وتزودنا بالماء اللازم من المدرسة التجهيزية ثم واصلنا السير إلى حمص واستقبلنا الأهالى وفرقة الكشافة بها استقبالاً حافلا يدقون الطبول ويرفعون الأعلام – وينشدون الأناشيد . وكأننا فى مهرجان عظيم وكان هتافهم لنا بالتحية « يا هلا يا هلا » وأعدت لنا البلدية طعام الغداء فى حفل بهيج بحضور سعادة محافظ المدينة الذى وجه إلينا كلمة ترحيب وتمنى لنا أطيب التمنيات كما أن رئيس البلدية أرسل إلينا رسالة وصلتنا أثناء الحفل يعتذر عن عدم الحضور لارتباطه بموعد سابق وأناب عنه وكيله . وقد ألقيت كلمة الفريق داعياً إلى طرح الارتجال ونبذ الخلافات والعمل لتدعيم الوحدة العربية ولتحرير فلسطين . ثم تعاقبت الكلمات والقصائد المناسبة من الفرق المشتركة ثم تابعنا السير إلى « حماه » حيث بتنا بفندق « أبى الفداء » بجوار النواعير

وفى ٢ / ٨ / ٣٨ بعد تناول الإفطار فى الفندق خرجنا إلى زيارة النواعير وهى عجلات كبيرة قطر الواحدة منها حوالى خمسة عشر متراً ، وهى على نظام السواقى عندنا لرى المزارع ، ثم زرنا دار العلوم

والتربية وهى مدرسة قديمة يرجع عهد بنائها إلى ١١٥٠ هجرية ، وقد نقشت جدرانها نقشا بديعاً ، ثم زرنا مكتبة المدرسة ، ومما لفت نظرنا وجود دولاب مخصص لهدايا الأمير عمر طوسون للمكتبة من الكتب القديمة ، ثم واصلنا السير بالسيارات إلى « المعرة » وبها قبر أبى العلاء المعرى ، ومما يؤسف له ويحز فى النفس الحالة التى عليها القبر من الإهمال والتهدم ، وقيل لنا إن الحكومة السورية وضعت تصميماً لإعادة بنائه بما يتناسب وعظمة الفيلسوف الشاعر ثم دعانا السيد حكمت الحراكى نائب المدينة لتناول الغذاء ولبينا الدعوة الكريمة وتبادلنا الخطب المناسبة ثم تابعنا السير إلى « حلب » ووصلناها قبيل الغروب ونزلنا بالمدرسة التجهيزية ودار المعلمين حيث أعدت لنا الأسرة المريحة للنوم ، وتكرم وزير المعارف ودعانا لتناول العشاء ، وفى الحفلة ألقيت الخطب والكلمات المناسبة .

وفى ٣ / ٨ / ٣٨ زرنا المتحف العربى « بحلب » وهو يحوى آثاراً يرجع تاريخها إلى عهد الحيثيين والإغريق ، ثم توجهنا إلى قلعة صلاح الدين ومنهاإلى المدرسة التجهيزية حيث تابعنا الرحلة إلى اللاذقية مارين ببلدة « جسر الشفور » وبها تناولنا طعام الغذاء بدعوة من إدارة البلدية فى منتزه بجوار مبنى البلدية تتوسطه نافورة جميلة ، ووصلنا اللاذقية فى المساء واستقبلنا استقبالاً رائعاً ، ووجدنا أن البلدية قد أعدت لنا عشاء فخماً فى مقهى على الشاطىء عند مدخل المدينة ، وتبادلنا الخطب الحماسية ثم تفرقنا على فنادق المدينة للمبيت .

وفى ٤ / ٨ / ٣٨ قصدنا إلى « طرطوس » وهى قرية صغيرة ، وأعدت البلدية لنا طعام الغذاء ومن « طرطوس » وعلى بعد ٧ كيلومترات من شاطئها تقع جزيرة « ارواد » منفى المجاهدين الوطنيين ، وقيل لنا إن تلك الجزيرة كانت فى حوزة الفرنسيين أثناء الحرب العظمى تنعم بالرغد والرفاهية بينما كانت طرطوس فى حوزة الأتراك تفتك بأهاليها المجاعة .

وحدث والسيارات فى طريقها لتكملة الجولة أن بلغ الأستاذ على عبد الكريم الدندشى القائد العام للمخيم نبأ وفاة خاله الكبير ، فأمر فى الحال بتحويل خط سير السيارات إلى بلدته « تلكخ » والإسراع لكى نلحق تشييع الجنازة فأخذت تنهب الأرض نهباً حتى وصلنا إلى مقبرة الشهيد خارج البلدة والجثة على وشك أن توارى التراب .

فقدمنا العزاء لأهل الفقيد ووقف على قبره أحد العراقيين وأبنه بكلمة وفاء رصينة كشفت مع إيجازها عن نواحى حياة الفقيد المشرقة ونضاله الوطنى ضد المستعمر .

وبعد أن ووريت الجثة التراب مشيعة بالرحمات وأطيب الدعوات وكررنا العزاء للأستاذ على ووالده الوقور وباقى العائلة ، انتقلنا إلى منزل الفقيد وهو قصر كبير بمدخله ساحة فسيحة ملئت بالكراسى للمعزين ، فجلسنا ولم نلحظ أى أمارة من أمارات الحزن ولم نسمع أى صوت صخب مما يصدر عادة

من المصابين فى مثل تلك الأحوال بل السكون تام كأن لم تحصل وفاة مما ينبىء عن إيمان كامل وتقبل لقضاء الله بنفس راضية مطمئنة ، وهذا ما وصى به الإسلام عند نزول كارثة أو مصيبة تصيب الناس فى أموالهم أو فى نفوسهم ولا أنكر أنه اعترتنا الدهشة عندما رأينا الخدم يقدمون لنا شراب الليمون ونحن الذين اعتدنا أن نشرب القهوة فى مثل تلك المناسبة المحزنة .

وبعد استراحة قليلة ركبنا السيارات واتجهت بنا إلى قصر الدندشى الصيفى خارج المدينة وهو مبنى على هيئة قلعة ، وعلمنا أنه فعلا استعمل قلعة احتمى بها المجاهدون فى نضالهم ضد الفرنسيين المستعمرين . وهو بذلك أثرى يحمل ذكريات النضال المجيدة . وقد أعد لنا الدندشى عشاء فاخراً ومدوا السماط على الطريقة العربية فوق سطح القصر فى الهواء الطلق وأصروا على أن نقوم بعد العشاء بحفلة السمر كالمعتاد وألا يكون لحادث الوفاة تأثير على مرحنا وسرورنا بذلك ، بل وشاركونا فيها ومكثوا بيننا إلى انتهاء الحفلة زيادة فى الحفاوة والترحيب . وفى صباح اليوم التالى وبعد أن تناولنا طعام الفطور الكامل حضر إلى القصر والد الأستاذ على ممتطيا جوادا عربياً أصيلا وأخذ – زيادة فى الحفاوة بنا – يقوم بألعاب الفروسية مستخدما المزراق ثم ودعنا هو وبعض العائلة الكريمة إلى خارج البلدة مشكورين .

ثم واصلنا الرحلة بالسيارات إلى « بيرود » عن طريق حمص واسترحنا قليلا فى حديقتها الجميلة ، وتابع الركب سيره إلى النبك (منطقة القلمون) وفيها استقبلنا أهلها بحفاوة بالغة وأنزلونا دار جمعية الاقتصاد والترقى وقدموا لنا المرطبات ومنها تابعنا السير إلى « بيرود » الشهيرة بنبع بيرود الذى يخرج من عيون صغيرة بسفح الجبل .

واصلنا السير إلى دمشق ووصلناها الساعة التاسعة مساء واستقبلنا استقبالا رائعاً مؤثراً وأنزلونا بالمدرسة التجهيزية حيث بتنا ليلة مريحة .

وفى صباح ٦ / ٨ / ٣٨ ركبنا السيارات إلى بلودان ووصلنا إليها الساعة التاسعة والنصف واجتمع كل فريق ليبحث ما قد يكون لديه من اقتراحات أو ملاحظات ليقدمها إلى لجنة المؤتمر التى تقرر عقدها بفندق بلودان حوالى الساعة الثالثة والنصف ، وجمعت اللجنة اقتراحات الفرق ونظرت فى بعضها وقررت أن نعود للاجتماع فى اليوم التالى . وفى المساء أقمنا حفلة سمر وقام كشافة حلب بتمثيل رواية وكذا كشافة الإسكندرية بتمثيل رواية أخرى وأنشدوا الأناشيد وانتهى السمر حوالى الساعة الحادية عشرة فأوينا إلى فراشنا .

وفى ٣٨/٨/٧ قامت لجنة من القواد السوريين وعلى رأسهم الدكتور رشدى الجابرى المفوض العام لكشاف سوريا (الرئيس الأعلى) والسيد عبد الكريم الدندشى للتفتيش على معسكر المخيم وألقى السيد

الجابرى فى معسكرنا بعد التفتيش عليه والارتياح لما لمسه من نظافة وترتيب ، كلمة أثنى بها على فريقنا ، ورد عليه الدكتور فتحى سعيد رئيس فرقة الجامعة المصرية بكلمة مناسبة .

وبعد انتهاء التفتيش التف الكل حول نصب فلسطين حيث ألقيت الخطب الحماسية وأقسم الجميع اليمين فى صوت مجلجل على مساعدة وحماية فلسطين وبذل كل الجهد لتحقيق الوحدة العربية وآمال الأمة الإسلامية .

واجتمعت لجنة المؤتمر للمرة الثانية ونظرت فى بقية الاقتراحات وتمت الموافقة بالإجماع على قرارات المؤتمر فى حفلة شاى أقيمت لنا بفندق بلاداى خطب فيها الدكتور جابى عن سوريا وخطبت أنا عن مصر والأستاذ عبد القادر فوزى عن العراق وكانت القرارات :

١ – توحيد التعاليم الكشفية فى البلاد العربية .

٢ – توحيد الزى الكشفى بها .

٣ – بث روح القومية العربية فى صدور الناشئة .

٤ – عقد معسكرات كشفية دورية مرة كل سنتين .

٥ – القيام برحلات مشتركة باسم شباب العرب إلى الأقطار العربية والغربية .

٦ – تأمين الاتصال بين مكاتب الكشاف بواسطة لجان خاصة .

٧ – تقديم تقارير من المكاتب مرة كل ثلاثة شهور .

٨ – إصدار مجلة كشفية كل ثلاثة شهور .

٩ – إقامة المؤتمر العربى المقبل فى ١٩٤٠ فى العراق والذى يليه فى ١٩٤٢ فى مصر وفى المساء أقمنا كعادتنا حفلة السمر ووصلنا أثناءها خطاب من الدكتور عبد الحميد سعيد رئيس جمعيات الشبان المسلمين وفيه يتمنى للمؤتمر النجاح وللعروبة وللإسلام التقدم والازدهار .

وبهذا انتهى المؤتمر بنجاح والحمد لله .

ومما يذكر أن جميع مناظر الرحلة أخذت بالسينما الناطقة وأن الاختيار كان وقع على أنا وصديقى محمد حمدان عبده للخطابة عن الفريق فى كل حفلة وفى كل مناسبة . وكان محور خطبتنا الدعوة للجهاد لتحرير فلسطين وللوحدة العربية والحث على البذل والفداء والتوجيه إلى طرح الارتجال والاتجاه بكل قوة للعمل المفيد البناء . وأرجو أن نكون قد وفينا الموضوع حقه وأن لا تكون خطبنا صيحة فى واد ، وفى الصباح الباكر من ٩ / ٨ / ٣٨ قمنا بفك الخيام وبدأنا العودة إلى دمشق فنزلنا ضيوفاً بالمدرسة التجهيزية التى أعدوا لنا فيها طعام الغداء وتجولنا بعض الوقت فى المدينة . ودعتنا الكتلة الوطنية لتناول العشاء فى دارها الفسيحة كما أقامت لنا القنصلية العراقية حفلة شاى بدارها ، وأثناءها نمى إلينا

خبر أن الحكومة اللبنانية تمنع دخول الفريق الكشفى العراق الأراضى اللبنانية بزيه الرسمى وبعلمه . تريد بذلك منع العراقيين من حضور معسكر صوفر وكنا قررنا حضوره من قبل وأصر العراقيون على عدم دخولهم لبنان إلا بالملابس الكشفية الرسمية مع رفع العلم العراقى ، وكان موقفاً مشرفاً أقررناهم عليه واستقر رأينا على أن نشاركهم فيه تضامناً معهم وقررنا عدم الاشتراك فى مخيم صوفر . وعدنا بعد حفلة الشاى هذه إلى مقر الكتلة الوطنية وتناولنا العشاء وتبادلنا الخطب وعدنا إلى المدرسة التجهيزية ونمنا بها .

وفى صباح ١٠ / ٨ / ٣٨ جمعنا أمتعتنا استعدادا للسفر إلى بيرون للرحيل منها إلى الإسكندرية على الباخرة « ماركوبولو » التى قررنا العودة بها ، ومررنا على صوفر واعتذرنا من عدم حضور المخيم وبتنا ببيت الكشاف ببيروت .

وفى ١١ / ٨ / ٣٨ غادرت « ماركوبولو » بيروت وعدنا إلى الإسكندرية وبذا تكون الرحلة استغرقت ١٦ يوما كنا فيها جميعا موضع الحفاوة والإكرام من الشعب والحكومة على السواء فى كل مكان زرناه ونجح المؤتمر والحمد لله وعدنا – بسلامة الله إلى وطننا العزيز نحمل الأمل فى مستقبل مزدهر بإذن الله .

(جـ) سفرى إلى اليمن
٤٨/١/٦ – ١٩٤٨/٣/١٢

الغرض من الرحلة :

فى يوم ٦ من يناير سنة ١٩٤٨ سافرت إلى اليمن بالطائرة ومعى صديقى الدكتور حسن اسماعيل وكيل مصلحة العمل بصفتنا مندوبين عن الحاج محمد سالم مدير شركة أتوبيس الشرقية والدقهلية لمقابلة الإمام يحيى إمام اليمن . ووضع عقد شركة يمنية مصرية للتجارة بعد التعرف على موارد الثروة باليمن زراعية ومعدنية وحيوانية ، والوقوف على مقدرة اليمن البشرية وإمكانياتها المادية ومدى استخدام تلك الثروات ، وللتعرف فى نفس الوقت على الشخصيات اليمنية التى تبدى استعداداً طيباً للإسهام فى الشركة التى ستكون لو قامت أول شركة من نوعها تربط مصالح مصر واليمن وتنشأ بينهما العلاقات التجارية والاقتصادية فضلا عن توثيق الروابط بين شعبيهما .

التمهيد لفكرة تكوين الشركة :

وتلك ولا شك مهمة صعبة إلا أنها محببة إلى نفسى وأنا التواق لتلمس كل وسيلة تحكم الصلة بين الأقطار العربية والإسلامية وكان الأستاذ الفضيل قد سبقنا إلى اليمن ومهد الفكرة لتكوين الشركة لدى

الإمام وكبار المسئولين ، وحصل منهم على موافقة مبدئية مشروطة بأن يكون الحاج محمد سالم وهو موضع ثقة الإمام ممثل مصر فى الشركة وأن يكون للإمام وسيوف الإسلام النصيب الأوفر من أسهمها .

المبيت بأسمرة :

مرت الطائرة بالسودان وتوقفت قليلا بالخرطوم وتزودت بما يلزمها من وقود ثم بأريتريا وهبطت مساء بأسمرة التى نزلنا بأحد فنادقها الفخمة وفى صباح اليوم التالى غادرت الطائرة أسمرة إلى جزيرة كمران المواجهة لساحل اليمن فوصلنا إليها حوالى الظهر .

الجنرال طومسون الإنجليزى حاكم جزيرة كمران :

ووجدنا فى استقبالنا بالمطار حاكم الجزيرة الإنجليزى الجنرال طومسون وركبنا معاً سيارته الخاصة إلى سرايه المطلة على البحر من فوق ربوة عالية وتناولنا الغداء معا وأخذ الجنرال أثناء الطعام يستفهم بلباقة عن مهمتنا فى اليمن – وهو ولا شك يعلمها كما أعتقد .

وصايا الجنرال :

ثم أوصانا بأمور ثلاثة :

١ – أن لا نشرب الماء باليمن لأنه ملوث .

٢ – وأن لا نسير باليمن ليلا خشية أن نضل الطريق .

٣– وان لا ندخل قرية فى طريقنا ولو أدى ذلك إلى البقاء فى العراء ليلا أو نهاراً لانتشار الأمراض المعدية بين الأهالى بصورة مزعجة ، فشكرناه على نصيحته وعزمنا على اتباعها .

وبعد تناول الغداء أخذنا قسطاً من الراحة فى استراحة ملحقة بالسراى وقمنا بالاستحمام بدش بدائى عبارة عن صفيحة كصفيحة الغاز عندنا مملوءة ومعلقة بحبل فى سقف الحمام ومتصلة بغطاء صفيح حاجز للمياه فى قاع الصفيحة المخزم بحيث إذا ما شده الإنسان ارتفع الغطاء قليلا فتتدفق المياه على الجسم من تلك الثقوب .

فاروق والدش :

ومن ذكريات الجنرال التى ذكرها لنا أن فاروق ملك مصر كان يستخدم ذلك الدش كلما مر

بالجزيرة فى رحلاته وكان ينام على نفس السرير الذى نمنا عليه بعض الوقت للاستجمام بالحجرة المجاورة للحمام .

إعداد رفاص خاص لنقلنا إلى الشاطىء المقابل ومدنا بالماء المقطر :

ومما يذكر بالشكر والعرفان للجنرال طوسون أن أعد لنا رفاصاً خاصاً أقلنا إلى شاطئ اليمن المقابل للجزيرة وأمدنا بزلعة كبيرة مملوءة ماء نقياً للشرب تغنينا عن مياه اليمن الملوث وكانت هذه خدمة لنا لا تقدر بثمن .

الشعب الصخرية وعمال الميناء :

ولوجود شعاب صخرية قرب الشاطىء وقف الرفاص بعد أمتار قليلة وحضر عمال الميناء وحملونا إلى الشاطىء ودخلنا قرية عليها مسحة الفقر ونزلنا ببيت العمدة وتناولنا الغداء قعودا على الأرض .

فى طريقنا إلى الحديدة ليلا :

وبعد انتظار ممل للعثور على سيارة تنقلنا إلى الحديدة وجدنا بعد جهد سيارة بضاعة نقلتنا إلى بلدة صغيرة فى طريق الحديدة لا أذكر اسمها ودخلناها مساء واسترحنا قليلا بمنزل العمدة الذى ألح علينا بالمبيت حتى لا نضل الطريق إن نحن واصلنا السير إلى ميناء الحديدة ليلا ، إلا أننا جازفنا وفضلنا مواصلة السفر خشية عدم توفر وسائل الراحة فى تلك الدار ، فهيأ لنا العمدة سيارة تشبه التاكسى عندنا وبعث معنا برجلين ليدلانا على الطريق .

ضل السائق الطريق وتعطلت السيارة :

وقطعت السيارة شوطا كبيرا وضل السائق الطريق رغم وجود الدليلين وخيم الظلام وظل السائق يحاول الاهتداء إلى الطريق الصحيح وبعد جهد وفق إليه وسار فيه قليلا ثم أصاب السيارة عطب وتوقفت عن السير تماما رغم كل الجهود التى بذلت لتصليح مابها من خلل ، ولم يكن بد من الاستسلام لقضاء الله ، فبقينا مكاننا والظلام حالك والجهة موحشة حتى يأتى الله بفرجه ، وبعد حوالى الساعة ونحن على ذلك الحال لاحت من بعد سيارتان مقبلتان واتضح أن أولى الأمر بالحديدة وكان وصلهم نبأ إصرارنا على مواصلة السفر ليلا بعثوا وفداً للقائنا فتنفسنا الصعداء وانتقلنا إلى السيارتين تاركين المعطلة ووصلنا الحديدة فجراً وقصدنا دار الضيافة وهو مبنى على الطراز التركى ويطل على البحر وأدينا صلاة الفجر وآوينا إلى فراش وثير كل منا فى سرير فى حجرة فسيحة مفروشة بالسجاد العجمى .

زيارة قاضى الحديدة لنا بالدار مرحبا :

وفى اليوم التالى زارنا قاضى الحديدة مرحباً متمنيا لنا طيب الإقامة وقمنا برد الزيارة له شاكرين وبقينا فى بيت الضيافة حوالى الأسبوع وزرنا خلاله جبل الملح (السليط) والملح من أكبر ثروات اليمن وصلنا إليه راكبين البغال فى طريق تشقه آثار خط ترولى مطمور فى الرمال وكان من قبل ينقل عليه الملح المستخرج من ذلك الجبل إلى المراكب لتصديره إلى الخارج .

زيارتنا لجبل السليط والميناء القديمة :

وزرنا الميناء القريبة من السليط فوجدنا أنها تصلح لتكون ميناء تجارياً هاماً لو وجهت إليها العناية لتعميقها لتتمكن من استقبال المراكب الضخمة – ومن مزايا الميناء وقوعه فى مكان خال من التيارات المائية هادئ يشبه الخليج .

زيارتنا للسوق والمدرسة الوحيدة بالحديدة :

وجلنا خلال البلد وزرنا السوق والمدرسة الأبتدائية الوحيدة به ولمسنا فى جولاتنا حالة البؤس والفاقة والمرض التى يعيشها الأهالى المحرومون ومما راعنا أيضا انغماس الناس جميعا لا فرق ين صغير وكبير أو أمير وخفير فى مضغ القات وهو نبات أخضر يشبه عندنا الحلبة الخضراء إلى حد كبير حتى ليفضلوه على تناول الطعام ، وهم يخلدون بتعاطيه على نحو مفرط إلى الكسل والخمول ، والجدير بالذكر فى هذا المقام ما علمناه من أن الإمام الطاغية جريا وراء النفع الذاتى عمم زراعته عن قصد خبيث .

من سيئات الإمام :

عمد إلى التوسع فى زراعة القات على حساب الأراضى التى كانت تزرع بناً المحصول الرئيسى باليمن واحتكر زراعته لنفسه وجعل سعره فى متناول الفقير ، ليعمم تعاطيه والإقبال عليه ، ويضمن بتلك السياسة الخبيثة اللا إنسانية بقاء الشعب ميتاً يدين له بالطاعة العمياء .

اجتماعات الأعيان وتجار الحديدة :

وكنا افضينا إلى القاضى حاكم الحديدة فى زيارتنا له بمهمتنا والغرض من زيارتنا لليمن وطلبنا منه تيسير اجتماعنا بالتجار والأعيان ودعوتهم لحضور اجتماعات نعقدها بدار الضيافة للتعرف عليهم ولشرح

فكرة تكوين الشركة التجارية المزمع تكوينها وتبادل الرأى معهم فاستجاب القاضى وتمت الاجتماعات ونجحت حيث رحب الكل بالفكرة والانضمام إلى الشركة كما تعهدوا بالدعوة للمشروع .

صدور إذن الإمام لنا بالانتقال إلى صنعاء :

ولم ننتقل إلى صنعاء العاصمة إلا بعد أن أذن لنا الإمام ، وهو الوحيد الذى يصدر إذن الانتقال من جهة إلى أخرى . وقيل لنا إنه كان مريضا طول الفترة التى قضيناها بالحديدة فلم يأذن لنا بالانتقال من الحديدة إلى صنعاء إلا بعد تمام شفائه ووضع السيد القاضى سيارته وهى – السيارة الوحيدة الموجودة فى الحديدة – تحت تصرفنا وأخذنا معنا زلعة الماء المقطرة ورافقنا بالسيارة الأستاذ مصطفى الشكعة وحرمه وكان منتدبا للتدريس باليمن وسلكت السيارة الطريق الجبلى الوحيد الذى يربط الحديدة بالعاصمة وكانت تواصل السير نهاراً وتتوقف ليلا ونبيت فى العراء عملا بنصيحة الجنرال طومسون فلم ندخل أى قرية صادفناها فى الطريق ، والطريق فوق الجبل كثير الدوران يتسع بكل صعوبة ومع الحذر الشديد لمرور سيارتين متقابلتين بل إذا صادف وتقابلت سيارتان كان على إحداهما أن تتوقف تماما عن السير وتبقى فى مكانها حتى تمر الأخرى من جانبها بسلام .

استقبالنا خارج العاصمة :

وبعد ليلتين ظهرت صنعاء بمبانيها البيضاء فى منظر جميل خلاب وكان فى استقبالنا خارج العاصمة وفد من الأهالى على رأسهم وزير الخارجية السيد الكبسى الذى زار مصر من قبل وكان يعرف بيننا بالوزير الصامت لقلة كلامه .

نزلت أنا وصديقى الدكتور حسن إسماعيل ضيفين على الحكومة بدار الضيافة لمدة ثلاثة أيام حسب العرف المتبع ، وكان ضيف الشرف الذى لازمنا طول مدة إقامتنا السيد الكبسى وزير الخارجية ، وكنا موضع الحفاوة والتكريم ، وبعد انقضاء الثلاثة الأيام جاءنا إذن الإمام بمقابلته فى قصره .

وذهبنا إلى القصر فى الميعاد المحدد بصحبة السيد الكبسى ، والقصر مبنى بالحجارة على الطراز التركى وبمدخله ساحة فسيحة مكشوفة مواجهة للداخل وأول ما يقابل الداخل رجال الحرس يجلسون على كنبة قديمة من خشب ويلبسون ثياباً مهلهلة ويتسلحون ببنادق قديمة ، ومما لفت نظرى أنهم لم يتحركوا من مكانهم بل بقى بعضهم جالساً وبعضهم منبطحاً فى جلسته وكلهم يمضغون القات ولم يؤدوا واجب التحية المفروض فى مثل تلك المناسبة ومعنا وزير خارجيتهم .

صعدنا إلى الطابق الأول ودلفنا إلى حجرة صغيرة بسيطة فى مظهرها مغطاة أرضيتها بالسجاد

ووجدنا الإمام مضطجعاً فى جلسته يتصدر المكان ومن حوله وزراؤه يجلسون على شلت من حرير وأخذنا مكاننا أمامه بعد أن حييناه ووزراءه بتحية الإسلام ، واعتدل فى جلسته ورد التحية هو والوزراء ، والإمام يحيى كما رأيته بدين واسع العينين على كثير من الذكاء والدهاء ، وبه بقية من فتوة الصبا . وبدأ الإمام عند الترحيب بنا يناقشنا فى موضوع الشركة التجارية الذى جئنا إلى اليمن من أجله ، وسألنا فيما شاهدناه فى زيارتنا لجبل السليط (جبل الملح) والميناء حوله وما دار من مناقشات فى اجتماعاتنا مع التجار والأعيان وعما وصلنا إليه من نتائج مما دلنا على أنه ملم بكل حركاتنا وسكناتنا من وقت أن وطأت أقدامنا أرض اليمن وأبدى ارتياحه لما سمع وتمنى لنا التوفيق فى مهمتنا وصادفت زيارتنا هذه انعقاد مجلس الوزراء – ولعل ذلك كان مقصودا وكان رئيس الوزراء يجلس على يمين الإمام وبجواره أمين سر المجلس وأمامه بعض الأوراق وخاتم الدولة ومن حول الإمام فى شكل نصف دائرة الوزراء وكلهم يمضع القات بلا حرج وتفضل الإمام وسمح لنا بالبقاء والمجلس منعقد ودخل أثناء انعقاد الجلسة أحد السعاة وسلم كاتم السر بعض الأوراق ملفوفة على شكل عش النمل الذى يلعب به أطفالنا أو الحجاب الذى يكتبه المنجمون ، فأخذ يفضها ثم عرضها على رئيس الوزراء الذى تصفحها وعرضها بدوره على الإمام الواحدة تلو الأخرى وألقى عليها الإمام نظرة وردها لرئيس وزرائه الذى أشر عليها لتحويلها إلى الوزير المختص وردها ثانية إلى كاتم السر الذى لعقها بلسانه ووضع عليها خاتم الدولة وعاد فسلمها للوزير المختص الذى لم يكلف نفسه عناء النظر إليها ودسها فى ردائه . وبذا تكون الرسائل الواردة أخذت خط سيرها واستأذنا فى الانصراف فسمح لنا الإمام مكرراً شكره على اهتمامنا بمشروع الشركة وتمنياته بالتوفيق .

اجتماعنا بسيوف الإسلام والأعيان والتجار :

وكان الكبسى نشطا لازمنا كظلنا ولم يفارقنا إلا قليلا وقت استراحتنا فى الظهيرة بعد الغداء وفى المساء بعد تناول العشاء . هيأ لنا الاجتماع غير مرة بسيوف الإسلام والأعيان والتجار لنتدارس معهم المشروع ونتبادل الرأى ونرسم الخطط للدعوة له . وهيأ لنا زيارة قصر الإمام الصيفى خارج صنعاء وهو أيضاً مبنى على الطراز التركى تتوسطه نافورة جميلة . . وتحيط به حديقة غناء ويقع فى بقعة هادئة بعيدة عن الضوضاء ، وعلمنا أن الإمام يقضى فيه بعض الوقت كلما أحس بحاجته إلى الراحة والاستجمام . ورافقنا الكبسى فى جولة فى سوق المدينة وهو يشبه سوق تحت الربع عندنا بطرقاته الضيقة وحوانيته الصغيرة ، وزرنا معه المدرسة الابتدائية الوحيدة بالبلد ، ومر بنا على أسوار السجن الرهيب المخصص لرهائن الإمام من مناهضيه وأبنائهم وذويهم ويسر لنا دخول الحمام التركى بصنعاء وهو فسيح

الأرجاء مصمم بطريقة هندسية بديعة ، فمتى دخل الإنسان من بابه الخارجي صادفته ردهة كبيرة للاستقبال والاستراحة وتوصل إلى حجرة لخلع الملابس ، ومنها إلى حجرات الاستحمام الواحدة تلو الأخرى مجهزة بالمياه البادرة والمغاطس الساخنة بحيث تتدرج فيها الحرارة وكمية البخار تصاعداً حتى لا يقبل الداخل السخونة دفعة واحدة . وسعدنا بأخذ حمام ساخن وقام عمال الحمام بخدمتنا وتدليكنا بطريقة ممتازة .

والوسيلة الوحيدة للانتقال فى اليمن هى الدواب وليس باليمن سوى طبيب واحد إيطالى خاص بالإمام ، رغم أن الأمراض المتوطنة تفتك بالشعب المسكين البائس المحروم .

ولم يفت الكبسى أن يروح عنا من عناء اللقاءات المتعددة مع سيوف الإسلام والأعيان والتجار ، فكان يخرج بنا من وقت لآخر إلى المزارع سيراً على الأقدام لنستمتع بالطبيعة حيث الحقول الخضراء والسماء الصافية والهواء العليل .

رى الأراضى الزراعية :

لقد شاهدنا الطريقة التى تروى بها الأراضى الزراعية باليمن ، فالأرض هناك تزرع بطريقة المسطحات المدرجة بانحدار خفيف وتروى بالمطر بحيث إذا سقط الماء وعم السطح الأعلى للأرض المنزرعة انحدر الفائض منه إلى السطح الذى يليه ، وهكذا حتى يصل إلى السطح الأدنى ، واليمن تزرع البن بكثرة وهو المحصول الرئيسى بها يفيض عن حاجة البلاد وتصدره إلى الخارج .

وضع المسلمين :

ولم يفتنا نحن أن ننتهز فرصة ملازمة الكبسى لنا ونتحدث معه فى مختلف شئون وأوضاع العالم الإسلامى من اجتماعية واقتصادية وسياسية بصفة عامة وأوضاع اليمن وأسباب تخلفها ووسائل العلاج . . العاجلة منها والآجلة والممكنة منها حالياً وطرق تنفيذها والمتعذر تنفيذها وطرق تذليلها بصفة خاصة ، وقد تبين لى أنه على دراية واسعة بها ، وتآلفت قلوبنا وتبادلنا الثقة ، فجاهرت له برأيى بأن الأوضاع فى بقاع العالم الإسلامى تكاد تكون متقاربة لأن العلة الأساسية فيها جميعاً واحدة . وهى الغفلة التى جعلتها متخلفة وسيرتها لقمة سائغة للطامعين وبان العلاج فى نظرى أن يبدأ المصلحون وهم لا يخلو منهم قطر ولو أنهم قلة – برد قومهم إلى الإيمان والعمل والأخذ بأسباب المنعة والعزة والقوة وإزالة ما ران على القلوب وما غشى الأبصار ليعود المجتمع الإسلامى بالقرآن والسنة عزيزاً كما كان فى صدر الإسلام ، وتجاوبنا وازداد اطمئنان الكبسى إلينا فجرى على لسانه مرة ونحن نسير الهوينى بين المزارع

خارج المدينة فى جو صاف بديع أن باليمن شباباً واعياً ومنهم من حظى بزيارة مصر وتأثر بنهضتها يألم للأوضاع الفاسدة القاتلة التى طبعت الشعب بالتخلف والفقر والذل والجهل ، وأن ذلك الشباب يتملكه شعور جارف بضرورة تغيير تلك الأوضاع السقيمة والتى يردها أصلا لمظالم واستبداد وانحراف العائلة الحاكمة ، ثم لضعف واستكانة وقلة حيلة الشعب المنكوب المسلوب الإرادة .

رغبتنا فى اللقاء :

وكان من أعز الأمانى أن ألتقى بإخوان مجاهدين فى الأقطار الإسلامية لطرح الآلام وتبادل الآمال وتنسيق النضال ، فانتهزت تلك الفرصة الذهبية وخشيت ألا تتكرر لقصر مدة بقائنا باليمن وأبديت الرغبة ملحاً على الكبسى (أن يتفضل ويهيئ لنا فرصة اللقاء) بذلك الشباب الناهض المتحفز والتعرف عليهم والتحدث إليهم ، فتلك فى نظرى مهمة لا تقل شأنا عن مهمة تكوين شركة تجارية تربط بين مصالح مصر واليمن .

الجلسات المسائية المغلقة :

وكان الكبسى لبقاً وأعتقد أن رغبتى صادفت هوى من نفسه إذ ما لبث أن يسر لنا لقاءات مسائية مغلقة بدار الضيافة مع الفريق المختار من هؤلاء الشبان وهم كما علمنا بعد زعماء حركة التحرير ، وكانت تلك الاجتماعات تمتد أحيانا إلى ما بعد منتصف الليل بحضور الشيخ الفضيل الورتلانى وهو موضع ثقتهم .

إحساسنا بتدبير الشباب للقيام بانقلاب :

وأحسسنا من المناقشات التى تناولت الموقف بالشرح من جميع نواحيه بما يجيش فى صدور ذلك الشباب الثائر – من أن الإناء قد فاض وأن الرءوس قد أينعت وحان قطافها ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع وأنه عقد العزم على التحرك وعلمنا أن هناك أمراً خطيراً يدبر فى الخفاء للقيام بانقلاب منتظر يسنده بعض الشخصيات البارزة مثل الكبسى وزير الخارجية والزبير رئيس الوزراء للإطاحة بالإمام يحيى وعائلته وبطانته .

وحركت تلك الآمال النبيلة وذلك الهدف السامى مشاعرى وانتهزت بدورى الفرصة الذهبية التى لا تعوض وقد لا يجود الدهر بمثلها ، فاستأذنتهم بأن يسمحوا لى بأن أدلى بدورى فى الدلاء إشفاقاً منى على ذلك الشباب اليانع الناهض أن تكون غلبت عليه العاطفة أو ضاق ذرعا بسوء حال وضعه ووضع

مواطنيه فتعجل وارتجل جرياً وراء فكرة عاجلة قد لا تؤمن عقباها فيضيع الشباب وتضيع الفكرة التى يجاهد من أجل تحقيقها فوفقنى الله لنصحهم وتمثلت قول الشاعر العربى :

لا خيل عندك تهدينا ولا مال فلينفع النصح إن لم يغنك الحال

ما وفقنى الله فى نصحهم :

وتساءلت فى تلطف أريد لفت نظرهم إلى أمور أراها بالتجربة من الضرورة بمكان عما إذا كان لم يفتهم درس الموقف من جميع جوانبه ورسم خطة العمل على نحو وترتيب سليم بالبدء بتحديد الهدف والغاية بوضوح لا غرض فيه ، ثم فهم كل فرد منهم فهما صحيحا لما هو منوط به ، ويتبع ذلك الفهم الإيمان الكامل بالرسالة التى عقد العزم على القيام بها والجود بالنفس والمال فى سبيل تحقيقها على أن يبدأ كل منهم بنفسه وأن يسلك السبيل السوى بالخلق الكريم متحرراً من المن والغرور وحب الظهور ، هذا مع حرص المجموعة على التضافر والاتحاد وتحاشى الفرقة والانقسام وأن تكون فى خطواتها يقظة وعلى حذر من الخصم والأعداء والتعرف أولا فأول على قدراتهما فى الداخل والخارج وإعداد القوة معنوية ومادية مع الصبر والثبات إذ لابد للحق من قوة تسنده ، وأخيراً عدم استعجال الثمرة وعدم الارتجال مع الاعتماد على النفس بعد الله القوى العزيز

تقديرهم للنصح وإظهارهم الرغبة فى اتباعه :

وصادف ذلك النصح الموجز والتوجيه المجمل فى صورة تساؤل هوى فى نفوسهم حتى ظفرنا فى ختام الاجتماع بوعدهم بأن يكون كل ما أثير محل اعتبار وتقدير مع توكلهم على الله العلى القدير ، واستبشر الكل خيرا بإذن الله .

الإذن بالعودة :

وفى ١٩٤٨/٢/١٤ طلبنا من الإمام الإذن لنا بالعودة إلى ديارنا وأذن لنا ، وقد انتهينا من وضع مشروع عقد الشركة ، وودعنا القوم وعلى رأسهم الكبسى بمثل ما قوبلنا به من حفاوة وإكرام وحب وإخاء ، ولم نكد نعود إلى القاهرة حتى طيرت الأنباء خبر اغتيال الإمام يحيى ، فرجحنا أن المرجل كان يغلى وقت أن كنا باليمن ولم يفعل نصحنا بالشباب الثائر فعله فغلبت عليهم العاطفة وتعجلوا وارتجلوا . وهذا ما خشيناه وحسبوا أن المقصود هو التخلص من ذات الإمام دون تقدير لأبعاد المعركة وإعداد لها بعد التخلص منه من وضع نظم وقوانين ثم حماية الانقلاب من أية حركة مضادة فى الداخل

والخارج ، ظنوا أن فى قتل الإمام الكفاية فأعطوه كل همهم وغفلوا عن باقى مراحل الرسالة فخسروا الجولة ودارت الدائرة عليهم وعلى من ساندهم .

ولم نسلم فى مصر من الشائعات بأنى والفضيل الورتلانى والدكتور حسن إسماعيل كان لنا ضلع فى إلهاب شعور اليمنيين وحضهم على قلب النظام وتحريضهم على التخلص من الإمام وأسرة حميد الدين .

صحيح أن الإمام يحيى قتل وتخلصت منه اليمن ، ولكن الانتقام من قتلته كان مروعا ووحشيا على يد خلفه الإمام أحمد ابنه الذى أعمل القتل والتعذيب والتمثيل والحبس فى كثير من الضحايا ، ومنهم الكبسى وابن الزبير وغيرهم من رجالات اليمن ، وقبض الإمام أحمد على ناصية الحال بيد من حديد وقضى على كل أمل فى الإصلاح فكان لابد من بدء النضال الوطنى من جديد بدم جديد وعقل جديد وهذا يتطلب الكثير .

رأيى فى كيف تتحقق الآمال :

وكانت تلك النكسة درساً قاسياً ومفيداً فى نفس الوقت إذ تعلم منهم من نجا من الشباب ومن يأتى من بعدهم أن السخط والعواطف ما هى إلا مجرد مقدمات يجب أن تتحول مع الزمن بالفهم الصحيح والإيمان القوى والتخطيط السليم والعمل الدائب الصامت والإعداد القوى مع الصبر والثبات وقوة الإرادة وحسن القدوة ، إلى ركائز لتحقيق الأهداف السليمة ، وأن الصياح والعويل والكلام والسخط والارتجال لم تكن يوما من الأيام أدوات تحقيق الآمال والأحلام .

عبد الله الزبير :

لقد كانت زيارتى لليمن هادفة مليئة بالعبر مفيدة لمن يعتبر

قتل الإمام يحيى فى ٤٨/٣/١٧ برصاص الثوار وهو يتنزه خارج صنعاء ، ونودي بعده بعبد الله ابن الزبير رئيس الوزراء إماما الذى أبدى عزمه على أن يسير بالإمامة سيرة جديدة صالحة .

ولكن ولى العهد أحمد لم يترك له الفرصة ولم يمهله بل اعتصم ببلدة حجه وقلب عليه رجال القبائل المحيطة بصنعاء وأغراهم بالمال وحرضهم على اقتحام العاصمة وسلحهم وأحل لهم كل ما فيها من غنائم وأموال لينهبوها فلم ينعم ابن الزبير بالاستقرار وسقطت صنعاء فى ٤٨/٣/١٤ وبلغ أحمد مناه واعتقل ابن الزبير ونقله إلى حجه وأعدمه ضربا بالسيف فى ٤٨/٤/٣ وتولى أحمد الإمامة واتخذ تعز مقرا له وسار سيرة أبيه يحيى بل أشد فى البطش والقهر والظلم والاستبداد فأخذ يطيح بالرؤوس ويعذب

ويسجن الأبرياء ويخرب القرى حتى فاض الإناء وتعرض للاغتيال أكثر من مرة وكان يفلت وينجو فى كل مرة بفضل عيونه وجواسيسه المنتشرين فى كل مكان شأن كل ظالم جبار.

فكان يكشف المؤامرة قبل وقوعها فيقبض على كل من يشتبه فيهم ويأمر بقطع رقابهم علناً أمام المسجد وبحضوره بعد صلاة الجمعة إمعاناً فى البطش والانتقام والإرهاب.

محاولة اغتياله فى قصره وتمكنه من الهرب :

وتمكن بعض الثائرين مرة ومعهم قائد الجيش من دخول القصر عليه لقتله إلا أن العاطفة غلبت عليهم فلم يقتلوه واكتفوا باعتقاله فى القصر تحت حراسة شديدة، وذلك فى رأيى ضعف وقصر نظر ونادوا بشقيقه عبد الله إماماً لكن أحمد الداهية الجبار اعتزم الهرب وبدهائه وماله استمال حرس القصر وكسبهم فى صفه واتصل عن طريقهم بأنصاره فى الخارج لمعاونته، وتمكن فعلا من الهرب وقبض ثانية على ناصية الحال ونادى به أعوانه إماما فبادر بذبح شقيقه عبد الله وشقيقه العباس وقائد الحرس.

إطلاق الرصاص على أحمد :

إلا أن نقمة الشعب كانت له بالمرصاد، فتحين ضابطان الفرصة وأطلقا عليه الرصاص فأصاباه إصابة خطرة، إلا أنه لم يمت فى حينه ومات بعد ذلك فى ٦٢/٩/١٩ متأثراً بجراحه.

وتولى الإمامة من بعده ولى عهده محمد البدر وأعلن أنه سيسير على نهج والده متحدياً شعور أمته فلم يلبث فى الإمامة أسبوعا حتى هاجمه الثوار فى ٦٢/٩/٢٦ فى قصر البشائر مقر حكمه ودكوا القصر على من فيه وتمكن البدر من الهرب بعد أن تخفى فى زى امرأة وتسلل من باب خلفى.

وتمت الرواية بزوال حكم الإمامة وعائلة حميد الدين وبدأت ثورة الشعب الهادرة تشق طريقها بزعامة عبد الله السلال. وفى هذه النبذة عظة وذكرى للذاكرين

سفرى إلى الأراضى الحجازية

سافرت إلى الأراضى الحجازية فى سنوات ١٩٤٥ و١٩٤٨ و١٩٥٤ و ١٩٦١ لأداء فريضة الحج ويصحبنى فى كل مرة زوجتى الحاجة عزيزة وفى آخر مرة اصطحبنا ابنتنا عائشة كبرى بناتى التى كتب عليها أن تؤدى معنا الشعائر وهى بين الحياة والموت لإصابتها بحمى التيفود التى أنهكت قواها ولكن الله سلم.

وفى سنة ١٩٤٨ بلغت موجة الحر ذروتها ومات الكثير من الحجاج بضربة شمس وأصيبت زوجتى

بها وعرضتها على الدكتور محمد الحداد الذى كان من فضل الله موجوداً معنا وهو ابن الشيخ إسماعيل الحداد صديق قديم لنا فاهتم بها كل الاهتمام وشخص المرض وأسعفها بالعلاج اللازم وكتب الله لها الشفاء .

وفى سنة ١٩٥٤ أصبت أنا بضعف عام وهبوط شديد واشتد بى المرض ونحن فى المدينة المنورة لزيارة الرسول ﷺ حتى لزمت الفراش ولم أقو على الصلاة فى الحرم إلا قليلا .

وفى سنة ١٩٦١ وفقنى الله إلى كتابة الرسالة المرفقة التى رفعتها إلى عاهل الحجاز وكانت وسائل العناية بالنظافة والرعاية الصحية أخذت تشق طريقها للعمل على راحة الحجاج وتبعث الأمل فى مضاعفة الجهد لحياة أفضل للحجاج وأهل البلاد .

رسالتى إلى عاهل الحجاز فى حج ١٩٦١ ، ببعض المقترحات :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز على وزير الشئون البلدية والقروية سابقاً بمصر إلى عاهل المملكة العربية السعودية .

السلام عليكم ورحمة الله . . . وبعد

فما لا شك فيه أن الحكومة السعودية بفضل توجيهاتكم الحكيمة لاتألو جهدا فى توفير وسائل الراحة والرعاية الصحية لحجاج بيت الله الحرام . وأنها خطت فى سبيل ذلك خطوات موفقة توجتها بإصلاح وتوسيع الحرمين وتنظيم السعى بين الصفا والمروة فاستحقت من الحجاج عميق الشكر ومن الله حسن الثواب .

ولقد رأيت لزاما على كمسلم أدى فريضة الحج أربع مرات فيما بين سنة ١٩٤٥ وهذا العام ، ولمس ثمرة الجهود المتواصلة المبذولة لراحة الحجاج أن أتقدم ببعض ما عنّ لى من آراء والأمل يملأ قلبى فى أنها ستكون بإذن الله موضع الرعاية والتنفيذ فى حدود الإمكانيات وبقدر ما تسمح به الظروف خدمة لصالح المسلمين ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

١ - تكوين هيئة تضم مندوبا أو أكثر من كل قطر إسلامى :

كثير من الحجاج يضل الطريق بعرفات أو منى ولعدم معرفتهم اللغة العربية لغة القرآن لا يسهل عليهم التفاهم مع الغير لمعرفة الطريق إلى خيامهم وقد يمر اليوم كله دون الاهتداء إلى مقرهم . وقد يكون منهم المرضى - والمحتاجون إلى إسعاف طبى .

وحبذا لو اتجه التفكير إلى تكوين هيئة تمثل الدول الإسلامية ، وحبذا لو روعى فى التشكيل أن يكون مندوبوها ممن يعرفون اللغة العربية بجانب لغة بلادهم الأصلية ويعرفون أيضا إحدى اللغات الأجنبية المنتشرة الاستعمال كالإنجليزية والفرنسية ويخصص لتلك الهيئة مكاتب تتخذها مقرا لمندوبيها فى عرفات وفى منى على الخصوص على غرار مكاتب الاستعلامات يقصدها الضال أو ذو الحاجة فيجد فيها من يتفاهم معه بلغته . وسيقضى إنشاء مثل تلك الهيئة وما يتبعها من مكاتب على كثير من متاعب الحجاج وقلقهم وضياع وقتهم . وحبذا لو تم بجانب هذا تثبيت لافتات على الطريق بعدة لغات لترشد إلى أهم ما يحتاج إليه الحاج كأماكن المساجد والبعثات الطبية . . . الخ .

٢ – تنظيم الإحسان :

كثير من المحسوبين على هذا البلد الأمين – ولا أحسبهم إلا من المستوطنين الوافدين إليه من الخارج – يمدون أيديهم فى مهانة يطلبون الصدقة وأغلب الظن أنهم من محترفى التسول . ويحتال معظمهم فيلبسون الملابس المهلهلة ليستدروا بها العطف ويوهموا الناس بأنهم فقراء يستحقون الصدقة . وهذا مشهد غير كريم لا يتفق وما ينشده الإسلام للمسلم من عفة وعزة نفس واليد العليا خير من اليد السفلى . ولا شك فى أن إعطاء الصدقة لأمثال هؤلاء فيه تشجيع لهم ولأمثالهم على المضى فى الاستجداء والركون إلى الخمول والكسل .

وحبذا لو اتجه التفكير فى التخلص من تلك الفئة العاطلة بتوجيهها إلى عمل مثمر يفيدها ويفيد البلاد وذلك بإنشاء هيئة من أهل الأمانة وحسن التصرف مسجلة لدى الحكومة لجمع مال الصدقات لصرفها على من يستحقها من العائلات الكريمة والأفراد ممن أخنى عليهم الدهر ولا يسألون الناس إلحافاً تحسبهم أغنياء من التعفف .

وحبذا لو قام على الصرف هيئة تختص ببحث حالات السائلين المحتاجين وكتابة تقارير عنها وعلى أساسها تحدد قيمة الصدقة . وبهذا نضمن حسن جمع المال وحسن توزيعه والقضاء قدر الطاقة على احتراف التسول فتطهر البلاد من المتسولين ويؤتى الإحسان المنظم ثمرته .

٣ – وفقت الحكومة أيما توفيق فى توفير المياه والثلج والمثلجات بعرفات ومنى مما يطمعنى فى أن تواصل جهودها المشكورة وتبادر بتعبيد الطريق ورصف الشوارع ما بين جدة ومكة وعرفات ومنى والمدينة المنورة وغرس الأشجار على جانبيها وتوفير الاستراحات والمظلات وإنشاء دورات المياه المبنية مع تخصيص جزء منها للرجال وآخر للسيدات مع إحاطتها ببعض الأشجار لتقى الحجاج من حرارة الشمس ومطر الشتاء .

٤ – الإفادة من الأضحية :

المشاهد إلى الآن أن الحجاج يتركون الأضاحى بعد ذبحها ملقاة فى الطرقات وخصوصا فى منى بشكل تتأفف منها النفس وتنفر من رؤيته العين وتفوح منها رائحة كريهة ويسبب تركها على هذا الحال انتشار الأمراض .

وحبذا لو عدنا إلى التفكير فيما سبق التفكير فيه للإفادة من الأضاحى : لحومها ودماؤها وأصوافها وأوبارها وعظامها على الوجه النافع ، فتخصص للذبيح أماكن خاصة تجهز بمجارٍ وقنوات للدم يجمع فيها ليستخدم فى بعض الصناعات وتجمع العظام وجلود الأضاحى للإفادة منها أيضا فى المشروعات الصناعية . أما اللحوم فيصح أن تتولى جمعها وتوزيعها نفس الهيئة التى أشرت إليها فى البند الثانى والتى تتولى توزيع حصيلة صندوق الإحسان وما يفيض يمكن الإفادة منه أيضا بصناعة اللحوم المحفوظة ، وهذا كله يستدعى بناء المصانع وتوفير الأيدى العاملة والإفادة من الفنيين لإقامة المصنوعات المختلفة التى ستكون ولاشك مورد ثروة جديدة لخير البلاد والعباد ووسيلة لخدمة العاطلين . ولو شاءت الحكومة لتوفرت أجهزتها المختلفة على درس المشروع تفصيلا وطرحه فى مناقصة عامة فقد تقوم من بين الموسرين رجال الأعمال شركة أو شركات لاستغلال بعضه أو كله .

وأعتقد أن همة حكومة جلالتكم المستمدة من همتكم سوف لا تألو جهدا فى البدء فى درس وتنفيذ تلك المشروعات الهامة باهظة التكاليف طويلة الأجل .

ولا يفوتنى أن أنتهز هذه الفرصة الطيبة وأهنى جلالتكم والأمة الإسلامية بالعام الهجرى الجديد وأدعو لكم بطول العمر مع موفور الصحة ودوام التوفيق – فى خدمة الإسلام والمسلمين ، والله ولى التوفيق وهو نعم المولى ونعم النصير .

أول محرم ١٣٨٢ عبد العزيز على

١٥ يونيه ١٩٦١

سفرى إلى القدس

سافرت إلى القدس يوم ٧ ديسمبر ١٩٥٣ لحضور المؤتمر الإسلامى الشعبى الذى انعقد بها بإذن صدر به قرار من مجلس الوزراء الأردنى وبدعوة من المكتب الدائم للمؤتمر المكون من سبعة أعضاء هم السادة :

١ – محمد محمود الصواف رئيس الأخوة الإسلامية فى العراق

٢ – محيى الدين القلينى الزعيم التونسى

٣ – محمد عبد الرحمن خليفه المراقب العام للإخوان المسلمين فى الأردن

٤ – سيد قطب الكاتب الإسلامى المعروف

٥ – الفضيل الورتلانى الزعيم الجزائرى

٦ – كامل الشريف قائد متطوعى الإخوان المسلمين فى معركة فلسطين

٧ – سعيد رمضان عضو مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين فى مصر وصاحب مجلة « المسلمون » التى يصدرها بالقاهرة

وحضر المؤتمر وفود من أكرم شخصيات العالم الإسلامى وبلغ عدد المندوبين عن الشعوب الإسلامية ٧٥ مندوباً . وكنت أنا مندوب جماعة الكفاح لتحرير الشعوب الإسلامية بمصر وحضر معى رئيسها الشيخ عبد اللطيف دراز وسكرتيرها جمال عرفات شقيق ياسر عرفات والأمير الصينى الثرى مابوقان عضو الجماعة .

وحضر عن الشبان المسلمين رئيس الجمعية صالح باشا حرب وفى صحبته الشيخ أحمد الشرباصى وعن الجزائر فضيلة الفضيل الورتلانى وعن الإخوان كامل الشريف وسيد قطب وسعيد رمضان . وعن الأردن محمد عبد الرحمن خليفة المراقب العام للإخوان المسلمين بها وعن العراق محمد محمود الصواف رئيس الإخوة الإسلامية بها وعن تونس محيى الدين القلينى الزعيم الدينى بها .

عقد المؤتمر عدة جلسات بصالة أحد فنادق القدس اتسمت كلها بالوعى والحيوية وتناول الأعضاء فيها القضية الفلسطينية من جميع نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية وشرحوا العلة ووصفوا العلاج . وتلاقت كلمتى التى ألقيتها مع كلمات السادة الأعضاء المندوبين فيما يمكن تلخيصه فى الآتى وكان موضع موافقة الجميع وصيغ فى شكل قرارات :

١ – إن قضيتنا عادلة وإننا أصحاب حق وإننا ضحية غدر وعدوان الصهيونية والاستعمار والعملاء.

٢ – إن كفتنا ستكون بإذن الله هى الراجحة ما سلكنا الطريق المستقيم ومهما طال بنا الزمن واشتد الكفاح

٣ – إن نكبتنا فى ضعفنا – روحا ومادة – وتمزيق شملنا وتضييع وقتنا فى الكلام والخطب الحماسية والتغنى بالماضى وترديد الأمانى والارتجال ورفع الشعارات وكلها لا ترد حقا مغتصبا ولا ترهب عدواً وهى معاول هدم لا أسلحة نضال. ولا يفضى الركون إليها والاكتفاء بها إلا إلى الخذلان لو لم تتغير المفاهيم وأساليب الجهاد.

٤ – إن صلاح حالنا وكسب قضيتنا وضمان فوزنا فى الدنيا والآخرة هى فى عودة الجميع من جديد – حكاماً ومحكومين – إلى شريعة السماء التى هجرناها ففقدنا حجر الأساس فى الأمن والسعادة والمحبة والإخاء والسلام. فقدنا الإيمان بوحدانية الله فخسرنا الدين والدنيا معاً.

٥ – ولا مفر من الإسراع فى تغيير ما بأنفسنا وفى اليقظة من غفلتنا وطرح أسلحة الضعف والخذلان والأخذ بتخطيط علمى مدروس وأخذ القضية مأخذ الجد وبذل الروح والجهد والمال لاسترداد الحق المغتصب والذود عنه وعن العزة المفقودة والكرامة المهدرة.

٦ – هذا فضلا عن قرارات هامة أخرى اتخذت فى جلسة سرية رؤى للمصلحة العامة عدم إعلانها.

٧ – وضع المؤتمرون الأمل الكبير فى متابعة المكتب الدائم للمؤتمر تنفيذ القرارات ومواصلة رسالته العظيمة وتنظيم الدعوة لمؤتمرات إسلامية دورية تسير بالقضية فى مسارها البناء السليم

وكان أن دعا الملك حسين ملك الأردن وفود المؤتمر لتناول الغداء معه فى قصره بعمان وقبلنا الدعوة، وكان مما لفت نظرى وأذكره بالإكبار والإجلال والتقدير لفضيلة العالم الجزائرى الكبير الشيخ البشير الإبراهيمى وكان مكانه على مائدة الطعام بجوار الملك – أنه أبى أن يتناول من الطعام شيئاً لأنه لاحظ أنه مقدم لنا فى صحاف من الذهب مما لا يرضاه الشرع، فكان تصرفه هذا فى حضرة الملك لفتة كريمة منه وقدوة حسنة للجميع.

وكان ضمن البرنامج زيارة مخيمات اللاجئين فزرناها ووقفنا عن كثب على ما هم فيه من بؤس وتعاسة وحياة أقرب إلى حياة الحيوان منها إلى حياة الإنسان.

ولمسنا فى نفس الوقت ما قام به المكتب الدائم للمؤتمر من جهد مشكور رغم قصر عمره وضآلة موارده من تعبئة للجهود الشعبية حفاظاً على الروح المعنوية وإقامة تحصينات دفاعية فى القرى الأمامية

واهتمام بمناهج التربية والتدريبات العسكرية ، وإيفاد بعثة من أعضائه السادة على طنطاوى وأمجد الزهاوى ومحمد محمود الصواف إلى أقطار الشرق الأقصى لتنظيم جمع المال لشراء السلاح وإيفاد بعثة أخرى إلى موسم الحج مزودة بمطبوعات لتوزيعها بالمجان لتذكير المسلمين بواجبهم الدينى نحو القضية الفلسطينية ، وأول الغيث قطر ثم ينهمر ، ومما يؤسف له أشد الأسف أن فكرة المؤتمر الإسلامى الشعبى القائم على جهود الشعوب لم تقابل من الحكومات الإسلامية ومنها حكومة مصر بالرضا والعون والمساندة بل حوربت بشتى الوسائل ، لا لشىء إلا أن الداعين لها والقائمين بها هم من رجال الإخوان المسلمين وأكرم شخصيات العالم الإسلامى فكرا وغيرة وعملا .

سفرى إلى غزة

٥٣/١٠/٢١ - ١٩٥٣/١١/١٢

بتصريح من سلاح الحدود فى ٥٣/١٠/٢٠ لمدة شهر سافرت إلى غزة لزيارة نجلى دكتور على عبد العزيز مدير المستشفى الأهلى بها ولانتهاز فرصة وجوده لزيارة مخيمات اللاجئين وتفقد أحوالهم للمرة الثانية فوجدتهم كما هم فى حالة يرثى لها تفتت الأكباد . إذ يحشرون حشراً فى حجرات ضيقة لا تتوفر فيها أى وسيلة من وسائل الراحة ولا يدخلها ضوء شمس ولا نسمة هواء ، يفترشون الأرض ولا يطعمون إلا الفتات من المعونة الأمريكية . يقاسون آلام الجوع والمرض والجهل والحرمان ، أجسادهم هزيلة وصحتهم عليلة وحياتهم حياة بؤس وشقاء . وهم يموتون ببطء وإن اعتبروا تجاوزا أنهم أحياء ولا حول ولا قوة إلا بالله .

سفرى إلى غزة

٥٤/٦/١٩ - ٥٤/٦/٢٣

وفى هذه المرة سافرت إلى غزة بتصريح من إدارة الحاكم الإدارى العام لمدة عشرة أيام وكان معى الأخ عبد القادر بك مختار عضو مجلس إدارة الشبان المسلمين موفداً من الجمعية لمقابلة حاكم غزة العسكرى اللواء عبد الله رفعت وعرض طلبها عليه الخاص بمنحها قطعة أرض لإنشاء فرع للجمعية عليها ، وكنا موضع حفاوة وتكريم ، وقوبل الطلب باهتمام زائد وتفضل وعاين معنا بعض الأراضى الفضاء وطلب منا ترك الموضوع له بعض الوقت لاختيار المكان المناسب مؤملا التوفيق بإذن الله ،

وعدنا فى ٥٤/٦/٢٣ نرقب ما سيأتى به الغد وما التوفيق إلا بالله .

هذا وأختم الجزء الأول من مذكراتى بتسجيل بعض ما كنت أصدرته من نشرات الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل بعنوان « مصر بين شقى الرحى » مما لم تصل إليه يد البوليس فى مرات التفتيش العديدة التى تعرض لها منزلى .

وثائق الوحدة القومية
لاستقلال وادى النيل

المطبوع التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

« هاؤم اقرءوا كتابيه » [1]
قرآن كريم

مصر بين شق الرحى

الجبهة – المحادثات السياسية

ذكرت الوحدة بنشرتها الأولى (مصر بين شق الرحى) بتاريخ ٤ من نوفمبر سنة ١٩٣٤ :

تتخذ الأمم الحية من الشدائد ما يشد العزائم ، ويحفزها للقيام بما يجب أن تقوم به إرضاء لله والوطن ، لا إرضاء لبعض الناس . !

لقد خلقت إنجلترا فى الشهور الأخيرة فى الجو مشاكل تريد بها أن تنفذ مرحلة من مراحلها الاستعمارية المبيتة من عهد بعيد لاستعباد وادى النيل ؛ وبينا نراها – مع قوتها – حكومة وشعباً تكون جبهة واحدة ، وتقف موقف الحزم والشدة تريد أن تملى إرادتها وتضرب ضربتها – ترانا – مع ضعفنا – وكل حزب بما لديهم فرحون : جعلنا الوطنية تنافساً فى المصالح الضخصية وقتالاً فى سبيل الحكم ، إذ بردت الوطنية فى صدورنا ، واستعبد الغرور قلوبنا واستذلت المطامع رقابنا ، ولم تنسنا الشدة – ولو إلى حين – تلك الأحقاد والمطامع الشخصية والنزعات الحزبية ، فوجد الغاصب فينا مطية لتنفيذ مآربه ، وكسب على طول الخط وخسرنا ، وأصبحنا « ومصر بين شق الرحى ، فلا الغاصب يرحمها ولا أبناؤها ينصرونها .

وجاء فى ختام النشرة . . . إنا نهيب بالزعماء أن يبصروا نور الحق فينكروا ذواتهم ، ويترفعوا عن إشباع مطامعهم ، ويتناسوا أحقادهم ، وينظموا صفوفهم ، ويوحدوا مجهوداتهم ضد الأغاصب فى سبيل خلاص بلادهم . .

كما نهيب بالأمة ألا تستسلم بعد اليوم وألا تحسن الظن بمن كانوا حتى اليوم شرا ووبالا عليها ، وأن تعتمد على نفسها فى استرداد حريتها ، فليس ينفع الشعوب لتحريرها سوى العمل الإيجابى .

(١) سورة الحاقة / ١٩ .

وذكرت الوحدة بنشرتها الثانية « مصر بين شق الرحى » بتاريخ ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٣٤ :

بينا فى الكلمة السابقة أن الإنجليز هم البلاء ، ولم نخل الأمة من اللوم على استسلامها ؛ كما أننا حمّلنا من تصدوا للزعامة فينا مسئولية ما وصلنا إليه من تأخر فى جميع مرافق الحياة لتنكبهم طريق الرشاد وركونهم إلى وعود الغاصب برغم وضوح بطلانها وأتباعهم سياسة حسن الظن به وبرغم تعدد افتياته على حقوقنا ، وتدخله فى الصميم من شئوننا ، وميلهم إلى سياسة الانتظار برغم ما أدت إليه من إماتة الشعور الوطنى وقتل روح العمل !

وأهبنا بالأمة ولا نزال نهيب بها ألا تستسلم ، وأن تتيقظ وتعمل ؛ كما ناشدنا المتزعمين ، ولا نزال نناشدهم بحق الوحدة الممزقة – أن يطرحوا التنابذ والشقاق ، ويترفعوا عن التمسح بالأعتاب . والترامى على كراسى الحكم ويوحدوا مجهوداتهم ضد الغاصب والغاصب وحده ، ويجمعوا كلمتهم على ميثاق قومى عام أن كانوا فى وطنيتهم صادقين ؛ إذ أن الوطنية الصادقة لا تقر تعدد الأحزاب فى بلد تدنس أرضه المقدسة قدمُ الغاصب ؛ كما لا تقر حسن الظن بالخصم والركون إلى خططه ، وتحويل النضال عنه إلى أبناء الوطن الواحد ؛ بل على العكس هى التى توجد فى الأمة كتلة واحدة تخلق فيها عقيدة سليمة . وتغذيها بلبان كراهية الغاصب والعمل على تقلص ظله . وفوق هذا وذاك هى الوطنية التى تعمل ولا تتكلم . .

أراد الإنجليز أن تستقيل الوزارة (إشارة إلى وزارة صاحب الدولة عبد الفتاح يحيى باشا) مصحوبة بسخط الأمة فاستقالت ، وكان ما أرادوا برغم أن رئيسها لم يبن استقالته على النحو المعروف من ضعف الصحة وطلب الراحة ، بل سبب استقالته بتدخل الإنجليز وعرضهم رغبات رأى دولته أن فى تحقيقها تفريطاً فى حقوق البلاد .

وأراد الإنجليز أن تكون الوزارة الحالية (إشارة إلى وزراة صاحب الدولة توفيق نسيم باشا) بالشكل الذى شكلت به فكانت ، وتفاءل المتزعمون خيراً لرضا الإنجليز عنها ، وتلك لعمر الله سنة خاطئة ضارة . فقابل الشعب الوزراة بالفرح والتهليل ، وهى المشكلة وفق هوى الإنجليز ومشيئتهم . فإلى أى طريق نحن مسوقون ؟ وأى عقل يقبل أن مصلحة الإنجليز الغاصبين تتفق ومصلحة الأمة المهضومة الحق ؟ وإلا فاين الخصومة إذن ؟ وعلام الجهاد ؟ هكذا أراد الإنجليز وهكذا أراد المتزعمون : أولئك لمصلحة بلادهم ، وهؤلاء لمصلحة ذواتهم ، ومصر المسكينة بين شق الرحى . . . . !

ألا وإن الرواية لم تتم فصولاً ، فهاكم الإصبع الإنجليزية تتدخل فى مسألتى ناظر الخاصة الملكية والوصاية . وستستمر القافلة طالما أنها لاتجد من يصدها ، وستصل إلى بغيتها طالما أن فى مصر المطية الذلول !

هذا وقد أعلن صاحب الدولة رئيس الوزارة الحالية (محمد توفيق نسيم باشا) أنه سيلغى الدستور الحالى ، وكنا نود أن يتمم دولته التصريح بما سيتبع ذلك من إجراء : هل عودة إلى دستور سنة ١٩٢٣ ؟ أو وضع دستور جديد ؟ وسواء كان هذا أو ذاك فإنا نقف قليلاً بالأمة ، وخصوصاً بمن جروا وراء الخيال والأمل الكاذب ، وأملوا الأمة بالغنم الكبير من وراء الإلغاء والتعديل ، فنذكرهم – (إن نفعت الذكرى) – أن الإنجليز تدخلوا فى دستور سنة ١٩٢٣ ، وتدخلوا فى دستور سنة ١٩٣٠ ، وتدخلوا حتى فى قرارات مجلس النواب فى عهد الدستور القديم ، وهم سوف يتدخلون من جديد ويمعنون فى التدخل مادمنا على هذه الفوضى وما بقى لهم فى مصر أذناب ، وسوف تؤيد الحوادث القريبة دعوانا من تدخلهم فى النظام الجديد المنتظر .

وجاء فى ختام النشرة . . تلك كلمة بريئة نبرئ بها ذمتنا ، ونريح ضميرنا ، وسيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى والسلام على من اتبع الهدى .

وذكرت الوحدة فى نشرتها الثالثة « مصر بين شقى الرحى » بمناسبة مؤتمر الوفد بتاريخ ١٧ من ديسمبر سنة ١٩٣٤ .

تلجأ الأمة إلى عقد مؤتمر إذا ما أشكل عليها الأمر ، أو أظلم أمامها الجو ، وأدلهم الخطب ، فإذا كان الأمر خاصًّا بإحدى نواحى الحياة عقدته من الإخصائيين ، وإذا كان الخطب عاماً يمس مصالح الأمة فى مجموعها حتم الواجب الوطنى أن يكون قوام المؤتمر رجالات الوطن ، فلا يكون طائفيًّا أو حزبيًّا ، وإنما يكون وطنياً عاماً ، وبذلك وحده تكون قرارات المؤتمر عصارة الأفكار الناضجة على ضوء المصلحة العامة ، لا للمصلحة الخاصة ، سليمة لا عوج فيها ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . . . . . !

وكنا نظن وقد انتهكت إنجلترا حرماتنا ، وأنهكت قوانا ، إنجلترا التى لا تدين فى سياستها الاستعمارية إلا بمبدأ التفرقة ، ولا تعتمد فى استعباد الأمم إلا على أبناء تلك الأمم أنفسهم ، فسلطت بعضنا على بعض ، ومزقتنا شيعاً وأحزاباً ، ومكناها منا ، فأغمدنا سلاحنا فى صدورنا ، وكنا جميعاً بلا تمييز ولا تفريق ضحية تلك السياسة الخرقاء !

كنا نظن – ونحن أحوج ما نكون إلى التضامن والقضاء على روح الحزبية البغيضة – وقد اكتوينا بنارها – أن الوفد (وقد تصدى للتزعم) يشعر بما نشعر به ، ويعلم أن الوطنية ليست احتكاراً ، وأن أعظم ما ترجوه الأمة الآن هو جمع الصفوف وتوحيد الكلمة وإقامة بناء الوحدة القومية والتمسك بالعروة الوثق ، فلا يصبغ المؤتمر بصبغة حزبية ليكون المؤتمر بحق مؤتمرا وطنيًّا عامًّا .

هذا وقد نشرت الجرائد أخيراً برنامج ما سموه « المؤتمر الوطنى العام ، فهل أعطى الوفد النصيب الأول من أبحاثه حقوق البلاد وتخليصها من غاصبيها أو هل ذكر السودان حياة مصر وروحها . والذى قيل فيه إن تركناه فهو لا يتركنا ؟ وهل تعرض لحدود وادى النيل وقد أصبحت نهباً لكل طامع ؟ وهل اهتم بأمهات المشاكل الخارجية وأفرد لها أبواباً وشكل لها لجاناً ، كما أفرد وشكل لتنظيم القرية المصرية والشئون الزراعية والصحية والاقتصادية إلخ ؟ كلا إن شيئاً من هذا لم يكن . !

أما وقد أهمل الوفد ما ادعى أنه بطل ميدانه ، وأغفل قضية الوطن واشترى الغث بالسمين ؛ وحسب أن الأمة تقنع بالإشارة إلى قضيتها تلميحاً – فمؤتمره مؤتمر حزبى لبحث المسائل الداخلية ، وليس هو المؤتمر الوطنى العام الذى تنشده الأمة ، وتعلق عليه الأمل فى وضع ميثاق قومى عام !

هذا وسيكون المؤتمر عقيماً من الناحية الوطنية السليمة ؛ إذ إن الباعث عليه فى الواقع هو تنظيم الوفد لا المصلحة العامة استعداداً لما يمنى به نفسه من العودة إلى الحكم الذى لا يزال مغرما به برغم تكرر تجربته الخاسرة ، ومثل الوفد فى غرامه بالحكم كمثله فى تعشقه للمفاوضات برغم ما جر على البلاد فى الحالتين من الخسران المبين ! فما الحكم إلا أمانى النفعيين يسيل له لعابهم ، وهو إحدى وسائل إنجلترا المغرية الفاتنة التى تستعين بها على تنفيذ مشيئتها فى البلاد – ولا تريد بنا إنجلترا إلا شراً – وهو لهذا مذلة – وليس لنا إلا أن نلغى عقولنا لنجمع بين المذلة والجهاد فى سبيل الاستقلال التام ؛ كما أن المفاوضة سبيل العاجز القانع بالفتات اليائس من طول شقة الجهاد ، وهى أيضا لإنجلترا سبيل لقتل الروح الوطنى ، وتحويله عن الجهاد إلى سقط المتاع لتدرك بها مالا تدركه بالضغط والشدة ! وليس لنا إلا أن نلغى عقولنا أيضاً لنجمع بين حسن الظن بالغاصب ومد أيدنا ليدمخضبة بدماء إخواننا وبين كراهية ومناوأة من هم ألد الخصوم !

وختمت الوحدة نشرتها . . . ألا قد تبين الرشد من الغى فياجلال الوطنية عُدْ ، واملأ القلوب إيماناً والنفوس حزماً وعزماً ، والروح تحفزاً وعملاً ، حتى يبصر القوم نور الحق ولا نرى فوق أرضها إنجليزيًّا . وتبرأ الأمة من عوامل الضعف .

* * *

فى إيمانها بحقها . وتركها صرعى الأباطيل والدجل السياسى – نهب مطامع الشيع والأحزاب التى تكالبت على فتات الدنيا الفانى ، وغفلت عن المصلحة العامة ، فاستحال العداء للغاصب حبًّا وسلاماً . وأصبح طلب الحق الكامل خيالاً . والمناداة بالتمسك به أضحت خيالاً . والتضحية فى سبيله عبثاً وضياعاً !

نحن والمفاوضة :

استدرجنا الدهاء البريطانى إلى المفاوضة ، وقبلها القادة والزعماء ، وزينوها للأمة كوسيلة منتجة لاستخلاص الحقوق برغم ما اشتهر به الإنجليز من سوء الطوية . وما تعودناه منهم ، من حنث للعهود والوعود التى زادت عن التسعين وسعى متواصل لإطفاء جذوة الوطنية . وتمزيق شمل الأمة . وتحويلها إلى قبلة غير التى يجب أن توجه إليها . وبرغم ماعُرف عنهم من مراوغة فى المفاوضات لكسب الوقت عسى أن تسعفهم الفرص بتحقيق أطماعهم الاستعمارية . وبرغم أن جميع المعاهدات والاتفاقات الدولية الخاصة بمصر وسودانها والتى صادقت عليها عدة دول تقرر أن قضيتنا السياسية قضية دولية لها أهميتها وخطورتها فى إقرار السلام العالمى . . وإن أعوز القارئ الدليل من هذه الناحية فإنما نسوقه فى السطور الآتية :

معاهدة لوندرة فى ١٥ يولية سنة ١٨٤٠ بين إنجلترا وروسيا وبروسيا الخاصة باستقلال مصر الذاتى – نصت على أن تكون مصر ولاية عثمانية ممتازة مستقلة هى وسودانها استقلالاً داخليًّا . والفرمان السلطانى فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ والفرمان الثانى فى أول يونية سنة ١٨٤١ المحددان لهذا الاستقلال ، وعقد امتياز قناة السويس عام ١٨٥٦ والاتفاقات الدولية الخاصة بإنشاء المحاكم المختلطة ، وصندوق الدين العمومى والمراقبة الثنائية عام ١٨٧٦ . وقانون التصفية عام ١٨٨٠ . واتفاقية طرابيا فى ٢٥ يونية عام ١٨٨٢ بين فرنسا وإنجلترا وروسيا وإيطاليا وألمانيا والنمسا الخاصة بعدم انفراد أى دولة بأى منفعة أرضية أو أى امتياز أو نفع تجارى خاص لرعاياها دون أن يحصل عليه رعايا الدول الأخرى . واتفاق لوندره الخاص بتوزيع الميزانية المصرية عام ١٨٨٥ . ومعاهدة الآستانة الخاصة بحيدة قناة السويس وحماية المرور فيها عام ١٨٨٨ .

هذه كلها سجلت أن المسألة المصرية دولية ، بل هى جزء لا يتجزأ من المسألة الشرقية .

نعم برغم كل هذا وقع القادة والزعماء – مع الأسف – فيما نصبته إنجلترا من شراك . وكان أن حصرت القضية بيننا وبين الإنجليز وتعددت المفاوضات وإنجلترا تخرج فى كل مفاوضة من كسب إلى كسب ، وانتهت الحال بوصولها إلى غايتها التى طالما حلمت بها وهى جعل مركزها الباطل شرعيًّا فى وادى النيل بمعاهدة سماها البعض معاهدة الشرف والاستقلال ! والله يعلم وأولوا الضمير والوطنية يعلمون أنها وثيقة الخزى والاستعباد !

والآن :

الآن وقد نادت الأمة جمعاء بالجلاء ووحدة وادى النيل فإنا نرجوا أن تكون الصيحة من الأعماق والغضبة

مصرية ، وكنا نرجو أن يصحبها اتعاظ القادة والزعماء بدروس الماضى القاسية ، فلا يجروا الأمة إلى مفاوضة أخرى لتبرأ من داء عضال ، وتعالج الموقف بالوسيلة الفعالة التى عالجه بها أمثال وشنجتون محرر أمريكا الذى أبى إن يفاوض وعلى أرض الوطن جندى إنجليزى واحد . وقال عبارته المشهورة والتى اتخذت من بعده شعاراً « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » !

فإيماننا الذى لا يتزعزع . والذى نطمع فى إن تؤمن الأمة جميعها به وتجاهد على أساسه (وقد خاب الأمل فى الزعماء أو كاد – أن المفاوضات وما تتمخض عنه من معاهدات أو محالفات أو مشاركة إلى آخر ما هنا لك من مسميات إن هى إلا إحدى وسائل المستعمرين لإذلال الشعوب وإغرائها بالباطل ، ولا يرضاها إلا كل شعب رضى المذلة والهوان . وسلم بيده سيف إعدامه للجلاد !

كما نؤمن أن الركون إلى ما قررته المؤتمرات (كمؤتمر سان فرانسيسكو) وما سجلته مواثيق الدول البرى (كميثاق الأطلنطى) وما شكلته تلك الدول من هيئات (كمجلس الأمن العام) تعلق بوهم باطل وجرى وراء سراب !

فالقرارات والمواثيق قصاصات ورق تستغلها الدول القوية وتفسرها دائماً لمصلحتها ضد الدول المستضعفة وهيآة التحكيم أقرب ما تكون إلى عصابات لصوص للسطو على الأمم الضعيفة وتوزيع الأسلاب منها إلى هيآت تقيم العدل والإنصاف . وتعمل على إقرار السلام .

وهل قدم بنا العهد حتى ننسى مهزلة ومأساة عصبة الأمم التى قامت بعد الحرب الكبرى الأولى فلا تأخذ منها الدرس وأى درس ؟

إن التاريخ قديمه وحديثه لم يرو أن أمة رزئت بما نحن فيه استردت حقها فى الحياة وأعادت غابر مجدها بمفاوضة المعتدى على ذلك الحق ، العابث بذلك المجد . أو الاطمئنان إلى تلك المسميات التى تظهر على المسرح الدولى إثر كل حرب ، بل روى التاريخ ويروى أن الأمم تنال حقها وتستعيد مجدها بالإيمان بذلك الحق والاعتماد على نفسها فى النضال والتسلح بأسلحة « العلم والروح والمال » .

أما والقوم لايزال يداعبهم الأمل الباطل ويظنون خطأ أن الطبيعة الإنجليزية قد غيرتها الأحداث والحوادث ، فدعوا للمفاوضة بل طلبوها . ووقفوا من الغاصب موقف المستخذى . ثم ضيعوا وقتهم ووقت الأمة معهم عبثاً فى بحث الأساس إن كان صالحاً أو غير صالح – فإنا نرجو مخلصين أن ترتطم المفاوضات بصخرة الإيمان بالحق فى الجلاء الشامل والاستقلال التام الناجز لوادى النيل من منابعة إلى مصبه .

إنا لنرجو ذلك وإنا له لمرتقبون .

القاهرة فى ٢٥ من ربيع الآخر ١٣٦٥
٢٩ من مارس ١٩٤٦

الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل

المطبوع العاشر

مصر بين شق الرحى

نـــــــداء

حضرة الأخ المحترم

كبر على بعض ما ندعوهم إليه . وأوجس بعض منا خيفة ، وظنوا بنا ظن السوء وعلم الله أننا أردنا الإصلاح ما استطعنا وكنا بالحق مبشرين وبسوء المغبة منذرين .

فلم ننطق عن هوى ولم نقل شططاً يوم أن أطلقناها صيحة جريئة بريئة ونادينا بالوحدة القومية منذ سنين وقد رأينا فتناً كقطع الليل المظلم :

رأينا الوطن المعذب المنكوب نهباً لكل طمع ، تضافر عليه تخاذل بنيه وجشع غاصبيه !

ورأينا الشعب شيعاً وأحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون ، خلوا من أسلحة النضال ضد الغاصب ، فلا إيمان ولا علم ولا قوة ولا مال ، مغلوباً على أمره يلهو حيث يجد العاملون ، ويرجع القهقرى حيث يبنى للمجد البانون !

رأينا القادة إلههم هواهم يلمزون أنفسهم ويتنابزون بالألقاب ، ويتناحرون على الفتات يريدون حرث الدنيا ويبغون فى الأرض بغير الحق وللحق هم كارهون !

ورأينا الغاصب وهو العريق فى الاستعمار الحاذق لأساليب الختل والخداع يكاد يصل إلى أمنيته من تصحيح مركزه الباطل فى وادى النيل بصك العبودية والاستعمار ، والجمع مشتت والكلمة متفرقة والصفوف متصدعة والكل متنافس فى تسليم البضاعة غافل عن الخطر المحدق !

ورأينا العالم سريع الخطى نحو إعداد الجيوش ومعدات الدمار ووسائل القهر لحرب مقبلة يشبع بها أطماعه ، ويروى غلته على حساب الشعوب المستضعفة الغافلة

نعم دعونا قومنا منذ سنين أن تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نخدم إلا الوطن ولا نعادى إلا

الغاصب وأن نتمسك بالوحدة القومية ونبنى كياننا من جديد على أساس تفهيم الشعب حقه وتطهير عقول الناشئة من أباطيل السياسة وتضليل محترفيها وغرس بذور العقيدة السياسية الصحيحة وتعهدها بالنمو لإقامة ما تصدع وتأليف ما تفرق ، وتكون الأمة صفًّا واحداً أمام الغاصب .

وكان من علامات التوفيق أن الوقت لم يطل بنا وبقومنا حتى نطقت الحوادث ، وزحزحت من الغشاوة التى على الأبصار ، وخففت من القسوة التى تملكت القلوب وكاد القوم يلمسون الحقيقة وماكانت بخافية لولا أن لكل آن أوان وأصبحنا ونغمة القومية محببة إلى القلوب والأسماع .

ولئن كانت الوحدة القومية لازمة يوم أن نادينا بها من سنوات إنها اليوم لنا ألزم لتحرير وادى النيل وقد حصره الغاصب بشباك المفاوضة فى وضع شاذ وقيده بأغلال تأباها أمة ترجو الحياة الحرة ، وتفهم ثمنها !

وإنا قياماً بالواجب نواصل دعوتنا إلى الوحدة القومية ونغزو بها القلوب المقفلة ، حتى تصبح عقيدة الجميع : فإما إلى الصدر بقوة ، وإما إلى القبر بشرف وفخار !

والوحدة القومية إذ تكتب هذا إليكم ترجو أن تعتمد بعد الله تعالى على مؤازرتكم فى تحقيق رسالتها التى عاهدت عليها الله من الرجوع بالأمة المصرية إلى إيمانها الثابت بحقها فى الاستقلال الكامل لوادى النيل من منبعه إلى مصبه والعمل فى صمت وقوة على جعل ذلك الاستقلال الكامل حقيقة واقعة والسلام عليكم ورحمة الله؟

الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل

دعوتنا من أجل مصر ولمصر وفى سبيل مصر :

من أجل مصر ندعو دعوة صادقة خالصة إلى طرح التنابز والشقاق وجمع الصفوف وتوحيد الجهود وإنكار الذات لتحرير وادى النيل من الاحتلال بجميع مظاهره .

ولمصر نعمل فى صمت وحزم على خلق الشباب بل الأمة كلها خلقاً آخر : سنخلق من الفرقة اتحاداً ومن التنابذ إخاءً ومن العداء سلاماً .

سنمزق ثوب الحزبية البغيض المهلهل ، وسنلبس ثوب القومية المحبب القشيب .

سنعنى بالقلوب الخاوية فنعمرها بالعقيدة ، وبالنفوس السقيمة ، فنطهرها بالفضيلة ، وبالأجسام الهزيلة ، فنقويها بالرياضة وبالعقول الضعيفة فنغذيها بالعلم والعرفان .

وفى سبيل مصر نضحى بالروح والمال والولد فلا تستقر لنا حال أو تهدأ لنا حركة حتى تحيا حياة العزة أو تموت فى سبيلها كراماً .

القاهرة فى ١٠ من محرم سنة ١٣٥٧
يوم السبت ١٢ من مارس سنة ١٩٣٨

الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل
شارع عماد الدين رقم ١٤٥

المطبوع الحادى عشر

مصر بين شقى الرحى

٣١ مارس أو موقعة رشيد سنة ١٨٠٧

ترى ؟ هل ترجع الأمة البصر إلى مائة وإحدى وثلاثين سنة خلت ، فتذكر مرحلة من مراحل سياسة الاستعمار البريطانى ، وترى صورة من مراحل سياسة الاستعمار البريطانى ، وترى صورة من صور الاستهتار بالحقوق ، والاعتداء على الآمنين كما ترى صفحة من صفحات الدفاع المجيد عن الوطن المفدى يوم أن عز على الإنجليز أن يتركوا مصر الناهضة آمنة تستكمل أسباب الرقى والمنعة ، فحاولوا محاولتهم ، وجهزوا أسطولهم ، ونقلوا عليه جيوشهم التى نزلت فى ثغر الإسكندرية فى اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٠٧ ، واتجهت نحو رشيد بغية احتلال البلاد ، ولم تكن مصر الفتية فى حرب مع إنجلترا ، وإنما هو جشع الاستعمار يبرر الاعتداء باسم الإنسانية ، ويقوض دعائم السلام باسم التعمير والمدنية !

ترى ؟ هل ترجع الأمة البصر ، فتذكر كيف استعد أهالى رشيد ورجال حاميتها الصناديد لصد الأعداء . فأجمعوا كلمتهم ، وأعدوا عدتهم ، ودبروا خطتهم ، وما دارت رحى القتال ، وطلع يوم ٣١ من مارس حتى ظهر الحق على الباطل ، وكان النصر حليف المصريين الأبطال الذين ألقوا إلى البحر بجيش العدوان ؟

وهكذا حبطت محاولة المستعمر ، وباء بالخيبة والفشل ، واهتزت مصر لهذا النصر وتلك المفخرة القومية .

ترى ؟ هل تفيق الأمة من حمى التقاطع ، وتصحو من غفوتها على صوت أرواح الأبطال الأمجاد الذين سطروا بغالى دمائهم صفحة من نور وفخار فى صون حرمة الوطن والدفاع عن تراث الغابرين ؟

ترى ؟ هل تسكن ثورة الحزبية البغيضة الفتاكة ، وتتهادن الشيع والأحزاب ، فتعف الألسن عن التجريح ، والأقلام عن الإسفاف والنفوس عن تقطيع الأوصال وتمزيق الوحدة ، ويلقى القادة الأجلاء بسلاحهم المسموم المسدد إلى قلب الوطن المنكوب ، ويستلهم الكل من ذكرى ٣١ مارس وحى العزة والإباء والتضامن والإيمان

والتضحية وحسن التدبير؟

ترى؟ هل تذكر الأمة ذلك وتوازن بين ماضيها الحافل بالعظمة والحيوية والقوة التي سادت روح الشعب وبين حاضرها المدموغ بطابع الضعة والانقسام والوهن حتى ضاعت المصلحة العامة وذل الشعب؟

وأخيراً – ترى؟ هل تسن الحكومة سنة حميدة، فتجيب الوحدة القومية إلى رغبتها، ويخرج الجيش المصرى المحبوب من ثكناته (والجيش عنوان المجد والعزة القومية) بكامل وحداته وعدته يحتفى بالذكرى يجوس خلال الديار يذكرنا بماض جيشنا العظيم، ويحيى الشعور الميت، ويذكى لهيب الوطنية؟

إن الوحدة القومية لتهيب بطبقات الأمة كافة حكومةً وشعباً لتمجيد ذكرى ٣١ من مارس بكل معانى التمجيد بعد أن طوتها أحداث الزمان (إن الذكرى تنفع المؤمنين)[١]

الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل

١٩٣٨/٣/٣١ — ١٤٥ شارع عماد الدين القاهرة

(١) سورة الذاريات : ٥٥

المطبوع الثانى عشر

«أَفَمَنْ يَمْشِى مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ
أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ»[1]

قرآن كريم

مصر بين شقى الرحى

مقدمة

يوم أن أطلقناها صيحة جريئة بريئة ، ونادينا بالوحدة القومية منذ سنين ، وطرقنا باب الصحف لنفسح المجال لنشر دعوتنا ، وضنت علينا بتلك الخدمة العامة مما اضطرنا إلى نشر الدعوة عن طريق النشرات بعد أن مهدنا لها زمناً وصادفت قبولاً عند أخصائنا – كبر على بعضٍ ما ندعوهم إليه ، وأوجس بعض منا خيفة ، وظنوا بنا ظن السوء ؛ فنشرت الأهرام فى عددها رقم ١٧٩٧٣ بتاريخ ١٩ ديسمبر سنة ١٩٣٤ تحت عنوان النشرات السرية واهتمام إدارة الأمن العام بها ما يأتى :

« نشطت بعض الأيدى الخفية فى الأيام الأخيرة إلى طبع نشرات سرية وتوزيعها عن طريق البريد على بعض الجهات كالمدارس والصحف ، وقد وقعت نشرتان من هذا النوع فى يد البوليس منذ يومين ، فأرسلها إلى حضرة صاحب العزة بدوى خليفة بك مدير الأمن العام . »

« وقد أرسلت وزارة المعارف إلى مدير الأمن العام نشرة سرية تلقتها من إحدى المدارس ظهر أنها نسخة من إحدى النشرتين اللتين وقعتا فى يد البوليس » .

« وقد عنى مدير الأمن العام بهذا الموضوع ، ودرس ما فى النشرتين فظهر أن ما جاء فيهما يعد تعبيراً شديداً عن بعض الأمانى القومية من استقلال البلاد وعدم التفريط فى حقوقها ، وليس فى هاتين النشرتين ما يعد نشره خطراً شديداً على الأمن العام وإن كان فيه بعض استفزاز للعواطف وتحريك للشعور ! »

(١) سورة الملك / ٢٢ .

« وعنوان النشرتين واحد وهو مصر بين شق الرحى » .

« أما ما جاء تحت العنوان فى كل نشرة منها فمختلف الأسلوب ، ولكنه متفق المعانى . وتاريخ أولاهما (٤ نوفمبر الماضى) وأخراهما (٢٦ نوفمبر) »

« وقد حذر كاتب النشرتين الأمة من الانقياد لرأى الإنجليز وأشار إلى تدخل الإنجليز فى الشئون القومية وأهاب الكاتب بكل فئات الأمة لتتعاون على إخراج البلاد من الهوة التى تردت فيها . وانتقد المطالبة بدستور سنة ١٩٢٣ ؛ لأنه على سعته الظاهرة يخرج السودان من حدود المملكة المصرية ولأنه ليس من وضع جمعية وطنية .

« هذه فحوى النشرتين ، ولكن إدارة الأمن العام علمت أن هناك نشرة أخرى . . . . . إلخ إلخ » .

وعادت الأهرام فنشرت فى عددها رقم ١٧٩٧٩ بتاريخ ٢٥ من ديسمبر سنة ١٩٣٤ تحت عنوان (النشرات السرية) ما يأتى .

« أشرنا منذ أيام إلى النشرات السرية التى توزع على المدارس والصحف والجهات الأخرى وجئنا على خلاصة نشرتين منها معنونتين بعنوان مصر بين شق الرحى وقد جاء فيما نشرناه أن إدارة الأمن العام لم تر فيما نشر فى هاتين النشرتين شيئاً أكثر من شدة فى اللهجة غير أن هناك نشرة ثالثة قيل عنها لإرادة الأمن العام : إنها تشتمل على تحريض ضد الأجانب ؛ ولم تكن الإدارة قد وقفت على نص هاته النشرة ؛ ولم تستطع الزميلة التى أشارت إليها أن تقدم صورة منها ، فعد أمر هذه النشرة كأنه لم يكن » .

« وقد تلقينا فى بريد الأهرام أمس بياناً موقعاً بالعبارة الآتية :

« الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل ص ب ١٦٤٤ مصر وقد جاء فى البيان ذكر ما نشرته الأهرام قبلا بشأن النشرات السرية ، ولاحظ كاتبه أنه ليس من العدل نظم النشرات التى توزعها الوحدة القومية مع النشرات التى تدعو إلى الفتنة فى سلك واحد . مما يوهم أن الوحدة القومية تعمل فى الظلام .

ثم ختم البيان بما يأتى . . . . وسنوالى بإذن الله إسماع صوتنا فى المناسبات ، ونرجو من الصحف أن تُفْسِح صدرها لما ننشره تنفيساً عن صدرنا وإراحة لضميرنا وتبرئة لذمتنا أمام الله والوطن والتاريخ » .

ونشرت جريدة المقطم بعددها المؤرخ ٢٨ من يناير سنة ١٩٣٥ عبارة عن (الوحدة القومية) بمناسبة توزيع نشرتها الرابعة مصر بين شق الرحى بعنوانٍ وصيغة يوهمان القارئ أن النشرة سرية ، وأن الوحدة تعمل فى الظلام .

ثم عادت المقطم ، فنشرت فى عدد الأربعاء ٢٠ من يناير سنة ١٩٣٥ ما وصلها من الوحدة بهذه المناسبة تحت عنوان (فى نشرات الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل ونصه :

« لا شك فى أن روح الحزبية قد ضرَّ البلاد والأفراد مما دفع الوحدة إلى التفكير فى نشر دعوتها الحارة لضم الصفوف ونبذ الشقاق وتوحيد الجهود كى تتحرر الأمة مما تردت فيه من استبعاد اجتماعى واقتصادى وسياسى ، ولتصل بقضيتها « الوطنية إلى بر السلام . فكتبت أولى نشراتها وطرقت باب الصحف فأبت هذه أن تنشر لها . ولما كانت الوحدة جادة فى إسماع دعوتها للشعب لتبرئة ذمتها أمام الله

والوطن واتبعت سبيل النشرات ، فأشارت الأهرام فى عددها ١٥ من ديسمبر إلى النشرتين الأولى والثانية وأتت على ملخص ما جاء فيهما مما لا يمس عمل الوحدة فى شىء إلا أنها خاطت بين عمل الوحدة ونشرات سرية أخرى قالت : إنها تحض على الفتنة وكراهية النزلاء . وعتبنا على الأهرام خلطها فنشرت ما تيسر من ردنا فى عدد ٢٥ من ديسمبر الماضى مما رد الحق إلى نصابه . »

« وبالأمس نشرت جريدة المقطم الغراء فى صفحة الأخبار المحلية خبراً عن النشرة الرابعة للوحدة القومية بصيغة وعنوان يوهمان القارئ أن الوحدة تعمل فى الظلام أو أنها تأتى ما لا يجيزه القانون . ولا يسعنا وقد تكرر الحادث من جريدتين هما أكثر الصحف ذيوعاً وانتشاراً إلا أن نعود ونطلب بلطف أن تتحرى الصحافة الدقة فيما تنشر ؛ لئلا يختلط الأمر على القراء ويظنوا بالوحدة الظنون ! »

ونشرت جريدة البصير بالإسكندرية فى ٢٩ من يناير سنة ١٩٣٥ لمراسلها بالقاهرة تحت عنوان (نشرات ضد الوفد توزع بالمدارس) ما يأتى :

« وجدت فى كثير من المدارس الأميرية وغيرها نشرات مطبوعة عنوانها (مصر بين شقى الرحى) يطعن فيها كاتبوها على المؤتمر الوفدى الذى عقد فى يومى ٨ و ٩ من الجارى فى مدينة رمسيس ويصرحون بأن الوفديين أصبحوا أعواناً للإنجليز وأنهم باعوهم الديار بالحكم ! ويحضون الشعب المصرى على مناهضة الوفد وزعمائه ! وستتكلم فى أقرب وقت بشكل أتم عن هذه النشرات وعن العوامل الخفية التى بعثتها .

ثم عادت البصير ، ونشرت فى عدد ٣١ من يناير لمراسلها بالقاهرة تحت عنوان المنشورات الخاصة على كراهية الوفد ما يأتى :

« اتصل بنا من مصد ثقة أن المنشورات التى أشرنا إليها فى رسالتنا منذ يومين والتى وزعت فى كثيرمن المدارس الأميرية وغيرها طاعنة فى الوفد المصرى ، وخاصة على نبذه بدعوى أنه استسلم للإنجليز ورضى بمطالبهم ، وباع لهم البلاد– نقول : إن هذه المنشورات لم تزل توزع بطرق خفية فى كثير من أنحاء القطر ، وهى تدل دلالة واضحة على ما يخالج القلوب من قلق فى بعض الفئات ومن نفاد صبرها فى غيرها ومن عدم الرضا بقرارات الوفد» ؛ لأنها خلت من ذكر السودان وذكر الجلاء وغير ذلك من الأمور التى كان الوفد حريصاً على المطالبة بها بإصرار ، وعلى التمسك بها تماسكاً جعلها من المبادئ (الأساسية) للوفد .

«فالحالة كما أتينا فى رسائلنا حرجة والأعصاب متوترة والعواطف جائشة ، ولا يدرى أحد بما يأتى به الغد من الطوارئ التى إن أرضت أناساً أغضبت «آخرين» .

* * *

وعلم الله أننا لم نرد إلا الإصلاح ما استطعنا يوم غمرتنا فتن كقطع الليل المظلم .

والوحدة القومية لم تنطق عن هوى ، وهى صادقة العزم على غزو القلوب المقفلة حتى تصبح فكرتها عقيدة الجميع ، فتطمئن على تحقيق رسالتها التى عاهدت عليها الله من الرجوع بالأمة المصرية إلى سابق إيمانها الثابت بحقها فى الاستقلال الكامل لوادى النيل ، والعمل فى صمت وقوة على جعل ذلك الاستقلال الكامل حقيقة واقعة : فإما إلى الصدر بقوة وحزم ، وإما إلى القبر بشرف وفخار !

والوحدة القومية تقدم إلى القارئ الكريم مطبوعها الثانى عشر من سلسلة نشراتها ورسالاتها «مصر بين شق الرحى» – فى عبارة خالية من تنميق اللفظ وتزويق الأسلوب – نبذة موجزة تاريخية لما كنا عليه ولما صرنا إليه.

والوحدة بذلك تلقى شعاعاً من نور على الحقيقة التى تأبى السياسة إلا أن تخفيها عن أعين النشء ليجهلوها، أو تقدمها لهم باطلة مشوهة، ليغضلوا بها.

والأمة متى فهمت الحقيقة، واتبعت الفهم الإيمان دكت بإيمانها الرواسى الشاخات؛ ووصلت إلى أوج العظمة والمجد!

«إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا»(١)

---

(١) سورة المزمل / ١٩.

المجد الغابر

لعلك تدرك :

١ – أن وطنك جنة الدنيا بخصب تربته وطيب جوه ووافر ثروته وحسن موقعه الجغرافى ، وكان دائماً لهذه المزايا الطبيعية مرمى أنظار الفاتحين ومحل تضحياتهم وتنافسهم .

٢ – وأن أمتك تكونت من منذ أكثر من ستين قرناً ، وأن التاريخ لم يعرف أمة تكونت قبلها ، وأنها ظلت مستقلة نحو الخمسين قرناً ، وأنها لم تكن عبئاً على الإنسانية أو مطية للغالبين كما يصورها دعاة اليأس والقنوط ، بل إنها كغيرها من الأمم لم تسلم فى بعض العهود من اعتداء الأجنبى على استقلالها ، فأغار عليها الهيكسوس فالفرس فالإغريق مع الإسكندر المقدونى فالرومان فالعرب فالترك وهى تغالب وتجالد فلم تفن فيهم ، بل احتفظت بقوميتها ، وبرهنت على حيويتها وقوة عنصرها إلى أن عادت واستقلتِ فى عهد محمد على الكبير !

٣ – وأن ما يتمتع به الأجانب فى بلادك من امتيازات ليس نتيجة قانون أو معاهدة ، وإنما هى منح من سلاطين تركيا للأجانب النازحين إلى مصر ترغيباً لهم فى ربط الصلات بها وتبادل المنفعة معها .

وأن نظام الامتيازات نظام عتيق بال جارح للكرامة والعزة القومية ، هادم للاستقلال ، لم يبق قائماً إلا فى مصر وقد حق زواله بزوال علة وجوده من عهد بعيد !

٤ – وأنك تنتسب إلى شعب مجد عامل كانت له مدنية لا تزال موضع إعجاب الأمم ، نقل عنها الفرس والرومان واليونان مدنيتهم التى هى مصدر مدنية أوربا ، وأن لك ماضياً كله فخار ومجد وعزة .

٥ – وأن فتوحك امتدت إلى العراق والشام والأناضول والسودان حتى الدرجة الرابعة من خطوط العرض الشمالية ، وأن جيشك الباسل حارب الروسيا فى القرم جنباً إلى جنب مع جيوش تركيا سنة ١٨٥٣ – ١٨٥٦ ، وحارب فى الوقت نفسه بالمكسيك جنباً إلى جنب مع جيوش فرنسا ، كان مثال النظام والبسالة والإقدام .

٦ – وأن حدود وطنك الطبيعية هى منابع النيل جنوباً والبحر الأبيض شمالاً والبحر الأحمر شرقاً وصحراء لوبيا وطرابلس غرباً[1]

وأن زيلع ومصوع وهرر وإرتيريه والسودان وأعالى النيل مناطق مصرية اختلط بتربتها دم المصرى الفاتح ، وعمرتها اليد المصرية العاملة ، ورفرف على ربوعها العلم المصرى الخفاق ، وليس ثمة مستند أو فرمان أودكريتو أو معاهدة دولية تثبت نزولَ مصر عن حقوقها (الملكية والسيادة) عن تلك الأمصار .

٧ – وأن إنجلترا ودول الغرب اقتطفت بالاتفاق بينها تلك المناطق من جسم الوطن غدراً باسم الإنسانية ، واقتسمتها ظلماً لقمة سائغة باسم المدنية . تنفيذاً لتمزيق وحدتك وإضعافك ، والتحكم فى مياهك . وإشباع نهمها الاستعمارى ، وحصرك فى تلك البقية الباقية من وادى النيل .

وأن التاريخ يحفظ فيما يحفظ بين دفتيه اتفاقيات بين تلك الدول تضمن لمصر حقوقها (الملكية والسيادة) فى السودان ، وتنص صراحة على أن احتلال الأقاليم السودانية المصرية بجنود تلك الدول لا يغير شيئاً منها بل يوقف العمل بتلك الحقوق حتى تصبح الحكومة المصرية فى حالة تسمح لها بإدارة تلك المقاطعات البعيدة .

(١) راجع خريطة مصر فى عهد إسماعيل.

٨ – وأن العلم المصرى كان مرفوعاً على الأساطيل المصرية الحربية والتجارية فى البحرين الأبيض والأحمر وأن أسطولك الحربى كان من القوة بحيث تآمرت عليه الدول الأوربية ، فدمرته بأساطيلها مجتمعة فى موقعه نافارين !

٩ – وأن العلوم والصناعة والتجارة والزراعة كلها ازدهرت فى بلادك يوم أن كانت الجهالة والفوضى تعم بلاداً هى اليوم فى مقام الصدارة من العالم !

١٠ – وأنك قدمت للإنسانية أكبر خدمة بما ضحيته من مال وما بذلته من مجهود جبار فى سبيل إنشاء قناة السويس برغم ما كانت تقيمه إنجلترا وقتئذ من صعوبات وعراقيل ! وأن إنجلترا نفسها جعلت من القناة بعدئذ علة شقائك وأصل بلائك !

قبل الاحتلال

ولعلك تدرك :

١ – أن إنجلترا دولة عريقة فى الاستعمار قديرة فى الختل والخداع .

٢ – وأن إنجلترا كانت تتزاحم وفرنسا على امتلاك وادى النيل منذ أكثر من مائة وثلاثين عاماً .

٣ – وأن إنجلترا كانت تطمع فى إقامة إمبراطورية أفريقية واسعة الأطراف وتمتد من مدينة الكاب إلى مصر على أن يكون امتلاكها مصر امتلاكاً تامًّا هو نقطة الارتكاز فى تحقيق ذلك المشروع الخطير !

٤ – وأن إنجلترا حاولت أن تجرب حظها فى الاحتلال العسكرى يوم أن سيرت جيوشها إلى رشيد عام ١٨٠٧ ، وكانت مصر موحدة الكلمة عزيزة الجانب ، فومت بجيوش المغيرين إلى البحر فى ٣١ من مارس من ذلك العام ، وأفسدت على إنجلترا محاولتها !

٥ – وأن إنجلترا – هى الحريصة على انتهاز الفرص الدائبة السعى لتنفيذ غايتها – تدخلت فى شئون مصر المالية بحجة الارتباك المالى ، وطلبت من الحكومة المصرية تعيين مراقب إنجليزى وآخر فرنسى ليكوّنا معاً المراقبة الثنائية ، فقبلت الحكومة وصدر بذلك أمر عال فى نوفمبر سنة ١٨٧٩ .

٦ – وأن إنجلترا اتخذت من مصر مسرحاً لدسائسها ، ودبرت مذبحة الإسكندرية فى يونية سنة ١٨٨٢ ، ثم اعتدت على حصون الإسكندرية فدكتها بمدافع أسطولها فى ١١ من يوليو من السنة نفسها وفى الوقت الذى كان مؤتمر الدول العظمى (فرنسا ، وألمانيا ، والنمسا والمجر ، وإنجلترا ، وإيطاليا ، وروسيا) مجتمعاً بالآستانة لحل المشكلات المصرية طبقاً للفرمانات السلطانية والمعاهدات الدولية ، وأنها أزهقت أرواح الآمنين من المصريين ، ولم يكونوا معها فى حرب ، ثم أمعنت فى الإجرام والتعدى حتى دخلت جيوشها عاصمة الديار فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ بعد موقعة التل الكبير ، وبذا أعلنت احتلال البلاد !

٧ – وأن إنجلترا فعلت فعلتها بحجة حماية العرش والمحافظة على الأمن فى البلاد ؛ كما أنها صرحت فى مجلس نوابها على لسان المستر غلادستون رئيس وزارتها فى ٢٤ من يوليو سنة ١٨٨٢ بأنها تفوض لدول أوربا التسوية النهائية للمسألة المصرية ، ووعدت على لسان ملكتها فكتوريا ورجالها المسئولين ووزرائها ونوابها بأن ليس لها مأرب من

احتلال وادى النيل ، وليس لها فيه مصلحة خاصة ، وبأن جلاء جيوشها عن الوادى لابد واقع دون إبطاء ! وأن لها فى ذلك أكثر من ستين وعداً حنثت فيها جميعاً ، وأنها كانت تجاهر باحترام الفرمانات السلطانية والمعاهدات الدولية ، بل إنها كانت تعهدت فى عقد ترابيا الدولى الشهير (قبل الاحتلال بأيام) بأنها لا تسعى لامتلاك أى جزء من وادى النيل أو أى شىء من مرافقه ولا للحصول لنفسها على مركز ممتاز فيه .

٨ – وأن مسألة تحديد يوم الجلاء كانت موضوع البحث فى عدة ظروف حيث بحثت بمناسبة إلغاء المراقبة الثنائية ، وبمناسبة تعديل قانون التصفية ، وبمناسبة الاتفاق على معاهدة قناة السويس ، وفى مفاوضات دروماندوولف التى حددت فيها إنجلترا وقتاً قريباً لجلائها والتى لم يسبب فشلها إلا رغبة إنجلترا فى الاحتفاظ بحق الرجوع إلى مصر إذا طرأت فيها بعد الجلاء حوادث تهدد النظام فى الداخل أو تعرضها لخطر عدو من الخارج (وإنجلترا الداهية لا يصعب عليها خلق الطوارئ ، لتبرر تدخلها من جديد بصفة من له حق التدخل ، ويكون وجودها عندئذ ذا صفة شرعية ، وهو كل ما نرمى إليه !)

٩ – وأن إنجلترا كانت تدخل إلى مفاوضات الجلاء – سواء كانت مع الدول أو مع الباب العالى – على مبدأ التسليم بوجوب الجلاء ، ولم تكن تدعى أن احتلالها حق مشروع أو أنه أكسبها فى وادى النيل أى حق أو أى امتياز ، كما أن فشل تلك المفاوضات لم يكسبها أى حق .

١٠ – وأن إنجلترا بقيت فى مصر بدون سند قانونى وأن جلاءها عنها أمر يوجبه القانون الدولى ، ويحتمه الشرف الوطنى ، ويدعو إليه السلم العام .

بعد الاحتلال

ولعلك تدرك أيضاً :

١ – أن إنجلترا أول ما فعلت بعد الاحتلال أن جعلت من نفسها الوصى الناصح الواجب الاتباع ، وأنزلت مصر منها منزلة القاصر ، عليها الإصغاء إلى مشوراتها (وفى عرف السياسة أوامرها) فاستبدت بالسلطان ، ومركزت السلطة الفعلية فى عميدها[1] فى مصر وطوت نفوذ الدول الأخرى ، وألغت المراقبة الثنائية واستبدلت بها مستشاراً مالياً إنجليزياً له الأمر والنهى فى المالية المصرية وكان له حق حضور جلسات مجلس الوزراء وألغت مجلس النواب المصرى الذى كان أنشئ فى عهد إسماعيل ، وكان تام السلطة فى عهد توفيق ، واجتمع لأول مرة فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨١ .

٢ – وأن إنجلترا سلكت فى أوامرها سبيل اللين طالما رأت روح التساهل والامتثال من الحكومة المصرية ، ولم تضطر للتكشير عن نابها إلا إذا لمست المعارضة الشديدة ؛ كما حصل مع شريف باشا رئيس الوزارة المصرية يوم أن رفض بإباء إلحاح إنجلترا فى طلب إخلاء السودان ، وآثر الاستقالة على التفريط فى حقوق الوطن !

٣ – وأن إنجلترا مازالت على سياستها هذه إلى الآن برغم استقلال مصر المزيف الذى منح لها بموجب تصريح

(١) راجع تلغراف أرل جرانفيل وزير خارجية إنجلترا (يناير عام ١٨٨٤) .

(٢٨ فبراير) سنة ١٩٢٢ والذى احتفظت فيه إنجلترا بصفة مطلقة بتحفظات أربعة هدمت الاستقلال من أساسه [١] (وليس بعيداً منا تعنت إنجلترا واستسلام الحكومة المصرية فى حذف لفظ «السودان» من لقب جلالة ملك مصر والسودان وحذف النص الخاص بالسودان نفسه من مواد الدستور المصرى) – برغم معاهدة الصداقة والتحالف سنة ١٩٣٦ التى صححت مركز إنجلترا فى البلاد، وثبتت برضاك الاحتلال باسم الاستقلال!

وأن إنجلترا حاولت باللورد دوفرين سنة ١٨٨٣ أن تشترى من الباب العالى الجزية التى كان يأخذها من مصر؛ لتحل محل الدولة العلية فى هذا المظهر من مظاهر التبعية، ولما لم تفلح فى مشترى الجزية حاولت أن تقنع الباب العالى ليعلن استقلال مصر التام رغبة منها فى التخلص من قيود المعاهدات التى تعهدت هى فيها مع باقى الدول باحترام أملاك الدولة العلية، ولتهدم تلك الحواجز القانونية التى تقف فى سبيل محاولاتها احتلال مصر، فلم تفلح فى ذلك أيضاً!

٤ – وأن إنجلترا اتخذت من ثورة المهدى فى عهد رؤوف باشا حاكم السودان العام سبيلاً إلى تحقيق جزء من حلمها فى إقامة إمبراطوريتها الأفريقية، فتدخلت فى شئون السودان بقنصلها العام وكان السودان إلى ذلك الحين جزءاً متمماً لمصر غير قابل للانفصال عنها)، وأرغمت الحكومة المصرية على استدعاء عبد القادر باشا حلمى القائد العام لجيش السودان برغم كبحه جماح الثوار وانتصاره عليهم بما كان لديه من قوة محلية واستبدل به سليمان نيازى باشا اسمياً والجنرال هكس باشا الإنجليزى فعلاً؛ كما طردت أمين باشا من مديرية خط الاستواء، واحتلت أوغندا وأونيورو.

٥ – وأن إنجلترا أضاعت السودان بتمسكها بتعيين الجنرال هكس باشا قائداً عامًّا لجيش السودان وتفويضه سلطة التصرف وهو الذى لجهله حالة البلاد وطبيعة أرضها ولإهماله خطة سلفه المصرى الحكيمة فى قهر الثوار قاد الجيش المصرى إلى هلاك محقق بالعطش، وساقه إلى صحارى كردفان، فنزلت به الكارثة، وباد عن آخره بعد أن لاقى أشد الآلام، فضاع السودان منا على يد إنجلترا لتغتصبه بعد ذلك من أيدينا، وتسيطر على حياة مصر!

٦ – وأن إنجلترا اتخذت من حملة مارشان واحتلال الفرنسيين لفاشودة سبيلاً لدفع الدوائر الرسمية بمصر لإعداد حملة لاستعادة السودان، وأنها احتجت على عمل فرنسا بأنه احتلال لأراض مصرية إن تركتها مصر تحت تأثير ظروف طارئة فهى مصرية وليس لأى دولة أن تفكر فى الاستيلاء عليها، بل صممت على رفع العلم المصرى فوق حصون فاشودة القديمة حيث حيته الجنود البريطانية والمصرية هناك (وكذلك لا تعرف السياسة الإنجليزية الشرف إلا حيث تكون المصلحة).

٧ – وأن إنجلترا اتخذت من ضعف الوزارة المصرية وامتثالها لأوامرها فرصة ذهبية، فعرضت عليها قبول اتفاقية ١٩ من يناير سنة ١٨٩٩ الباطلة (عقد الاشتراك بحق فتح السودان بين مصر وإنجلترا) مع أن استعادة السودان بدئ وتم باسم مصر وحدها ومن أجلها، وكانت إنجلترا قبل ذلك التاريخ تعترف فى كل الأوقات بحقوق مصر الكاملة فى السودان (الملكية والسيادة).

(ا) تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية فى مصر.

(ب) الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبى بالذات أو (بالواسطة).

(جـ) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات

(د) السودان.

٨ – وأن إنجلترا بعد أن مكنت لهيبتها فى الديار جردتك من أسلحة الحياة ، وسلبتك نعمها معنوية كانت أو مادية ، فأفسدت كل ما غرس أجدادك من خلق كريم وتكوين سليم ، وعطلت كل ما بنوا من مصانع ، وأسسوا من معاهد ، وعبثت بالتعليم والجيش وبالقوانين والإدارة ، بل بكل شىء حتى تركتك فى عداد ميت الأحياء ، وحاربتك بأمضى سلاح ، فاتبعت سياسة (فرق تسد) ، واتخذت من بين إخوانك بطانة عليك وعلى وطنك !

٩ – وأن إنجلترا وقد حسبت أنها قضت على روح الوطنية فيك استيقظت من حلمها اللذيذ على صرخة الوطنية الحق تدوى فى الآفاق فى جرأة وصراحة بطلب الجلاء على لسان المغفور له مصطفى كامل باشا ؛ إذ نفخ فى الأمة من روحه ، فألهب الشعور ، وأيقظ الهمم ، وأحيا الآمال .

١٠ – وأن إنجلترا إذ تخشى صيحة الحق حسبت لها حسابها وحاربتها بكل قواها ، وحاولت القضاء عليها فى مهدها تارة بالوقيعة بين الجالس على العرش وبين رافعى لواء الوطنية المطالبين بالجلاء ، وتارة بتحريك نغمة الدين ، وتارة بتقسيم الأمة شيعا وأحزاباً . إلا أن يقظة الأمة وقوة الإيمان وثبات العقيدة قضى على كل محاولاتها حتى وقعت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وكان الحاكم الشرعى للبلاد (سمو الخديو عباس الثانى) خارج القطر بالآستانة ، فما نعت بشدة فى عودته إلى الديار ، ونفذت إرادتها وأعلنت الحماية قسرا فى ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وخلعت الخديو (عباس) فى ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١٤ وصادرت أملاكه وولت مكانه المرحوم البرنس (حسين كامل باشا) ولقبته بلقب سلطان ، ونفذت كل ذلك الافتئات بدعوى أنه ضرورة حربية .

بين سنتى ١٩١٤ و ١٩٣٦

ولو كنت تدرك :

١ – أن إنجلترا دخلت الحرب الكبرى تبكى وتستبكى على الحريا المسلوبة والإنسانية المعذبة والحرمات المنتهكة والعهود المنقوضة ، وترمى لألمان بالوحشية ، وتنادى بوجوب صد اعتدائهم .

٢ – وأن إنجلترا بتلك الأغنية المعسولة غررت بالشعوب المستضعفة فى الشرق ، وأسرفت فى وعودها لها بالاعتراف بالاستقلال ، فأمنت جانبها ، بل ضمنت مساعدتها وجذبتها إليها تحارب فى صفها ضد الأتراك والألمان .

٣ – وأن إنجلترا حكمتك طول مدة الحرب بالحديد والنار ، فلا سلطان إلا سلطانها العسكرى ، ولا قانون إلا الأحكام العرفية . فألجمت الأفواه وحطمت الأقلام ، وصادرت الجرائد ، وأغلقت الأندية ، ونفت واعتقلت رجالاً ممن تخشى بأسهم ، وبثت جواسيسها فى كل ناحية ، وفرضت رقابتها على كل شىء ، ووضعت يدها على كل مرافق القطر ، وحولته إلى ميدان قتال ، واستولت على كل ما يملك الفلاح من مال وغلال وجمعت ثروة الوطن جميعاً ورصدتها لجيوشها فى ميادين القتال .

٤ – وأن إنجلترا استعانت بفرق العمال المصريين الذين جمعت منهم السلطة العسكرية حوالى المليون ونصف المليون وحشدتهم حشداً ، فمدوا سكة طور سيناء الحديدية وحفروا الخنادق فى شبه جزيرة غاليبولى بالدردنيل ، واستخدمتهم فى ميدان القتال الغربى بفرنسا ، فكان جلدهم ومهارتهم وحسن بلائهم مضرب الأمثال وموضع الإعجاب .

وأنها استعانت بالجيش المصرى فى صد حملة الأتراك على قناة السويس وصد حملة السنوسيين على حدود مصر

الغربية ، وتركت له أمر الدفاع عن القطر وحراسة الحدود ، وأدخلتنا معها قهراً فى زمرة المحاربين ولم يكن لنا فى تلك الحرب ناقة ولا جمل !

٥ – وأن إنجلترا لما انتهت الحرب برجحان كفتها وكفة حلفائها عادت إلى طبيعتها ، فتناست وعودها المعسولة ، وتجاهلت تلك الحريات المسلوبة والإنسانية المعذبة التى ملأت الدنيا صراخاً من أجلها ، وادعت أنها ما دخلت الحرب إلا للدفاع عنها وصيانتها ، وجحدت ما قدمت الشعوب (ومنها مصر) فى هذا السبيل من أرواح وأموال وأقوات ، وصمت آذانها عن سماع كل صوت مرفوع يقاضيها الثمن .

٦ – وأن إنجلترا هزأت بالحق ، وقاومتك بالقوة المسلحة يوم أن غضبت الأمة للحق غضبتها المشهورة ، وبرهنت على حيويتها وعلى روح الوطنية الكامنة فى نفوس أبنائها والتى حجبتها حيناً ولم تكن لتميتها محن سنىّ الحرب الكبرى ، فثارت على بكرة أبيها سنة ١٩١٩ ، وقدمت بسخاء الأرواح وكل ما تملك ثمناً للاستقلال التام لوادى النيل .

٧ – وأن إنجلترا ارتكبت لإخماد ثورتك أبشع الجرائم وأفظعها مما يندى له جبين الإنسانية ، فتركت جنودها (من إنجليز وأستراليين وهنود) يعيثون فى الأرض فساداً وأحلت لهم النهب والسلب والتقتيل والتعذيب والتشويه وهتك العرض ، ولم تعوزك الدليل على نياتها لك ، فخلفت وراءها بالعزيزية والشوبك والبدرشين وديرمواس وغيرها وغيرها من قرى القطر ومدنه أبشع صورة لأفظع انتقام ، بل أصدق صفحة من رسالة المدنية الغربية .

٨ – وأن إنجلترا – وقد رأت منك روح المقاومة والعناد – وأنت الأعزل إلا من سلاح الاتحاد وقوة الحق ، وخشيت هيبتها من الضياع وعلى نفوذها من الزوال – رأت من الحكمة ولمصلحتها أن تأخذك باللين ، وتستعين عليك بالوقت ؛ لتكسب الموقف ولتنال بهذا وذاك ما لم تنله بالجبروت وقوة السلاح ، فلوحت (وليتها ما لوحت) بالمفاوضة ولم تيئس من زحزحتك عن موقفك الوطنى الرائع يوم أن أجمعت الأمة على بكرة أبيها على مقاطعة لجنة ملنر التى بعثتها إليك بمهمة بحث أسباب الثورة والاضطراب والنظر فى شكل الدستور الذى يصلح أكثر من سواه وفى إمكان منحك حكماً ذاتياً تحت حماية إنجلترا !

٩ – وأن إنجلترا حولت بكياستها جهاد الأمة ضدها من أجل الاستقلال التام لوادى النيل إلى حرب داخلية من أجل كراسى الحكم وتسليم البضاعة بعد أن سعت سعيها – وبمعونة بطانتها من المصريين الذين تدخرهم دائماً لوقت حاجتها – لإضعاف الإيمان بالحق وكراهية الموت فى سبيله وإطفاء شعلة الوطنية الصادقة وإشاعة روح التردد والهزيمة وتشكيك الأمة فى عقيدتها وقوة جلدها على الكفاح وتفريق الكلمة وتمزيق الوحدة ؛ حتى أدخلوا فى روع النشء أن المطالبة بالجلاء خيال وأن المطالبين به متطرفون مشاغبون والجهاد من أجله ، عبث ومضيعة وأن ذكر السودان معكر لصفو العلاقات مع الخصوم الشرفاء ؛ وأن القول بدولية القضية قول هراء ، وأن الخير كل الخير من مسالمة الغاصب والأخذ بنظرية حسن التفاهم ، فجعلوا حق الأمة موضع المساومة ، واعترفوا بأن للإنجليز بمصر مصالح لا يمكن تجاهلها أو التغافل عنها ، فأكسبوا إنجلترا باعترافهم هذا حقًّا لم تجرؤ مطلقاً على الادعاء به من قبل !

وتحول الميدان ، وألقى القادة سلاحهم ، وطغت المصلحة الذاتية على المصلحة العامة ، وتحولت الأمة وراء قادتها عن الغاية ، وكسبت إنجلترا المعركة على طول الخط (وهكذا متى ذهبت الأخلاق وضعف الإيمان فكل شىء إلى البوار !) .

١٠ – وأن إنجلترا (وقد ألقت الطعم ، ولمست تكالب القادة على التقرب منها وشراء ودها بأى ثمن وهى الغاصبة

لحقنا – لم تكابد أى عناء فى تحويل القضية المصرية إلى مسألة خاصة بينها وبين مصر وفى التمسك بما سمح لها به القادة من أن لها بمصر مركزاً ممتازاً ومصالح لا يمكن إغفالها ، واستدرجت بدهائها المفاوضين المصريين إلى المفاوضة على هذا الأساس ، وانتقلت بهم من مفاوضة إلى مفاوضة وهى فى كل مرة تخرج بفوز جديد ولا يزيدنا تهافتنا عليها إلا خساراً وتحزباً وانقساماً ! فمن مفاوضة ملنر سنة ١٩٢٠ ، إلى مفاوضة كرزون سنة ١٩٢١ ، إلى مباحثات اللنبى سنة ١٩٢٢ ، إلى مشروع تشمبرلن سنة ٢٨ ، إلى مفاوضة هندرسون سنتى ٢٩ و ٣٠ ، وأخيراً إلى مفاوضة الزعفران التى انتهت بمعاهدة التحالف والصداقة سنة ١٩٣٦ والتى قيدتك بقيود ثقال ، ووضعتك فى موضع شاذ عجيب : فهى وإن اعترفت لك بالاستقلال – ضمت إلى قاموس السياسة نوعاً جديداً منه لا عهد للعالم به يجمع بين الحماية والاحتلال فعلاً والاستقلال اسماً !

وهى وإن أطلقت يدك فى الشئون الداخلية نوعاً مما يزعم بعض أنه خير كثير – لا يقيم الوطنى الصادق لذلك وزناً البتة بجانب ماكسبته إنجلترا من الخروج بالقضية المصرية عن دوليتها ومن تحررها من قيود المعاهدات ومن حصولها على تصحيح مركزها فى القطر وتثبيت قدم الاحتلال .

ولعل الوقت لا يطول بنا حتى تنطق الحوادث بما يؤيد رأى الوحدة ، ولعلنا نرى بعدئذ من قبلوا المعاهدة ، وروجوا لها بحرارة ، ونعتوها فى زهو وغرور بأنها وثيقة الشرف والاستقلال – يدركون الحقيقة ، فيخففوا من غلوائهم ويصدعوا للحق ، ويكفروا عن خطيئتهم ويقروا بأنها وثيقة الخزى والعار ، بل وثيقة الحماية والاحتلال [1] !

---

(١) صدور – والرسالة تحت الطبع – تصريح لحضرة الدكتور أحمد ماهر زعيم المعارضة بمجلس النواب بجلسة الأربعاء ١٨ مايو سنة ١٩٣٨ بمناسبة الاستجواب الموجه للحكومة بشأن مفاوضات إنجلترا وإيطاليا رأينا أن نثبته هنا لقيمته وخطورته لصدوره من أحد أعضاء المفاوضة والموقعين على المعاهدة ورئيس مجلس النواب السابق الذى أقر المعاهدة .

قال الأستاذ أحمد ماهر فيما قال : «لقد وطدت العزم على أن أصارح بكل ماكان من أمر مفاوضات سنة ١٩٣٦ وما خبرناه فيها . إن المادة الحادية عشر نكبة من نكبات المعاهدة» .

خاتمة

لوكنت تدرك كل ما فات لآمنت معنا :

١ – بأن وطنك لما حباه الله من مزايا طبيعية – كان محط أنظار الفاتحين قديماً ، وموضع تنافس دول الغرب حديثاً ، وكان نهباً لها ، وبأنه منقوص الأطراف !

٢ – وبأنك صنت استقلالك يوم أسست على الأخلاق ، وعنيت بالتربية الوطنية ، وحاربت الجهل والفقر والضعف واستمسكت بالعروة الوثقى ، ولم ترض دون الصدارة مقاماً .

وبأنك ضيعت استقلالك يوم اتبعت الهوى ، وسرت على غير هدى ، وجفوت العلم ، وفرطت فى ثروتك وصحتك ومزقت وحدتك ، وهانت عليك نفسك ، ففرطت فى حقك ، ورضيت بأن تكون من الأمم فى موضع الذنب !

وبأنك أهل للاستقلال التام وبأن استقلال وادى النيل من أهم عوامل السلام العام ، وبأن الاستقلال لا يكون إلا بالجلاء .

٣ – وبأن إنجلترا – وقد انفردت بالغنيمة فهى أصل بلائك ، ووجودها ببلدك علة شقائك !

٤ – وبأن المعاهدات قصاصات ورق وهى سلاح فى يد القوى ضد الضعيف !

٥ – وبأن قضيتك دولية طالما تسلك سبيل المسالمة لحلها .

٦ – وبأن الحق لا يتجزأ ، ومفاوضة الضعيف للقوى مساومة على الحق ، وبأن الحرية تؤخذ قسرًا ، ولا تمنح منحاً .

٧ – وبأن الأوضاع فى مصر مقلوبة ، وبأن الفساد دب فى كل ناحية ، وبأن التحزب جريمة لا تغتفر ، وبأن الدم الحالى ملوث بجراثيم الاحتلال ، فهو مهما غلى فى العروق فرده إلى البرود والفتور ، والبناء على الأوضاع الحالية بناء على شفا جرف هار !

٨ – وبأن الإنسان خلق ليعيش حرًّا ، وبأن الأيام يداولها ربك بين الناس ، وبأن قوة المناعة والحيوية الكامنة فى الأمة – وإن قهرتها المحن والكوارث وطال على قهرها الزمن فظهورها حتمى ومرهون بأوان :

(سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) [١] .

٩ – وبأن رسالة الوحدة القومية قضاء على عهد واستقبال لعهد ، هى فصل بين عهدين :

عهد حمل طابع التشكك والتواكل ، والتخاذل والانقسام والخنوع والتفريط والانصراف إلى اللهو والفساد والجدل والدجل السياسى والتطاحن الحزبى وعدم الاستقرار فى كل ناحية .

وعهد سيحمل بإذن الله تعالى طابع الإيمان والاعتداد بالنفس والشعور بالكرامة وتضافر القوى والأمل فى المستقبل والانصراف إلى الجد والعمل المنتج فى صمت وإنكار ذات .

١٠ – وبأن العهد الجديد عهد نضال لتكوين الأمة من جديد على أساس من الأخلاق القويمة ولتسليحها من

---

(١) سورة الفتح / ٢٣ .

مصر وسودانها وملحقاتها

.... حدود البلاد ○ المدن الهامة



حدود مصر في عهد إسماعيل من البحر الأبيض المتوسط إلى خط الاستواء

جديد بالإيمان القوى والعلم الغزير والمال الوافر والسلطان العظيم ؛ فهو عهد كفاح يتطلب التجديد فى كل ناحية ، ويتطلب دماً جديداً نقيًّا وروحاً وثابًّا فتيًّا لاسترداد حق سُلب ، واستكمال حرية ضاعت ، واستعادة مجد زال :

« ومن أحسن قولا ممن دعا ألى الله وعمل صالحا وقال أننى من المسلمين (١) ».

الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل

القاهرة فى ١٧ من ربيع الأول ١٣٥٧
١٧ من مايو ١٩٣٨

(١) سورة فصلت / ٢٣ .

المطبوع الحادى والعشرون

«قُلْ رَبِّى أعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى
وَمَنْ هُوَ فِى ضَلالٍ مُبِين»(١)

قرآن كريم

مصر بين شقى الرحى

الوحدة القومية

فى سنة ١٩٣٠ وفى ركن هادئ بعيادة أحد مشاهير الأطباء جلس إخوان أربعة تجمعهم عقيدة وطنية واحدة «عقيدة الجلاء» يستعرضون حالة وطنهم المنكوب بالغاصب ، وحالة بنيه وقد فرقهم ذلك الغاصب شيعاً وأحزاباً وضرب بعضهم ببعض . وحولهم عن جهادهم ضده . وشنها حرباً داخلية حتى صرنا وراء الوراء ! .

وبعد عدة جلسات رجعوا فيها إلى حوادث الماضى القريب منه والبعيد (والحوادث نذر) رأوا أن لا مخرج للأمة مما دهاها به الغاصب واستدرجها إليه إلا :

أولاً : بالكشف عن الحقيقة وإعلانها فى جرأة ووضوح .

ثانياً : بالدعوة إلى الإيمان بها .

ثالثا : بالعمل والجهاد على أساسها .

* * *

ولكن ما السبيل إلى ذلك وقد شاع وباء الحزبية وعم ، وفصم عرى وحدة الأمة ، وأضلها السبيل بما لازم ذلك الوباء من دعايات ودجل سياسى وأباطيل سممت العقول . وأفسدت الإدراك . وبما ظهر على مسرح السياسة من أنصار حسن التفاهم مع الغاصب وأبطال المفاوضة فى الحق المغتصب ؟ .

نعم ما السبيل وقد تضافرت قوى الإنجليز وقوى سقيمى العقيدة من أبناء وادى النيل على محاربة حزب الجلاء . والقضاء على الفكرة من طريق تجريح الرجال حتى لقد وصفت الأمة طلاب الجلاء بالخياليين . وصمت آذانها عن استماع النصح والتحذير ؟

(١) سورة القصص من آية (٨٥) .

لم يكن من سبيل إلا إبراز الفكرة السياسية بطابع لا يحمل اسم شخص أو حزب أو هيئة بل الدعوة للفكرة من أجل الفكرة .

فعملت الوحدة القومية – دون أن يكون لها ذلك الظل البغيض ظل الحزبية – على أن ترد الأمة فى لطف بالحكمة والموعظة الحسنة إلى حظيرة الفكرة المثالية . وتجمعها تحت لواء واحد هو لواء الوطنية . لتهدف لهدف واحد هو الجلاء ووحدة وادى النيل . تريد الوحدة القومية بذلك الوصول إلى الوضع الطبيعى لكل أمة تريد أن تناصب العداء سالب حقها ومغتصب حريتها والمعتدى على استقلالها لتستخلص منه ذلك تامًّا غير منقوص .

وإنك لتلمس ذلك فى التسمية الرمزية التى اختارتها لتوقيع نشراتها « الوحدة القومية لاستقلا وادى النيل » وفيما اختارته عنواناً لنشراتها « مصر بين شقى الرحى » .

وقد ضربت الوحدة القومية ولله الحمد ، بما أصدرته من نشرات عدة وفى أحاديثها الخاصة – المثل الأعلى فى حرارة الإيمان . والجرأة فى الحق ونبل القصد . ورصانة الفكر . وإنكار الذات . وعفة القلم واللسان . فشقت طريقها قدماً وهكذا يهدى الله الصالحين .

ولولا تحدث بنعمة الله ما خط اليراع ذلك ؛ فالمن أبعد ما يكون عمن وهب نفسه للوطن فداءً .

ولما كان المطبوع الثانى عشر من نشرات الوحدة القومية الصادر فى مايو سنة ١٩٣٨ يكاد يبين على الخصوص ما يجب على الأمة فى مثل موقفها الحاضر موضحاً الوضع الصحيح للمسألة المصرية فى عبارة سهلة بعيدة عن التنميق والمغالطة . فقد رئى تعميما للنفع إعادة طبعه فى آخر هذه الرسالة . لعل الذكرى تنفع المؤمنين .

* * *

الإنجليز واحتلال مصر :

وقبل أن نخوض فى مسألة اليوم ونصدر رأينا فيها نرى أن نمهد للموقف بذكر بعض الحقائق الثابتة حتى يكون الرأى – كما هو دأبنا – صائباً بفضل الله .

وقد يكون فيما نكتب اليوم بعض كلام معاد . ولكن ما الحيلة والأمة مازالت تعانى الكثير من آثار تغرير القادة . والزعماء ؟

مصر جنة الله فى أرضه يخطها نهر ميمون البركات وهى على بحرين عظيمين من أهم بحار العالم هما البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، فهى بذلك ملتقى قارات ثلاث ، بل هى باب الشرق الأقصى ومركز الطريق التجارى العام بين الشرق والغرب لتملكها قناة السويس ، وهى فوق كل ذلك المشرفة على الأماكن المقدسة ومفتاح الشرق الأدنى ومصدر كنوز أفريقيا الوسطى .

وكانت مصر لذلك كله مطمع أنظار الطامعين وهى إن تعرضت للعدوان حيناً فقد تمتعت باستقلالها أحقاباً .

ولم يعد خافياً أن إنجلترا رمت باحتلالها مصر إلى هدفين .

أولاً : خلق مركز فعلى لها فى البلاد بوضع يدها على مرافقها . وسيطرتها على حكومتها وتوجيه شئونها الداخلية والخارجية – وفق هواها – ولو من رواء ستار .

آخراً : جعل هذا المركز الفعلى شرعيًّا يوماً من الأيام .

هذا ولو أنها ادعت يومئذ أنها لا تضمر لمصر سوءاً وأنها صديقة لمصر ، ولا تريد من احتلالها إلا مساعدة الخديو على نشر لواء الاطمئنان والسكينة فى البلاد عقب الثورة العرابية . وكان لها بعد ذلك أكثر من تسعين وعداً بتوكيد

الجلاء عن وادى النيل : « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم »[1] « وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً »[2] .

واقترفت إنجلترا من بين ما اقترفت من آثام لتحقيق هدفها الأول :

أولاً : رمت بالجيش المصرى إلى فيافى السودان ، ففنى فيها لقلة وسائل المواصلات والمخابرات ، وأقامت مكانه جيشاً صغيراً تحت قيادة ضباط بريطانيين ، وبذلك ذهبت برمز العزة فى البلاد .

ثانياً : ألغت البرلمان المصرى وأحلت محله مجلس شورى القوانين (الذى دام واحداً وثلاثين سنة) وكانت سلطته صورية ، وأعقبته الجمعية التشريعية فى بدء سنة ١٩١٤ ، وعطلت أعمالها فى يونية سنة ١٩١٤ ، وبذلك قضت على الروح النيابية فى البلاد ، وأفسحت الطريق للمعتمد البريطانى ليتحكم ويحكم وحده لا معقب لحكمه !

ثالثاً : ألغت المراقبة الثنائية على المالية المصرية ، وانفردت بالتصرف فيها وحدها وفق هواها الاستعمارى وبذلك سارت بالأمة فى سبيل الإفقار المادى .

رابعاً : ألغت المدارس العليا ، وأوقفت إرسال البعثات العلمية للخارج ، وعطلت قانون محو الأمية ؛ وحشرت أبناء التاميز زمراً فى مصالح الحكومة وغيرها ، وأسبغت عليهم المرتبات من مال المصريين ، وبذلك حاربت النشاط العلمى فى البلاد !

* * *

هذا كما حرصت إنجلترا كل الحرص على أن تجعل مركزها الفعلى الباطل فى مصر شرعياً فعملت لذلك بكل ما جبلت عليه من الختل والخداع . وما حذقته من دهاء وحيل سياسية . وكادت جهودها كلها تذهب سدًى لولا أن وقعت الواقعة وكانت الطامة الكبرى بمعاهدة سنة ١٩٣٦ المشئومة .

وكان مما اقترفته « لتحقيق هدفها الثانى من الاحتلال » :

أولا : فى سنة ١٨٨٣ سعت فى مساومة الباب العالى على يد مندوبها لورد دوفرين ليبيع لها الجزية التى كانت تدفعها مصر سنويًّا للدولة العثمانية . ولم تفلح إنجلترا فى مسعاها ليقظة السلطان عبد الحميد الذى رفض العرض رفضاً تامًّا .

ثانياً : فى سنة ١٨٨٥ سعت إنجلترا بسفيرها فى الآستانة لتحريض الباب العالى على إعلانه استقلال مصر التام لتنفرد وحدها بالعمل ، فأدرك الباب العالى الحيلة وأفسدها عليها !

ثالثاً : فى سنتى ١٨٨٦ ، ١٨٨٧ سعت إنجلترا لتجعل لها حقًّا شرعيًّا للتدخل فى أمور مصر ، فلوحت للباب العالى برغبتها فى الجلاء عن وادى النيل . وندبت لمخابرة الباب العالى فى ذلك سير درومندولف الذى حدد وقتئذ للجلاء ثلاث سنوات (أى سنة ١٨٩٠) على أن يكون لإنجلترا . (وهنا بيت القصيد) الحق فى العودة إلى مصر لتسكين أى فتنة قد تقوم فيها ، فلم يغب عن فكر الباب العالى ما عليه إنجلترا من دهاء وسعة تدبير فى إيقاظ الفتن وإشعال الثورات فأفسد على إنجلترا خطتها ، ورفض مافى ظاهره الرحمة وباطنه من قبله العذاب !

رابعاً : فى سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠١ عقدت إنجلترا اتفاقات مع ألمانيا وإيطاليا وحكومة الكونغو بشأن حدود السودان المصرى لتحديد مناطق النفوذ فى جهات خط الاستواء ثم ادعت أن قبول تلك الدول الاتفاق معها على تلك الحدود إنما هو بمثابة اعتراف ضمنى منها بمركز إنجلترا الخاص فى مصر .

---

(١) سورة آل عمران / ١٦٧

(٢) سورة الإسراء / ٦٤ .

خامساً : فى ٨ من أبريل سنة ١٩٠٤ عقدت إنجلترا مع فرنسا اتفاقية تطلق بموجبها يد فرنسا فى مراكش مقابل عدم تعرض فرنسا لها فى إدارتها فى مصر.

سادساً : فى ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ أعلنت إنجلترا حمايتها على مصر من تلقاء نفسها منتهزة فرصة اندلاع الحرب الكبرى الأولى بين الدول ظنًّا منها أن مصر المستضعفة تلفظ النفس الأخير. إلا أن مصر اليقظة لم تقبل الحماية بحال.

سابعاً : حملت إنجلترا ألمانيا والنمسا فى معاهدتى فرساى وسان جرمان على أن تعترفا بهذه الحماية (ولو أنها تعلم علم اليقين أن لا قيمة فى نظر القانون الدولى لاعتراف الدول بهذه الحماية ما دامت مصر نفسها لم تعترف بها) ، وأرغمت سلطان تركيا فى معاهدة سيفر على النزول عن ممتلكاته للدول المنتصرة . كما أرغمته على النزول لها بالذات عن سيادته على مصر ، فقبل السلطان هذا وذاك بناء على نصائح المستضعفين . ولو أن الأمة العثمانية الأبية أنكرت المعاهدة وثارت عليها ومزقتها شر ممزق !

* * *

غير أن كل تلك الحيل والألاعيب ، بل كل ما اتخذته إنجلترا قسراً من إجراءات حتى ذلك الحين — ذهبت سدًى أمام يقظة مصر وحرصها على ألا تمكن الغاصب من جعل مركزه الفعلى الباطل شرعيًّا .

فلا اتفاق السودان الباطل سنة ١٨٩٩ ولا اعترافات الدول الضمنية فى تحديد السودان سنتى ١٩٠٠ و ١٩٠١ . ولا الاتفاق الإنجليزى الفرنسى سنة ١٩٠٤ . ولا إعلان الحماية سنة ١٩١٤ . ولا معاهدات الصلح القسرية (فرساى وسان جرمان وسيفر) مع ألمانيا والنمسا وتركيا . ولا إقرار السلطان العثمانى بنزوله عن سيادته على وادى النيل — لا شيء من هذا كله غيّر من مركز إنجلترا فى مصر فى نظر القانون الدولى . فهى هى الدولة المنتهكة حرمة المعاهدات الدولية . وهى هى الدولة المعتدية على وادى النيل باحتلاله : ومصر لم تزل الأمة المؤمنة بحقها . الثانية على مبدئها . المجاهدة فى سبيل استرداد حريتها واستقلالها . واقفة للغاصب بالمرصاد . ناظرة للمستقبل بعين الواثق المطمئن إلى نتيجة الجهاد .

* * *

لكن الرواية لم تتم فصولا : فإنجلترا العريقة فى الاستعمار لا تلقى السلاح وهى لم تفرغ بعد كل ما فى جعبتها .

وأى سلاح يا ترى ؟ وما آخر سهم فى جعبتها ؟ إنه سهم المفاوضات سددته إلى قلب الأمة ، فأصاب منها مقتلا زحزحها عن موقفها الوطنى الرائع . وحول مجرى جهادها إلى حرب داخلية طاحنة بين الأحزاب .

وذكرت الوحدة فى نشرتها الرابعة « مصر بين شقى الرحى » حول مؤتمر الوفد بتاريخ ١٤ — ١٠ — ١٩٣٥ .

بينا فى الكلمة السابقة متى ولماذا تعقد المؤتمرات عامة كانت أو خاصة — إقراراً وأشرنا للحقيقة — إلى فكرة أن عقد مؤتمر ليست الأولى من نوعها ، وإلى أن المؤتمرات الوطنية السابقة كانت بحق وطنية عامة اسماً ومعنى ، وإلى أن قراراتها كانت مملوءة وطنية صادقة ؛ ذلك بما كانت تسجله من حقوق البلاد والسبيل إلى الحصول عليها . . .

وأخيرا انعقد المؤتمر فحسبنا المؤتمرين يهيمون فيما هاموا به بقضية البلاد ، فيتوجون قرارات المؤتمر بالمطالبة بالجلاء وبتذكير الإنجليز بما قطعوه من عهود وما أقسموا به من أيمان إنهم عن الديار نازحون ! فإذا بهم لاهون عن قضيةالبلاد بالحنين إلى العودة إلى دستور سنة ١٩٢٣ الأبتر الذى اقتطع السودان ، ولم يكفل حقوق الأمة كاملة ولم يكن من وضع جمعية وطنية !

وحسبناهم يترنمون فيما ترنموا به السودان حياة مصر ، فيقررون بطلان جميع ما جرى من افتيات القوة الجائرة على حقوقنا فى ذلك القسم من الديار وبأنه جزء لا يتجزأ من الوادى فإذا بهم لاهون عن حياة مصر بحياة الوفد نفسه وإثبات وجوده !

وحسبناهم يذكرون ما تصدع من بنيان وما تفكك من عرى بسبب سياسة «فرق تسد» فيقررون فى صراحة أن الغاصب علة العلل ويعلنون الجهاد الوطنى ضد الاحتلال حتى تستقل الأمة ويستقيم الحال فإذا بهم ويالللأسف يرددون من جديد نغمة حسن التفاهم والوداد ثمناً لكراسى الحكم بدل بث روح الكراهية والعمل على إذكائها ، ويتمسكون بما اتبعوه قديماً من سياسة الانتظار بدل إحراج إنجلترا أو العمل على إجلائها ويركنون أيضاً إلى المفاوضات فى حل القضية المصرية برغم مانعتها به سعد باشا نفسه بعد مفاوضته لوزارة العمال الأولى بأنها كانت دعوة إلى الانتحار ! (يحللونه عاما ويحرمونه عاما)[1] هذا بدل إعداد الأمة وقد تدهورت أخلاق بنيها واعتلت أجسامهم وسقمت عقولهم وانطفأت شعلة الوطنية فى نفوسهم . فأصبحنا خلواً من كل شيء ضعافاً فى كل ناحية : جهاد ولا جهاد ، تنافس بالعبارات الطنانة والجمل الرنانة ، إسراف فى الكلام ولا أعمال ، وتضليل بالأباطيل وسعى وراء الخيال يؤيدنا فى ذلك كل بصير ينظر إلى الأمور بالعين المصرية المخلصة ، ويجرد نفسه عن الهوى ، وينزها عن الحزبية ، بل يؤيدنا كل نصير للوحدة القومية ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ، ألا ساء ما يأفكون ؟

أما وقد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، وغفلوا عن قضية البلاد ، وأهملوا سودانها وغضوا الطرف عن تدخل الإنجليز السافر فى كل شأن جل أو صغر من شئوننا ليهيئوا الجو لما هو أشد وأنكى – لاتفاق شريف ؟ ؟ يصون مصالح بريطانيا فى مصر . !

فسوف لا يضن الإنجليز على الوفد بيدهم يمدونها إليه فى الوقت المناسب تنفيذاً لسياستهم المرسومة بعد أن حرموه ذلك الملمس الناعم الشهى أربع سنوات سويا . ويساومونه على الحكم وهو الطامع فيه والحريص على الحصول عليه وإن عز الثمن ، ويجلسونه فى كراسى الوزارة حيناً من الدهر حتى إذا ما وصلوا على يده إلى ما يريدون لفظوه ونبذوه كما لفظوه ونبذوه من قبل وأحلوا محله غيره وهكذا دواليك !

حسن ظن بالإنجليز وطمع فى الحكم ورجوع إلى مفاوضة هذا ما يستخلص من اجتماع المؤتمر وقراراته فهل هذه حقوق البلاد ، أو هذه سبيل الجهاد ؟ حسن الظن بالغاصب نغمة تعافها الوطنية الصادقة ، والحكم فى عهد الاحتلال مذلة وأداة هدم للأمانى القومية ، والمفاوضة انتحار وتجربة خاسرة فحرام أن يروج الجميع للباطل وإجرام ألا يرتفع صوت أمام هذه النكبة ينادى فى الأمة ، حذار فإن السم فى الدسم ! . .

وجاء فى ختام النشرة : هذا وإنا نهيب كما أهبنا من قبل بجميع المشتغلين بالقضية المصرية الذين هم يؤمنون بأن مصلحة الوطن فوق كل اعتبار ، ويضعون الوطن فوق الجميع – وقد أظهرنا رأينا جريئاً من قبل ومن بعد وأيدت الحوادث صدق نظريتنا وطهر سريرتنا ونبل قصدنا – أن تتضافر معًا جميعاً على تنفيذ ما دعونا وندعو إليه من توحيد الصفوف وتطهير النفوس وجمع الكلمة لإقامة الوحدة القومية وتنفيذ برنامجها الوطنى العام . لقد بلغنا فاللهم اشهد .

* * *

وذكرت الوحدة فى رسالتها الخامسة ٣١ من مارس أو موقعة رشيد سنة ١٨٠٧ بتاريخ ٢٩ / ٣ / ٣٥ .

(١) سورة التوبة / ٣٧ .

حفل شهر مارس بأكثر من عيد – فوافق منتصفه عيد الأضحى وهو العيد الذى يجمع إلى ذكرى الفداء اجتماع المسلمين من مختلف البلاد والأجناس فى مكان طهور واحد ؛ ليشهدوا منافع لهم وليتعارفوا ويناقشوا أمورهم ، ويضعوا ما تصلح به أحوالهم من قواعد وسياسات ؛ كما احتفلت الحكومة المصرية بما سمى عيد الاستقلال وافتتاح مجلس النواب ، ومن الواجب تصحيح الأخطاء التاريخية إبعادا لسوء الأثر فى نهضة البلاد ، وإقصاء لما يعلق بالأذهان من تشويه للحقائق ، وآية ذلك أن البلاد ظفرت بجهودها بالبرلمان الحقيقى لأول مرة وسلطته التأسيسية فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ هذا اليوم هو الموضوع الحقيق لذلك الاحتفال .

وفى ٢٦ من مارس احتفل بميلاد الملك . والشعب المصرى الذى يرى فى عرشه تشخيص قوميته ؛ كما يرى فيه تمثيل فكرة الوطن بعيداً عن الاختلافات الحزبية يدعو الله لمليكه بعاجل الشفاء . . .

وإذا كانت الحاجة لإحياء الأعياد عامة فإنها فى البلاد المرزوءة بالاحتلال الأجنبى أظهر وأكثر إلحاحاً ؛ لأنها فى مثل تلك البلاد تكون دفاعاً عن النفس وتغذية للروح وحدًّا للاعتداء المتجدد كلما أشرقت شمس .

ليس رزء مصر مقصوراً على ما تمتد إليه أيدى الإنجليز من مرافق ولا ما هدموا من حصون وسخروا من قوى ولا على ما أفسدوا من برامج التعليم واستنزفوا من أموال الأهلين ، ولكن الرزء الكبير والهم المضنى المخيف هو ما أتقنوا وافتنوا فى تشويه صورة البلاد المعنوية السابقة لشؤم احتلالهم والعمل على قطع الصلة بين الأجيال التى ساء حظها بنبتها فى عهدهم وبين مفاخر آبائهم وأجدادهم حتى يصلوا من طريق « الاستنبات السياسى » إلى استعمار الأفئدة وتسخيرها فى استعمار الأهل والتراث . . .

وبعد أن بينا عبث الإنجليز بالتعليم والجيش والأخلاق إلخ . . . وبينا بإيجاز موقف الأجداد فى ٣١ من مارس سنة ١٨٠٧ يوم أن كتبوا بدمائهم صحيفة غالية فى صون حرمة الوطن والذب عن تراث الغابرين ختمنا الرسالة بالعبارة الآتية :

نعم ليس للقنابل أثر فى النفوس الأبية ، ولسنا نخاف على إخواننا إلا قنابل « الإغفال » وسموم التشويه فى المنطق والتاريخ .

إن ٣١ من مارس ذكرى قومية وعيد مجيد لا يضيرنا أنا لم نحتفل به فى الماضى ، ولكن يضيرنا ألا نبتعد بأنفسنا عن الخطأ وغمط الحقوق متى عرفنا الحق ومتى ظفرنا بخير ذكرياتنا غذاء للشعور ورفعة الوطن .

إنا ندعو الأمة بجميع طبقاتها للاحتفال بهذه الذكرى بكل المظاهر اللائقة بها بعد أن طوتها أحداث الزمان وما يذكر إلا أولو الألباب .

* * *

وذكرت الوحدة فى رسالتها السادسة « مصر بين شق الرحى » إلى أى طريق نحن مسوقون ؟ بتاريخ ١٦ من أبريل سنة ١٩٣٥ .

يعلم الله أنا لم نرد إلا الإصلاح ما استطعنا ، يوم أن قررنا أنه ليس من الكياسة فى شىء أن يكيل من تصدوا للزعامة فينا الثقة للوزارة جزافا . وهم يعلمون علم اليقين أنها شكلت وفق إرادة الإنجليز وهواهم . وأنه ليس من الإنصاف أن يريدوا الأمة على منح تلك الثقة بلا حساب (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون)[1] وحذرناهم وحذرنا الأمة يومئذ من عواقب تلك السياسة الخطرة ، ووددنا لو أعطيت الثقة عن جدارة

(١) سورة البقرة / ٩ .

بقدر معلوم ، وبالثمن المناسب لا نريد بذلك بخساً ولا تجريحاً .

ويعلم الله أنا لم نقرر إلا الحق ، يوم أن صرحنا بأن الوزارة الحاضرة إنما هى كالوزارت السابقة : كلها على حد سواء : بشكلها المحتل . وكلها – إلا ما ندر وفى بعض الحالات والنادر لا حكم له – آلة فى يد المحتل يحركها وفق هواه تنفيذا لخطته الاستعمارية التى لا يقضى وطره منها إلا على يد الوزراء وأضرابهم من أبناء البلاد ممن يفرطون فى حقوقها !

ونود اليوم أن نرجع بذاكرة القارئ الكريم إلى الماضى القريب ؛ لنبين له أن ما قلناه لا ريب فيه وأن سياسة الحكم عندنا ليست سياسة استقرار لمصلحة الوطن وبنيه – وإن تغيرت الحكومات – وأنا فى جهادنا (إن كان ثمة جهاد) لا نعمل على أساس وطنية سليمة . وأنا لا نعدو حد الكلام وإن حفزتنا الرغبة للعمل فلتنفيذ ما توحى به إرادة المحتل . وهى ولا شك تتعارض حقًّا والمصلحة العامة !

وما أصدق الحوادث إن نطقت ! وما أكثرها ! ولكنا مع الأسف سريعو النسيان !

وليس العهد ببعيد يوم أن زار اللورد لوند ندرى وزير الطيران البريطانى القاهرة لدرس تفصيلات المسائل العسكرية والجوية ؛ ويوم أن زار بعده السير مايلز لاميسون فلسطين ، ويوم أن عقدت فى القدس الشريف إثر تلك الزيارة اجتماعات سياسية وعسكرية . كانت وقتئذ موضع اهتمام الدوائر التى تعنى برقابة مجرى الأمور فى الشرق الأدنى ؛ لما لها من صلة وثيقة بزيارة وزير الطيران للقاهرة !

حصل ذلك والجو الدولى فى حالة غير عادية تنذر بعواصف أساسها المنافسة الاستعمارية والاقتصادية . وكل دولة تعد عدتها للطوارئ ، والجو المصرى فى حالة غير عادية أيضاً ، ولكن تنذر بالخراب والإفلاس الوطنى ، انقسامات حزبية وخلافات داخلية ، وانصراف إلى مفاضلات شخصية . أضعفت جبهتنا ، وفتت فى عزائم جهودنا حتى وصلنا إلى حالة نشرت التخاذل ، وأطمعت فينا الخصوم !

حصل ذلك وإنجلترا تفكر فى تغيير سياستها وتنفيذ نظرية (الإدارة الحسنة) التى أشار بها اللورد لويد فى كتابه من أنها يجب أن تكون غاية السياسة البريطانية فى مصر وذلك بالرجوع بمصر القهقرى إلى ما كانت عليه قبل الحرب من رقابة بريطانية للشئون الداخلية والخارجية تشمل الصغير والكبير .

وقد وجد الإنجليز الوسيلة للتدخل فى أخص شئوننا الداخلية وجدوها فى تصريح (٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢) – تلك العقدة السياسية الفريدة ، بل ذلك العمل النموذجى لدبلوماسية عريقة تجاه نهضة وطنية عنيفة وجدوها فيه لما حوى من نصوص مرنة مطاطة تتسع لمختلف التأويلات والتعليلات .

ولا يحتاج المرء لذكاء خارق ليلاحظ أن إنجلترا حولت دفة سياستها فعلا ، ولكن إلى اتجاه التدخل الصريح فى كل شأن والهيمنة على كل أمر . والإنجليز كما تعلم يرسمون الخطط ويهيئون لها الجو لتنفيذ على يد أبناء البلاد .

فكانت مؤامرة محكمة ، بدت بوادرها فى أواخر عهد الوزارة السابقة التى عملوا على إحراجها ثم هيئوا الجو لإسقاطها وأسقطوها ، وما صحب ذلك من اجتماعاتهم بقادة اليوم يساومونهم على الحكم ، وما تلاه من تشكيلهم الوزارة الحاضرة .

وكانت مواد المؤامرة أن تتسيطر إنجلترا وتتحكم وأن تطيع الوزارة وتنفذ ! وأن يمهد قادة اليوم السبيل بتخدير الشعب وتضليله ؛ ليضل فى بيداء الثقة العمياء ، ويؤمن بالباطل ، ويراد على العسف ، ويرضى بما يجرى من مناقصات – ومصر هى الضحية – وقد كان !

أما الحكومة – وقد عبد لها القادة الطريق – فقابلوها بتلك الثقة التي زفت إليها زفًّا بلا ثمن ولا حساب ، لم يطل بها المقام حتى ألغت ما سموه دستور البلاد . وكان على الشعب المنكوب الحسن النية إلى أقصى حد – أن يتقبل – والفضل للمترعمين – الطعنة النجلاء ، وأن يقابل الإلغاء بالارتياح التام كما قابل تشكيل الوزارة بالثقة العمياء . برغم أنها وأدت ولم تبعث ، وأنها اجترأت على سابقة خطيرة فى تاريخ البلاد ، وأصبحنا بلا حياة دستورية . وعلينا أن نقنع بوعود – يعلم الله مدى صدقها – أن الدستور عائد لا محالة ! وعلينا أن نتجمل بالصبر حتى يعود لنا طائعاً مختاراً ! وأىْ دستور هذا الدستور الذى لم يكن من وضع جمعية وطنية . وتدخل فى وضعه الإنجليز واقتطع منه السودان ، ولم يكفل حقوق الأمة كاملة ؟ اللهم رحماك ؛ أليس فيكم رجل شديد ؟

وفى غيبة ما نعتوه بدستور البلاد – فاجأ الإنجليز الأمة بإثارة مسائل خطيرة تمس مقام العرش وتجرح عزة الأمة وتهين كرامتها ، وخرجوا على البروتوكول المتبع ، وكان على الشعب هنا أيضاً – والفضل للمترعمين – ألا يحرك ساكناً . وأن يقبل برضاء الوضع المعكوس لتلك المسائل التى أطفأها الإنجليز ، كما أشعلوها ؛ ليحركوها باطمئنان مرة أخرى متى آن الآوان .

كما أنهم كانوا بعد ذلك ظرفا فى دعايتهم السياسية يوم أن تكرموا علينا بالسماح بسفر البعثة التجارية إلى السودان مما لم يخل من مظهر التأييد لسياسة الأمر الواقع .

هذا وقد أدت الحكومة الأمانة ووفت بالعهد ، فكانت من الضعف حيث فرطت حتى فى كرامتها ، وطأطأت الهام وتلاشت إراداتها فى إرادة المحتل ، فكانت رهن الإشارة حتى ليخيل للمرء أنها أصبحت ألزم للمندوب البيريطانى ورجال داره من ظلهم : وآية ذلك أنها جددت عقود الموظفين الإنجليز الذين انتهت مدة خدمتهم ، وإلى مدد أطول ، وتعاقدت هى وآخرون ! وكان الواجب يحتم التخلص منهم ؛ وفى البلاد الكفاية من أبنائها ، وأغدقت على آخرين العلاوات وكانت سخيةً فى منح الدرجات . وفتحت اعتمادات مالية لتمهيد الطرق لفائدة المواصلات الإمبراطورية ، واحتكرت العطاءات للشركات الإنجليزية وإن كانت أعلى من الشركات الأجنبية الأخرى ، وعلى الخزينة المصرية أن تتحمل . بل على الفلاح المصرى والعامل المصرى أن يكد ويجد ؛ ليبيت على الطوى ويتخم غيره . فالشعب دائما غارم ، وأنشأت بين عشية وضحاها وزارة للتجارة ، ثم قررت تعيين خبير إنجليزى لها بمرتب الوزير ، وله حق الاتصال المباشر به برغم ما أحاط هذا الإجراء من غموض وما ساور الشعب من مخاوف أيدها سفر البعثة الاقتصادية لإنجلترا غداة ذلك القرار مودعة من كبار رجال دار المندوب ، تلك البعثة التى لم تصدر بها إرادة الشعب ، بل اقترحتها إنجلترا ، واختارت أفرادها بدعوى تحسين العلاقات التجارية بين مصر وإنجلترا التى لا ترى سبيلا لذلك إلا باتفاقية تضمن بها السيطرة التجارية على مصر ، واحتكار السوق التجارية وإقفالها فى وجه بضائع الدول الأخرى وإن كانت أرخص سعراً وأجود صنفاً ومنافسة البضاعة الوطنية ، وقتل الصناعات المصرية الناشئة التى بدأت تحيا فى البلاد ، والتحكم فى التعريفة الجمركية وإفساح المجال للمصانع الإنجليزية لتغرق بسلعها السوق المصرية ، مما يؤثر تأثيراً سيئاً فى إيراد الجمارك ويكون له أسوأ وقع فى نفوس الدول الأخرى ، ويزعزع العلاقات التجارية بيننا وبينها ، وإنك لتقرأ الدليل على ذلك فى تصريح دولة رئيس الوزراء فى حفلة الغرفة التجارية البريطانية قبيل سفر البعثة .

وأخيراً طلعت علينا الوزارة باتفاقية المورجيج (شركة الرهن العقارى) وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على إرضاء الإنجليز بأى ثمن ، مهما حاول بعض إقناع الشعب بأن التسوية فى مصلحته وستكشف الأيام ذلك بعد حين .

ثم انظر كيف ألقيت فى سلة المهملات مسألة المحاكم المختلطة والامتيازات الأجنبية ؟ وكيف فرضت علينا إنجلترا فرضاً – التأجيل ثلاث سنوات فيما يختص بالدين العام !

هذا بعض ما نكبت به البلاد فى الفترة القصيرة الماضية . وما عجزت الوزارة عن معالجة مشكلة الأزهر وغيرها من المسائل الإدارية المحلية إلا لأن الناحية الإنجليزية لم توح إليها بإرادتها بعد . وإلا فما بقيت معلقة لليوم ، وهذا منتهى الضعف وفقدان الثقة بالنفس ، وقد يفاجئنا الإنجليز كما تعودنا منهم بحلول متى بدت لهم مصلحة فى التدخل ، وستسير الوزارة ولا شك على هذا المنوال من التفريط والضعف حتى تشبع رغبة الإنجليز للنهاية من التدخل فى شئوننا والهيمنة على أمورنا ، وعندئذ يلفظونها كما لفظوا غيرها من قبل طالما أن الشعب مغلوب على أمره مسلوب الإرادة فى تسيير شئونه ! فعلى الشعب أن يتيقظ ويعمل !

أما قادة اليوم جزاهم الله فقاموا بنصيبهم من هذه المؤامرة المبينة على أحسن ما يكون ، وبرهنوا على أنهم ليسوا أقل من الحكام وفاء للعهد ، فكانوا عباداً للرياء السياسى . غفلوا عن فتك الأهواء السياسية بعقلية الشعب ، ولم يتورعوا عن تغرير العقول وتضليل الأفهام . وحاولوا إقناع الناس بالباطل . وحملهم على الإيمان بما يقولون من هراء ، وبما يراد بهم من عسف وجور .

سكتوا عن التدخل السافر ، وغطوا فى نومهم . وقد كانوا بالأمس يظهرون التململ من الحياد المزيف مما زاد الإنجليز جرأة على الحركة الوطنية واستخفافاً بها ! قنعوا بالفتات ، وفرحوا بفك أسرهم وقبلوه ثمناً لأسر الأمة وقد ذ..دت حياتها الدستورية ، فراحوا يجوسون خلال الديار لا لإذكاء نار البغضاء ضد الاحتلال ولا للتحدث عن مصر المقسمة بين الاحتلال البريطانى والامتيازات الأجنبية والمنكوبة بالخصومات الحزبية ، ولا عن إنجلترا ونياتها ونشاط المندوب وتنقلاته التى لا تخلو من مغزى إلى الحدود المصرية وفلسطين والسودان ، فقد برهنوا أن شيئاً من ذلك لم يدر فى خلدهم ، ولكن ليكيلوا المديح للوزارة على ما فرطت فى حقوق البلاد . وليتحدثوا عن أنفسهم وزعامتهم ، وما هم فيه من نعمة الثقة التامة ؛ فهذا كله همهم للتلويح به للسادة الإنجليز متى آن الآوان !

وكنا نود أن يفهموا أن واجبهم إعداد الأمة لمواجهة ما قد يسفر عنه الموقف الدولى من احتمالات خطيرة ، ولانتهاج سياسة قومية تجاه احتمالات موقف إنجلترا منا سياسيًّا وعسكريًّا . حتى لا تفاجئنا الحوادث الكبرى كما فاجأتنا سنة ١٩١٤ عندما أعلنت الحرب الكبرى ! وبدل أن نجنى استقلالاً فرضت علينا الحماية الإنجليزية فرضاً !

وأخيراً كنا نود أن نبرئهم من التآمر على مصالح البلاد ، ولكن أرأيت كيف أن قادة اليوم حريصون جد الحرص على تنفيذ نصيبهم من المؤامرة ؟ فلزموا الصمت أمام كل صدمة وتقبلوا كل لطمة ! وما خرجوا عن صمتهم عندما ضجت البلاد بخبر الخبير الفنى مما كشف الستر وفضح الأمر إلا للدفاع عن الوزارة وتبرير ضعفها وتفريطها إذ قال كبيرهم :

« إن الوزارة صديقة الأمة صادقة النية فى تحقيق آمال البلاد وحسبها فخراً أنها ألغت النظام البغيض وأنشأت جوًّا من الطمأنينة والعدالة ، ويجب أن تترك لها الفرصة لتعمل فى جو من الهدوء . أهرام ٣ من أبريل سنة ٣٥ تحت عنوان دولة النحاس باشا عند دولة رئيس الوزراء .

هذا كلام له خبىء : معناه ليست لنا عقول لهذا الحد بلغت الجرأة على التغرير بعقول الشعب وقد عاملهم الشعب على أساس الإكبار والإكرام ، وظل محتفظاً بهذه المعاملة برغم تعدد أخطائهم التى وصلت إلى حد التفريط الصريح فى حق الوطن .

وسينفذ القادة نصيبهم من برنامج المؤامرة لآخره طالما أن الوفاق تام بينهم وبين طرفى الإتفاق « الإنجليز والحكومة » وطالما أن الشعب فى غفلة عما يراد به فعلى الشعب أن يتيقظ ويعمل .

وإنا نأمل وقد طفح الكيل . ونطقت الحوادث : أن تكون الأمة قد ملت ما نحن فيه من صغار الحزبية وعبثها واستهتارها ، وفطنت إلى سر تلك الكلمات الطنانة التى كان يلقيها قادة اليوم بلا حساب عن الحرية والاستقلال ، والزعامة ، والتضحية ، والموت الزؤام ؛ إذ رأت المتصدرين للقيادة لا يتحرجون فى ألفاظهم وتعبيراتهم ، ولا يتورعون عن التناقض على حس الظروف والمقتضيات الحزبية ، وإذ رأت كيف أن أداة الحكم فى البلاد تخضع للأهواء الحزبية والأعراض السياسية والإرادة الإنجليزية ؟ وإذ رأت كيف أن الصحافة تطلع عليها كل صباح ومساء بألوان مسومة من الجدل والتجريح . ولم تعد الأذن تسمع نغمة وطنية خالصة غير مشوبة بالروح الحزبية البغيضة ؟

نأمل أن تكون ساعة العمل القومى قد دقت ، فتلقى الأمة بالنذير فى آذان المنصرفين إلى المنازعات الحزبية والجارين وراء السياسة الاستعمارية بأنها خليقة أن تتصرف عنها وعنهم إذا لم يعملوا على إنهائها . ويطهروا أنفسهم من أدرانها . !

نأمل وكل أملنا فى الشباب الذين أخذوا يُصْبغون كل أعمالهم بصبغة القومية ، وشعروا أنها حقًّا صخرة النجاة مما تجلى بروعة فى حفلة الشباب القومية لإحياء ذكرى الزعيم الشاب الخالد الذكر مصطفى كامل . وكان له صداه فى أنحاء البلاد وحسب له المحتلون حسابا ، حتى إنهم منعوا باقى حفلات الشباب . ومما نراه اليوم من إعداد الشباب حفلة قومية أخرى لمضى خمسة عشر عاما على تأسيس بنك مصر الوطنى وما نلمسه من الروح القومى فى جمعيات الشباب الناشئة التى تعمل فى شتى نواحى الحياة . وأول الغيث قطر ثم ينهمر .

وليس لما نحن عليه من علاج مادام الاحتلال البريطانى باقياً ، ومادام نظرنا يصطدم هو وجيوش الاحتلال تدوس بأقدامها ثرى الوطن المفدى والراية البريطانية ترفرف فوق القلاع والثكنات إلا أن تكون لنا سياسة قومية نسير على هديها ، وأن نقوى خطوطنا بالوحدة القومية . ونزود جبهتنا بميثاق قومى يعلو عن منازعات الأحزاب والأشخاص . سبيلنا إلى ذلك قوة الإيمان وسلامة العقيدة .

« وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ماآذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون »(١) « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله »(٢) .

وذكرت الوحدة فى نشرتها السابعة مصر بين شقى الرحى – ٧ عود على بدء بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٣٥ .

ربنا زاغت القلوب والأبصار ، وعمت الفتنة فألهمنا السداد فى الرأى ، والتوفيق فى العمل ، واهد القوم الذين لا يفقهون إنك أنت الوهاب !

يأتمر الناس بنا وتتابع الحوادث سراعا ، وتشتد الحالة خطورة ، وينذر الموقف بسوء المصير .. والكل معقودوا اللسان مكتوفو اليدين ، يرون ويسمعون ، والأقدار تضحك وتهزأ !

ويشهد الله أنا ما فرطنا فى نشراتنا السابقة من شىء : فسفهنا فكرة تعدد الأحزاب فى البلد المحتل ، وبينا بوضوح أن الاحتلال الأجنبى أساس كل ما حل وما يحل بنا وبوادى النيل من مصائب ومحن ، وأن الجهاد ليس قتالاً بين أبناء البلد الواحد فى سبيل الحكم ، وأن الوطنية ليست فى مسالمة العدو والتفريط فى حقوق البلاد . وأن

---

(١) سورة إبراهيم / ١٢

(٢) سورة التوبة / ١٠٥ .

السياسة القومية هى القاعدة (الوحيدة) للجهاد الوطنى السليم ، وأن الوحدة هى منار الهدى إن تلمسنا السبيل فى وسط هذه الدياجى وقد تفرقت بنا السبل !

ولكنا مع الأسف الشديد لانزال نظلم أنفسنا بقطع الصلات والتنابز بالألقاب وتمزيق أواصر الإخاء ، والانقسام إلى شيع وأحزاب ، تظاهر كل شيعة رجلها ، ويتربص كل حزب بالآخر ، واتخذ الكل إلهه هواه ، وإن تظاهر الكل بمحبة السلام ، وتمشدقوا بخدمة الوطن المقهور والشعب المغلوب !

هذا والعدو بفضل إخلاصه لقضيته ، وفنائه فى خدمة مبدئه – دائماً إلى الأمام – يسدد سهامه إلى صدورنا ، بل يعمل بأسلحته فى أقفيتنا ، منفذاً فينا مشيئته ونحن بفضل الانقسامات الحزبية والمنازعات الداخلية والفناء فى خدمة المصلحة الشخصية دائماً إلى الوراء ! نفسح له الطريق : قولنا لغو ، وفعلنا لهو ، ووطنيتنا هباء !

واليوم وقد جل الخطب واشتد الكرب وبلغ السيل الزبا – هل من عمل حازم حاسم يرد إلينا أمرنا ، ويحمى حوزتنا ، ويقطع على الإنجليز سبيلهم ؟ ويعكس عليهم غرضهم ؟

إننا – وقد جزعت نفوسنا من هول الموقف – نبرئ ذمتنا ونبين الطريق وقد غمرت القوم الضلالات ، ونرفع الصوت عاليا وقد خفتت الأصوات ، فنعود إلى ما بدأنا به نشراتنا فى العام الماضى من الدعوة إلى التأليف بين القلوب وتوحيد الصفوف بإلغاء الأحزاب وتكوين جبهة متحدة حتى تسدل الستار الكثيف على مظهر الانقسام إلى وطنيين ودستوريين ووفديين وشعبيين واتحاديين . . . إلخ ونصبح كتلة قومية متحدة أشداء على الأعداء ، رحماء بيننا نعمل على أساس ميثاق قومى عام لتحرير وادى النيل من جميع مظاهر الاحتلال .

ولئن كانت الوحدة القومية من القديم هى الدعامة للجهاد الوطنى السليم – إننا أحوج ما نكون إليها الآن ، لتنقذ الموقف.

هذا قول فصل وما هو بالهزل ، بل هذه سبيلنا ندعو إليها بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهى بإذن الله تعالى سبيل الجميع .

أما أن نلج فى طغياننا ، ونوغل فى قطع علائق الأخوة ، ونحسن الظن بالغاصب نستلهم منه الوحى ونتآمر نحن وهو على الوطن وأبنائه ، ونركن إلى سياسة الانتظار – والعدو آخذ بناصيتنا – ونزين بعضنا لبعض سوء ما وصلت إليه الحال ، ونخفف من وقع تلك الطعنات الدامية واللطمات القاتلة التى أصابت الوطن وأصابتنا فى الصميم ، بل نبرر للعدو عدوانه ونهرب من ميدان الجهاد إلى ساحة الموت والأسر ونغفل عن الأمانى القومية ، ونهتم بالمطالب الحزبية بالتهالك على الحكم واستجداء دستور أعرج لا نملك حتى عودته ناقصاً بالسخرية الزمن فهذا منتهى الإجرام ومنتهى الجحود بحق الوطن ، وهذا هو الضلال البعيد .

ولخيرٌ الحر الأبى – إن وضعنا أصابعنا فى آذاننا وأخذتنا العزة بالإثم فعز الوفاق بين أبناء البلد الواحد ، حتى فى وقت المحنة الوطنية – أن يموت كريماً من أن يعيش فى جو طغت فيه النفعية وعفا فيه الوفاء !

ولكنا لاتزال لنا بقية أمل فى أقطاب المصريين – وقد لبوا مع تنافرهم دعوة المندوب الحالى فى أوائل عهدنا به (وهى دعوة الباطل لمصلحة إنجلترا) فاجتمعوا جميعاً بداره وجهاً لوجه – أن يلبوا دعوتنا وهى دعوة الحق لخير مصر . فترى منهم إن كانوا حقًّا بررة بوطنهم – خطوة جريئة إلى إنكار ذواتهم ، وتناسى أحقادهم وتأليف قلوبهم وتوحيد كلمتهم ؛ لنصبح بنعمة الله إخواناً .

بهذا تتكون الوحدة القومية ، وتتوحد الغاية ، وتتوحد المجهودات ، وتتوحد القيادة ، ونصل بالسفينة إلى بر الأمان ، وهذا هو النصر العزيز .

وأخيراً

سكتت الوحدة وتركت الحوادث تنطق ، وللحوادث فعلها فى النفوس ، وقد جاءت مؤيدة كل ما ذكرته الوحدة بنشراتها السابقة ، فلما طفح الكيل ولم يبق فى طوق الصبر منزع – قام الشباب ثائرتين للكرامة الممتهنة والحق المهضوم والعزة المجروحة ، وصادف ذلك تصريح « هور » مما جعل بعضاً يظن خطأ أنه السبب المباشر لتلك الفورة الدامية ؛ كما اعتبر الحركة آخرون أنها ثمن للدستور .

وهنا رفعت الوحدة صوتها البرئ عالياً ، وعادت إلى سيرتها الأولى تصحيحاً للأوضاع فذكرت فى نشرتها الثامنة بعنوان « ثمن الدماء » بتاريخ ٢٣ / ١١ / ٣٥ مايأتى :–

ثمن الدماء

عندما نشرت الصحف كلمة لشباب الجامعة رد ما اختتمت به الآمال إلى القلوب بعد أن خيف عليها أن تتوارى طى الأحداث . هذا الختام الذى يعتبر عهداً ليس أحرى من شباب البلاد بالأخذ به وهى دعوتهم . « أن تكون الجبهة المصرية على أساس المطالبة بالاستقلال التام لمصر والسودان » .

وإنما كانت قطرات الدماء الزكية التى خضبت أرض الوطن تسطيراً لهذا العهد بأغلى مداد على أطهر صحيفة .

وما كان ثائرها إلا الصرخة الدامية المدوية لانهيار سيل الافتيات على حقوق الوطن المنكود من غاصبيه ، فنحن اليوم ندعو إخواننا ومواطنينا ألا يرخصوا هذا الثمن الغالى بالتحول إلى تفصيلات تلهى عن اللباب الذى من أجله تهون التضحية . وليكن الاتجاه ذلك العهد الذى فارقتنا عليه مهج الضحايا .

أما الدستور وهو شكل الحكم الذى لا يخرج عن كونه ترجمة البلاد من سياسة لشئونها الداخلية – فإنه منا ولنا وليس يشرفنا أن يكون مطلبنا أمام الغاصبين ، فإن من أفتك العلل بالبنيان القومى أن يبدر منا ما يسوغ لهم بيننا تدخلاً أو منة فنحن أحرار فى نظام حكمنا ، وقد أيد مليك البلاد فى رده التاريخى مشاركة الشعب فيما يرتضى من نظام ، وليس للبريطانيين أن يشاركونا فى هذا بأى وجه .

وإن ما قاسته البلاد من الويلات الأخيرة ليس إلا نتيجة للضعف الذى جعل الغاصبين موضع الاستشارة وشهواتهم موضع التنفيذ .

وكان أن قام الشباب البريئون – والشباب رجاء الوحدة القومية وعدة المستقبل – منادين بالوحدة القومية مقدمين فى سبيلها أثمن ما يملكون من وقت ومال وروح . وسطروا بدمائهم الطاهرة الزكية صفحة مجيدة فى تاريخ النهضة القومية . وكان لذلك الموقف روعته وجلاله ؛ وكان لزاماً على القادة أن يكونوا جبهة متحدة .

تكونت الجبهة وليتها ما تكونت : وهى تحوى جراثيم فنائها ، تكونت لا على أساس ما نادت به الوحدة القومية ، ومازالت تنادى به من وجوب عدم تعدد الأحزاب فى بلد محتل ، وبضم الصفوف وتوحيد الجهود أمام الغاصب والعمل على أساس ميثاق قومى عام ؛ فالأحزاب وياللأسف لاتزال قائمة ؛ والنعرة الحزبية إن خفتت حينا

فهى نار من فوقها رماد . والإجماع إن كان هناك حقًّا إجماع – هو ويا للعار إجماع على وسيلة لا غاية ، وسيلة فاشلة خاسرة هى المفاوضات ! ومتى ؟ فى وقت تسيطرت فيه الروح العسكرية البريطانية وتحكمت واتخذت من أرض مصر ومائها وجوها ميداناً لاستحكاماتها الحربية . ومرجل السياسة الدولية يغلى ، والجو ينذر بالشر .

نعم وجد الإجماع ولكنه إجماع شر من القطيعة التى كنا عليها ! إنه إجماع عملت له إنجلترا وسعت له بكل قواها ، وألحت فى طلبه يوم أن تبينت أن رمز الإجماع وغاية أمانينا مفاوضة على أساس مشروع سنة ٩٣٠ بل إن إنجلترا اشترطت الإجماع أساساً لقبول المفاوضة (فهل من مذكر ؟) .

إنه إذن إجماع وليد إرادة إنجلترا ولمصلحتها لا لمصلحة الوطن المنكوب ، إجماع تطمح إنجلترا أن تصل من ورائه إلى مالم تتمكن من تحقيقه لليوم (ولن تتمكن بإذن الله طالما أن فينا نفساً يتردد) وهو جعل مركزها بوادى النيل شرعيًّا – فلا كنا ولا كانت الحياة إن وصل بنا الإجرام إلى حد تمكينها من ذلك .

وهو فوق ذلك إجماع تريد به إنجلترا أن تسجل علينا أمام العالم إنا أمة وإن نادى القادة فيها بعبارات الحرية والاستقلال والتضحية لاتزال من سقم التفكير وقصر النظر وصغر الأحلام بحيث نضع حياتنا واستقلالنا موضع المساومة !

والأنكى من هذا أن تطالب الأمة المسكينة بالإخلاد إلى الهدوء والسكينة وعدم تعكير الجو ، ولماذا ؟ لإلزام الإنجليز الحجة ! لقد هزلت ، فكأننا لانزال يعوزنا الدليل على سوء نية القوم وهم لم يتركوا للشك مجالاً فى سوء نواياهم فهم الذين كانوا دائماً لمصر بالمرصاد يغتنمون الفرص إن لم يخلقوها خلقاً !

وهم الذين أوجدوا فى جو السياسة بادئ بدء « نغمة طريق المواصلات الإمبراطورية ، وذلك منذ دخل نابليون مصر ، وهدد الهند سنة ١٧٩٧ !

وهم الذين كانوا يحلمون من عهد بعيد بضم وادى النيل إلى التاج البريطانى ، وقد بسط ذلك الحلم اللذيذ المستر غلاستون سنة ١٨٧٧ فى تصريحه المشهور « إنا إذا نزلنا فى مصر ذهبنا إلى السودان ، وإذا ذهبنا إلى السودان مددنا أيدينا من خط الاستواء إلى جنوب أفريقيا ، وأتممنا تأليف إمبراطوريتنا الأفريقية !) .

وهم الذين قال مندوبهم فى اللجنة الدولية السير ويفرس ويلسون وقت أن وقعت الأزمة المالية بمصر فى عهد إسماعيل : (إنه لا ينقذ مصر ولا يصلح لحكمها سوى الإنجليز يتولون أمرها ! » .

وهم الذين جعلوا حجتهم فى البقاء فى مصر بعد أن تسنى لهم احتلالها سنة ١٨٨٢ « الاضطرابات السياسية بمصر وخطر المهدية بالسودان » !"

وهم الذين دبروا مؤامرة إخلاء السودان وإعادة فتحه بأموال وجنود مصرية ، ليضعوا هم أيديهم عليه ! .

وهم الذين صرحوا على لسان الكولونيل مونتايل سنة ١٨٩٤ بعدما فشلت المفاوضات بينهم وبين الباب العالى سنة ١٨٨٩ لجلائهم عن مصر : إن إنجلترا لا تجلو عن مصر إلا بعد أن تمتلك السودان وطريق بربر إلى سواكن ! » .

« وصرحوا على لسان المستر بلفور فى مجلس العموم سنة ١٨٩٦ بمناسبة حملة كتشنر ورغبة إنجلترا فى إقناع الدول وقتئذ بالسماح بأخذ نصف مليون جنيه من احتياطى صندوق الدين لذلك الغرض : « إنا لا نرجع عن عزمنا وحيثما وضع الجندى الإنجليزى قدمه فهو يبقى ولا يتزحزح ! » .

وهذا لا يخرج فى شىء عن تصريح السير إدوارد غراى فى السنة التى قبلها (١٨٩٥) : (حيثما نزل جندى إنجليزى ظل أبد الدهر !) .

وهم الذين صارحونا . القول يوم أن قال اللورد ملنر للمرحوم سعد باشا : (نحن نبحث عن مصر منذ مائة عام !) .

وهم الذين ابتكروا لنا اليوم فى قاموس السياسة « حماية الاستقلال ! » وهم الإنجليز هم الخصوم وكفى : « قدبدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » .

هذا ولا يفوتنا إنصافا للحق أن نقرر أن رائدهم مصلحة وطنهم ، فلا نعينهم من هذه الناحية ، بل نقدر فيهم الوطنية الصادقة ؛ وإنما العيب عيبنا وعيب قادتنا الذين لم يسلكوا بنا طريق الصراحة وأمعنوا ويا للأسف فى الالتواء والتضليل .

ومن نكد الدنيا علينا أن نطالب ونحن أصحاب الحق المغتصب بالتدليل على حسن نيتنا ، والغاصب جاد فى افتياته واعتدائه على الحق والكرامة بالقول والفعل . إن هذا إلا مضيعة وأى مضيعة ؟ وإنه لسبيل الخيبة والإفلاس .

إنا نسجل أمام العالم أن روح الشباب لا تقر ما وصلنا إليه من قلب للأوضاع ، كما نسجل أن هذه المناورة الأخيرة مناورة إظهار الأمة راضية بالإجماع على المفاوضة إن هى إلا مناورة إنجليزية ، بل هى حلقة من سلسلة تنفيذ مؤامرتهم لهدم الإمبراطورية المصرية وامتلاك مصر والسودان ! .

وكنا نود أن نكبر رجالنا عن أن تتكرر المأساة على أيديهم مع قوم حنثوا فى الأيمان ، ونكثوا بالعهود ولم يراعوا فى الحق إلاً ولا ذمة ! .

وكنا نود الإجماع ونرحب به ، بل نفديه بمهجنا لوكان إجماعا على المبدأ يجب ألا يدين مصرى بمبدأ سواه ، مبدأ الجلاء .

وآخر ما نرجوه من أنصار المفاوضة غداة فشلها وستفشل (إن طوعاً أو كرهاً) أن يتوبوا توبة نصوحاً وأن يؤمنوا معنا بأن القضية المصرية قضية دولية ليس لإنجلترا أن تنفرد بها ، وليس للمصريين أن يمكنوهم من ذلك ، وبأن مطلب الأمة استقلال وادى النيل استقلالاً تامًّا وآية ذلك جلاء الجنود البريطانية عن أرض الوطن ، وبأن الاستقلال لا يتجزأ ولا يكون أبداً محل مساومة ، فهو لذلك لا يمنح منحاً بل يؤخذ قسراً .

فلم نسمع فى التاريخ أن الأمم المغلوبة على أمرها استقلت بالمسالمة وحسن الظن والاستجداء والمفاوضة ! وإنما علمنا التاريخ أن دون الاستقلال أرواح المجاهدين ! .

فالغاصب لا يعطى طائعاً مختاراً ولا يذعن إلا مرغماً ، وبأن السبيل إلى ذلك كله العقيدة السليمة والإيمان الثابت بالحق ، والفعل على تكوين الأمة تكويناً صحيحاً فى جميع نواحى الحياة ومظاهرها .

هذا وإن عز الأنصار اليوم فسيعتز الحق بأنصاره بالغد وإن زعم قوم اليوم أنها صيحة فى واد فسيعلمون غداً أنها صيحة الحق وستقلع الأوتاد !

الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل
ص .ب .١٦٤٤
القاهرة

٢٩ من فبراير سنة ١٩٣٦

(١) سورة آل عمران / ١١٨ .

فهرس

صفحة

رقم الإيداع	١٩٧٨/٥٢٧٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٥٢٧ - ٨

٦٠/٧٨/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هذا الكتاب

كتاب يلقى الضوء على سيرة واحد من تلك القيادات السياسية فى تاريخ مصر المعاصر . . ومن رواد العمل الفدائى السرى فى مطلع الأربعينيات .

وقد حرص هذا الرائد فى تلك المذكرات على التحليل الموضوعى . . والنظرة الشمولية والرؤية الصادقة لفترة من أخصب فترات نضالنا الوطنى . . وصفحة مشرقة من صفحات تاريخ الأمة المصرية . . فكانت بذلك درساً من دروس الوطنية لأجيال قادمة . .

